مسرحيات

وليم شكسبير

الكاملة

الملاهي

تعريب
أ. ر. مشاطي ج. يونس
خليل مطران

إشراف وتقديم
نظير عبود

توزيع
دار الجيل

مَسرحيات

وليَم شكسْبير

الكاملة

الملَاهي

(٢)

تعريب

أ. ر. مشاطي ج. يُونس
خليل مطرَان

إشراف وتقديم

نظير عبود

دار نظير عبود

ص.ب : ١١/٨٠٨٦ تلفون : ٩٣٦٧٧٢ - ٩٣٤٧١٤

يحتوي هذا المجلد على

جعجعة دون طحن	٥
عذاب الحب الضائع	٨٥
تاجر البندقية	١٨١
حلم ليلة صيف	٢٦٢
كما تشاء	٣٣١

جَعْجَعَة دُون طَحن

تعـريـب

ج. يـونس

أشخاص المسرحية

دون بيدرو : أمير أرغون

دون جوان : شقيق غير شرعي لدون بيدرو

كلوديو : وجيه شاب من فلورنسا مقرّب من دون بيدرو

ليوناتو : حاكم مسّين

انطونيو : شقيق ليوناتو

فرنسيس : كاتب عقود

بوراشيو } من أتباع دون جوان
كنراد

دكباري } رجلا أمن أحمقان
فيرجي

هيرو : ابنة ليوناتو

بياتريس : ابنة أخ ليوناتو

مرغريت } من تابعات هيرو
أرسول

رسل، حرّاس ليليّين، خدم

تجري الأحداث في مدينة مسّين

الفصل الأول

المشهد الأول

مدينة مسيِّن ــ في قصر ليوناتو

(يدخل ليوناتو وهيرو وبياتريس، يتبعهم رسول ــ
يقف بعض الخدم في صدر المسرح)

ليوناتو : (ممسكاً بيده ورقة) لقد علمت من هذه الرسالة بأن دون بيدرو سيصل هذا المساء الى مسِّين.

الرسول : هو الآن قريب من هنا، ولقد كان على بعد ثلاثة فراسخ عندما تركته.

ليوناتو : كم نبيل فقدت في هذه الحادثة ؟

الرسول : فقدت القليل من اصحاب الكفاءة، ولم أفقد أحداً من اصحاب الشهرة.

ليوناتو : النصر يصبح مزدوجا عندما يعود المنتصر مع جميع رجاله. أرى أن دون بيدرو قد أولى كلوديو، وهو شاب من فلورنسا، مقاماً رفيعاً.

الرسول : انها مكافأة استحقها كلوديو ومنحه إيّاها دون بيدرو على اثر انتصارات تفوق الوصف. وهذا لا يصدق بالنسبة الى عمره.

ليوناتو : يوجد في مسِّين عم لا شك في انه سيسرّ به.

الرسول : لقد حملت اليه رسائل بهذا الخصوص، فسرّ بها سروراً عظيماً.
ليوناتو : هل أجهش في البكاء ؟
الرسول : لقد انهمر الدمع من عينيه مدرارا.
ليوناتو : هي دموع الحنان. إن وجوها تغمرها مثل تلك الدموع هي وحدها الوجوه الاصيلة. ما افضل ان يبكي الانسان من الفرح، من ان يفرح للبكاء !
بياتريس (مخاطبة الرسول) : ارجوك أن تقول لي، هل عاد السيد مونتانتيو من الحرب أم لا ؟
الرسول : لا أعرف رجلا بهذا الاسم يا سيدتي. لا يوجد شخص كفء بهذا الاسم في الجيش.
ليوناتو : عمن تستعلمين، يا ابنة اخي ؟
هيرو : هي تعني السيد بنديكت دي بادوا.
الرسول : لقد عاد وهو في حالة حسنة.
بياتريس : ولقد صفّى حسابه في مسِّين وتحدّى كوبيدون، فناصره مجنون بيت عمي. ارجوك أن تقول لي كم من عصفور قتل وأكل في هذه الحرب ؟ فلقد عاهدته على أن آكل كل ما يصطاده.
ليوناتو : انتِ تتحاملين كثيراً على السيد بنديكت، ولا شك في أنه سيردّ عليك.
الرسول : لا تنسَ انه أدّى خدمات جلّى في هذه المعركة.
بياتريس : كان لديكم طعام فاسد، وساعدكم في أكله. علاوة على ذلك، هو فارس مغوار، وصاحب معدة ممتازة.
الرسول : ومقاتل مقدام أيضاً.
بياتريس : مقاتل مقدام امام سيدة حسناء. هل هو كذلك أمام فارس مغوار ؟
الرسول : أجل، لانه يتمتع بجميع الخصال الحميدة.
بياتريس : تريد ان تقول ان جميع هذه الخصال تافهة. في الحقيقة نحن جميعا مجرد اناس بسطاء.
ليوناتو (مخاطبا الرسول) : لا تسيء الظن بها. هناك ما يشبه الحرب بينها وبين السيد بنديكت، فلا يلتقيان حتى تحصل بينهما مشادة.

بياتريس : لم يربح شيئاً في حربه معي، بل فقد في صراعنا الاخير اربعة من أرواحه الخمسة ولم يبقَ له سوى روح واحدة يشده الى الحياة ويميزه عن الكائنات غير العاقلة. من هو رفيقه في الوقت الحاضر ؟ اذ له رفيق سلاح جديد كل شهر.

الرسول : هل هذا معقول ؟

بياتريس : هذا معقول جدا، وان كان متقلب الرأي.

الرسول : انا متأكد بأن اسم هذا النبيل لم يرد البتة في رسائلك.

بياتريس : لو ورد ذكر اسمه فيها لأحرقت مكتبي. لكن قلّ لي هل وجد له رفيقا يصحبه الى الجحيم ؟

الرسول : غالباً ما يكون في صحبة النبيل كلوديو.

بياتريس : يا إلهي، سيلازمه كالمرض. فهو في عدواه أسرع من الطاعون. حفظ الله النبيل كلوديو.

الرسول : سأحاول أن أكون في عداد اصدقائك، يا سيدتي.

بياتريس : حاول ذلك أيها الصديق العزيز.

ليوناتو : لن تفقدي صوابك، يا إبنة أخي.

بياتريس : ليس قبل برد كانون الثاني.

الرسول : ها قد وصل دون بيدرو.

(يدخل دون بيدرو وكلوديو وبنديكت وبلطزار ودون جوان)

دون بيدرو : أيها العزيز ليوناتو، يتجنب المرء عادةً التكاليف والمتاعب. أما أنت فتبحث عنها.

ليوناتو : لم تدخل المتاعب قط بيتي عند دخولك اليه، بل الانشراح هو الذي يرافق عادة قدومك إليَّ. وعندما تترك بيتي يا صاحب السموّ يعتريه الحزن وتفرّ منه السعادة.

دون بيدرو : أراك ترهق نفسك كثيراً باهتمامك بي (مشيراً إلى هيرو) أعتقد بأنها ابنتك.

ليوناتو : لقد قالت لي ذلك امها مرارا.

بنديكت : هل تشك بذلك يا سيدي، حتى تستفسر منها عن الأمر ؟
ليوناتو : كلا.
دون بيدرو : (مشيرا إلى هيرو) : كوني سعيدة يا سيدتي، فأنت مرآة صادقة تعكسين أخلاق أبيك الجليل. حقا، الفتاة صورة أبيها.
بنديكت : أقسم بأن السيد ليوناتو هو أبوها، ولكن هذا لا يعني أنها تشبهه تماماً.
بياتريس : عجباً منك. كيف تثرثر باستمرار، ولا أحد يستمع اليك (في هذه الأثناء يكلّم دون بيدرو ليوناتو على انفراد).
بنديكت : جميع النساء تحبني ما عداكِ. وكم تمنيت أن يكون قلبي أكثر رقّة، لأني في الحقيقة لا أحب واحدة منهن.
بياتريس : هذه سعادة لا تقدَّر بثمن في نظر النساء، لأنهن يتضايقن كثيراً من العاشق الذي لا ينفكّ يقسم لهنّ بأنه يعبدهن. أشكر الله على إني صاحبة مزاج هادىء شبيه بمزاجك.
بنديكت : أدام الله لك هذا المزاج. فهكذا ينجو وجه هذا النبيل أو ذاك من تخديش مشؤوم يتعرض له على يدك.
بياتريس : إذا كان الوجه مثل وجهك، فلن يجعله التخديش اسوأ حالا مما هو عليه.
بنديكت : في الحقيقة أنت ببغاء منقطع النظير.
بياتريس : إن عصفوراً يتكلم مثلي لهو أفضل من حيوان يتكلّم مثلك.
بنديكت : كم أتمنى أن يتمتع حصاني بسرعة لسانك وطول نفسك ! أرجوكِ أن تكملي شوطك. أما أنا فأقف في مكاني.
بياتريس : ألاحظ دائماً أنك تكتفي بمظهر الحصان العليل.
دون بيدرو (مفاجئاً بنديكت وبياتريس وكلوديو) : يا أحبائي، دعانا عزيزنا ليوناتو جميعا إلى بيته. فقلت له أننا سنقيم هنا شهراً على الأقل. وكان جوابه أنه يتمنى لو تطول إقامتنا أكثر من ذلك. ولذلِك أقسم بأن هذه الأمنية صادرة عن قلبه، ولا يخالطها الرياء.
ليوناتو : قسَمك هذا يا سيدي، لن يكون باطلا (مخاطباً دون جوان) :

دعني أحيِّيك يا سيدي، وأرحب بك، الآن وقد صالحت شقيقك الأمير. أقدم لك كل إحترامي وإكباري.

دون جوان : لست بخطيب مفوَّه، ومع ذلك أشكرك.

ليوناتو (مخاطباً دون بيدرو) : هل تتنازل يا سيدي وتتقدمنا في طريقنا إلى المنزل ؟

دون بيدرو : هاتِ يدك يا ليوناتو، لنمشي جنبا إلى جنب. (يخرج الجميع باستثناء بنديكت وكلوديو).

كلوديو : يا بنديكت، هل تأملت إبنة السيد ليوناتو ؟

بنديكت : كلا، بل اكتفيت بالنظر إليها.

كلوديو : أليست فتاة متواضعة ؟

بنديكت : هل تريد أن أصارحك برأيي البسيط الصادر عن رجل شريف، أو أن أكلمك كما هي عادتي، كعدو الجنس الآخر ؟

كلوديو : أرجوك أن تقول لي رأيك بصورة جدية.

بنديكت : إنها تبدو لي نحيلة وسمراء وقصيرة، وكل هذه النعوت لا تسمح لك بأن تبالغ في الثناء عليها. جلّ ما أستطيع قوله بصددها، هو أنها وإن تبدل مظهرها، فلن تكون جميلة. وكما هي عليه الآن لا تعجبني.

كلوديو : أنا لا أقصد المزاح، لذلك أرجوك أن تبدي لي رأيك بصراحة.

بنديكت : أترغب في شرائها حتى تستعلم عنها هكذا ؟

كلوديو : هل يستطيع الكون كله أن يكون ثمناً كافيا لمثل هذه الجوهرة ؟

بنديكت : أتتكلم بجد ؟ أم أنك تسخر مني بقولك أن كوبيدون يجيد قتل الأرانب وأن «فولكان» نجار ماهر ؟ دعني أدرك على أي محمل يجب أن أحمل كلامك كي يأتي ردّي مناسبا.

كلوديو : هي في نظري أجمل إمرأة عرفتها.

بنديكت : بعد رؤية الأشياء بدون نظارة، أصارحك بأني لا أجدها جميلة. إن ابنة عمها، لو لم تكن سريعة الغضب والهياج، لفاقتها من حيث الجمال. مع ذلك آمل بأن لا تكون قد نويت الإقتران بها.

كلوديو : لن أتأخر في الزواج منها إذا رضيت بأن تكون شريكة حياتي.

بنديكت : ماذا تقول ؟ هل وصل بك الأمر إلى هذا الحدّ ؟ هل حُكم عليَّ بأن لا أرى رجلا عازباً ولو في الستين من عمره ؟ هيّا، فليكن ما تشاء ما دمت تريد أن تضع النير على رقبتك. احمله إذاً وارزح تحت وطأته. ها قد عاد دون بيدرو ليبحث عنك.

(يدخل دون بيدرو)

دون بيدرو : ما هو السرّ الذي أبقاكما هنا، فلم تلحقا بنا إلى منزل ليوناتو ؟

بنديكت : ألتمس من سموّك أن تفرض عليَّ البوح به.

دون بيدرو : إني آمرك بذلك، بحكم تبعتك لي.

بنديكت : هل تسمع يا كونت كلوديو ؟ كان بإمكاني أن ألزم الصمت كالأخرس. لكن تبعيتي للأمير تجبرني على الكلام. (مخاطباً دون بيدرو) : إنه عاشق مغرم بإبنة ليوناتو.

كلوديو (مخاطباً دون بيدرو) : لو كان الأمر كذلك، لأعلنته فوراً.

بنديكت : أنا لا أقول إلّا الحقّ، يا سيدي.

كلوديو : ليس الأمر كذلك، يا سيدي.

دون بيدرو : إذا كنت تحبها فحسناً تفعل، لأنها إمرأة جديرة بكل تقدير.

كلوديو : تقول هذا لتتبيّن نيّتي يا سيدي.

دون بيدرو : أُقسم بشرفي بأن ما أقوله لك هو عين الصواب.

كلوديو : وأُقسم أنا أيضاً بأن ما أقوله لك هو الحقّ.

بنديكت : وأُقسم أنا أيضاً بأن ما أقوله لك هو الحقّ كلّ الحقّ.

كلوديو : إني أحبها، وهذا ما أشعر به بكل صدق.

دون بيدرو : أنا على يقين بأنها تستحق ذلك.

بنديكت : لست أدري كيف يمكنها أن تُحَبّ، وإن كانت لا تستحقّ ذلك. هذا ما أعلنه، وأنا متمسك برأيي هذا ولو أدّى بي الأمر إلى إعدامي حرقاً بالنار.

دون بيدرو : لقد كنت طوال حياتك عدوا لدوداً للجمال.

كلوديو : وهو اليوم لا يستطيع القيام بدوره هذا إلّا إذا استمرّ في عناده.

بنديكت : كون المرأة هي التي حبلت بي وولدتني، وتعهدت تربيتي، فهذه

أمور أشكرها عليها بكل تواضع وعرفان جميل. غير إني لا أريد أن أثق بإحدى النساء، فأفقد ثقتي بهن جميعاً. وهذا أمر يجب أن تعذرني عليه جميع النساء، لأني أرغب في البقاء طوال حياتي عازباً.

دون بيدرو : قبل أن أموت، لن يفوتني أن أرى وجهك شاحباً من شدة الحب.

بنديكت : قد يصبح وجهي شاحباً من الغضب أو المرض أو الجوع، لكنه لن يصير كذلك من جراء الحب. لن أقع في الهوى ولو إقتضى الأمر بأن تفقأ عيناي بريشة أحد مؤلفي الأغنيات الراقصة، ولو برهنت لي بأن الدم الذي يفقدني إياه العشق هو اكثر من الدم الذي يعوّضه عليّ شرب الخمر.

دون بيدرو : فليكن. ولكنك إذا تراجعت في يوم من الأيام عن تعهدك هذا فإنك ستكون عبرة لمن يعتبر.

بنديكت : إذا تراجعت عنه فليُحجَر عليَّ، أو فلأكن هدفا للرماة، وليكافأ الرامي الذي سيصيب هذا الهدف.

دون بيدرو : حسناً. من يعش يَرَ. لأن الثور المسكين يحمل في النهاية النير على رقبته.

بنديكت : هذا ممكن بالنسبة للثور المسكين. ولكن إذا حدث وحمله الحكيم بنديكت في يوم من الأيام، فليقتلع قرنا ذلك الثور ليغرزا في رأسي، ولترسم لي صورة مخيفة، وليكتب في أسفلها : هذا هو بنديكت الرجل المتزوج، تماماً كما تكتب العبارة التالية بأحرف ضخمة : هذا جواد أصيل للايجار.

كلوديو : إذا تمّ هذا الأمر، فإنك ستصبح حيواناً ذا قرنين.

دون بيدرو : إذا كان كوبيدون لم يفرغ كنانته، فتهيأ للرعدة التي ستتملكك.

بنديكت : هذا يعني أن هزّة أرضية ستحدث في ذلك اليوم.

دون بيدرو : أراك تكيِّف نفسك مع جميع الظروف. وبانتظار ذلك، اسرع إلى السيد ليوناتو وقدم له شكري، وقل له إني لن أتخلف عن العشاء نظراً إلى الاستعدادات العظيمة التي قام بها.

بنديكت : أنا مستعد للقيام بهذه المهمة، فالوداع.

كلوديو (مقلدا بنديكت) : رافقتك السلامة.

دون بيدرو : صديقك بنديكت هذا، مثال التفاني.
بنديكت : هيا، لا تهزأ بي. وقبل أن تسخر من الآخرين ابدأ بفحص ضميرك. الوداع (يخرج بنديكت).
كلوديو (مخاطباً دون بيدور) : مولاي، إن لي عندك حاجة.
دون بيدرو : أنت مالك قلبي، وما عليك إلّا أن تهمس بما تشاء، حتى أبادر إلى القيام بكل ما يؤول إلى إسعادك.
كلوديو : هل للسيد ليوناتو من أولاد ؟
دون بيدرو : ليس له سوى هيرو، وريثته الوحيدة. هل أنت مغرم يا كلوديو ؟
كلوديو : سيدي عندما استدعتنا الحرب التي أشرفت على نهايتها نظرت إلى هيرو بعين جندي ملؤها الحنان، ولكن المهمة الصعبة التي كانت ملقاة على عاتقي، لم تفسح لي في المجال لأن أبلغ بهذا الحنان مثل هذه الدرجة من الحب. الآن وقد عدت من الحرب، فإنتهت جميع الأفكار والعواطف الحماسيّة التي أوحت إليّ بها، تاركة بذلك فراغاً في نفسي، وأخذت الأحاسيس الرقيقة تعاودني لتحلّ محلّها، وكلها تذكرني بجمال هيرو وبالحنان الذي كنت أبديه نحوها قبل انشغالي بالحرب.
دون بيدرو : أنت عاشق موفق لأنك ترهق محدثك بالكلام. إذا كنت تحب الفاتنة هيرو فسأبحث الأمر معها ومع والدها، وستحصل عليها. أوَليس من أجل هذا قد أسهبت في سرد القصة وترديدها على مسمعي ؟
كلوديو : كم هو عذب ما وصفته من دواء، عرفت داءه من أول نظرة. ولقد أفضتُ معك في الحديث خوفاً من أن يبدو لك حبي مفاجئاً.
دون بيدرو : ما الحاجة إلى جسر أوسع من النهر المقام فوقه ؟ إن ما هو ضروري يظل الأنسب دائماً. إسمع، إن كل ما يؤول إلى بلوغ الهدف المرتجى هو حسن. وخلاصة القول، أنت تحب. حسناً، فسأعد لك الدواء الشافي. إننا مقبلون على حفلة هذا المساء. سأتنكر بزيك وأمثل دورك وَأقول للفاتنة هيرو إني كلوديو. وسأجعلها أسيرة الرواية المشوّقة التي سأقصها عليها. وبعد ذلك سأتفاهم مع والدها. في النتيجة ستكون هيرو لك. فلنبدأ بالعمل فورا. (يخرجان).

المشهد الثاني

قاعة في قصر ليوناتو

(يدخل ليوناتو وانطونيو)

ليوناتو : حسناً. أين ولدك، يا شقيقي ؟ هل تعلّم الموسيقى ؟
انطونيو : إنه يهتمّ بها بهمّة ونشاط. جئتك بأخبار لم تكن لتحلم بسماعها.
ليوناتو : هل هي سارّة ؟
انطونيو : الغاية الآن، تبدو هكذا. بينما كان الأمير يتنزه مع الكونت كلوديو في أحد الممرات الكثيفة داخل حديقتي، سمعهما رجالي يتكلّمان عن إبنتك. فقد أعلن الأمير كلوديو أنه يحبها ويستعدّ لمفاتحتها بالأمر هذا المساء، خلال الحفلة الراقصة المقامة في بيتك. وأضاف إنها إذا وافقت، فإنه سيغتنم الفرصة ويفاتحك في الموضوع.
ليوناتو : هل الفتى الذي نقل إليك ذلك هو على قدر كاف من الذكاء ؟
انطونيو : إنه فتى خارق الفطنة. سأرسل في طلبه لتطرح أنت عليه الأسئلة.
ليوناتو : لا، لا. لنتجاهل الأمر إلى أن يتمّ. ولكني أريد أن أطلع إبنتي على الحقيقة لتحسن التصرّف، إذا صدف وتمّ ما أنبأتني به. هيّا كلمها أنت بالأمر.
(يمر بعض الأشخاص على خشبة المسرح فيكلمهم ليوناتو على التوالي)

أيها الأقرباء، إنكم تعلمون ما يجب عليكم فعله. عذرا، أيها الصديق، تعال معي فأستفيد من مواهبك. يا أقاربي الأعزاء، أرجوكم أن لا تدّخروا وسعا في هذه الساعة الحرجة. (يخرج الجميع).

المشهد الثالث

في قاعة أخرى من منزل ليوناتو

(يدخل دون جوان وكنراد)

كنراد : هل أنت متضايق يا سيدي ؟ ما هذه الكآبة القاسية التي تسيطر عليك ؟

دون جوان : إن قساوتها مستمدّة من حرج أسبابها.

كنراد : عليك أن تحكّم عقلك.

دون جوان : وإذا حكّمته، فأي نفع سيعود به عليّ ؟

كنراد : إذا لم يصف لك دواء ناجعاً، فأقل ما يفعله هو أن يحملك على الصبر والقبول بالأمر الواقع.

دون جوان : عجبا لك، أنت من مواليد برج زحل، كما تدّعي، فكيف تصف دواء خياليا لداء مستعصي الشفاء. لا أرغب في اخفاء ما أنا عليه. يحقّ لي عندما أكون حزيناً أن لا أبتسم لفكاهة يطلقها أي كان. وعندما أكون جائعاً أن أتناول الطعام بدون إستئذان. وعندما يتملكني النعاس أن أنام ولا أكترث لأحد. وعندما أكون سعيداً أن أضحك ولا أجامل إنساناً.

كنراد : حسناً. لكنك تستطيع الجهر بمشاعرك قبل أن يمسي زمام موقفك بيدك. لقد تمردت مؤخراً على شقيقك، واستعدت حديثا عطفه، بينما أنت لا تستطيع إستبقاء حظوته هذه، إلّا إذا أحسنت التصرف.

دون جوان : إني أفضل أن أكون دودة تزحف فوق عوسجة، على أن أكون وردة متفتحة في كنفه، وأفضل مالا، والجميع يحتقرونني، وقد فقد سلوكي في الحياة كل بريق وجاذبية. إني أربأ بنفسي أن أكون من النبلاء المتملقين، وأفضل حريتي على كل امر سواها. دعني إذاً أكن ما أنا عليه ولا تحاول جعلي إنساناً آخر.

كنراد : أليس بامكانك، وأنت هكذا، أن تتخذ من استيائك مهنة لك ؟
دون جوان : لقد اتخذته مهنة لي، إذ لا عمل لي سوى ذلك. من القادم ؟ ما الخبر، يا بوراشيو ؟
بوراشيو (يدخل) : إني قادم من عشاء فخم أقيم هناك. وقد استقبل ليوناتو شقيقك الأمير استقبال الملوك. وبإمكاني أن أؤكد لك أن هناك مشروع زواج.
دون جوان : ومن هو المجنون الذي يساعدك على ذلك ؟
بوراشيو : ساعد شقيقك الأيمن.
دون جوان : الكونت كلوديو ؟
بوراشيو : هو بذاته.
دون جوان : إنه فارس مغوار. ومن هي التي ملكت قلبه ؟
بوراشيو : إبنة ليوناتو ووريثته الوحيدة.
دون جوان : وكيف عرفت ذلك ؟
بوراشيو : كنت منهمكا في إحراق بعض البخور في قاعة هواؤها فاسد، وإذا بالأمير وكلوديو يصلان وهما غارقان في الحديث. عندئذ اختبأت خلف سجادة كانت هناك، وسمعتهما يتفقان على أن يطلب الأمير يد هيرو، كما لو كان يفعل ذلك من أجله. وعندما يحصل عليها يهبها للكونت كلوديو.
دون جوان : هيا، هيا لنذهب إلى هناك. إن هذا يثير حقدي. أنا أثق بكما، فهل تعداني بالمساعدة ؟
كنراد : بكل قواي يا سيدي.
دون جوان : لنذهب إلى هناك، إلى العشاء الفاخر. كم يزداد فرحهم بإذلالي ! لو كان الطباخ يفكر مثلي ! لنرَ ماذا تفعل.
بوراشيو : إننا نتبعك. (يخرج الجميع).

الفصل الثاني

المشهد الأول

قاعة متاخمة لقاعة الحفلة الراقصة في منزل ليوناتو

(يدخل ليوناتو وأنطونيو وهيرو وبياتريس وآخرون،
ليوناتو وانطونيو متنكران بزي حفلة راقصة)

ليوناتو : ألم يحضر الكونت دون جوان إلى هنا لتناول العشاء ؟

انطونيو : لم أشاهده.

بياتريس : ما أشد عبوس وجه هذا الرجل ! إنني لا أكاد أراه حتى ينقبض صدري.

هيرو : هو صاحب مزاج كئيب.

بياتريس : إنه نقيض بنديكت. فحين لا ينبس هذا الأمير ببنت شفة، ترى بنديكت لا ينقطع عن الثرثرة. الرجل الكامل هو المتوسط بين الإثنين.

ليوناتو : أقسم لك يا إبنة أخي بأنك لن تجدي زوجاً لك ما دمت سليطة اللسان هكذا.

انطونيو : وعلى هذا الأساس تكون فتاة شقية.

بياتريس : الأفضل للمرء أن يكون شقيا من أن يكون ملعوناً. وهكذا أهتدي

إلى وسيلة تخفف الشرّ عني حسب المثل القائل : الله يزوّد البقرة الملعونة بقرن صغير، بينما يحرم البقرة الشقية من أي قرن.
ليوناتو : وعلى هذا الأساس بما أنك شقية فالله لن يزوّدك بأي قرن.
بياتريس : لن يكون الأمر هكذا ؟ إذا لم يتيسر لي زوج. وهذه هي النعمة التي من أجلها أتضرع إليه صبحاً ومساء. ربي، أنا لا أستطيع تحمل رجل ذي لحية، لأني أفضل أن أنام فوق الصوف لا أن أنام معه.
ليوناتو : بإمكانك أن تجدي رجلا أمرد.
بياتريس : وما حيلتي به ؟ هل سألبسه ثوبي وأجعل منه خادمة لي ؟ إن ذا اللحية هو أكثر من فتى، والرجل الأمرد هو أقل من رجل عادي. في الواقع أرى أن الأول لم يخلق لأجلي، وإني لم أخلق لأجل الثاني.

أنا على أتم الاستعداد لشراء جميع ذوي اللحى، واقتيادهم إلى الجحيم.
ليوناتو : حسناً، ستذهبين إذاً إلى الجحيم.
بياتريس : كلا، سأقف عند الباب، وهناك يأتي إبليس وعلى رأسه قرنان ليقول لي : إصعدي إلى السماء يا بياتريس، اصعدي الى السماء. ليس لك من مكان هنا أيتها العذراء. وعلى هذا الأساس استودعه اضحاب اللحى وأمضي إلى السماء. وهناك سيرشدني حارس الجنة إلى مكان العذارى حيث أحيا سعيدة إلى الأبد.
انطونيو (مخاطبا هيرو) : حسناً، يا ابنة أخي. آمل أن تكوني أنتِ على الأقل خاضعة لأوامر أبيك.
بياتريس : هذا واجب بالنسبة إليها. فتحيّي والدها بقولها له : كما تشاء يا والدي الحبيب.
ليوناتو (مخاطباً بياتريس) : هيّا، املي كبير بأن أراك ذات يوم متزوجة.
بياتريس : ليس قبل أن يخلق الله رجالاً من طينة غير طينتنا. أليس مؤلماً بالنسبة إلى المرأة أن تسحقها كتلة من التراب ؟ وأن تؤدي حساباً عن حياتها لزوجها ؟ لا، لا أوافق على ذلك. إن جميع أبناء آدم إخوتي، وأنا أعتبر خطيئة لا تُغتفر أن أتخذ لي زوجا من عائلتي.

ليوناتو (مخاطباً هيرو) : تذكري ما قلته لك : إذا عرض الأمير عليك الزواج، فأحسني الجواب.

بياتريس : استسلمي إلى الموسيقى، إذا فقد المغرم بك اتزانه. وبمقدار ما يسرع الأمير في كلامه، قولي له أن هناك متسعاً من الوقت لكل حادث، وأحكمي جوابك. إن الاعلان عن الرغبة في الزواج، ثم الإقدام على الزواج والندم عليه، أمور سرعان ما تتلاحق وينتهي كل شيء بخيبة الأمل.

ليوناتو : لماذا تبصرين الأشياء سوداء هكذا ؟

بياتريس : لأني أحسن الرؤية، وأستطيع أن أرى المعبد في وضح النهار.

ليوناتو : ها هو الحفل السعيد قادم يا شقيقي. فهيا نفسح لهم في المجال.

(ينزع ليوناتو وانطونيو عنهما زيّ التنكر ويبتعدان. يدخل دون بيدرو ودون جوان وكلوديو وبنديكت وبلطزار وبوراشيو ومرغريت وارسول وأشخاص آخرون وهم متنكرون)

دون بيدرو (مخاطبا هيرو) : سيدتي، هل ترغبين في التنزه بصحبة عاشق محب ؟

هيرو : أوافق على ذلك، خاصة إذا كنا نتنزه في الخارج، شريطة أن نمشي بهدوء ونتطلع بلطف ولا ننبس ببنت شفة.

دون بيدرو : وهل توافقين على أن أكون أنا برفقتك ؟

هيرو : سأعلمك بالأمر عندما أشاء.

دون بيدرو : ومتى يكون ذلك ؟

هيرو : عندما أعجب بخصالك.

دون بيدرو : تكلمي بصوت منخفض، إذا كنت تتحدثين عن الحب (يبتعدان).

(بلطزار ومارغريت يتمايلان فوق المسرح وهما يتحدثان)

بلطزار : كم تمنيت أن تحبيني !

مرغريت : أنا لا أتمنى لك ذلك، لأني كثيرة العيوب.

بلطزار : أُذكري لي احدها.

مرغريت : إني أصلّي بصوت عال.

بلطزار : هذا يزيدني تعلّقاً بكِ. إن المؤمنين بك لا يسعهم إلّا أن يرددوا من بعدك : آمين.

مرغريت : أطلب من الله أن يهبني شخصاً يحسن الرقص.

بلطزار : آمين.

مرغريت : وأن يبعده الله عني عندما ينتهي الرقص. هيا، أجب يا صديقي.

(يمرّ أنطونيو وارسول وهما يتحدثان)

أرسول : إني أعرفك جيدا، أنت السيد انطونيو.

انطونيو : بكلمة واحدة، لا.

أرسول : إني أعرفك من اهتزاز رأسك.

انطونيو : في الحقيقة، أنا أتصنع ذلك.

أرسول : إنك تحسن تقليده ببراعة، حتى أنك يستحيل عليك أن تكون غير الشخص الذي تدّعي تقليده. هذه اليد الجافة هي يده بالضبط. أنت هو، أنت هو.

انطونيو : بكلمة واحدة، لا.

أرسول : هيا، هيا. هل تعتقد بأني لا أعرفك من فطنتك وتفوّقك ؟ وهل تخفى الكفاءة على الانسان اليقظ ؟ لا تنكر، أنت انطونيو، فالفضائل تظهر دوما للعيان، وهذا يكفي. (يبتعدان)

(يدخل بنديكت وبياتريس اللذان يستمران في الحديث منذ بدء المشهد)

بياتريس : لا تريد إذاً أن تقول لي من أنبأك بذلك؟

بنديكت : كلا، أعذريني.

بياتريس : ولا أن تقول لي من أنت ؟

بنديكت : ليس الآن.

بياتريس : إن السيد بنديكت قال هذا.

بنديكت : ومن هو بنديكت ؟

بياتريس : أنا على يقين بأنك تعرفه جيدا.

بنديكت : لم أعرفه قط، صدقيني.

بياتريس : ألم يضحكك ذات يوم ؟

بنديكت : هيا، قولي لي من هو.

بياتريس : حسنا. هو مهرّج الأمير. إنه مجنون متعب. والمزية الوحيدة التي ينفرد بها هي أنه يذيع الافتراء، والمتهتكون وحدهم يعجبون به. أما سرّ نجاحه فلا يكمن في ذكائه، إنما في خبثه ومكره. فهو إذ يرفّه عن الناس يحملهم على الغضب في نفس الوقت. أما هم فيضحكون منه في البداية ثم يضربونه في النهاية. أنا واثقة بأنه يخدع الآن أحداً بالقرب منا. وكم كنت أودّ أن يحضر إليّ.

بنديكت : عندما ألتقي بهذا النبيل سأكرر على مسمعه ما أخبرتني به الآن.

بياتريس : إفعل ذلك. فيطلق مزاحاً أو مزاحين عني. فإذا اتفق أن لا يلحظهما أحدا أو أن لا يضحك لها، تملكته الكآبة. سنلتقيه هذه الليلة.

(تصدح الموسيقى في أرجاء القاعة المعدّة للحفلة الراقصة. يتقدم جميع المدعوين نحو الباب. ثم تصطحب بنديكت)

لنتبع رؤساءنا.

بنديكت : في كل أمر حسن.

بياتريس : بكل تأكيد. ولكن إذا استدرجونا إلى الشرّ، اتركهم عند أول منعطف.

(يعزف لحن راقص. يخرج الجميع، ما عدا دون جوان وكلوديو وبوراشيو)

دون جوان : لا أنكر أن شقيقي مغرم بهيرو. فقد انتحى بوالدها جانبا وأعلمه بالأمر.

(جميع السيدات يتبعن هيرو، ولا يبقى هنا سوى أحد المتنكرين)

بوراشيو : هذا كلوديو. وأنا أعرف هيئته.

دون جوان (يتقدم كلوديو) : ألست أنت السيد بنديكت ؟

بنديكت : أنا هو. أراك تعرفني جيدا.

دون جوان : سيدي، أنت الصديق المقرب إلى شقيقي الذي يحب هيرو. أرجوك أن تحاول إبعاده عنها، فهي غير متحدرة من أصل مساوٍ لأصله. بإمكانك أن تقوم مقام رجل نبيل.

كلوديو : كيف عرفت أنه يحبها ؟

دون جوان : لقد سمعته يؤكد لها أنه يهواها.
بوراشيو : وأنا أيضاً سمعته. وقد عاهدها على الاقتران بها هذه الليلة.
دون جوان : هيا بنا ننضم إلى المدعوين. (يخرج دون جوان وبوراشيو).
كلوديو (على حدة) : لقد أجبت بإسم بنديكت. وسمعت باذن كلوديو هذا الخبر المؤسف. لا شك في أن الأمير يتودد إليها لحسابه. إن الصداقة تظل ثابتة في كل شيء باستثناء المصالح والأمور المتعلقة بالحب. في الحب كل قلب يجب ان يعبر عن خلجاته بنفسه، وكل نظرة يجب أن تعبر عن معناها بذاتها، وأن لا تلجأ إلى أيّ وسيط، لأن الجمال أشبه ما يكون بساحرة تحوّل مفاتنها النيات الحسنة إلى شهوات. وداعا يا هيرو. (يعود بنديكت)
بنديكت : الكونت كلوديو ؟
كلوديو : أنا هو.
بنديكت : هيا، هل تريد الذهاب معي ؟
كلوديو : إلى أين ؟
بنديكت : إلى شجر الصفصاف القريب، بخصوص أمر يعنيك أيها الكونت. بأية طريقة تريد أن تحمل تاجك ؟ حول عنقك كغلّ أحد المرابين ؟ أو تتأبطه كسيف أحد الضباط ؟ يجب أن تحمل التاج بطريقة أو بأخرى، لأن الأمير استحوذ على قلب هيرو التي تحبها.
كلوديو : إني أتمنى له كل السعادة إلى جانبها.
بنديكت : هذا تماما كلام العمال الطيبين، يطلقونه عندما يبيعون احدى السلع. أتعتقد بأن الأمير قد خدمك بهذه الطريقة ؟
كلوديو (وقد فرغ صبره) : أرجوك أن تدعني وشأني.
بنديكت : إنك تخبط خبط عشواء، كأن فتى سرق لك غداءك، فرحت تضرب عمودا من الخشب.
كلوديو : إذا لم تخرج أنت، خرجت أنا. (يذهب).
بنديكت : يا له من عصفور جريح، يبحث الآن عن مكان يختبىء فيه. ولكن كيف عرفتني يا بياتريس، وأنا مقنَّع ؟ لقبي هو : مهرج الأمير، وأنا أستحقه. إني مسرور جدا. ولكني سريع الغضب مع إني لا أشتهر بذلك. من عادة

بياتريس أن ترى في كل شخص ذاك المهرّج، وهي وحدها تطلق عليَّ هذا اللقب. حسناً، سأنتقم منها.

(يعود دون بيدرو)

دون بيدرو (مخاطبا بنديكت) : اخبرني، أين الكونت ؟ هل رأيته ؟

بنديكت : سيدي، لقد وجدته حزينا كوجه خفير في الغابة. فقلت له يا صاحب السمو، لقد استحوذت على قلب الفتاة التي احبها، واقترحت عليه أن أصطحبه إلى شجر الصفصاف لأعدّ له تاجا، كأنه فقير مرذول، أو لأضع له رزمة من القضبان تهيأ لشخص يستحق الجَلد.

دون بيدرو : الجَلد ؟ وما هو الذنب الذي اقترفه ؟

بنديكت : إنه ارتكب ذنب تلميذ أحمق وجد عشا، وفي غمرة فرحه أرشد رفيقه إليه فسرق منه الفراخ.

دون بيدرو : لماذا تعتبر منح الثقة بمثابة ذنب ؟ الذنب ارتكبه السارق.

بنديكت : ومع ذلك، فقد كان عملا مفيدا اعداد التاج والقضبان، لأن التاج من نصيب كلوديو، بينما تبقى القضبان لك أنت، لأني كما أعتقد سرقت عشه.

دون بيدرو : كنت أنوي فقط تدريب العصفور على الغناء، لأعيده بعدئذ إلى صاحبه.

بنديكت : إذاً، نشيده لا يكذّب كلامك. أقسم بأنك حسناً فعلت.

دون بيدرو : إن بياتريس حاقدة عليك. النبيل الذي كان يراقصها قال لها أنك اسأت معاملتها.

بنديكت : بل هي التي اساءت معاملتي، وأفقدتني صبري. لقد اتهمتني بأني مهرج الأمير، وراحت تطلق عليّ سهام سخريتها بكل ما أوتيت من مهارة، فبقيت هادئا كرجل حكم عليه بأن يكون هدفا لرماة جيش بأكمله. أن كلامها أشبه بالسكاكين الحادة. ولو أن نفسَها كان بقساوة كلامها، لاستحال العشب بقربها، ولفسد الجو حولها. لن أرغب في الزواج منها، ولو كان مهرها يعادل كل ميراث آدم قبل ارتكابه خطيئته. هيا، لا تكلمني بعد الآن بشأنها. إنها شيطان بهيئة إنسان. عسى الله أن يرسل أحد الحكماء ليطردها. لأنها ما دامت

في هذا العالم، فسيخطىء الناس عن سابق قصد وتصميم للهبوط الى جحيمها. إنها تجر خلفها كل ما هو فوضى ورعب وخلاف.

دون بيدرو (وقد رأى بياتريس) : ها هي قادمة.

بنديكت : يا سمو الأمير، هل تتنازل وترسلني في مهمة ؟ وإذا اقتضى أمر تنفيذها أن أذهب إلى آخر الدنيا فسأفعل. إني أفضل القيام بأية مهمة مستحيلة على أن اسمع حديث هذه المرأة الشريرة. أليس لديك من عمل أقوم به ؟

دون بيدرو : لا أريد منك شيئاً سوى بقائك إلى جانبي.

بنديكت : يا إلهي. إني لا اقوى على تحمل هذه المرأة الشريرة. (يخرج)

((يدخل كلوديو وليوناردو ثم بياتريس وهيرو)

دون بيدرو (يخاطب بياتريس) : هيا، أيتها السيدة الجميلة. لقد فقدت قلب السيد بنديكت.

بياتريس : في الحقيقة، أعارني قلبه برهة من الزمان، وقد وهبته مقابله قلبا مزدوجا. لكنه سرعان ما استعاده مني. لذلك أنت على حقّ بقولك إني فقدت قلبه.

دون بيدرو : لقد أفحمته، أيتها السيدة، لقد أفحمته.

بياتريس : خشيت أن أصبح أماً لعائلة المجانين، فأتيتك بالكونت كلوديو الذي أرسلني للبحث عنه.

دون بيدرو (مخاطباً كلوديو) : حسناً. ما بك ؟ لماذا تبدو حزيناً ؟

كلوديو : لست بحزين، يا سيدي.

دون بيدرو : إذاً، أنت مريض.

كلوديو : كلا، يا سيدي.

بياتريس : الكونت ليس حزيناً ولا مريضاً، ليس مسروراً ولا معافى. إنه سيد متحضِّر ولون محيّاه يميل قليلاً إلى لون البرتقال.

دون بيدرو : في الحقيقة أنت مصيبةٌ في وصفك إيّاه. ولكن إذا كان الأمر كذلك، فإني أؤكد لك بأنه على خطأ. يا كلوديو، لقد قمت بدور العاشق باسمك، وقد استحوذت على قلب الحسناء هيرو، وشرحت الأمر لوالدها فوافق. حدّد يوم الزواج، ولتكن السعادة من نصيبك.

ليوناتو : أيها الكونت، خذ ابنتي ومعها كل ثروتي. (مشيراً إلى الأمير) سموّه هو الذي سعى إلى هذا الأمر.
بياتريس : تكلّم إذاً أيها الكونت. عليك أن تجيب.
كلوديو : السكوت هو أبلغ تعبير عن الفرح والرضى. فسعادتي لن تزيد إذا تمكنت من التعبير عنها. (مخاطبا هيرو) : أنا لك، كما انتِ لي.
بياتريس (مخاطبة هيرو) : تكلمي يا ابنة عمي. وإذا كنت عاجزة عن الكلام فاعطه قبلة، فيعجز هو أيضاً عن الكلام.
دون بيدرو (مخاطباً بياتريس) : في الحقيقة إن قلبك يفيض فرحاً.
بياتريس : قلبي تثقله الهموم على الدوام فشكراً لها على ذلك (مشيرة إلى هيرو التي تتحدث مع كلوديو) إن ابنة عمّي تهمس في أذنه بأنها تحمله في قلبها.
كلوديو (متوجها إلى بياتريس) : لقد أصبتِ في تقديرك.
بياتريس : ليحيا الزواج إذاً. هكذا جميع الناس يهتمون بتدبير منازلهم ما عداي أنا. أنا وحدي أجلس في الزاوية وأصرخ : أريد زوجا، أرجوكم أن تدبروا لي زوجا.
دون بيدرو : سيدتي، سيكون لك زوج من أمثالي.
بياتريس : أود زوجاً من أمثال أبيك. هل لك شقيق يشبهك ؟ إن أولاد أبيك سيكونون أزواجاً ناجحين لفتيات من مقامهم.
دون بيدرو : هل تقبلين بي زوجا لك ؟
بياتريس : أقبل بك، إذا كان لي زوج آخر لأيام العمل. سموّك زوج رائع لجميع الأيام. أرجوك أن تسامحني. لقد خلقت لأقول كلاما خاليا من كل تفكير.
دون بيدرو : أن سكوتك يزعجني. لأنك ولدت فعلا في ساعة سعيدة.
بياتريس : كانت امي تصرخ بكل قواها عندما وُلدتُ، وكنت أنت هناك كنجمة تسطع في السماء، وتحت هذه النجمة ولدتُ. أيها الأقرباء، أسعدكم الله.
ليوناتو : هل تريدين تحقيق ما أوصيتك به يا ابنة أخي ؟

بياتريس : سامحني يا عمي (مخاطبة دون بيدرو) سامحني، يا سيدي. (تخرج).

دون بيدرو : هي امرأة مرحة المزاج.

ليوناتو : لها كآبتها هي أيضا، يا سيدي. ولا تبدو جادة إلا عندما تنام، وحتى أثناء نومها لا تبقى دوما كذلك. لأني سمعت ابنتي تقول : إن المسكينة غالباً ما تستفيق من خلال حلم مزعج لتغوص في الضحك.

دون بيدرو : إنها لا تطيق الكلام عن زوج لها.

ليوناتو : أجل هي ترهق جميع المتوددين إليها.

دون بيدرو : ستكون زوجة رائعة بالنسبة إلى بنديكت.

ليوناتو : يا إلهي ! لن تمضي ثمانية أيام على زواجهما حتى يصابا كلاهما بالجنون.

دون بيدرو : كونت كلوديو، متى تريد أن تذهب إلى المعبد ؟

كلوديو : غداً، يا سيدي؛ إن الزمن يتثاقل في خطاه حتى تتم جميع مراسيم الحب.

ليوناتو : لا ليس قبل الاثنين القادم. إننا بحاجة إلى ثمانية أيام لإعداد كل شيء كما نرغب.

دون بيدرو : هيا، إن هذه المدة الطويلة ستسبب الصداع لكل منهما. ولكني أؤكد لك، يا كلوديو، إننا سنحسن إستعمال هذا الوقت. سأحاول، خلال هذه الفترة، القيام بعمل عظيم، هو حمل بنديكت وبياتريس على القبول بالزواج. إني أتمنى أن تهبُّوا إلى مساعدتي أنتم الثلاثة.

ليوناتو : أنا أضع نفسي تحت تصرفك ولو كلفني ذلك عناء كبير.

كلوديو : وأنا أيضاً، يا سيدي.

دون بيدرو : وأنتِ أيضاً أيتها اللطيفة هيرو ؟

هيرو : إني أقبل القيام بجميع المهام الملائمة لأضمن لأبنة عمي زواجا ناجحا.

دون بيدرو : إن بنديكت زوج جذّاب، يتحدّر من أصل عريق، وصاحب مقدرة يعترف له بها الجميع، واستقامته مشهود له بها ايضا. إني أنصفه بمجرد

كلامي هذا. سأشير عليك كيف ينبغي لكِ أن تحتالي على ابنة عمك كي تعشق السيد بنديكت (متوجها إلى كلوديو وبنديكت) وأنا بمساعدتكما سأضغط على بنديكت كي يَقبل رغم دعابة روحه ورفض قلبه، على حب بياتريس. إذا قُيِّض لنا أن ننجح في ذلك نصبح نحن كآلهة الحب. تعالوا معي، وسأعلن لكم عن مشروعي. (يخرج الجميع).

المشهد الثاني

في ذات المكان

(يدخل دون جوان وبوراشيو)

دون جوان : لقد قرر الكونت كلوديو الزواج من ابنة ليوناتو.
بوراشيو : نعم، يا سيدي، ولكني أستطيع أن أمنع تحقيق هذا الزواج.
دون جوان : كل عرقلة، وكل مانع يحول دون هذا الزواج، يثلج صدري. أنا مريض من شدة غضبي لهذا الرجل. إن كل ما يعرقل رغباته يخدم رغباتي. كيف أستطيع منع هذا الزواج ؟
بوراشيو : سأمنعه بطريقة لا تشرّف كثيراً صاحبها، ولكنها ستبقى طيّ الكتمان، فلا يتسنى لأحد أن يتهمني بقلة الشرف.
دون جوان : قل لي بسرعة كيف سيتم ذلك ؟
بوراشيو : أعتقد بأني قلت لك منذ سنة، كم من المودّة تربطني بمرغريت، خادمة هيرو.
دون جوان : أجل أذكر ذلك.
بوراشيو : بإمكاني أن أضعها حارسة بشكل ظاهر، بالقرب من نافذة سيدتها في أية ساعة غير مناسبة من الليل.
دون جوان : وما فعالية هذا في منع زواجهما ؟

بوراشيو : عليك أنت أن تعدّ السم، وأن تذهب إلى شقيقك الأمير وتقول له أنه أساء إلى شرفه بتزويجه كلوديو الذي ما زال يثني عليه، بامرأة فاسدة مثل هيرو.

دون جوان : وما دليلي على ذلك ؟

بوراشيو : سأعدّ لك برهانا كافيا لتخدع الأمير، وتقهر كلوديو، وتفقده هيرو. وتقضي على ليوناتو. هل تريد نتيجة أفظع من هذه ؟

دون جوان : لكي أنغص عليهم حياتهم، الجأ إلى شتى الوسائل.

بوراشيو : هيا إذاً. عليك أن تجد فرصة مناسبة للاختلاء بدون بيدرو وكلوديو، عندئذ تقول لهما أنك واثق من أن هيرو تحبني. عليك أن تظهر بعض الغيرة نحو الأمير ونحو كلوديو، وأن تزعم بأنك كشفت لهما هذا الأمر لأنك تريد الحفاظ على شرف شقيقك الذي كان وراء هذا الزواج، وعلى سمعة صديقه المعرَّض للخداع بفضيلة كاذبة. سيصعب عليهما تصديقك بدون برهان مقنع، لذلك اطلب اليهما ان يأتيا ويفاجئاني عند نافذة هيرو. هناك سيسمعاني أنادي مرغريت وهيرو، وسيسمعان مرغريت تناديني يا بوراشيو. اصطحبهما لرؤية ذلك في الليلة التي تسبق العرس. وخلال هذه الفترة سأعمل كل ما بوسعي لإبعاد هيرو. وبذلك يصبح البرهان على قلة وفائها قائما بشكل لا يدع أي مجال للشك. وبذلك تنهار جميع مشاريعهم.

دون جوان : سأعمل على تنفيذ فكرتك مهما كانت النتائج. باشر إذاً في تنفيذ حِيَلك، وسأجود عليك بمكافأة مالية كبيرة.

بوراشيو : عليك أن تثابر على اتهامك، وبذلك تضمن نجاح حيلتي.

دون جوان : سأستعلم حالا عن موعد قرانهما. (يخرجان)

المشهد الثالث

في حديقة ليوناتو

(يدخل بنديكت يتبعه أحد الخدم)

بنديكت : أيها الخادم.

الخادم : سيدي.

بنديكت : هناك كتاب موضوع عند نافذة غرفتي. جئني به إلى البستان.

الخادم : في الحال يا سيدي، كما تريد.

بنديكت : إن ما أريده هو أن تذهب من هنا ثم تعود. (يخرج الخادم) إني أعجب لرجل سَخر من بداهة أناس نذروا أنفسهم للحب؛ ووقع في آخر الأمر في شباك الحب فسخر من نفسه. هذا ما جرى لكلوديو. لقد عرفته مولعا بالمعارك، وها هو اليوم أسير الحفلات الراقصة. لقد عرفته يقطع المسافات الشاسعة بحثاً عن سلاح فتّاك، وهو، هو اليوم يسهر الليالي بأكملها للاعتناء بهندامه. كان من عادته أن يتكلم ببساطة ووضوح كرجل نبيل وجندي مقدام، والآن أصبح لا يجيد من أنواع الكلام سوى الغزل، وفيه ما فيه من غرائب التشابيه والنعوت. هل يعقل، وأنا على هذه الحالة أن أرضخ في نهاية الأمر لإغراء الحب ؟ لا أستطيع أن أقول شيئا. ولكني لا أعتقد بذلك. أنا .لا أجزم بأن يستحيل على الحب أن يحولني إلى أحمق. ولكني أجزم بأنه قبل أن يفعل هذا لن يقوى على تحويلي إلى مجنون نظير كلوديو. كون إحدى النساء فاتنة، أمر حسن، وكون أخرى ظريفة فهذا حسن أيضاً. ولكن لن تحظى امرأة باعجابي قبل أن تجمع في شخصها كل الخصال. هوذا الأمير وبمعيته السيد كوبيدون. سأختبىء خلف العريش. (يختبىء).

(يدخل دون بيدرو وليوناتو وكلوديو ثم بلطزار وبعض الموسيقيين)

دون بيدرو : حسنا. هل سنسمع هذه الموسيقى ؟

كلوديو : بكل تأكيد، يا سيدي. إن هدوءا عظيماً يلف هذه السهرة، كأن هذا السكون هو بمثابة مقدّمة للغناء.

دون بيدرو : أخرس، يا كلوديو، وأنظر أين اختبأ بنديكت.

كلوديو : حسناً، يا سيدي. لن تتوقف الموسيقى حتى نفاجئه.

دون بيدرو : هيا، يا بلطزار، انشد لنا هذه الأغنية.

بلطزار : سيدي، لا تحلل صوتاً نشازا على تحقير الموسيقى بانشاده ما لا يجيده.

دون بيدرو : من عادة اصحاب المواهب أن يبرزوا مواهبهم بمحاولة اخفائها. فأرجوك أن تبدأ بالغناء.

بلطزار : بما أنك تتوسل إليّ أن أغني، فسأفعل، لأن من عادة بعض العشاق التغزل بامرأة، هم على يقين بأنهم غير جديرين بها. ومع ذلك فهم لا ينفكُّون يتشبَّبون بها ويرجونها ويؤكدون لها حبهم.

دون بيدرو : هيا، ابدأ. إذا كان لديك مزيد من الكلام تودّ قوله، فدوّنه.

بلطزار : ولكن قبل أن تطلع على ملاحظاتي المدوَّنة، عليك أن تدرك أن ليس بينها واحدة تستحق التدوين.

دون بيدرو : كلام هذا الفتى كله محصور بين هلالين. (تبدأ الموسيقى).

بنديكت (يتكلم بصوت منخفض على حدة) : بعد هنيهة ستصدح الموسيقى وتخطف معها روحه. أليس من المستغرب أن تتمكن أوتار مصنوعة من امعاء خروف من ان تخطف ارواح البشر وتسرح بها بعيداً عن أجسادهم ؟

بلطزار (مغنيا) :

كفى تنهُّدا، كفى تأوّها،
إن الرجال هم في كل زمان خداعون
يضعون إحدى أرجلهم في البحر.
والأخرى على الشاطىء.
إنهم لا يستمرون في وفائهم لامرأة واحدة.
إذاً لا تتنهدن بل دعهن يذهبون

وكنّ أنيقات ومسرورات
أُتركن ألحانكن الحزينة
ومعها إنشاد المراثي الحزينة المضنية
لأن خداع الرجال ما برح أبدا هو هو
منذ ظهورْ أول ورقة في أول صيف.
إذاً لا تتنهدّن.

دون بيدرو : أقسم بأنها أغنية رائعة.

بلطزار : وإني مطرب بليد، أيها الأمير.

دون بيدرو : لا، لا، أنت تجيد الغناء كهاوٍ. (يتحدث بصوت منخفض مع كلوديو).

بنديكت (على حدة) : لو أن كلبا نبح هكذا لكان نصيبه الشنق. أرجو الله أن لا يكون هذا الغناء الحقير مقدمة لشر مستطير. كنت أفضل سماع صوت البوم مع كل ما ينبىء به من سوء طالع، على سماع هذا الانشاد.

دون بيدرو (مخاطبا كلوديو) : إنها، لا شك، فكرة حسنة. إسمعني يا بلطزار. أعدّ لنا جوقة فخمة لتعزف غدا مساء تحت نافذة السيدة هيرو.

بلطزار : سأبذل جهدي لتأمينها يا سيدي.

دون بيدرو : حسنا. وداعا. (يخرج بلطزار ومعه الموسيقيون). إقترب يا ليوناتو. ماذا قلت لي منذ برهة ؟ إن إبنة أخيك بياتريس تحب السيد بنديكت.

كلوديو (مخاطبا دون بيدرو على انفراد) : لم أكن أصدّق أن هذه السيدة ستحبّ ذات يوم رجلا ما.

ليوناتو : ولا أنا. إنما الأعجب في ذلك هو شغفها هكذا بالسيد بنديكت الذي ما برحت تكرهه في جميع تصرفاتها الظاهرة.

بنديكت (على حدة) : هل هذا معقول ؟

ليوناتو : أقسم لك يا سيدي، بأن أمرها يحيِّرني. إن حبّها وشغفها به هكذا أمر أعجز عن إدراكه وتفسيره.

دون بيدرو : قد يكون ميلها مجرد تمثيل.

كلوديو : هذا محتمل.

ليوناتو : تمثيل ؟ يا إلهي ! لم أرَ حبّا يجري تمثيله بهذه البراعة. فحبها لا يختلف مطلقاً عن الحب الحقيقي.

دون بيدرو : كيف ؟ ما هي بوادر الحبّ التي تظهر منها ؟

كلوديو (بصوت منخفض) : إستمرّ في تزويد صنارتك بالطعم يا سيدي. فلقد أوشكت السمكة أن تبتلعه وتعلق.

ليوناتو : ما هي البوادر ؟ إنها تبقى دائماً جالسة (مخاطبا كلوديو) لقد شرحت لك ابنتي حقيقة الأمر.

كلوديو : نعم.

دون بيدرو : قل لي إذاً كيف ؟ إنك تثير فضولي. كنت أعتقد بأن قلبها أبعد من أن تطاله سهام الهوى.

ليوناتو : كنت أعتقد أنا أيضاً بأن قلبها أبعد من أن تطاله سهام الهوى، خاصة سهام بنديكت.

بنديكت (على حدة) : كان بإمكاني إعتبار الأمر مجرّد خدعة، لو لم يتحدّث عنه الرجل ذو اللحية البيضاء. أنا متأكد بأن الخداع لا يمكنه التستر والانطلاء في ظل جلالته.

كلوديو (بصوت منخفض) : لقد ابتلع الطعم، فاستعد صنارتك.

دون بيدرو : هل أعلنت حبها لبنديكت ؟

ليوناتو : لقد أقسمت بأنها لن تفعل ذلك. وهذا ليس غريبا عن طبعها.

كلوديو : هذا صحيح. لقد قالت لابنتك : ماذا حلّ به بعد أن أنهكه احتقاري المتواصل له. كيف أراسله معلنة له عن حبي وهيامي ؟

ليوناتو : هذا ما تردده كلما باشرت في كتابة رسالة إليه. فقد تضطر للقيام عشرين مرة في الليلة الواحدة والجلوس بقميص النوم لتدبيج صفحة له. هذا ما تقوله لي ابنتي.

كلوديو : أنت تتكلم عن صفحة مكتوبة. إن هذا يذكرني بقصة طريفة روتها لنا.

ليوناتو : هذا صحيح. فبعد أن تكون قد وضعت الرسالة داخل الغلاف،

تحاول قراءتها، فتجد من خلال الغلاف بنديكت وبياتريس، وقد انحنى أحدهما على الآخر.

كلوديو : هذا ما تفعله بالضبط.

ليوناتو : عند ذاك تعمد إلى تمزيق الرسالة، وتلوم نفسها على قلة حيائها لأنها كتبت إلى رجل تعلم جيدا أنه سيسخر منها، ثم تقول : لو أنه هو الذي كتب الي لكنت سخرت منه رغم أني أهيم بحبه.

كلوديو : وعلى هذا الأساس، تخرّ ساجدة وتشهق في البكاء، وتضرب على صدرها وتنتف شعرها وتصرخ قائلة : حبيبي بنديكت. ليعطني الله نعمة الصبر على بعادك.

ليوناتو : هذا ما تقوله ابنتي. وفي بعض الأحيان تغيب عن الوعي فتخشى عليها ابنتي من نفسها. وهذا حقا أمر لا ريب فيه.

دون بيدرو : يجب أن يعلم بنديكت بكل هذا عن طريق شخص آخر، إذا أصرّت هي على عدم البوح له به مباشرة.

كلوديو : وما نفع ذلك ؟ سيتخذ من المسألة وسيلة لتعذيبها بقساوة.

دون بيدرو : إذا فعل ذلك فسيكون مصيره الشنق. إذ لا يحقّ له أن يتعرض لأمرأة فاضلة وجميلة مثلها.

كلوديو : وذات عقل راجح.

دون بيدرو : إن عقلها راجح في كل شيء إلّا في حبّها لبنديكت.

ليوناتو : سيدي، عندما يتصارع العقل والشهوة في طبيعة طريّة العود كطبيعة بياتريس فالغلبة تكون للشهوة. أنا حزين من أجلها، لأني عمها والوصي عليها.

دون بيدرو : لو أنها كانت تخفي عني هذا الحبّ، لتجاوزت كل اعتبار وجعلت منها شريكة حياتي. (مخاطبا ليوناتو) أرجوك أن تكلّم بنديكت بالأمر، لنعرف رأيه في الموضوع.

ليوناتو : أتعتقد بأن هذا ضروري ؟

كلوديو : هيرو تعتقد بأن ابنة عمها تموت إذا علمت بأن بنديكت لا يحبّها، أو إذا أعلنت له عن حبها.

دون بيدرو : إنها على حقّ. فإذا صارحته بحبها، فقد يصدّها، لأن الرجل، كما تعلمون، صاحب مزاج تهكُّمي.

كلوديو : إنه زوج ملائم جدا.

دون بيدرو : وله طلعة في غاية الجمال.

كلوديو : وفي رأيي، أن له أيضاً حسباً عريقاً.

دون بيدرو : وله ومضات ذهن رائعة.

ليوناتو : وأعتقد بأنه رجل مقدام.

دون بيدرو : مثل هكتور تماما. يستعمل ذكاءه في كل ما يعرض له من خصومات. فإما أن يتجنبها بتحفُّظ، وإما أن يتخذ موقفا منها، لكن بكل خوف ورعدة.

ليوناتو : إذاً، بما أنه يؤمن بالله، فهو يحافظ على السلام. ولكن إذا انهار السلام اشترك في الخصام بخوف ورعدة.

دون بيدرو : هذا ما يفعله بالضبط. إنه رجل يخاف الله بالرغم من المزاج والسخرية اللذين يتّصف بهما. أنا أرثي لحال إبنة أخيك. هل تريد أن نبحث عن بنديكت ونكلمه عن حبها له ؟

كلوديو : أفضّل أن لا نكلمه بذلك، يا سيدي. فبإمكان بياتريس، بعد أن تزوّد بالنصائح اللازمة، أن تنتزع منه هذا الحبّ.

ليوناتو : هذا مستحيل. إنها ستنتزع بالأحرى مهجة قلبها.

دون بيدرو : حسناً. سنكلم ابنتك بهذا الأمر. لأني أحب بنديكت وأتمنى أن يفحص ضميره بكل تواضع ليرى أنه لا يستحق امرأة كاملة مثلها.

ليوناتو : سيدي، الغذاء جاهز. هل نذهب ؟

كلوديو (بصوت منخفض) : إذا كان بعد كل هذا، لن يشغف بها، فلن أعوّل على شيء بعد الآن.

دون بيدرو (بصوت منخفض) : بقي الآن أن نصطاد بياتريس بذات الشبكة. سيكون هذا من شأن ابنتك وخادمتها. سيكون منظر كل منهما ممتعا، وهو يظن أن الآخر يحبه، بينما الأمر هو عكس ذلك. لنرسل بياتريس إلى بنديكت كي تدعوه إلى الغذاء. (يخرج دون بيدرو وكلوديو وليوناتو).

بنديكت (يخرج من مخبئه) : لا يمكن أن يكون الأمر مجرّد مهزلة. فالمحادثة تتسم بالرصانة. لقد حصل الجماعة من هيرو على جميع الوقائع، ورثوا لحال بياتريس التي تبدو أن حبها بلغ أوجه. إنها تحبني، وعليّ أن أبادلها حبها. لقد بلغني إلى أيّة درجة أنا ملام في تصرفي حيالها. إذ قالوا إني سأحتقر حبها إذا ما أعلنته لي، وأنها تفضّل الموت على أن تبوح لي بحبها هذا. لم أفكر قط في الزواج. ينبغي أن لا أكون متعالياً. هنيئاً لمن ينتقدون بعضهم بعضاً، فيعمد كل منهم إلى إصلاح ما إعوجّ من سلوكه. يقال أنها سيدة جميلة، وهذا أمر أؤكده أنا أيضاً، وأنها فاضلة وهذا أمر لا أستطيع إنكاره، وإنها عقلانية، إلّا في حبها لي، أما هذا فلا يدل من جانبها على عقل راجح أو على جنون مطبق، لأني بدوري أهيم بحبها. قد يسخر البعض مني، إذ سبق لي وسخرت أنا من الزواج. ولكن رغباتنا قابلة للتغيير من حين إلى آخر، فالمآكل التي نحبها في صبانا قد نكرهها في شيخوختنا. يجب أن يتكاثر الناس ويملأوا الأرض. عندما أعلنت أني سأموت وأنا فتى، لم أكن أعتقد بأني سأعيش إلى اليوم الذي فيه أتزوّج. ها هي بياتريس قادمة. إنها امرأة جميلة. سأحاول أن أكتشف بعض معالم حبها لي.

(تدخل بياتريس)

بياتريس : لقد ارسلت في طلبك لأدعوك إلى تناول الغداء.

بنديكت : أيتها الحسناء بياتريس، أشكرك على العناء الذي تكبدته من أجلي.

بياتريس : لم أتكبد أيّ عناء لأستحقّ منك هذا الشكر. لو كان الأمر مضنياً بالنسبة اليّ لما قدمت إليك.

بنديكت : أنت سعيدة إذاً بقيامك بهذه المهمة.

بياتريس : إني سعيدة بذلك، بمقدار ما تكون أنت سعيداً عندما تذبح أحد الطيور بنصلة السكين. ألستَ جائعا ؟ (تخرج).

بنديكت : لقد أرسلت في طلبك لأدعوك إلى تناول الغداء، ولهذا القول معنى مزدوج. أولاً لم أتكبّد أي عناء لأستحقّ منك هذا الشكر. وهذا يعني بطريقة أخرى أن أي عناء أتحمله من أجلك هيِّن بالنسبة اليّ تماما كما هو هين بالنسبة إليك ابداء الشكر. إذا لم أشفق عليها أكون فظاً، وإذا لم أحبها أكون عديم الإحساس. سأحاول الحصول على صورتها. (يخرج).

الفصل الثالث

المشهد الأول

في أحد ممرات الحديقة

(تدخل هيرو ومرغريت وأرسول)

هيرو : اسرعي يا مرغريت إلى القاعة حيث تجدين ابنة عمي بياتريس تتحدّث إلى الأمير وكلوديو. اسري إليهما في أذنها بأني وأرسول نتنزه في الحديقة وأنها موضوع حديثنا. قولي لها أنك فاجأتنا هنا، وإحمليها على التسلُّل من وراء تلك الخميلة إلينا. قولي لها أن تختبىء هناك وتنصت إلينا. هذه مهمتك، أكمليها على أتمّ وجه، ودعينا وحدنا.

مرغريت : سآتي بها إلى هنا في الحال (تخرج).

هيرو : والآن، يا أرسول، عندما تأتي بياتريس، علينا، ونحن نتنزه في هذا الممر، أن نتحدّث فقط عن بنديكت. وعندما أذكر لك اسمه، تصفينه بأجمل الأوصاف. أما أنا فأكتفي بأن أردّد عليك أن بنديكت يهيم بحبّ بياتريس. أن سهم الهوى يجرح عن طريق السمع. ابدإي الآن، فإن بياتريس مقبلة نحونا لتستمع إلينا.

(تدخل بياتريس وتختبىء خلف إحدى الخمائل في ناحية أخرى من المسرح)

أرسول : إن لذة الصيد تكمن في أن ترى السمكة تشقّ الموج بزعانفها ثم تعلق بصنارتك. وهكذا نحن نرمي بصنارتنا إلى بياتريس المختبئة خلف الخميلة. لا تخافي، سأبرع بدوري في الحوار.

هيرو : حسناً. لنقترب منها كي لا يفوتها شيء من حديثنا (تقتربان من الخميلة وهما تتحدثان) في الحقيقة هي تغالي في استخفافها، لأنها صاحبة مزاج شرس كالصقر القابع بين الصخور.

أرسول : ولكن، هل أنت متأكدة من أن بنديكت يهيم بحبّ بياتريس ؟

هيرو : هذا ما يقوله الأمير وخطيبي.

أرسول : وهل كلّفاكِ بأن تبلغيها ذلك ؟

هيرو : لقد طلبا إليّ أنَ أعلمها بالأمر. ولكني نصحتهما بأن يحملا بنديكت، إذا كانا يحبانه فعلا، على مقاومة حبه لها حتى لا تدري هي به.

أرسول : لماذا ؟ ألا يستحقّ هذا النبيل أن تكون بياتريس زوجة له ؟

هيرو : يا إلهي ! أنا واثقة بأنه يستحقّ ذلك. ولكن الطبيعة لم تبتدع قلباً متعالياً مثل قلب بياتريس. إن سخريتها تلذع كل ما تراه عيناها، وروحها المتشامخ يعتبر كل ما عداها حقيراً. فهي لا تستطيع أن تحبّ سوى ذاتها.

أرسول : أنا أفكر مثلك. ولذلك يجب أن لا تدري بحبّ بنديكت لها، وإلّا إتخذته حجة لازدرائه.

هيرو : هذا عين الصواب. لم أرَ إنساناً عاقلاً نبيلا، وشابا وسيما، إلّا صدّته بمكرها السحري المؤذي. إذا كان أشقر اللون رأت فيه شقيقا لها، وإذا كان أسمر اللون اعتبرته مهزلة من مهازل الطبيعة، وإذا كان مديد القامة اعتبرته رمحاً ملتوياً، وإذا كان قصير القامة فهو في نظرها جزع شجرة أسيء قطعه، وإذا كانَ كثير الكلام شبهته بدوّامة في مهبّ الريح، وإذا كان ساكتاً شبّهته بحطبة لا يؤثر فيها شيء. وهكذا لا ينجو رجل من نقدها اللاذع، كما أنها لا تولي الحقيقة والفضيلة ما يستحقانه من الاعتبار والتقدير.

أرسول : إن تشويهِ الأمور بهذه الطريقة أمر غير محمود.

هيرو : وهذه العادة الغريبة لدى بياتريس، أمر لا تحسد عليه.

لكن، من يجرؤ على مصارحتها بذلك ؟ إذا كاشفتها به سخرت مني

وأخفت عني الحقيقة. فبينما يذوب بنديكت في أتون الحب، تفضل هي أن تموت بمرارة السخرية على أن تموت بحسرة الحب.

أرسول : ومع ذلك، أنا أفضل أن تكلميها بالأمر وتقفي على رأيها.

هيرو : لا، لا. أنا أفضِّل الذهاب إلى بنديكت لأنصحه بأن يقاوم حبه. وسأختلق له افتراء ما لأنكِّد به على إبنة عمي عيشها. فإني أعرف جيدا قدرة الكلمة الخبيثة على تسميم الحب.

أرسول : لا، لا تلحقي بها مثل هذا الأذى. إن تعاليها وروحها الساخر لن يحملاها على رفض رجل نبيل وكامل الأوصاف مثل السيد بنديكت.

هيرو : إنه أفضل رجل في إيطاليا، بعد السيد كلوديو.

أرسول : أرجوك أن لا تغضبي مني، إذا أعلنت لك ما أفكر به. إن السيد بنديكت من حيث ذكاؤه وقدره وتصرفاته، يتمتع بكل تقدير واحترام.

هيرو : في الحقيقة، شهرته تطبق الآفاق.

أرسول : لقد استحقها بطيب عنصره وحسن خصاله. متى ستتزوجين، يا سيدتي ؟

هيرو : غدا. هيا نعود. سأريك بعض الحلي لآخذ رأيك وأختار أجملها، فتكون في عداد زينتي غدا.

أرسول (بصوت منخفض) : لقد وقعت في الفخ، يا سيدي.

هيرو : إذا كان الأمر كذلك فهذا يعني أن الحب يفعل فعله عن طريق الصدفة. (تخرج هيرو وأرسول)

بياتريس (تتقدم فوق المسرح) : أي طنين يملأ أذنيّ ؟ هل حكم عليَّ بالشقاء من جراء شموخي وسخريتي ؟ وداعا أيها الشموخ، وداعا أيتها السخرية. إن المتكبرين لا يخلفون وراءهم أي مجد. هيا يا بنديكت، إسترسل في حبك. سأبادلك الحب وأدعك تهيمن على قلبي الموحش. إذا كنت حقاً تحبني سأرضى بأن تتخذني زوجة لك، لأنك تستحق ذلك. (تخرج).

المشهد الثاني

في إحدى قاعات قصر ليوناتو

(يدخل دون بيدرو وكلوديو وبنديكت وليوناتو. يتقدم
بنديكت وقد حلق ذقنه وارتدى اجمل ثيابه)

دون بيدرو : سأبقى هنا إلى أن يتم زواجكما، ثم أرحل إلى أراغون.

كلوديو : سأصحبك إلى هناك يا سيدي، إذا سمحت لي بذلك.

دون بيدرو : لا، لا. إن ذلك يفسد عليك زواجك. سأطلب فقط إلى بنديكت أن يرافقني، لأنه من قمة رأسه حتى أخمص قدميه يذخر بالفرح. إن فؤاده كصنج يرن، ولسانه يزغرد ابتهاجا لأن كل ما يفكر به في قلبه يعلنه لسانه.

بنديكت : أيها الابطال، لم أعد ذاك الشخص الذي تتحدثون عنه.

ليوناتو : أنا موقن بذلك. يبدو لي أنك زدت جلالا.

كلوديو : آمل أن تكون قد وقعت في شباك الهوى.

دون بيدرو : هو يفضل حبل المشنقة على أسره في قفص الحب، لأن الحب يقوى على تحريك عواطفه. وإذا كان يبدو حزينا فلأنه لا يملك مالا.

بنديكت : أنا أشكو من وجع في بعض أسناني.

دون بيدرو : اقتلعها.

بنديكت : ليأخذها إبليس.

كلوديو : اقتلعها أولا، ثم أرسلها إلى الشيطان.

دون بيدرو : ماذا تقول ؟ أنت تشكو من وجع في بعض أسنانك ؟

ليوناتو : لا بدّ من أن يكون السوس قد نخرها.

بنديكت : ربما. جميع الناس يستطيعون السيطرة على الألم، إلّا الموجوع.

كلوديو : لكني قلت أنه عاشق.

دون بيدرو : لا تبدو عليه إمارات العشق. اللهم إلّا إذا كان مغرما بكل غريب من ضروب التنكُّر. كأن يكون اليوم هولنديا ويصبح غدا فرنسيا، أو كأن يرتدي في الوقت ذاته لباس البلدين معا.
كلوديو : إذا لم يكن مغرما بإحدى النساء، فلن أثق بعد الآن ببوادر الحبّ التي تلوح على وجوه جميع العاشقين. أراه ينظف قبّعته بالفرشاة كل صباح. فماذا يعني هذا ؟
دون بيدرو : هل شاهده أحدكم عند الحلاق ؟
كلوديو : كلا. لكن مساعد الحلاق كان عنده.
ليوناتو : في الحقيقة إن حلاقة ذقنه تزيده شبابا.
دون بيدرو : أضف إلى ذلك تعطُّره بالمسك.
كلوديو : هذا دليل آخر على وقوعه في الحب.
دون بيدرو : البرهان الاصدق هو كآبته.
كلوديو : منذ متى رأيناه يغسل وجهه باستمرار ؟
دون بيدرو : ويسرّح شعره أيضاً ؟
كلوديو : ومرحه الذي كان دائماً ظاهراً، يبدو الآن منقبضا ومشدودا كأوتار القيثارة.
دون بيدرو : هذه البادرة تفضح غرامه بشكل لا يدع مجالا للشك.
كلوديو : هذا ليس كل ما في الأمر. فأنا أعرف المرأة التي يهواها.
دون بيدرو : أودّ أن أتعرّف إليها أنا أيضاً. أنا على يقين بأنها لا تعرفه.
كلوديو : ولا تعرف أيضاً عيوبه. لكنها بالرغم من ذلك تموت في حبه.
دون بيدرو : في هذه الحالة، يجب عند دفنها، توجيه محياها نحو السماء.
بنديكت : في كل ما تقولونه لا أرى دواء شافيا لوجعي. (مخاطبا ليوناتو) تعال معي (على انفراد) يسرني أن أزوّدك ببعض الحِكَم التي طالما تأملت فيها، بمعزل عن هؤلاء الجهلة الذي يعجزون عن فهمها.(يخرج بنديكت وليوناتو).
دون بيدرو : أقسم بأنه اختلى به ليحدثه عن بياتريس.
كلوديو : لا ريب في أن هيرو ومرغريت قد أتمتا ما طُلب منهما بالنسبة إلى

بياتريس. وأنا واثق أيضاً بأن بياتريس وبنديكت لن يتشاجرا متى التقيا.

(يدخل دون جوان)

دون جوان : سيدي وشقيقي، حفظك الله.

دون بيدرو : مساء الخير.

دون جوان : هل تأذن لي بأن أتحدّث إليك ؟

دون بيدرو : على انفراد.

دون جوان : إذا رأيت ذلك مناسبا. إنما بامكان الكونت كلوديو الاستماع لأن ما سأقوله يعنيه.

دون بيدرو : ما هو الموضوع ؟

دون جوان (مخاطبا كلوديو) : سيدي هل تنوي الزواج غدا ؟

دون بيدرو : أنت تعلم بذلك.

دون جوان : سأخبره بما أعلم.

كلوديو : إذا كان هناك من مانع، أرجوك أن تبيِّنه لنا.

دون جوان : يمكنك أن تعتقد بأني لا أحبك. إنما ينبغي أن تحكم عليَّ من هذه الناحية استنادا إلى ما سأقوله لك. أما في ما يخصّ شقيقي، فإني أعتقد بأنه لشدّة تعلقه بك ودّ أن يساهم في إنجاح زواجك العتيد. لكن كل جهوده قد ذهبت أدراج الرياح.

دون بيدرو : ماذا جرى ؟

دون جوان : جئت إلى هنا لأطلعكما على ذلك. باختصار، انكشف أمرها وظهرت خيانتها.

كلوديو : من ؟ هيرو ؟

دون جوان : هي بالذات، هيرو ابنة ليوناتو، هيرو التي تحبها أنت.

كلوديو : هيرو خائنة ؟

دون جوان : إن كلامي أعجز من أن يصف فسادها. قبل أن يأخذك العجب، إستمع إلى المزيد من المعلومات التي سأزوّدك بها حول سلوكها الشاذ. سترى بأم عينك من يتسلل إلى غرفتها عبر نافذتها ليلة زفافها. فإذا كنت تحبها

عليكَ أن تتزوجها غدا. لكن حفاظاً على شرفك، من الأجدر أن تغيِّر رأيك في الموضوع.

كلوديو : هل هذا معقول ؟

دون بيدرو : لا أريد تصديق ذلك.

دون جوان : إذا شئتما التيقُّن من الأمر، إتبعاني، وعندما تريان الحقيقة تتصرفان على ضوء ما ستقتنعان به.

كلوديو : إذا شاهدت هذه الليلة ما من شأنه أن يحملني على عدم الزواج منها، فسأشهِّر بها أمام الجميع في نفس المكان الذي يشهد عقد قرانها.

دون بيدرو : ومن جهتي أنا، فكما سعيت للجمع بينكما، سأنضم إليك لكشف أمرها.

دون جوان : لا أريد أن أسترسل في تحقيرها قبل أن تلمسا حقيقتها لمس اليد. والى أن يحين ذلك الموعد، عليكما أن تتمالكا نفسيكما.

دون بيدرو : تباً لهذا النهار المشؤوم.

كلوديو : يا للفضيحة ! يا للمصيبة !

دون جوان : عندما ستكتشفان الحقيقة. ستهتفان : الحمد لله على خلاصنا من هذا العار الذي استدركناه وتجنَّبناه في الوقت المناسب.

المشهد الثالث

مكان فيه معبد

(يدخل دكباري وفيرجي، يتبعهما حرس ليلي)

دكباري (مخاطبا حرس الليل) : هل أنتم شرفاء وأوفياء ؟

فيرجي : نعم، وإلّا تعرّضت سلامة أنفسهم وأجسادهم للخطر.

دكباري : هذه عقوبة طفيفة، لأنهم اختيروا ليكونوا حرس الأمير.

فيرجي : حسنا. زوّدهم بالتعليمات اللازمة.

دكباري : سنرى من منكم الأكثر أهلية لأن يكون من رجال الأمن.
الحارس الأول : برانديفوان أو شاربوند، لأنهما يحسنان القراءة والكتابة.
دكباري : تعال إلى هنا، يا شاربوند. لقد وهبك الله إسما جميلا. وكون الانسان وسيما فهذه نعمة كبيرة. أما معرفته القراءة والكتابة فهي موهبة لا تقدَّر بثمن.

الحارس الثاني : وهاتان المزيَّتان يا سيدي، مطلوب توفرهما في رجال الأمن.
دكباري : وأنت تمتلكهما معا. لقد وقفت على جوابك فهو رائع. وبالنسبة الى بنيتك يجب أن تحمد الله على روعتها وأن لا تفتخر بنفسك. أما بالنسبة إلى معرفتك القراءة والكتابة، فهذا يحتاج إلى برهان. أنك أقل الحاضرين هنا أهلية كي تكون من رجال الأمن. عليك إذاً أن تأخذ الفانوس. إن مهمتك تنحصر في مراقبة المارّة، فتأمرهم بأن يسرعوا في سيرهم لدى مرورهم من هنا، وذلك بناء على طلب الأمير.
الحارس الثاني : وإذا رفض أحدهم الاستعجال ؟
دكباري : حسناً. لا تهتمّ به ودعه يذهب. ثم اشكر الله على تخلُّصك من مخلوق سافل.
فيرجي : إذا رفض الإسراع في سيره، فمعنى ذلك أنه يرفض الخضوع لأوامر الأمير.

دكباري : حسنا. على الحارس أن يهتم فقط برعايا الأمير. بالاضافة إلى ذلك، عليكم أن لا تحدثوا أية ضجة في الشوارع، إذ ينبغي على الحراس أن لا يثرثروا.
الحارس الثاني : إننا نفضل النوم على الثرثرة، ونعرف جميع واجبات الحرس.

دكباري : هيا، أنت تتكلم كحارس قديم. أنا لا أرى ما يمنع الحرس من النوم. ولكن حذارِ من أن يقدم أحد على سرقة حرابكم. والآن عليكم أن تتفقدوا جميع الحانات، وتحملوا السكارى على الذهاب إلى النوم.
الحارس الثاني : وإذا رفضوا ؟

دكباري : حسنا. دعوهم حتى يصحوا من السكر. فإذا رفضوا الإذعان لطلبكم، عندئذ تعتبرونهم من السفلة.
الحارس الثاني : حسنا، يا سيدي.
دكباري : إذا صادفتم في تجوالكم لصا فبإمكانكم اعتباره مخلوقا غير شريف. إنما بمقدار ما تبتعدون عن مثل هؤلاء السوقة، بمقدار ما تصونون نزاهتكم.
الحارس الثاني : إذا ثبت لنا أنه لصّ، أليس من واجبنا إلقاء القبض عليه ؟
دكباري : إن مهمتكم تخوّلكم القيام بذلك. لكن لا تنسوا أن من يلمس القطران تتّسخ يداه حتما، واذا أردتم القبض على لص، فدعوه أولا يظهر على حقيقته ويسرق، ثم إلقوا القبض عليه.
فيرجي : لقد كنت دائماً رجلا رحوما يا صديقي.
دكباري : في الواقع، أنا لا أريد أن أشنق هرا بمحض إرادتي، فكم بالحري إنسانا ما زالت في صدره بقية من النزاهة.
فيرجي : إذا سمعتم طفلا يبكي في الليل، فما عليكم إلا أن تدعوا مرضعته لإسكاته.
الحارس الثاني : ولكن، إذا كانت المرضعة نائمة ورفضت سماعنا ؟
دكباري : في مثل هذه الحالة تمضون وتدعون الطفل يوقظها بصراخه. لأن النعجة التي ترفض سماع ثغاء حملها سترفض الإستجابة أيضا لخوار العجل.
فيرجي : بالتأكيد.
دكباري : هذه كل التعليمات المتعلقة بكم. أنتم تمثلون شخص الأمير. فإذا صادفتم الأمير أثناء الليل، فبإمكانكم إلقاء القبض عليه.
فيرجي : كلا، هم لا يستطيعون القيام بذلك.
دكباري : بل يستطيعون، لكن بموافقة الأمير نفسه. لأن الحارس لا يمكنه توجيه الإهانة إلى أحد، وتوقيف أحد المارّة بدون موافقته هو بمثابة إهانة له.
فيرجي : لعمري هذا عين الصواب.
دكباري : حسنا. أتمنى لكم ليلة سعيدة. إذا طرأ عليكم أمر مهم فاستدعوني. يتحتم على كل واحد منكم أن يحافظ على أسرار رفيقه. (مخاطبا فيرجي) تعال.

الحارس الثاني (مخاطبا رفاقه) : لقد استمعنا إلى التعليمات المتعلقة بنا. فهيا بنا الآن نجلس على هذا المقعد أمام باب المعبد. إلى أن تحين الساعة الثانية، فنذهب إلى النوم.

دكباري : لي كلمة أخيرة، أيها الأصدقاء الشرفاء. فأرجوكم أن تراقبوا باب السيد ليوناتو، حيث ينبعث الهرج والمرج بمناسبة العرس الذي سيقام غدا. وداعا. أرجوكم أن تكونوا متيقظين. (يخرج دكباري وفيرجي. أما حرّاس الليل فيمضون للجلوس قرب مدخل المعبد)

(يدخل بوراشيو وكنراد)

بوراشيو : يا كنراد.

الحارس الأول (على حدة) : أسكت، ولا تتحرك.

بوراشيو : يا كنراد، لنذهب إذاً.

كنراد : أنا واقف إلى جانبك، يا عزيزي، تكلم.

بوراشيو : سأقول لك كل شيء، كما يفعل سكران حقيقي. قف هنا إلى جانبي في المكان المسقوف، لأن البرَد يتساقط علينا.

الحارس الأول (على حدة) : يا لها من خيانة ! لنكمن لهما. (يقترب حارس الليل من المكان المسقوف حيث اختبأ بوراشيو وكنراد).

بوراشيو : لقد ربحتُ من دون جوان ألف درهم.

كنراد : هل من المعقول أن يوجد هناك مكر بهذا الغلاء ؟

بوراشيو : عندما يكون الخبثاء الأغنياء بحاجة إلى الخبثاء الفقراء، يفرض الفقراء عندئذ ما يريدونه من ثمن.

كنراد : أنت تحيّرني.

بوراشيو : تصرّفك يدلّ على عدم خبرتك. أنت تعلم بأن الزيّ الرائج لا يزيد في قيمة الرجل.

كنراد : أنا لا أجهل ذلك، لأنه مجرّد لباس.

بوراشيو : أنا أكلّمك عن الزيّ الرائج.

كنراد : وبماذا أجبتك ؟

بوراشيو : ألا تدري بأن الزيّ الرائج مصيبة على صاحبه ؟

الحارس الأول (على حدة) : أنا أعرف هذا المهرّج. إنه لصّ خطير، يدخل منذ سبع سنوات إلى كل مكان بزيّ رجل شريف، ولا أزال أذكر إسمه.
بوراشيو : ألم تسمع أحدا يتكلّم ؟
كنراد : كلا.
بوراشيو : ألا ترى معي إذاً أن الزيّ الرائج يفقد المولعين به رشدهم.
كنراد : أنا أرى أنه أفقدك رشدك أنت أيضاً، لأنك استرسلت في الحديث عنه ونسيت أن تكمل لي القصة التي بدأتها.
بوراشيو : كلا. لقد غازلت هذه الليلة مرغريت خادمة هيرو، وودّعتني مطولا وهي منحنية على نافذة سيدتها. إني أخبرك بكل هذا بصورة مبهمة، وكان ينبغي عليّ أن أقول لك أولا كيف أن سيدي دون جوان قد انبأ الأمير وكلوديو بما سيحدث ليلة زفاف هيرو، واصطحبهما إلى الحديقة حيث شاهدا مقابلتنا.
كنراد : وقد ظن الجميع بأن مرغريت هي هيرو.
بوراشيو : فقط الأمير وكلوديو ظنا بأن مرغريت هي هيرو. أما سيدي، فإنه كان يعلم بأنها مرغريت. وهكذا بحكم اليمين الذي أقسمه دون جوان، ونظرا إلى الظلام الحالك الذي خدعهما، وبفضل براعتي في إثبات كل الافتراءات التي اختلقها سيدي، فقد غادر كلوديو الحديقة غاضباً متوعدا هيرو بأنه سيلتقيها غدا في المعبد حيث سيشهِّر بها أمام الجمهور بأكمله ويردها إلى بيتها رافضاً أن يقترن بها.
الحارس الاول (يتقدم) : باسم الامير اقول لك قف.
الحارس الثاني : لنستدعِ رجال الأمن. فلقد اكتشفنا أخطر عملية دعارة في تاريخ البشرية.
الحارس الاول : إن أحد المهرجين هو في عداد المتهمين وأنا أعرفه.
كنراد : أيها السادة، أيها السادة !
الحارس الثاني : أؤكد لك أنك ستجبن وتحجم عن تقليد هذا المهرج.
كنراد : أيها السادة !
الحارس الاول : لا تتكلم. اقول لك : باسم الأمير، هيا رافقنا.

بوراشيو (مخاطبا كنراد) : ماذا سيحلّ بنا ؟
كنراد (مخاطباً بوراشيو) : يا له من سؤال مؤلم ! (مخاطبا حرس الليل) هيا بنا. أنا طوع أمركم. (يقتاد حرس الليل كنراد وبوراشيو).

المشهد الرابع

غرفة نوم في قصر ليوناتو

(تدخل هيرو ومرغريت وأرسول)

هيرو : يا أرسول أيقظي إبنة عمّي بياتريس.
أرسول : حالا، يا سيدتي.
هيرو : وقولي لها أن تأتي إلى هنا.
أرسول : بالتأكيد. (تخرج أرسول).
مرغريت (مخاطبة هيرو) : أرى أن التسريحة الأخرى هي الأفضل لشعرك.
هيرو : لا، أنا أفضِّل هذه التسريحة.
مرغريت : أنا واثقة بأن رأي إبنة عمك هو مطابق لرأيي في هذا الموضوع.
هيرو : إبنة عمي هي مهووسة، وأنت كذلك.
مرغريت : أحب كثيراً تسريحة شعرك الجديدة، وكنت أتمنى فقط لو أن شعرك أكثر اسمرارا. أما ثوبك فانه في غاية الأناقة. لقد رأيت ثوب أميرة ميلانو الذي أثار اعجاب كل الناس.
هيرو : هو أجمل ثوب على ما يقال.
مرغريت : أقسم بأنه مجرّد قميص حمّام بالنسبة إلى ثوبك الرائع ذاك، مزدان بالمجوهرات الثمينة. ولكن ثوبك يفوقه في أناقته ونعومته.
هيرو : أتمنى أن أكون سعيدة لدى إرتدائه، لأني أشعر ببعض الحزن.
مرغريت : سيزداد حزنك عندما تنوئين تحت وطأة الرجل.
هيرو : اخرسي. ألا تخجلين من هذا الكلام ؟

مرغريت : عليّ أن أخجل لأني أتكلّم عن حدث شريف ؟ أليس الزواج حدثاً مشرّفاً حتى في نظر المتسوِّل نفسه ؟ فكيف بزفافك أنت إلى سيد مثل الكونت كلوديو ؟ كنت تفضِّلين لو استعملت بدل كلمة رجل كلمة زوج. لكن، هل من المعيب التكلم عن وزن الرجل، خاصة إذا كان الأمر يتعلّق برجل شرعي سيقترن بامرأة شرعية ؟ أنا لا أرى مانعا يحول دون ذلك، إذ في مثل هذه الحالة سيصبح وزنه خفيفا. اسألي بالحري السيدة بياتريس. ها هي قادمة إلينا.

هيرو : صباح الخير، يا ابنة عمي.

بياتريس : صباح الخير أيتها الحلوة هيرو.

هيرو : حسنا. ما بك تتكلمي بنبرة حزينة ؟

مرغريت : لننشد إذاً أغنية تليق بالمحبين. أنشدا أنتما أما أنا فسأرقص.

بياتريس (مخاطبة مرغريت) حذارِ من هذا الغناء. إذ يعني أن منشده مقبل على كارثة.

مرغريت : يا لسوء الظن !

بياتريس : دقت الساعة الخامسة، يا ابنة عمي، وينبغي أن تكوني قد انتهيتِ من إعداد نفسك. في الحقيقة، أنا أشكو من مرض مؤلم.

مرغريت : ولمن ترسلين هذا التنهُّد، أللطبيب، أم للحبيب ؟

بياتريس : أنا أرسله في سبيل الحب.

مرغريت : هيّا بنا. لقد سبق لك أن كفرت بالحب والمحبين.

بياتريس : ما تقول هذه المخبولة ؟

مرغريت : أنا ؟ لا شيء. أتمنى أن يحقق الله أماني الجميع.

هيرو : أنظري إلى هذا القفاز الذي أرسله إليّ الكونت. فالعطر الرائع يفوح منه منعشاً.

بياتريس : أنا مصابة بالزكام ولا أستطيع التنشق.

مرغريت : لا شك في أنها مصابة بزكام حادّ، إذ كيف لا تتنشق فتاة مثلها رائحة العطر المعبقة.

بياتريس : سامحني الله، سامحني الله. منذ متى أنت تتمتعين بمثل هذه القريحة ؟

مرغريت : منذ أن فقدتها أنتِ، فانفتاح ذهني يجتذب جميع الناس.

بياتريس : أنا لا أرى ذلك، لأني مريضة.

مرغريت : حاولي الحصول على عطر كاردوس بندكتوس وادهني به صدرك. فهو الدواء الوحيد الذي يشفي من الغثيان.

هيرو (مخاطبة مرغريت) : بنصيحتك هذه، وخذتها كالشوكة.

بياتريس : بندكتوس ؟ ولماذا بندكتوس ؟ أنت، لا شكّ، ترمين إلى عبرة ما من وراء بندكتوس هذا ؟

مرغريت : أقسم لك بأني لا أضمر شيئا. أنا أتكلم فقط عن الشوك المبارك. أتظنين اني أودّ القول أنك تحبين. لا، لا يسعني أن أصدّق أنك تعشقين. ومع ذلك فان بنديكت قد تغيّر كثيرا. لقد اصبح رجلاً آخر. كان يقسم أغلظ الإيمان بأنه لن يتزوّج، والآن تغيَّر تماما في نظرته إلى الأمور. أما أنتِ فلا أعلم مدى التغيير الذي طرأ على مواقفك. لكن يبدو لي أنك تنظرين بعيني امرأة هائمة، شأنك في ذلك شأن جميع النساء.

بياتريس : ما أسرع لسانك في إلقاء الكلام جزافا.

مرغريت : إنه يعدو بسرعة فائقة. (تدخل أرسول).

أرسول : اسرعي يا سيدتي، اسرعي. فلقد وصل الأمير والكونت والسيد بنديكت، ودون جوان وجميع ظرفاء المدينة ليصطحبوكِ إلى المعبد.

هيرو : ساعديني على ارتداء ملابسي. (يخرجن).

المشهد الخامس

في إحدى قاعات قصر ليوناتو

(يدخل ليوناتو ودكباري وفيرجي)

ليوناتو (مخاطبا دكباري) : ماذا تريد مني ؟
دكباري : أريد أن أطلعك على قضية هامة.
ليوناتو : أرجوك أن تختصر ما استطعت. ألا ترى إني مستعجل ؟
دكباري : بالتأكيد، يا سيدي.
فيرجي : بالتأكيد يا سيدي.
ليوناتو : والآن ما وراءكم من أخبار أيها الأصدقاء ؟
دكباري : من عادة فيرجي أن يخرج عن الموضوع في حديثه لأنه رجل مسنّ. ولكني أشكر الله على كونه غير بطيء الفهم، كما كنت أتصوّر، وهو في الحقيقة رجل شريف.
فيرجي : اشكر الله على أني رجل شريف.
ليوناتو : ما لي أراكم تضجّون كثيرا ؟
دكباري : هذه عادتنا كما تعلم. لكننا في الحقيقة لسنا سوى رجال أمن مساكين. كم كنت أتمنى لو كانت لي أبهة الملوك. أنا أبذل كل جهدي لأخدم مصلحتك.
ليوناتو : تخدم مصلحتي أنا ؟
دكباري : نعم. لقد تناهت إليّ أخبار تتعلّق بك، وهذا ما يسعدني.
فيرجي : أنا أيضاً.
ليوناتو : أريد أن أعلم ماذا تريدان أن تقولا لي.
فيرجي : لقد ألقت دوريتنا القبض هذه الليلة على أسفل شخصين عرفتهما مدينة مسّين باستثناء حضرتك.

دكباري : اعذره يا سيدي. هو يريد أن يتكلّم بالمطلق. احسنت يا فيرجي. إنه رجل طيب يا سيدي، وهو أشرف إنسان عرفته. ليس جميع الناس سواسية.

ليوناتو : في الحقيقة، هو يشبهك في شيء.

دكباري : ان الله سبحانه يوزع عطاياه كما يشاء.

ليوناتو : عليّ أن أترككما.

دكباري : لي كلمة أخرى أودّ أن أقولها. لقد قبضت دوريتنا على شخصين مشتبه بهما ونودّ أن يجري التحقيق بشأنهما، هذا الصباح أمام سيادتك.

ليوناتو : قوما أنتما بالتحقيق المطلوب، وارفعا إليّ تقريراً خطياً بشأنهما. أنا مستعجل.

دكباري : سيكون هذا كافيا.

ليوناتو : إشرب كأسك قبل أن تغادرنا. (يدخل رسول).

الرسول (مخاطبا ليوناتو) : سيدي. القوم بانتظارك لزفّ إبنتك إلى زوجها.

ليوناتو : أنا مستعدّ للذهاب فورا. (يخرج ليوناتو مع الرسول).

دكباري : هيا أيها الصديق. أحضر شاربوند، وقل له أن يحمل معه ريشته وأوراقا ليكتب عليها. سنباشر في استجواب المتهمين.

فيرجي : وسنقوم بذلك ببراعة.

دكباري : لن ندّخر جهدا في مهمتنا. سندقق في كل شاردة وواردة. (يفرك جبينه) أن لديّ من الوسائل ما يحملهما على الاقرار بكل شيء. هيا اصطحب الكاتب العلّامة ليدوّن كل شيء. واتبعني الى السجن (يخرجان).

الفصل الرابع

المشهد الاول

داخل أحد المعابد

(يدخل دون بيدرو ودون جوان وليوناتو وفرنسيس وكلوديو
وبنديكت وهيرو وبياتريس، تتبعهم جماعة من المدعوين)

ليوناتو (مخاطبا كاتب العقد فرنسيس) : هيا يا فرنسيس اختصر ما استطعت. استعمل التعبير الأبسط لعقد الزواج. ثم عدّد للزوجين واجباتهما المتبادلة.

فرنسيس (مخاطبا كلوديو) : هل تريد هذه السيدة (يشير إلى هيرو) زوجة لك ؟

كلوديو : لا.

ليوناتو : لقد جاء إلى هنا ليتزوجها. كما جئت أنت لعقد زواجهما.

فرنسيس (مخاطبا هيرو) : هل تريدين الكونت زوجاً لك ؟

هيرو : نعم.

فرنسيس : إذا كان أحدكما يعرف سببا يمنع زواجكما فليعلنه.

كلوديو : هل تعرفين سببا مانعا يا هيرو ؟

هيرو : لا يا سيدي.

فرنسيس : وأنت أيها الكونت ؟

ليوناتو : أتجاسر على الإجابة نيابة عنه بأنه لا يعرف سببا مانعا.
كلوديو : وأي عمل لا يجسر الرجال على القيام به ؟ كثيرة هي الأعمال التي يقدمون عليها يومياً ولا يدرون ماذا يفعلون.
بنديكت (مخاطبا كلوديو) : ماذا تقول ؟ كل ما تتفوه به تعجُّب بتعجب، إلا القليل من صيحات الفرح.
كلوديو : توقف برهة يا كاتب العقد فرنسيس (مخاطبا ليوناتو) اسمح لي يا صديقي أن أسألك : هل توافق بملء ارادتك على اعطائي ابنتك ؟
ليوناتو : إني أمنحك إياها، كما وهبنيها الله.
كلوديو : وماذا أستطيع أن أعطيك بالمقابل، يعادل عطاءك الغالي هذا ؟
دون بيدرو : لا شيء. المهم هو أن لا ترفضها.
كلوديو (مخاطبا دون بيدرو) : أيها الأمير، أنا أقدّر حسن صنيعك معي. فما أطلبه الآن هو أن توبّخ ليوناتو، وأن لا تأذن بأن يعقد صديقك زواجه على امرأة فاسدة. إن ظاهرها فقط شريف. أنظر إليها كيف إستحت كالعذارى. ما أفظع الخيانة القادرة على الظهور بمظهر النقاوة والطهارة. أوَليس الدم هو الذي جعل الاحمرار يعلو وجهها ؟ وهو أول شاهد على برائتها. أوَلَا تُثبت لكم كل هذه المظاهر أنها عذراء ؟ حسناً. لكن الحقيقة هي عكس ذلك، لأنها خائنة. إن احمرار وجهها هو دليل قاطع على خجلها لا على نقاوتها.
ليوناتو : ماذا تزعم أيها الكونت ؟
كلوديو : لا، لا أريد الإقتران بفاسقة.
ليوناتو : إذا كنت أنت حاولت اختبارها، فأفقدتها عفافها بعد أن شللت قدرتها على مقاومتك ...
كلوديو : إني أفهم قصدك. تريد أن تقول لي إذا كنت قد عرفتها، وإذا كانت قد استسلمت إليّ فبصفتي زوجها، فعلت ذلك، وانك تعذرني في إستباقي الأمور هكذا. كلا، يا ليوناتو، أنا لم اجرِّبها قط. فقد أبديت لها دوماً غيرة الشقيق على شقيقته.
هيرو : وهل أظهرتُ لك أنا من العواطف غير ما بدر منك نحوي ؟
كلوديو : كفى. سأعلن الحقيقة. لا تحاولي التستُّر بالمظاهر الخداعة لإخفاء

قبائحك وأنتِ على ما أنت عليه من انعدام الطهارة والنقاوة، ومن الشهوة الجامحة.

هيرو : سيدي، هل هو مريض حتى-يهذي هكذا ؟

ليوناتو (مخاطبا دون بيدرو) : لمذا لا تتكلم أيها الأمير ؟

دون بيدرو : ماذا يسعني أن أقول ؟ لقد لحقت بي الإهانة أنا الذي توسّطت لعقد قران أعزّ صديق لي على امرأة فاسقة.

ليوناتو : هل أنا في حلم أم في يقظة ؟

دون جوان : إن ما تسمعه يا سيدي، من كلام هو حقيقي وعادل.

بنديكت : لا يبدو لي أنني في عرس.

هيرو : كلام عادل ؟ يا إلهي !

كلوديو : يا ليوناتو، ألستُ أنا صديقك الواقف هنا ؟ أليس هذا هو الأمير ؟ أليس هذا هو شقيقه ؟ أليس هذا هو وجه هيرو ؟

ليوناتو : انك تقول الحق يا سيدي.

كلوديو : دعني أطرح سؤالا واحدا على ابنتك، وباسم السلطة الأبوية التي تحقّ لك عليها، أرجوك أن تأمرها بأن تجبني بصدق وأمانة.

ليوناتو (مخاطبا هيرو) : أنا والدك آمرك بذلك.

هيرو : نجِّني اللهمَّ ! ماذا تبغي من وراء استجوابي ؟

كلوديو : أريد أن أعرِّفك باسمك الحقيقي.

هيرو : اسمي هيرو، ولا يستطيع أحد تلطيخه بأي عار.

كلوديو : ان هيرو هي التي اساءت الى فضيلة هيرو. من هو الرجل الذي كان يتحدّث إليك مساء البارحة، ما بين الثانية عشرة ليلا والساعة الواحدة ؟ إذا كنت حقا عذراء، أجيبي بصدق.

هيرو : لم أكلم أحدا في ذلك الوقت.

دون بيدرو: أنتِ منافقة وقحة. يا ليوناتو، أؤكد لك بكل لوعة وأسى، وأقسم بشرفي بأني شاهدتها مع شقيقي وهذا الكونت الغاضب، وسمعتها أيضا الليلة البارحة تكلم من خلال نافذتها فاسقاً أقرّ هو بلقاءاتهما السافلة المتكررة في الخفاء.

دون جوان : هذه يا سيدي، أمور دنيئة لا يليق بنا التحدّث عنها. آه ! كم يؤلمني سلوكك الشائن أيتها العاهرة !

كلوديو : أنا واثق بأنك كنت اصبحت بطلة، لو أن مفاتنك الظاهرة أضفت روعتها على أفكارك وأماني قلبك، وشرّفتِها. وداعا أيتها المرأة الجميلة المخيفة. وسأغلق من أجلك جميع منافذ قلبي في وجه الحب، وسأشك في حقيقة كل جمال، وأسلبه روعته وأعتبره رمزا للشر.

ليوناتو : من منكم يحمل خنجرا ؟ (يغمى على هيرو).

بياتريس : ما بك يا ابنة عمي ؟ لقد انهارت قواك.

دون جوان : هيا نذهب. لقد ارهقتها كل هذه التصريحات. (يخرج دون بيدرو ودون جوان وكلوديو).

بنديكت : كيف حالها الآن ؟

بياتريس : أعتقد بأنها ماتت. النجدة، يا عمي ! هيرو، هيرو ! عمي، سيدي بنديكت، يا فرنسپس.

ليوناتو : أيها القدر، لا تدعها تفلت من يدك. إن موتها هو أفضل ستار يسدل عليها لإخفاء عارها.

بياتريس : حسنا. يا ابنة عمي هيرو.

فرنسيس : تشجعي، يا سيدتي.

ليوناتو : ما هذا ؟ أتفتحين عينيك ؟

فرنسيس : نعم. ولماذا لا ؟

ليوناتو : لماذا لا ؟ ألا يصرخ العالم بأسره في وجهها قائلا أنها ماكرة جاحدة. هل تستطيعين إنكار جريمتك ؟ لا أريدك أن تعيشي بعد الآن، يا هيرو. وإذا لم تموتي من تلقاء نفسك، فسأجهز أنا عليك، أنا الذي شكوت دائماً من كوني والد ابنة وحيدة، أنا الذي لمتُ الطبيعة دوما على بخلها. لماذا أنجبتك ؟ لماذا كنت دائماً رائعة في عينيّ ؟ كم أفضّل أن تكوني إبنة شحاذ، لقيتك أمام باب منزلي، وتعهدتك بدافع الرحمة والشفقة ! وفي مثل هذه الحالة يمسي باستطاعتي أن أقول، بعد أن لطخت سمعتك بالعار، أنك لست من صلبي. فالعار الذي لبسك وأصبحتِ وإياه كائنا واحدا، هو من أبوين

مجهولي الحسب والنسب. ولكنك ابنتي، أجل ابنتي. وقد أحببتك وافتخرت بك. نعم، أحببتك أكثر من نفسي. أنت ابنتي، مع انك تمرغت في الوحل، فمياه البحر بأجمعها تعجز عن غسل عارك، وملحه أعجز من أن يعيد الطهارة الى جدسك الملطخ القذر.

بنديكت : سيدي، سيدي، أرجوك أن تهدأ. لقد استولت عليّ الدهشة، ولا أستطيع أن أقول شيئا.

بياتريس : أقسم بأن ما قيل عنها هو محض افتراء.

بنديكت : سيدتي، هل نمتِ معها الليلة البارحة ؟

بياتريس : لا، فمنذ سنة، هذه هي الليلة الوحيدة التي لم أنم فيها معها.

ليوناتو : ان الدلائل تثبت ما قيل بحقها. هل يعقل أن يكذب الأميران ؟ وأن يكذب كلوديو الذي أحبها، كلوديو الذي انهمر الدمع من عينيه عندما تحدث عن سلوكها الشائن ؟ هيا نبتعد عنها وندعها تموت وحدها.

فرنسيس : استمعوا إليّ قليلا. إذا كنت قد لزمت الصمت حتى الآن، وتركت الأمور تأخذ مجراها الطبيعي، فلكي أراقب هذه الفتاة. للمرة الألف رأيت الاحمرار يعلو فجأة وجهها، وبفعل الخجل البريء، يختفي للمرة الألف أيضا، تاركا وراءه بياضا ناصعا ملائكيا. لقد لاحظت في نظراتها نارا مشتعلة تود أن تحرق جميع الاتهامات التي اطلقها الأميران بحق طهارتها. بامكانكم أن تسخروا من تفسيري الأمور، ومن ملاحظاتي حول كل ما جرى، وأن تعتبروني غبيّاً إذا شئتم، فإن خبرتي الواسعة والدراسة الجديدة التي تلقيتها تؤكدان ما قلته لكم. بإمكانكم ان تسخروا أيضا من سني ومن مقامي ومهمتي الجليلة. انما لا يسعكم أن تزعزعوا ثقتي واقتناعي بأن هذه الفتاة ضحية بريئة لخطأ مفجع.

ليوناتو : هذا غير ممكن، يا صاحبي. الحياء الوحيد المتبقي لها يكمن في أنها حقا جاحدة تستحقّ الهلاك، إنها لم تنكر الاتهامات الموجهة إليها. فلماذا تريد اخفاء الحقيقة وهي ظاهرة للعيان كالشمس في وضح النهار.

فرنسيس (مخاطبا هيرو) : من هو الرجل الذي تتهمين بأنك اتصلت به ؟

هيرو : إن من أتهم به يعرفه غيري جيدا، أما أنا فلا أعرفه. وإذا عرفت رجلا

لا تسمح لي طهارتي بالتعرف اليه، فليحرمني الله رحمته وغفرانه ذنوبي. هل لك أن تبرهن أن رجلا تحدّث إلي مساء أمس اذا استطعت ذلك، فانكرني وابغضني واحكم عليَّ بالموت.

فرنسيس : أعتقد بأن أولئك السادة قد وقعوا في مغالطة رهيبة.

بنديكت : إن اثنين منهما يتمتعان بالاستقامة والشرف. إنما اذا كانت حكمتهما قد انحرفت هذه المرة، فان ذلك سببه هو الذي ما انفكَّ يختلق الافتراءات ويطلقها بحقها جذافا.

ليوناتو : أنا لا علم لي بشيء. فاذا كان ما اتُّهمت به صحيحا، سأقضي عليها. لكن اذا أسيء الى شرفها وألصِقَت بها هذه التهمة المشينة، فأقتصّ من الفاعلين مهما علا قدرهم. إني ما زلت شابا ذكيا ميسورا، وبالتالي قادرا على الأخذ بالثأر لكرامتي وكرامة ابنتي. وإن ابتعد عني الأصدقاء ولم أعد أجد الى جانبي ذراعا قويا وعقلا ثاقبا ووسائل ناجعة للوقوف في وجههم.

فرنسيس : توقف قليلا واسمع نصيحتي. لقد غادر الأميران هذا المكان معتقدين بأن ابنتك قد فارقت الحياة. وهي تنوي أن تحتجب عن الأنظار فترة معينة. فأعلن أنت موتها وتمم جميع مراسم الجنازة.

ليوناتو : وما الفائدة من ذلك ؟

فرنسيس : إن من افترى على ابنتك سيوبخه ضميره ويندم على ما فعل. وهذا أمر حسن. لكن حيلتنا هذه ستقودنا إلى ما هو أعظم من ذلك. سيبكي جميع الناس ابنتك التي ماتت بسبب الاتهامات الموجهة إليها، وبالتالي سيصفحون عنها. في الحقيقة إن ما يحدث دائما هو أننا لا نولي خيرا ما حق قدره قبل أن نحصل عليه. ولكن لا نكاد نفقده حتى نبالغ في تقديره، ونكشف القيمة التي اغفلناها عندما كان ملك يدنا. هذا ما سيجري لكلوديو عندما يعلم بأن كلماته هي التي قضت عليها. سيتمنى لو بقيت على قيد الحياة. وستتراءى لخياله بكل ما أوتيت من جمال وروعة. عندئذ سيخيم عليه الحزن، اذا كان فعلا قد احبها، وسيندم على اتهامه اياها، ولو كانت التهمة التي وجهها إليها صحيحة. إفعل ما أنصحك به فتكون النتيجة أفضل بكثير من توقعاتنا. حتى اذا لم نبلغ هذا الهدف فسيضع موت ابنتك المفترض حدا للعار الذي لحق بك. واذا

خاب املنا من هذه الناحية، فبامكانك ان تقودها الى حد الأمكنة المنزوية لتمضي بقية عمرها هناك، بعيدة عن الالسن الطويلة وعن كل الذكريات والتحديات الأليمة.

بنديكت : أيها السيد ليوناتو، عليك أن تقتنع بما قاله فرنسيس كاتب العقد هذا. فمهما كانت الصداقة التي تشدني الى الأمير والى كلوديو متينة وحميمة، أقسم لك بأني سأعمل معك بكل استقامة في السر والعلن.

ليوناتو : في غمرة هذه الاحزان التي تستولي عليّ، أودّ التمسك ولو بخيط رفيع يقودني الى شاطىء الأمان.

فرنسيس : إذاً نحن متفقون. فهيا نذهب. ان الأمراض غير الاعتيادية ينبغي لمعالجتها اتباع طرق غير اعتيادية (مخاطبا هيرو) تعالي أيتها السيدة. عليك أن تموتي لكي تحيي من جديد. لقد أرجىء عرسك الى وقت آخر، فاعتصمي بالصبر الجميل. (يخرج فرنسيس كاتب العقد، وهيرو وليوناتو).

بنديكت : هل كنت تبكين طوال هذا الوقت، أيتها السيدة بياتريس ؟

بياتريس : نعم، وأنا مستعدة للبكاء مدة أطول أيضا.

بنديكت : ليس هذا ما أتمناه.

بياتريس : هذا لا يهم. أني أبكي بشكل عفوي.

بنديكت : أنا على ثقة بأن القوم قد اغتابوا ابنة عمك.

بياتريس : ما أعظم المكافأة التي سأغدقها على من يتمكن من أن يعيد إليها شرفها وكرامتها.

بنديكت : هل هناك وسيلة أبرهن بواسطتها على صداقتي لك ؟

بياتريس : الوسيلة سهلة وبسيطة. إنما يعوزني الصديق.

بنديكت : هل من رجل يستطيع القيام بذلك ؟

بياتريس : هي مهمة رجل، ولكنها ليست مهمتك أنت.

بنديكت : لا أحب احدا في العالم أكثر منك. ألا يبدو هذا غريباً ؟

بياتريس : من السهل عليّ أن أقول لك اني لا أحب أحدا في العالم أكثر منك. لكنك لن تصدّقني. مع ذلك أنا لا أكذب ولا أجزم بشيء، ولا أنكر شيئا. لكنني حزينة لما حدث لأبنة عمي.

بنديكت : أنا واثق، وأقسم لك بسيفي، يا بياتريس، أنك تحبينني.
بياتريس : لا تقسم في موضوع يخصني.
بنديكت : سأقسم أنك تحبينني، وسأرغم كل من ينكر أني أحبك على التراجع عن قوله.
بياتريس : ألا تريد أن تقلع عن تأكيدك ؟
بنديكت : كلا، مهما كانت النتيجة. إني أحبك.
بياتريس : اذاً سامحني الله.
بنديكت : ما هي الاهانة التي وجهتها إليّ، يا عزيزتي بياتريس ؟
بياتريس : لقد قاطعتني حين كنت أودّ أن أعلن لك عن حبي.
بنديكت : اعلني الآن ذلك من كل قلبك.
بياتريس : أحبك من كل قلبي، إلى درجة أني بتّ عاجزة عن البوح بذلك.
بنديكت : هيا قولي ماذا ينبغي عليّ أن أفعل في سبيلك.
بياتريس : اقتل كلوديو.
بنديكت : لا، لا أستطيع ذلك مهما كان الثمن.
بياتريس : اذاً أنت تقتلني برفضك هذا. وداعا.
بنديكت : مهلا، يا حبيبتي بياتريس.
بياتريس : أنت لا تحبني. أرجوك أن تدعني أذهب.
بنديكت : بياتريس.
بياتريس : أريد أن أذهب.
بنديكت : دعينا نصبح اصدقاء أولا.
بياتريس : انك تجرؤ على مصادقتي، ولا تجرؤ على قتل عدوّي.
بنديكت : هل كلوديو عدوك ؟
بياتريس : ألم يبرهن على أنه قاتل، عندما افترى على ابنة عمي، وحقرها ولطخ شرفها بالعار ؟ آه ! لو كنت رجلا. ما أغربه ! يوشك على الاقتران بها، وفجأة يطلق في وجهها اتهاماته أمام المدعوين بحقد جامح لا يعرف الحدود. آه ! لو كنتُ رجلا، لأجهزت عليه في الساحة العامة.
بنديكت : اسمعي، يا بياتريس.

بياتريس : هيرو تُكَلِّم رجلا من نافذتها ؟ يا له من افتراء خسيس.
بنديكت : ولكن اسمعي، يا بياتريس.
بياتريس : حبيبتي هيرو. لقد اغتابها وافترى عليها، وانتهى أمرها.
بنديكت : بياتـ ...
بياتريس : أين الأمراء والوجهاء ؟ هذه بالفعل تهمة جهنمية. آه ! لو كنتُ رجلا. لو كان لي على الأقل صديق قادر على أن يبرهن أنه رجل من أجل خبي. ولكن الرجولة تحوّلت في هذه الأيام الى التملّق والمداهنة والثرثرة، وأصبحت القيم مجرد اغراء ومجاملة. في أيامنا هذه، لكي يصبح المرء فارسا مغوارا يكفيه أن يختلق كذبة ويؤكدها. آه ! لن أصبح رجلا مهما قويت رغبتي في ذلك. ولهذا سأموت كامرأة من شدة قهري وعذابي.
بنديكت : مهلا، يا بياتريس. بحق السماء، أنا أحبك.
بياتريس : اذا كنت تحبني، استعمل قسَمك لغير هذه الغاية.
بنديكت : هل تعتقدين، في قرارة نفسك، بأن الكونت كلوديو قد افترى على هيرو ؟
بياتريس : أنا واثقة من ذلك كل الثقة.
بنديكت : كفى. إني أتعهد بتحقيق أمنيتك. سأتحداه. هاتي يدك لأقبِّلها وأمضي. سيؤدي لي الكونت حسابا عسيرا. ترقبي أخباري لتحكمي عليّ اذهبي وعزِّي ابنة عمك. يجب أن أقول أنها ماتت. والآن وداعا.
(يخرجان).

المشهد الثاني

في السجن

(يدخل دكباري وفيرجي بأثواب فضفاضة يتبعهم
بوراشيو وكنراد وقد اقتادهما الحرس)

دكباري : هل حضر الجميع ؟
فيرجي : هاتوا وسادة ومنضدة. أين المجرمان ؟
دكباري : أنا جاهز مع رفيقي.
فيرجي : للتحقيق في الأمر. ولكن أين المجرمان اللذان يجب أن يجري التحقيق بشأنهما ؟ ليمثلا أمام رجل الأمن.
دكباري : نعم، ليمثلا أمامي. (يتقدم المجرمان) ما هو اسمك ؟
بوراشيو : بوراشيو.
دكباري : (مخاطبا فيرجي) : ارجوك ان تكتب اسم بوراشيو. (مخاطبا كنراد) وأنت أيها الحقير ؟
كنراد : أنا رجل نبيل، واسمي كنراد.
دكباري : اكتب النبيل كنراد. هل تتقيان الله ؟
كنراد وبوراشيو : نعم، يا سيدي، نأمل ذلك.
دكباري : أكتب أنهما يأملان ذلك. أنتما متهمان بالاحتيال، فما هو ردّكما على ذلك ؟
كنراد : اقسم بأننا لسنا محتالين.
دكباري : انه أفّاق ماكر. سأهتم بأمره فورا. (مخاطبا بوراشيو) قلتَ انكما لصان متستران.
بوراشيو : لسنا كذلك يا سيدي.

دكباري : حسنا. أنتما ماكران أمام الله والناس. (مخاطبا فيرجي) هل دوّنت ذلك ؟

فيرجي : سيدي، إنك لا تتبع الأصول المرعية في استجوابك. عليك أن تحضر الحرّاس الذين اتهموهما.

دكباري : أنت على حقّ. ليمثل رجال الأمن (يصطف الحرس أمام المحكمة) أستحلفكم باسم الأمير أن تتهموا هذين الرجلين.

الحارس الاول : سيدي، لقد قال هذا الرجل أن دون جوان، شقيق الأمير، لئيم خبيث.

دكباري : أكتب : أن الأمير دون جوان لئيم خبيث.

بوراشيو : سيدي، رجل الأمن...

دكباري : اسكت، أنا لا أحب محياك.

فيرجي (مخاطبا حرس الليل) : وماذا قال غير ذلك ؟

الحارس الثاني : قال أنه قبض ألف دينار من دون جوان ليتهم السيدة هيرو زوراً.

دكباري : هذه أكبر عملية سلب يمكن أن تتم.

فيرجي : نعم. وماذا قال أيضا ؟

الحارس الاول : ان الكونت كلوديو، الذي صدّق هذا الكلام، عزم على التشهير بالسيدة هيرو أمام جميع المدعوين، ورفض الاقتران بها.

دكباري : أيها الخسيس، سيكون نصيبك الهلاك المحتم. ماذا جرى بعدئذ ؟

الحارس الثاني : هذا كل شيء.

فيرجي (مخاطبا السجينين) : الآن لا تستطيعان الانكار. فالأمير دون جوان قد هرب سرا هذا الصباح. أما هيرو، فبعد أن اتُّهمت هكذا ورفضها الكونت، فارقت الحياة فجأة تحت وطأة حزنها الشديد. سيدي، رجل الأمن، أمر بتقييد هذين الرجلين واقتيادهما إلى ليوناتو. سأسبقكم وأقدم له الاستجواب.

(يخرج)

دكباري : هيا.

فيرجي : اوثقوهما.

كنراد : يا من سافل !
دكباري : سامحني الله. أين فيرجي ؟ ليكتب أن رجل الأمن التابع للأمير هو كاذب سافل. هيا، اوثقوهما. يا لك من وغد !
كنراد : أنت حمار، أنت حمار.
دكباري : هكذا تسيء الى مقامي والى شيخوختي ؟ أين فيرجي ليدوّن ما قاله لي ؟ لا تنسوا أيها السادة، أني حمار. لا، أيها السافل الخسيس. أنا رجل حكيم، وموظف مطيع، ورب عائلة. أنا أعرف القوانين. أنا على قسط كبير من الفن. خذوه. آه ! لو كان فيرجي هنا ليدوّن أن هذا الوغد شبَّهني بالحمار.
(يخرج الجميع).

الفصل الخامس

المشهد الأول

في قصر ليوناتو

(يدخل ليوناتو وانطونيو)

انطونيو : إذا بقيت على هذه الحالة، فانك موتا ستموت، ليس من الحكمة أن تساعد الألم على تعذيب نفسك.

ليوناتو : أرجوك ان تدعني من نصائحك، فانها لا تفيدني بتاتا. إن مصيرها في أذنيّ كمصير الماء الذي يتساقط من الغربال. لا تنصحني بعد الآن. ولا أريد تعزية من أحد اذا لم تكن آلامه مشابهة لآلامي. اعطني رجلاً أحب ولده مثلما فعلت أنا، وصُدم مثلي، ثم اخرجته عن صبره. قِس مصيبتي في عرضها وطولها بمصيبته. فاذا كان مثل هذا الرجل يستطيع بعد كل ما حلّ به أن يطرد عنه الحزن والأسى بدلا من أن يسترسل في البكاء والنحيب، إذا كان باستطاعته ان يداوي ألمه بالحكَم، فائتني به لأتعلم منه الصبر. ولكن رجلا كهذا غير موجود. ان الناس يسدون النصائح ويتكلمون عن نسيان الألم، ولا يشعرون به. لكنهم اذا شعروا به انقلبت حكمتهم الى غضبة جامحة لا تبقي ولا تذر. لا، لا، إن واجب كل انسان أن يهوّن على الرازحين تحت وطأة

العذاب، ويحضهم على الصبر. انما لا أحد يستطيع أن يتغلب على التذمر الا عندما ينجو من النكبات التي تحل به. إذاً دعني من النصائح. فان صراخ ألمي يخرس جميع الحكَم.

انطونيو : الرجال لا يختلفون كثيراً عن الأطفال.

ليوناتو : ارجوك أن تسكت. أنا انسان من لحم ودم. لم يوجد فيلسوف استطاع أن يتحمل وجع اسنانه، مع أن جميع الفلاسفة كتبوا بأسلوب الآلهة.

انطونيو : على الأقل، لا تدع الألم يثقل عليك وحدك، دعه ايضاً يعذب الذين اساؤوا اليك.

ليوناتو : من هذه الناحية، انت على حق. سأفعل ما تقول. ان نفسي تنبئني بأن هيرو ضحية افتراء. هذا ما سأطلع عليه الأمير وكلوديو وكل من اساؤوا الى شرفها.

انطونيو : الأمير وكلوديو قادمان بخطى سريعة. (يدخل دون بيدرو وكلوديو بسرعة).

دون بيدرو : مساء الخير، مساء الخير.

كلوديو : السلام عليكما.

ليوناتو : لي كلمة أودّ قولها، أيها السادة.

دون بيدرو : اننا مستعجلون، يا ليوناتو.

ليوناتو : أنتما مستعجلان يا سيديَ. كما تريدان وداعا. هل حقا أنتما مستعجلان الى هذا الحدّ ؟ كما تريدان. هذا لا يهمني.

دون بيدرو : ما بك ؟ لماذا تحاول أن تناقشني ؟

انطونيو : ليس الأمر كذلك. انه لا يقصد أي نقاش.

كلوديو : من الذي اساء اليه ؟

ليوناتو (مخاطبا كلوديو) : أنت اسأت اليّ ايها الماكر. انت، لا تشهر سيفك. انا لا اخافك.

كلوديو : لتكن ملعونة يدي اذا كانت قد سببت الخوف لرجل مسن طيب مثلك. في الحقيقة، يدي لم تلمس سيفي.

ليوناتو : لا تسخر مني أيها الصديق. أنا لا أتكلم كالأبله، لكي أتبجّح تحت

ستار الشيخوخة بما كنت أفعله وأنا شاب، وبما كنت سأفعله لو لم أكن مسنًّاً. ألا اعلم بكل صراحة انك اسأت الى ابنتي، كما اسأت اليّ أنا ايضا الى درجة اني اضطررت الى ان ادع جانبا وقاري واحترامي لنفسي. إني أتحداك بالرغم من الشيب الذي أخذ يدبّ في شعري، وبالرغم من اني اصبحت ارزح تحت وقر السنين. لقد قلت انك اسأت الى ابنتي البريئة، لأن افتراءك عليها جعلها ترقد الآن مع أجدادها تحت التراب، في قبر لم يضمّ في يوم من الأيام من لطّخه العار. عارك فقط نزل اليه، وهو من صنع دناءتك.

كلوديو : دناءتي.

ليوناتو : نعم دناءتك انت، يا كلوديو.

دون بيدرو : أنت لا تقول الحق، أيها العجوز.

ليوناتو : سيدي، سيدي. أنا مستعد لأن أبرهن عن ذلك بقتله، اذا لم يتراجع عن كلامه بالرغم من براعته في امتشاق السيف وبالرغم من عنفوان شبابه.

كلوديو : ابتعد عني. لا شأن لك معي.

ليوناتو : كيف تردّني هكذا، وأنت قاتل ابنتي ؟ اذا قتلتني انا تكون قد قتلت رجلا.

انطونيو : في هذه الحالة يكون قد قتل رجلين. ولكن هذا لا يهم ليقتلني أنا اولا. (مخاطبا كلوديو) : هيا اتبعني أيها الوغد. سأجهز عليك بالجَلد أيها المجرم الحقير. أقسم لك بأني سأفعل ذلك.

ليوناتو : اخي !

انطونيو : إهدأ. الله وحده يعلم كم كنت أحب ابنة أخي. وها هي قد ماتت. لقد افترى عليها اشقياء يودون الآن أن يبرئوا ساحة رجل لسانه كالأفعى.

ليوناتو : اخي، انطونيو ...

انطونيو : إهدأ يا عزيزي. انا أعرفهم جيدا. انهم أناس سفلة يهزأون ويفترون ويلطخون سمعة الآخرين. هذه مهمتهم. ولو استطاعوا تنفيذ كل ما تنطق به ألسنتهم من فساد لما تقاعسوا: هذا كل شيء.

ليوناتو : ولكن، يا اخي انطونيو ...

انطونيو : هيا. هذا أمر يعنيني أنا وحدي. دعني أفعل ما أريد.

دون بيدرو : أيها السادة، لا نودّ أن نفقدكم صبركم. (مخاطبا ليوناتو) لقد أحزنني موت ابنتك، ولكني أقسم لك بشرفي بأن كل التهم التي وُجِّهت إليها هي صحيحة وأكيدة.

ليوناتو : سيدي، سيدي.

دون بيدرو : لا أريد أن استمع اليك بعد الآن.

ليوناتو : هيا نذهب، يا شقيقي. أما أنا فأريد أن أسمع صوتي.

انطونيو : سيكون لك ما تريد. (يخرج ليوناتو وانطونيو، ويدخل بنديكت)

دون بيدرو : هذا هو الرجل الذي نبحث عنه.

كلوديو : حسنا. ما وراءك من أخبار، يا سيدي ؟

بنديكت (يتكلم بوقار) : صباح الخير، يا سيدي.

دون بيدرو : السلام عليك. كنت على وشك أن تقوم بمهمة الفصل بين المقاتلين.

كلوديو : كاد أن يحطمنا عجوزان فقدا جميع اسنانهما.

دون بيدرو : هما ليوناتو وشقيقه. ماذا تقول في ذلك يا بنديكت ؟ لو انهما اجهزا علينا، لما اعتُبرنا حديثي السن بالنسبة اليهما.

بنديكت : لا قيمة لمبارزة غير متكافئة. كنت أبحث عنكما.

كلوديو : ونحن بحثنا عنك في كل مكان. اننا ضحية كآبة مشؤومة، ونريد التخلّص منها. فهل تساعدنا على ذلك بتفكيرك ؟

بنديكت : تفكيري الآن في غمده. فهل استلّه منه ؟

دون بيدرو : هل تحمل تفكيرك في غمده ؟

كلوديو : لم اسمع قط بمثل هذا. لكنه لا يهم. أريد فقط رؤية رأس تفكيرك هذا.

دون بيدرو : لقد امتقع لونه. (مخاطبا بنديكت) هل أنت مريض أم غاضب ؟

كلوديو : هيّا تشجع، يا صاحبي. ان لديك من الصلابة ما يكفيك للقضاء على الحزن.

بنديكت : واذا ثابرت على تهجُّمك، فسوف أرد عليك بنفس الأسلوب. فأرجوك أن تختار موضوعا آخر للحديث.
كلوديو : هيا نعطِه سيفا آخر. لقد تحطم السيف الذي يحمله.
دون بيدرو : أقسم لك بأن لونه يتغير باستمرار. وأعتقد بأنه في حالة غضب شديد.
كلوديو : إذا كان غاضباً، فانه يعرف كيف يغيِّر ملامح وجهه.
بنديكت : هل أستطيع أن أهمس في أذنك كلمة على انفراد ؟
كلوديو : ليحمني الله من ايِّ تحدّ بالمبارزة.
بنديكت (يكلّم كلوديو بصوت منخفض) : أنت رجل شقي. وأنا لا أمزح. وسأبرهن لك على ذلك بالطريقة التي ترضيك. فاعترف بذلك، وإلا اعتبرتك جبانا، لأنك قتلت امرأة رائعة الجمال.
كلوديو (بصوت عالٍ) : حسنا. سألتقيك في الموعد المتفق عليه.
دون بيدرو : ماذا تقول ؟ هناك وليمة ؟ وليمة ؟
كلوديو : نعم، واني اشكرك على ذلك. يريد أن يولم لي رأس عجل مخصي وديك مسمَّن. اذا لم أحسن قطعهما، فقل أن السكين الذي أحمله لا يصلح لشيء. هل أجد ايضا على المائدة دجاجة ؟
بنديكت : أراك تتمتع بسرعة الخاطر !
دون بيدرو (مخاطبا بنديكت) : سأردد على مسمعك الثناء الذي كالته لك بياتريس البارحة، والمتعلق بروحك المرح. قلت لها انك تتمتع بفكر ثاقب، فأجابت اني على حقّ، وأنك تبدو كأنك أكمل الرجال في ايطاليا.
كلوديو : وبكت من كل جوارحها، عندما قالت أن امرك لا يهمها.
دون بيدرو : أهي قالت هذا ؟ ولكني أجزم بأنها بالرغم من كل ذلك تحبه حتى الجنون. ان ابنة الشيخ العجوز قالت لنا كل شيء.
كلوديو : كل شيء، كل شيء. كما يقول الكتاب : كانت عين الله تراه اذ كان مختبئا في الجنة.
دون بيدرو : متى نضع قرني الثور الهائج على رأس بنديكت ؟
كلوديو : وتحتها هذه الكتابة : هنا يقيم بنديكت، الرجل المتزوج.

بنديكت (مخاطبا كلوديو) : وداعا، ايها الفتى. انت تفهم ماذا أريد أن أقول. ها أنا اتركما الآن تسترسلان في حديثكما. (مخاطبا دون بيدرو) سيدي، اشكر لك مجاملتك. ينبغي عليّ بعد الآن أن أتخلى عن صحبتك، لأن شقيقك قد هرب من مسيِّن. لقد قتلتم امرأة جميلة طاهرة. اما بالنسبة الى كلوديو، فسنلتقي، والى أن نلتقي، رافقته السلام. (يخرج بنديكت).

دون بيدرو : هو يتكلّم بشكل جدّي.

كلوديو : إنه يفعل هذا حبّاً ببياتريس.

دون بيدرو : وهل تحدّاك ؟

كلوديو : نعم.

دون بيدرو : ما أروع الانسان الذي يهيم في كل مكان فاقدا عقله !

كلوديو : تارة يبدو عملاقا، اذا قورن بالقرد، وطورا يبدو القرد معلمه اذا قورن به.

دون بيدرو : كفر. لنعد الى ذواتنا. لنستعد هدوءنا ووقارنا. ألم يقل ان شقيقي قد لاذ بالفرار ؟ (يدخل دكباري وفيرجي والحرس ومعهم كنراد وبوراشيو).

دكباري (مخاطبا أحد السجينين) : تقدم. ستقتصّ العدالة منك. ومتى ثبت أنك دجّال ملعون، وجبت مراقبتك باستمرار.

دون بيدرو : ماذا أرى ؟ رجلين من أتباع شقيقي موثوقين ؟ أحدهما بوراشيو ؟

كلوديو : استعلم عن جريمتهما، يا سيدي.

دون بيدرو : يا رجال الامن، ما هو الجرم الذي ارتكبه هذان الشقيان ؟

دكباري : سيدي، لقد نقلا رواية مغلوطة، وتفوّها بأكاذيب مختلفة، وافتريا وشهّرا بإحدى السيدات، وأكدّا أمورا دنيئة. خلاصة القول أنهما من الأنذال المحتالين.

دون بيدرو : إني أطلب منك أن تقول لي ماذا فعلا، وما هي جريمتهما، ولماذا اوقفا وبماذا تتهمهما ؟

كلوديو : هذا استجواب رائع طبق الأصول، وسؤال مدروس محكم.

دون بيدرو (مخاطبا السجينين) : الى من أسأتما ؟ ما هي الجريمة التي

جنتها يداكما ؟ إن رجل الأمن هذا يبذو بارعا ومحتالا الى درجة أنني لا أفهم مراميه.

بوراشيو : سيدي، لن أذهب بعيدا في الإجابة على سؤالك. استمع اليّ، ثم ليقتلني الكونت. لقد توصلت الى غشّك انت بالذات. وما عجزت براعتك عن اكتشافه، اكتشفه هؤلاء الحمقى. لقد تسمّعوا اليّ اثناء الليل، أقصّ على هذا الرجل (مشيرا إلى كنراد) كيف أن دون جوان شقيقك حثّني على الافتراء على السيدة هيرو، وكيف تم احضاركما الى الحديقة حيث شاهدتماني أغازل مرغريت المتنكرة بزيّ هيرو، وكيف أن الكونت عزم على التشهير بها، وكان ينوي الزواج منها. لقد نظموا دعوى خطية عن الجريمة التي ارتكبت. وأنا أفضل أن أضحي بنفسي على أن أكررها. لقد ماتت السيدة متأثرة بالاتهام المزوَّر الذي اختلقته أنا وسيدي. وما أطلبه الآن هو العقاب الذي يستحقّه كل قاتل.

دون بيدرو (مخاطبا كلوديو) : ألا تخترق هذه الكلمات فؤادك كالسيف ؟

كلوديو : لقد كنت كمن يتجرع السم لدى سماعي كل كلمة نطق بها هذا المنافق.

دون بيدرو (مخاطبا بوراشيو) : ولكن هل هو شقيقي الذي دفعك الى القيام بذلك ؟

بوراشيو : نعم، ولقد نقدني مبلغا كبيرا لقاء تنفيذه.

دون بيدرو : انه يجسد الخيانة بعينها. وقد لاذ بالفرار بعد جريمته هذه.

كلوديو : حبيبتي هيرو ! لقد اخذت صورتك تتراءى لي بجميع السمات الرائعة التي احبّها فيك.

دكباري : هيا قرِّروا السجينين. في هذه اللحظة يكون فيرجي أعلم السيد ليوناتو بالأمر. (مخاطبا حرس الليل) لا تنسوا أن هذا الوغد قد وصفني بالحمار.

فيرجي : السيد ليوناتو قادم إلينا مع أحد مرافقيه.

(يدخل ليوناتو وانطونيو يتبعهما احد المرافقين)

ليوناتو : من منهما المجرم الشقي ؟ دعوني أبصره، حتى اذا رأيت من يشبهه تجنبته.
بوراشيو : أنا، يا سيدي.
ليوناتو : هل أنت القاتل الذي أودى بحياة ابنتي البريئة ؟
بوراشيو : نعم، أنا هو.
ليوناتو : لكنك لست وحدك الجاني، أيها الحقير. انك تفتري على نفسك، فهنا أمامي الآن رجلان نبيلان، أما الثالث فقد لاذ بالفرار، وجميعهم شاركوا في مصرع ابنتي. اشكرك، أيها الأمير، على مقتل ابنتي. سجِّل موتها الى جانب اعمالك المجيدة. فهو عمل بطولي ينبغي أن تفكر به.
كلوديو : لا أعلم كيف يمكنني أن أناشد صبرك. ومع ذلك، أجد نفسي مجبرا على الكلام. اختر أنت انتقامك مني. أنزل بي العقاب الذي تريده بسبب الجرم الذي ارتكبته. ومع ذلك، أنا على يقين بأن الذنب الذي ارتكبته كان نتيجة خداع وقعت في شركه.
دون بيدرو : أقسم برأسي أني مستعد لإرضاء هذا الشيخ، أن أتحمّل جميع ما سيفرضه عليّ.
ليوناتو : لا يسعني أن أقول لك : مُر ابنتي بأن تحيا من جديد. لأن هذا مستحيل. لكني أرجوكما أن تعلنا براءتها على أهالي مسِّين. وإذا كان حبك لها يوحي إليك بنبذة، فعلق على قبرها ما تجود به قريحتك، وأنشده لجثمانها هذه الليلة بالذات. (مخاطبا كلوديو) غدا صباحا، تعال إلى منزلي. وبما انك لم يتسنّ لك أن تصبح صهري، فكن على الأقل ابن أخي. ان لأخي ابنة تكاد تكون صورة لابنتي التي فقدتها وهي وريثتنا الوحيدة، نحن الاثنين، فامنحها اللقب الذي كنت ستعطيه لابنة عمها، وبذلك يزول سبب انتقامي.
كلوديو : يا لك من سيد نبيل ! ان طيبة قلبك تنتزع الدموع من عينيّ. سأضم هبتك الى صدري، ويمكنك أن تتصرّف بي كما تشاء.
ليوناتو : اذاً، أنا في انتظارك غدا. والآن اتركك (مقدما بوراشيو الى دون بيدرو) هذا الخبيث سيقابل مرغريت التي اشتركت في الجريمة التي دفع ثمنها شقيقك.

بوراشيو : اني أقسم لك الايمان المغلظة بأن لا علاقة لها بالموضوع. لقد كانت تجهل قصدي، عندما كلمتها. وكانت دائما مستقيمة وفاضلة في كل تصرفاتها.

دكباري (مخاطبا ليوناتو) : بالاضافة الى كل ما جرى، تجرأ هذا المجرم ووصفني بالحمار. ارجوك أن تذكر هذا في الحكم الذي ستصدره عليه. كما أن رجال الحرس سمعوه يتكلم عن احد المهرجين، وهو يقترض المال باسم الله ولا يرده لاصحابه، حتى بات الناس يرفضون اقراض اموالهم باسم الله. ارجوك أن تستجوبه حول هذه النقطة.

ليوناتو : اشكرك على اتعابك وخدماتك.

دكباري : اني أسبّح الله بسببك لأنك تتكلم كفتى محترم يقدر الجميل حق قدره.

ليوناتو (يعطيه كيس نقود) : خذ هذا لقاء أتعابك.

دكباري : بارك الله أفعالك.

ليوناتو : هيا. اني اسألك العفو عن سجينيك وأشكرك.

دكباري : أنا أترك امر هذا الماكر لك. وأطلب اليك أن تؤدبه ليكون عبرة لمن اعتبر. حفظك الله (مخاطبا فيرجي) تعال. (يخرج دكباري وفيرجي والحرس).

ليوناتو : الى اللقاء غدا صباحا. وداعا يا سادة.

انطونيو : وداعا يا سادة. نحن بانتظاركم غدا صباحا.

دون بيدرو : ارجو أن لا تتخلف عن الموعد المحدد.

كلوديو : هذه الليلة، سأبكي هيرو. (يخرج دون بيدرو وكلوديو).

ليوناتو (مخاطبا رجال حرسه) : خذوا هذين الشقيين. سنستفهم من مرغريت كيف تعرّفت الى هذا الخبيث.

المشهد الثاني

في حديقة ليوناتو

(يدخل بنديكت ومرغريت وقد التقيا)

بنديكت : ارجوكِ يا مرغريت ان تساعديني على التحدّث الى بياتريس.

مرغريت : هل تعدني بأن تنظم لي قصيدة تمدح فيها جمالي لقاء قيامي بذلك ؟

بنديكت : سأنظم لك قصيدة بليغة الاسلوب الى درجة لا تدع رجلا يقترب منك، لأنك تستحقين ذلك.

مرغريت : لن يقترب مني رجل ؟ هل فرض عليّ أن أبقى دوما في ترقب وانتظار ؟

بنديكت : ان ذهنك حادّ كحاسة الشمّ لدى كلب الصيد الذي لا يخطىء التقاط الطريدة.

مرغريت : أما ذهنك أنت فبليد كسيْف التدريب يضرب ولا يجرح.

بنديكت : انه، يا مرغريت، ذهن رجل يرفض جرح المرأة. أرجوك ان تستدعي بياتريس. سأسلمك درعي.

مرغريت : سلمونا سيوفكم، أيها السادة. لأن دروعكم لا تنتصب في وجوهنا.

بنديكت : اذا كنت تودين استعمال السيف، فباشري بوضع رأسه في الملزمة، ولا تنسي انه سلاح خطير بالنسبة الى الفتيات.

مرغريت : هيا. سأستدعي بياتريس التي تمشي على رجلين، على ما أعتقد.

بنديكت : والتي ستأتي حالا. (تخرج مرغريت وتغني على حدة).

ان إله الحب، الساكن في الاعالي

والذي يعرفني، يعلم كم انا أستحق الشفقة.

أنا لم أخلق لأنظم الشعر. (تدخل بياتريس). حبيبتي بياتريس، ها انت تتنازلين وتأتين اليّ عندما ادعوك.

بياتريس : وأنا مستعدّة للعودة اليك حين تشاء.

بنديكت : ارجوك أن تبقي بجانبي الى ذلك الحين.

بياتريس : تقول الى ذلك الحين ؟ وداعا اذاً. لكن قبل أن أمضي قل لي ماذا جرى بينك وبين كلوديو ؟ هذا ما جئت من اجل معرفته.

بنديكت : لقد تبادلنا كلاما لاذعا. من حقي الآن أن أقبّلكِ. (يحاول ضمها الى صدره).

بياتريس (تصدّه) : الكلمة اللاذعة هي مجرّد نفَس حاد، والنفس الحاد يثير الغثيان. اذاً سأمضي دون ان تقبّلني.

بنديكت : لقد فقدت الكلمة معناها الحقيقي. اذا كان لي أن اخبرك صراحة بما جرى بيننا. اقول اني دعوت كلوديو الى المبارزة. فعليه استجابة دعوتي او أعتبره جبانا. والآن ارجوك أن تقولي لي أي عيب من عيوبي حَبّبني إليك ؟

بياتريس : لقد احببتك من اجل عيوبك مجتمعة، لأنها رسّخت في نفسك سلطان الشرّ الى درجة حالت دون ولوج كل الخصال الحميدة الى قلبك. لكن ما هي الميزة التي من بين كل ما أتمتع به من ميزات، فرضت عليك حبي ؟

بنديكت : فرضت عليّ حبك ؟،هذا تعبير بليغ. في الحقيقة أقر بأن حبي لك قد فرض عليَّ فرضا رغما عني.

بياتريس : آه ! لو كنت تكدّر قلبك من اجل حبي لكدَّرت قلبي من أجل حبك.

بنديكت : أنت رائعة وكلانا نتمتع بذكاء خارق حتى نتغازل بمثل هذا الهدوء.

بياتريس : من النادر جدا أن يفتخر رجل ذكي بنفسه.

بنديكت : هذا أسلوب قديم قوامه أن لا يمدح الانسان نفسه، وقد عفا عليه الزمن. أما في عصرنا هذا، اذا لم يَبْنِ المرء قبره بنفسه قبل أن يموت، فقد

يدفن في قبر لا يبقى فيه مدة أطول من المدة التي تبكيه فيها أرملته، وترنّ اثناءها الاجراس حزنا عليه.

بياتريس : الى متى يستمرّ البكاء عليه، في اعتقادك ؟

بنديكت : لن يتجاوز ساعة من الصراخ بصوت عالٍ وربع ساعة من زرف الدموع. أني أنصح الرجل الحكيم اذاً بأن يعلن هو نفسه عن خصاله الحميدة، وأنا أكتفي بالمديح الذي وجهته الى نفسي. والآن قولي لي، كيف حال ابنة عمك ؟

بياتريس : هي سيئة الحال.

بنديكت : وأنتِ ؟

بياتريس : حالتي سيئة أيضاً.

بنديكت : تضرّعي الى الله، وأحبيني، فيتحسن حالك. والآن اتركك، لأني أرى شخصا قادما اليك بسرعة. (تدخل أرسول).

أرسول : سيدتي، عليك أن تحضري الى بيت عمك حيث تدبّ الآن فوضى لا مثيل لها. لقد ثبت أن السيدة هيرو متهمة زورا، وأن الأمير وكلوديو انطلت عليهما الخدعة التي دبرها دون جوان، ولاذ بالفرار. هل تريدين أن نمضي فورا ؟

بياتريس (مخاطبة بنديكت) : هل تريد أن تتيقّن من الخبر ؟

بنديكت : اريد أن أحيا في قلبك، وأموت في حضنك وأدفن في عينيك. وبالاضافة الى ذلك اريد أن أذهب معك الى عمك. (يخرج الجميع).

المشهد الثالث

داخل المعبد

(يرخي الليل سدوله. يدخل دون بيدرو وكلوديو
بلباس الحداد يتبعهما الموسيقيون والموكب)

كلوديو (مخاطبا أحد المساعدين) : هل هذا ضريح عائلة السيد ليوناتو ؟
المساعد : نعم، يا سيدي.
كلوديو (يقترب من الضريح وهو يقرأ في لوحة يحملها بيده) :
هنا ترقد هيرو التي صرعتها الألسنة المفترية
وتعويضا لها عن احزانها، وهبها الموت شهرة خالدة.
وهكذا الحياة التي ماتت خجلا، تحيا الآن ممجدة في مماتها.
أيتها اللوحة ابقي هنا، معلقة على ضريحها، لتمجديها بعد مماتي. والآن اعزفوا أيها الموسيقيون، ورتِّلوا اعظم الترانيم.

أنشودة :

يا آلهة الليل سامحي
الذين قتلوا عذراءك البطلة
انهم الآن ينشدون الترانيم الحزينة
حول ضريحها، كفَّارة عن ذنوبهم.
أيها الليل، كن صدى لنحيبنا.
ساعدنا على التأوّه والنحيب

بكل حزن وأسى.
انفتح أيها الضريح ودعها تغادرك،
إلى حين صدور حكم الموت الإلهي.

(يطلع النهار)

كلوديو : والآن اسعدتِ مساء. سأكرر كل عام هذا الاحتفال الجنائزي.

دون بيدرو (مخاطبا المساعدين) : وداعا. اطفئوا مشاعلكم. لقد بزغ الفجر. شكراً لكم جميعا. دعونا الآن نرجع. وداعا.

كلوديو : وداعا. ليعد كل منا الى بيته.

دون بيدرو : هيا بنا نغادر هذا المكان، ونبدّل ملابسنا ونذهب الى منزل السيد ليوناتو.

كلوديو : آمل أن يفضي بنا الزفاف الجديد الى مصير سعيد غير المصير الذي سبب لنا احزانا مضنية. (يخرج الجميع).

المشهد الرابع

قاعة في قصر ليوناتو

(يدخل ليوناتو وانطونيو وبنديكت وبياتريس وارسول وفرنسيس وهيرو)

فرنسيس : ألم أؤكد لكم انها بريئة ؟

ليوناتو : والامير وكلوديو هما أيضا بريئان. واذا كانا قد اتهما، فبسبب الخدعة التي انكشفت لنا الآن. مرغريت مخطئة في كل ما جرى رغم أن خطأها غير مقصود، كما اتضح لنا من سياق الاستجواب.

انطونيو : لا يهم ! اني مسرور، لأن الأمور تحوّلت تحولا حسنا.

بنديكت : وأنا أيضا مسرور، اذ كان ينبغي عليّ ان أقاتل الشاب كلوديو.

ليوناتو : تعالي، يا ابنتي، وأنِتن أيضاً جميعا ايتها السيدات، امكثن في حجرة على حدة، وعندما اناديكن، تأتين متنكرات. قريبا تحين الساعة التي سيصل فيها الأمير وكلوديو لزيارتي. اما انت، يا شقيقي، فتعلم ما هو مطلوب منك. عليك ان تقوم بدور الاب بالنسبة الى ابنة اخيك، وأن تزفّها الى الشاب كلوديو.

انطونيو : سأقوم بذلك بكل وقار. (تخرج السيدات).

بنديكت (مخاطبا فرنسيس) : أعتقد بأني سأحتاج الى خدمتك.

فرنسيس : لماذا، يا سيدي ؟

بنديكت : لكي تساعد على تحقيق سعادتي أو شقائي. أيها السيد ليوناتو، ان ابنة اخيك تنظر اليّ بعينين محبّتين.

ليوناتو : انهما العينان اللتان أغارتها اياهما ابنتي.

بنديكت : وبالمقابل، أنا أكنّ لها أصدق الحب.

ليوناتو : أنت مدين بهذا الحبّ لي أنا وللأمير وكلوديو. حسنا. ما هي رغبتك ؟

بنديكت : جوابك غامض. أما رغبتي، فأتمنى أن تكون وفقا لرغبتك. أريد أن أصبح شريك حياتها. (مخاطبا فرنسيس) لهذا طلبت مساعدتك، يا صديقي.

ليوناتو : أنا موافق على طلبك.

فرنسيس : أنا ايضا موافق على مساعدتك. هوذا الأمير ومعه كلوديو.

(يدخل الأمير وكلوديو وأتباعهما)

دون بيدرو : صباح الخير أيها الحفل الكريم.

ليوناتو : صباح الخير أيها الأمير. صباح الخير يا كلوديو. نحن رهن اشارتكما (مخاطبا كلوديو) هل أنت مصمم على الاقتران اليوم بابنة اخي ؟

كلوديو : اني مصمم كل التصميم.

ليوناتو : اذهب واحضرها، يا شقيقي. فان فرنسيس كاتب العقد مستعد (يخرج انطونيو).

دون بيدرو : صباح الخير، يا بنديكت. حسنا. ماذا حدث حتى اصبح وجهك

هكذا كشهر شباط ينذر بالعواصف ويتلبد بالغيوم ؟

كلوديو : أعتقد بأنه يفكر بالثور الهائج. لا تخف، يا عزيزي، سنطلي بالذهب كلا القرنين اللذين ستحملهما فوق رأسك، فتصبح بهجة اوروبا الجديدة، كما كان الإله المشتري بهجة اوروبا القديمة، عندما اتخذ شكل وحش حبا بها.

بنديكت : ان الإله المشتري المتجسد بهيئة الثور كان خواره محبوبا. لأن ثورا مثله قادر على محاصرة بقرة أبيك، وحملها على انجاب عجل يشبهك تماما، لأنك تمتاز بخواره.

(يدخل انطونيو مصطحبا هيرو وبياتريس وارسول متنكرات)

كلوديو (مخاطبا بنديكت) : اني مدين لك ببعض ما قلت. ولكن لنعمد الآن الى تصفية حسابات اخرى. أية سيدة من هؤلاء النسوة ستكون من نصيبي ؟

انطونيو (مقدما له هيرو) : أقدم لك هذه السيدة الرائعة.

كلوديو : ايتها الجميلة، دعيني أبصر وجهك.

ليوناتو : لا ليس قبل أن تقبل بها زوجة لك بحضور فرنسيس هذا.

كلوديو (مخاطبا هيرو) : اعطني يدك أمام هذا الرجل الفاضل. فيصبح زوجك اذا كنت تقبلين به.

هيرو (تنزع القناع عن وجهها) : عندما كنت أنا حية، قبلت بأن اصبح زوجتك الاولى، وعندما احييتني اصبحت انت زوجي الاول.

كلوديو : هيرو ثانية ؟

هيرو : هناك هيرو ماتت بعد أن أُلحِقَ العار بها. أما أنا فاني على قيد الحياة. وبمقدار ما أنا حقيقة على قيد الحياة، تراني في الحقيقة عذراء بدون أي شك.

دون بيدرو : ها هي هيرو الاولى. هيرو التي ماتت.

ليوناتو : انها لم تمت، يا سيدي، الا بمقدار ما لحق بها من العار وهي على قيد الحياة.

فرنسيس : هدىء روعك. وعندما ننتهي من عقد الزواج، سأقص عليك بالتفصيل كيف ماتت هيرو الجميلة. وحتى يحين ذلك الوقت اعتبر الاعجوبة امرا طبيعيا، والآن لنمضي فورا الى المعبد.

بنديكت : احسنت، يا صديقي. من منكما بياتريس ؟
بياتريس : أنا بياتريس. ماذا تريد مني ؟
بنديكت : ألا تحبينني ؟
بياتريس : كلا.
بنديكت : اذاً، خاب أمل الأمير وعمك كلوديو. لأنهم أكدوا لي أنك تحبينني.
بياتريس : ألا تحبني أنت ؟
بنديكت : كلا.
بياتريس : اذاً، خاب أمل ابنة عمي ومرغريت وأرسول، لانهن أكدن لي أنك تهواني.
بنديكت : لقد أكدوا لي أنك مريضة في حبي.
بياتريس : لقد أكدنَ لي أنك تموت في حبي.
بنديكت : ليس الأمر كذلك. أفلا تحبينني اذاً ؟
بياتريس : ان حبي لك هو مجرد تعاطف يسري بين صديقين.
ليوناتو : هيا، يا ابنة اخي. انا متأكد من انك تحبين هذا النبيل.
كلوديو : وأنا متأكد من انه يحبها. فهذه قصيدة كتبها بخط يده، وهي موجهة الى بياتريس.
هيرو : وهذه قصيدة أخرى، كتبتها ابنة عمي بخط يدها، وهي موجهة الى بنديكت.
بنديكت : يا لها من أعجوبة غريبة ! لقد تشابكت ايدينا بالرغم من قلوبنا. سأتزوجك رحمة بك واشفاقا عليك.
بياتريس : وأنا لن أرفضك، وسأتزوجك لأنقذ حياتك، اذ بلغني أنك تموت من شدة حبك لي.
بنديكت : اسكتي. تعالي اطبق لك فمك (يقبلها).
دون بيدرو : كيف حالك، يا بنديكت، الآن وقد اصبحت زوجا ؟
بنديكت : هل تريد ان أصدقك ايها الأمير ؟ أنا لا أبالي بقصائد الهجاء الموجهة اليّ؛ فالانسان الذي تتجاذبه آراء الآخرين، لن يصل الى نتيجة

مرضية. وخلاصة القول، أريد أن أتزوج، ولن أهتم بكل ما يعترض سبيلي في هذا المجال. اما بالنسبة اليك، يا كلوديو...

كلوديو : كنت أعتقد بأنك سترفض الاقتران ببياتريس، وفي هذه الحالة كنت أنوي الاجهاز عليك، ووضع حد لحياتك كعازب.

بنديكت : هيا، هيا. لقد صرنا اصدقاء. لنرقص قبل أن نتزوج.

ليوناتو : سنرقص فيما بعد.

بنديكت : كلا. تعالوا نرقص اولا. لتعزف الموسيقى (مخاطبا دون بيدرو) أنت حزين أيها الأمير. اختر لنفسك امرأة. (يدخل رسول).

الرسول : سيدي، لقد القي القبض على شقيقك اثناء فراره، فاقتاده الى مسيّن بعض الرجال المسلحين.

بنديكت (مخاطبا دون بيدرو) : لندع أمره الى يوم غد، وسأشير عليك بعقوبة تليق به. هيا. لتعزف الموسيقى (يدور الرقص. ثم يخرج الجميع).

﴿ تمّت ﴾

عَذاب الحُب الضائع

تعـــريـب

أ. ر. مشـــاطي

أشخاص المسرحية

فردينان	ملك نافار
بيرون	
لنكفيل	وجهاء من حاشية الملك
دماين	
بوايه	
مركاد	وجيهان من حاشية اميرة فرنسا
دون أريانو دي أرمادو	فارس اسباني
تتنَايل	صديق
هلُفارن	معلم مدرسة
بالور	رجل أمن
تروني	راع
فالان	غلام أرمادو
حارس صيد	
اميرة فرنسا	
روزالي	
ماريا	سيدات من حاشية الاميرة
كاترين	
جاكينات	فلّاحة
ضباط وخدم	

الاحداث تجري في نافار

الفصل الأول

المشهد الأول

نافار — في حديقة امام القصر الملكي.

(يدخل الملك وبيرون ولنكفيل ودماين)

الملك: ليت المجد الذي نسعى اليه طوال حياتنا يستقر الى الابد فوق قبورنا، ويبسط علينا جلاله حين يظللنا الموت بجناحيه. وبالرغم من مرور الزمن الذي يبتلع كل شيء، نستطيع بجهد طفيف ان نكتسب شرفا يفلّ حد منجل المنية القاطع ويورثنا السعادة الدائمة. ولهذا السبب ايها الفاتحون البواسل انتم تكافحون شهواتكم وتحاربون جيش رغباتكم الرهيب في هذا العالم. أما اتفاقيتنا فستظل سارية المفعول، فتصبح مملكة نافار أعجوبة الدنيا، وبلاطنا مجمعا علميا مكرسا لازدهار الفن بحكمة وسلام. وأنتم الثلاثة: بيرون وديماين وننكفيل، قد اقسمتم يمينا على المكوث معي هنا مدة ثلاثة أعوام، وعلى التقيد بالنظام الذي ينص عليه هذا البيان (يشير الى ورقة). وقد قطعتم عهدا على انفسكم، بعد توقيع امضائكم، بأن كل من يخالف بندا من هذه الاتفاقية يلوث شرفه بالعار. فاذا وجدتم انكم قادرون على الوفاء بما اقسمتم على تنفيذه، وقِّعوا هنا وقوموا بتعهدكم.

لنكفيل: انا مصمم على تطبيق ما ذكر. فالمسألة لا تقتضي اكثر من صيام ثلاث سنوات. وهكذا تكبر النفس على حساب حرمان الجسد. لان البدن الضخم يكون عادة مزودا بدماغ نحيل، والمآكل الطيبة الحلوة، اذا كانت تغذي جسم الانسان، فانها تقود روحه الى الافلاس.

دماين: مولاي الحبيب، انا منذ الان مستعد للتضحية، وأترك لعبيد هذه الدنيا الفانية كل ما تحويه من مباهج باطلة. فاني أقلع وأتغاضى عن الحب والرفاه والفخامة لأعيش بتقشف كالفلاسفة.

بيرون: وأنا لا يسعني الا ان أكرر عين التصريح، بما اني اقسمت، يا مليكي المفدّى، على أن أحيا وأدرس معك هنا مدة ثلاثة اعوام. ولما كان لا بد من تحمل مشقة التقيد بأمور صعبة التحقيق كعدم مشاهدة النساء طوال هذا الوقت وقضاء يوم في الاسبوع بدون تناول أي طعام، والاكتفاء باقي الاسبوع بوقعة واحدة في اليوم، والنوم ثلاث ساعات في الليل بدون إغماض جفن اثناء النهار، وأنا معتاد على الغطيط في رقاد عميق طوال الليل ونصف النهار التالي، فاني ارجو ان لا تتضمن الاتفاقية كل هذه الشروط القاسية الان التقشُّفات المذكورة من درس وصيام وقلة نوم وعدم مشاهدة النساء أصعب من ان تتحملها طبيعتي.

الملك: مع انك قبلت بالامتناع عن كل ذلك.

بيرون: اسمح لي، يا مليكي المبجل ان اقول لك اني اقسمت فقط على الدرس مع جلالتك، وعلى البقاء هنا في بلاطك مدة ثلاثة اعوام.

لنكفيل: لقد اقسمت على تنفيذ جميع البنود، يا بيرون.

بيرون: نعم ولا، يا مولاي. انا لم أقسم الا لاجل ارضائك. قل لي بربك ما غاية الدرس؟

الملك: معرفة ما لا يمكن الاطلاع عليه بطريقة اخرى.

بيرون: تقصد الامور الخفية والمعقدة التي لا يتوصل اليها الذكاء العادي، أليس كذلك؟

الملك: أجل، وهذه هي أسمى مكافأة يمنحها اكتساب العلم.

بيرون: حسن. انا اريد ان أقسم اليمين للحصول على ما حرمت منه. فمثلا:

أقسم على السعي الى المآكل المغذية عندما تُمنع عني الاطعمة الشهية، وأن ادرس كيفية العثور على خليلة لطيفة عندما يُحرَّم عليّ الاتصال بالصديقات الحسناوات. وأخيرا، أقسم على التقيد بشرط صارم هو أن أهتدي الى طريقة للتجاوز بدون الاخلال بقسَمي. فاذا كانت ثمرة الدرس فعلا معرفة ما نجهله، فدعوني أحلف، ولن اتراجع ابدا.

الملك: انك تذكر هنا جميع المسرّات التي تحول دون الدرس والتي تعوّد النفس على الملذات الزائلة.

بيرون: كل الملذات زائلة، وأسوأها هي التي نحصل عليها بشق النفس ولا تجلب لنا الا الشقاء، والتي تجعل المرء يهدر اوقاته في مطالعة الكتب بحثا عن النور والحقيقة، بينما الحقيقة في الواقع تعمي البصر بوهجها الباهر، والمستنير في هذا العالم يتوه في البحث عن الحق الضائع. وقبل الاهتداء الى الحق وسط الظلام، يصبح النور ظلاماً في عينيه بسبب فقدانه ضياء ناظريه اثناء البحث. فيجمل بك بالحري ان تتعلم كيف تكحل عينيك بالتأمل في وجه حلو، اذا استمالك، يمسي هو نجمك الهادي ويهب نظرك الكليل نوره الساطع المتلألىء. فالمعرفة كالشمس المتألقة بمجدها في كبد السماء، تأبى ان تتفحصها الابصار المستهترة. اما الذين يكدّون بلا ادراك فلا يكتسبون الا معلومات طفيفة مستعارة من كتب سواهم. لان من يدَّعي ملكية أنوار السماء على الارض لا يقوى الا على حفظ اسماء الكواكب، ولا يستفيد اثناء عتمة الليل نظير التائه في جهله، الا من مشاهدة النجوم عن بعد. فوفرة المعرفة السطحية لا تفضي الى اكثر من كسب الشهرة، كما ان الدليل لا يمكنه ان يقدم سوى الارشاد.

الملك: ما هذا العلم الذي تريد ان تبرز محاسنه بتهجمك على فوائده؟

دماين: انه ملفان يمتاز بعرقلة كل عقيدة صالحة.

لنكفيل: هو يقتلع الجيد من الحب، ويترك مجالا لنمو ما يجب استئصاله من ميول فاسدة.

بيرون: ويكون الربيع قد دنا عندما تفقس فراخ العصافير.

دماين: كيف ذلك؟

بيرون: لكل حاجة مكان وزمان.
دماين: هذا غير معقول.
بيرون: تمسَّك بالقافية ان لم يستقم المعنى.
الملك: ان بيرون يشبه الصقيع الضار الذي يقضي على مواليد الربيع.
بيرون: لكن، لماذا يكتسي الصيف بحلة اخضراره قبل ان تلاقي الطيور ما تغرد له؟ لماذا أبتهج بمسرات هي سلفا زائلة؟ ففي رأس السنة لا أتمنى الورد اكثر من الثلج لعودة أعياد الربيع. أنا احب كل شيء في حينه. وهكذا، قد فات أوان انكبابك على الدرس، فكأنك تصعد سلَّم البيت الى الطابق العلوي لكي تفتح الباب السفلي.
الملك: انسحب اذاً يا بيرون، وعد الى بيتك. الوداع.
بيرون: لا، يا مولاي الكريم. لقد أقسمت على البقاء معك. ومهما قلت انا في ذم شوائب العلم، اكثر منك في مدح فضائله، انا مصمم مع ذلك على الوفاء بما أقسمت عليه من التكفير يوميا خلال هذه السنوات الثلاث. اعطني الاتفاقية لأقرأها وأوقع البنود التي اجدها أنسب من سواها.
الملك (يسلمه الورقة): هذا الامتثال يقيك مغبة العار.
بيرون (يقرأ): « غير مسموح لأية امرأة ان تقترب الى مسافة ميل من بلاطي ». ولكن متى أعلن ذلك؟
لنكفيل: منذ اربعة ايام.
بيرون: وما هو عقاب المخالفة؟ (يواصل القراءة) « تحت طائلة قطع اللسان ». ومن الذي استنبط هذا؟
لنكفيل: انا.
بيرون: ولماذا، يا سيد الكريم؟
لنكفيل: لكي أخيف الجميع بهذا القصاص الرهيب.
بيرون: هوذا قانون خطر على مغازلة النساء. (يقرأ) « اذا فوجيء رجل وهو يكلم امرأة خلال الاعوام الثلاثة، عليه ان يتحمل التنديد العلني الذي يراه البلاط ملائما ». (يوجه كلامه الى الملك) هذا البند، يا مليكي، انت حتما أول من يخالفه. فكما تعلم ستأتي الى هنا قريبا ابنة ملك فرنسا لمفاوضتك

كسفيرة. وهذه العذراء الفاتنة الجليلة قادمة لتسألك ان تتنازل عن مقاطعة الاكيتان لوالدها المريض المسكين طريح الفراش. فيكون هذا البند اذاً عديم الفائدة لان مجيء الاميرة الى هنا عديم الجدوى سلفا بالرغم مما يقتضيه من اهتمام ورعاية.

الملك: ماذا تقول، يا سيدي لقد سهوت عن هذا الأمر تماما.

بيرون: هكذا تتعدى الحماسة دائما القدر المطلوب. وإذ يعتاد المرء امتلاك ما يشتهي ينسى هدفه الاساسي. وحين يبلغ الغاية التي يسعى اليها، يكون كمن استولى على مدينة التهمتها نيران الحريق، فلا يبقى لديه فرق عندئذ بين الربح والخسارة.

الملك: سأسعى لالغاء هذا البند مهما كلف الامر، لان الضرورة تقتضي اقامة الاميرة هنا.

بيرون: ستدفعنا الحاجة الى المخالفة ثلاثة آلاف مرة في اثناء هذه الاعوام الثلاثة. لان ميول الانسان تولد معه، والرغبة وحدها لا تقوى على ضبط هذه الميول، الا اذا اقترنت بجدية المثابرة. فان تنكرتِ أنا لايماني، لن أكون معذورا الا اذا اضطرتني الظروف الى ذلك. وبناء عليه أوقع الاتفاقية بكاملها دون أي تحفظ. (يكتب اسمه). اما الذي يخالف ادنى تفاصيلها فسيوصم بعار لا يمحى. ان الاغراءات ذاتها تعترض سبيل كل واحد منا. ولذلك أعتقد، مهما أبديت من تغاضٍ، ان آخر من يفي بتعهده سيكون الملك ذاته. ألن يكون لدينا وقت للترويح عن النفس ؟

الملك: اذا تم ذلك، فان بلاطنا، كما تعلمون، يسيطر عليه روح الرجل المرفَّه الذي يُعتبر زهرة المجتمع الجديد، لان دماغه موسوعة من نخبة العبارات الصادرة عن مثقف تسحره موسيقى لغة آبائه وأجداده نظير نغم شجي. انه انسان مميَّز اختاره الحق والباطل معا ليحكم في شتى الخلافات، أعني به صاحب الاهواء المدعو أرمادو الذي سيحكي لنا، في تناوبه على تدريسنا، مغامرات فرسان مجتمعاتنا الطاغية ممن قضوا نحبهم اثناء اشتباك عدد كبير من الخيالة الشجعان الذين ذهبوا ضحية مكايد حثالة الناس. فالى أي

حد ستهتمون به، يا سادتي؟ لست أدري. ولكن بما اني لا احب الكذب، أصارحكم برغبتي في أن أجعل منه مستشاري.

بيرون: ارمادو هو من أبرع الرجال بعباراته المسبوكة البليغة، بل هو الفارس الاصيل المنشود حاليا.

لنكفيل: عليك اذاً ان تؤمِّن له التسلية بصحبة هذا البغل الغليظ. فمعه ستمر السنوات الثلاث بعجلة كأنها ثلاث ساعات.

(يدخل بالور حاملا رسالة ثم يدخل تروني)

بالور: من منكم هو الملك؟

بيرون: انه هنا، يا صاح، ماذا تريد منه؟

بالور: أود ان أهتدي الى شخصه الكريم، لاني مرافق مولاي صاحب السيادة، وأحب ان اراه بلحمه وشحمه.

بيرون (مشيرا الى الملك): ها هوذا.

بالور: السنيور أرم... أرم... لست أذكر، يوصي بك خيرا. هناك بعض المشاكل، وفي هذه الرسالة مزيد من الشرح.

تروني: ان روح السماحة المهيمنة على هذا المكتوب تغريني، يا مولاي.

الملك (يتناول الرسالة): رسالة من ارمادو المتفوق.

بيرون: مهما يكن موضوعها هزيلا، انا أتوقع ان تحوي كلاما هاما.

لنكفيل: كم من امل كبير يسفر عن نتيجة تافهة. ألهمنا الله طول البال.

بيرون: ألكي نسمع. ام لكي نضحك؟

لنكفيل: لنستمع بتروٍ، يا سيدي، ولنضحك باعتدال، او لنمتنع عن هذا وذاك في كلا الحالين.

بيرون: المسألة متعلقة بجزالة النص الذي سيهزنا طربا.

تروني (للملك): القضية تعنيني، يا مولاي، كما تعني جاكينات. المهم اني فوجئت على حين غرة.

بيرون: ماذا تقصد؟

تروني: ها هي المشكلة، يا سيدي، موجزة بثلاث نقاط: اولا شوهدت جالسا بقربها تحت قنطرة البيت، على وشك ان أعانقها. ثم بوغتُّ وأنا

ألاحقها في الحديقة، فأسفر عن ذلك، التقرير الذي وصلك. هذه، يا سيدي، هي كل القصة بكاملها. اما مخالفتي كرجل، فمحصورة في محادثتي امرأة. وأما التقرير...

بيرون: ما مضمونه بالنسبة اليك؟

تروني: سأفنّده لك حسب مفهومي الخاص. والله يحفظ لكلٍ حقه.

الملك: هل تريد ان تصغي الى هذه الرسالة بانتباه؟

بيرون: إصغائي الى وحي مُنزّل.

تروني: رباه! كم ينصت الانسان ببساطة الى نداء الجسد!

الملك (**يقرأ**): « المخدوع الكبير، الوكيل السماوي، المسيطر الوحيد على نافار، إله روحي على الارض، وسيد جسدي الذي يغذيه بأشهى المآكل ».

تروني: الامر المطروح لا يتعلق بي اذاً.

الملك (**يقرأ**): هذا هو جوهر القضية.

تروني: لكن، مهما يكن الحال، ومهما قيل، هو لا يساوي شروى نقير.

الملك: رويدك.

تروني: من منكم نظيري، لا يجرؤ على المقاومة؟

الملك: ارجوك ان تلازم الصمت.

تروني: عن اسرار الغير؟ أستحلفك بكل عزيز.

الملك (**يكرر**): ها هي القضية برمتها. فمنذ ان انهالت عليّ الكآبة من كل حدب وصوب، شئت ان أخضع هذا المزاج السوداوي لهدوء جوّك المرح، واذا بي اقوم بنزهة قصيرة. تسألني متى؟ أجيب حول الساعة السادسة حين اخذت الحيوانات تبحث عن طعامها، والعصافير تسعى وراء غذائها، وحين تهافت الناس على كسب رزقهم بنهم. هذا من ناحية الزمان. اما من ناحية المكان، فأقصد حيث كنت أتنزه في جنينتك. وبهذا المكان أعني ايضا، حيث وقع نظري على الصنيع المشين الذي أدى الى سحب ريشتي البيضاء كالثلج، من البحر الاسود كالابنوس، والذي تنظر اليه وتراقبه هنا عيناك الساهرتان. والمكان يقع في شمال شرق الزاوية الغربية من حقلك الغارق بالفوضى. وهنا

لقيت الشاب ذا الطباع المستهجنة والفكر الضيق الذي يعكر صفو ايامك.

تروني: انا؟

الملك (**يقرأ**): هذا الشخص الجاهل، القليل الذوق.

تروني: طبعا انا.

الملك (**يقرأ**): هذا الحليف الضعيف.

تروني: دائما، انا.

الملك (يقرأ) : الذي، على ما أذكر، يدعى تروني.

تروني : **أنا** بالذات.

الملك (**يقرأ**): يداعب، بالرغم من بيانك المكتوب والمنشور، وبالرغم من قصاصك الصارم. لا أجسر على الافصاح، مع اني أود ان اخبرك من...

تروني: يداعب فتاة.

الملك (**يقرأ**): أجل، ابنة جدتنا حواء، أي أنثى، وبتعبير آخر أرقّ، يداعب حسناء. وأنا الذي بدافع احترامي المستمر للواجب، ارسله اليك لينال نصيبه من العقاب بحراسة رقيب تابع لسلطتك العادلة، أعني به بالور صاحب السمعة الطيبة والسلوك الحسن والأخلاق الحميدة والثقة الوطيدة الراسخة.

بالور: انا، بكل تواضع، اذعى بالور.

الملك (**يقرأ**): أما جاكينات، وهكذا تدعى الصبية الهيفاء التي فاجأتها بصحبة الفتى الجريء المذكور، فاني أحتفظ بها كرهينة بانتظار ما تلفظه هيبة القانون من حكم. وسأدعها تظهر بيننا لدى اول اشارة تصدر عن ارادتك السنية. ودمت معززا مع كل احترامي لشخصك المفدّى الذي أخصه بأخلص مودتي.

(التوقيع: دون أدريانو دي أرمادو)

بيرون: هذا ليس بالجدّية التي كنت أتوقعها، لكنه أفضل ما سمعته.

الملك: نعم، الافضل من النوع الرديء. ما هو ردك على ذلك، يا مغفَّل؟

تروني: مولاي، دعني أستجوب الفتاة.

الملك: ألم تسمع المنشور؟

تروني: لقد سمعته مرارا. لكنني قلما أصغيت اليه.

الملك: أجل، بلغني اعلان العقاب، وهو عبارة عن السجن مدة سنة لمن يشاهد بصحبة فتاة.

تروني: انا لم يبصرني احد بمعية فتاة، يا مولاي، بل بمعية آنسة.

الملك: على كل حال، البيان ينص على آنسة.

تروني: ولم تكن آنسة، يا مولاي، بل عذراء.

الملك: هذا التعبير مذكور ايضا. لان البيان يشير الى عذراء.

تروني: اذا كان الامر كذلك، فأنا أثق بعفتها. اذ قد فوجئت بصحبة صبية رصينة.

الملك: لكن رصانة هذه الصبية لن تفيدك بتاتا، يا سيدي.

تروني: بل بالعكس، ان رصانة هذه الصبية ستفيدني كثيراً، يا مولاي.

الملك: ها انا أصدر حكمي عليك، وعقابك هو الصيام مدة اسبوع. فلا تأكل سوى النخالة والماء.

تروني: انا أفضِّل ان يكون عقابي الصلاة مدة شهر، وغذائي لحم الخروف.

الملك: وسيكون حارسك دون ارمادو. يا سيدي بيرون، عليك ان تودعه السجن. وأنا، يا سادتي، سأطبق رسميا كل التعهدات التي أخذت على عاتقي تنفيذها برمتها. (يخرج الملك بصحبة دماين ولنكفيل).

بيرون: أراهن على رأسي مقابل ما تشاؤون، بأن هذه العهود لا مآل لها قريباً سوى الاهمال والازدراء، فالى الامام، يا غبي.

تروني: يؤلمني تشويه الحقيقة، يا مولاي، لاني في الواقع بوغتُّ برفقة جاكينات، وجاكينات هذه هي فتاة أصيلة. ففي سبيل الله اذاً ما ألاقيه الان من مرارة في كأس حلفائي. لان الحظ سيبسم لي يوما ما. ولكن، الى ذلك الحين، عليّ ان ارضى بتعاستي (يخرجون).

المشهد الثاني

في قسم آخر من الحديقة امام منزل دون ارمادو

(يدخل ارمادو وغلامه فالان)

ارمادو: يا غلام، ماذا تعني سيطرة الكآبة على رجل كبير النفس؟
فالان: انها تدل، يا سيدي، على استسلامه الى الحزن.
ارمادو: لكن الحزن والكآبة شيء واحد، ايها البليد المغفَّل.
فالان: كلا، ثم كلا.
ارمادو: كيف يمكنك ان تفصل بين الحزن والكآبة، ايها الشاب المغرور؟
فالان: بإثبات النتائج المألوفة، ايها الخبير العجوز.
ارمادو: لماذا تدعوني الخبير العجوز؟
فالان: ولماذا انت تدعوني الشاب المغرور؟
ارمادو: قلت الشاب المغرور، لان هذا اللقب المناسب يليق بربيع عمرك المهدور الذي استطيع ان أنعته بالغباء.
فالان: وأنا قلت الخبير العجوز، لان هذا اللقب ينطبق على خبرتك وعلى تقدمك في السن.
ارمادو: هذا جميل وملائم.
فالان: ماذا تعني، يا سيدي؟ هل انا جميل وتصرفي ملائم؟ ام انا ملائم وتصرفي جميل؟
ارمادو: انت جميل لانك فتيّ.
فالان: انا لست جميلا بمقدار فتوّتي. ولكن، لماذا ملائم؟
ارمادو: لانك ممتلىء حيوية.

فالان: هل تقصد ان تمتدحني، يا مولاي؟

ارمادو: أجل، لانك تستحق كل ثناء.

فالان: يمكنك ان تكيل هذا الثناء لسمك الحنكليس.

ارمادو: كيف تصف سمك الحنكليس الذي لا يقر له قرار.

فالان: بأنه دائم الحركة، فائق النشاط.

ارمادو: لقد قصدت ان اقول انك فائق النشاط في رد الأجوبة. وانك بذلك تثير حفيظتي.

فالان: هل أعتبر قولك جدّيا، يا سيدي؟

ارمادو: انا لا احب ان ينتقدني احد.

فالان (على حدة): لست انا الذي أنتقدك. انما الاوضاع هي التي تبيِّن نقائصك.

ارمادو: لقد وعدت ان ادرس مدة ثلاثة أعوام مع الملك.

فالان: باستطاعتك ان تنفذ ذلك فورا، يا سيدي.

ارمادو: هذا مستحيل.

فالان: كم تساوي ثلاث مرات واحد؟

ارمادو: انا لست ماهرا في الحساب الذي يصلح لغلام حانة.

فالان: انت رجل ظريف تتملص ببراعة، يا سيدي.

ارمادو: أعترف بأني هذا وذاك، وكلتا الصفتين يمتاز بهما الرجل اللبق.

فالان: اذاً انا واثق بأنك تعرف كم يساوي اثنان وواحد.

ارمادو: طبعا، اثنين وواحدا، لا غير.

فالان: وهذا ما يسميه عامة الجهلة ثلاثة.

ارمادو: بالضبط.

فالان: ليس العلم اذاً بالامر العسير، يا سيدي. فها قد حفظنا ثلاث مرات ثلاثة بأسرع من لمح البصر. وكم تسهل اضافة السنين على كلمة ثلاثة، ودرس ثلاثة أعوام بكلمتين تختصران امتطاء الخيل والرقص على الحبال.

ارمادو: هذا حساب بارع.

فالان (على حدة): من المؤكد انك لا تساوي اكثر من صفر الى اليسار.

ارمادو: وعلى هذا الاساس، أعترف لك بأني عاشق. وكما ان الجندي لا يحجم عن التورط في أي حب يصادفه، هكذا اراني مغرما بفتاة رفيعة المستوى. ولو كنت استطيع القضاء على انحدار ميولي، لتخلصت من هذه العاطفة المشبوهة، وسجنت أشواقي النزقة في صدري، ولم أعتبرها ابدا كتحية ود في هذا العصر المادي الذي يجعلني اجد الشكوى في الحب صغارة، فأراني مضطرا للتوسل الى إله الحب ملتمسا رأفته. فلا تضن عليّ، يا غلام، بما يعزيني، واذكر لي أسماء العظماء الذين وقعوا مثلي في شرك الهوى.

فالان: هرقل، يا سيدي.

ارمادو: يا لهرقل المجيد! اذكر لي ايضا سواه، يا غلام. وليكونوا يا بنيّ من ذوي الشهرة الواسعة والأخلاق الرفيعة.

فالان: شمشون، يا سيدي. فقد كان رجلا فريد الاوصاف، حمل ابواب المدينة على منكبيه لما كان له من قوة خارقة، وكان عاشقاً متيَّماً.

ارمادو: ايه، يا شمشون الجبار، يا صاحب العضلات المفتولة! لقد فقتك دهاء في معالجة المواقف، كما فقتني قوة في حمل الابواب، انا ايضا عاشق. لكن، من كانت حبيبة شمشون، يا عزيزي فالان؟

فالان: امرأة، يا سيدي.

ارمادو: من أي لون؟

فالان: من احد الالوان الاربعة المعروفة، او من اثنين او ثلاثة، او من جميع الالوان، لست ادري.

ارمادو: قل لي بالضبط. من اي لون؟

فالان: كانت خضراء كماء البحر، يا سيدي.

ارمادو: هل هذا احد ألوان الجلَد الاربعة؟

فالان : حسب ما قرأت، يا سيدي، هذا أحلى الألوان.

ارمادو : ان الأخضر فعلا هو لون العشاق المفضَّل. أما أن يكون لشمشون حبيبة تميل الى هذا اللون، فانه، على ما يخيل اليّ، لم يكن لديه ما يحمله على القبول بها. حتما، كان شمشون يحفظ لها الود تقديرا لنفسيتها.

فالان: بالضبط، يا سيدي. لان نفسها خضراء.

ارمادو: حبيبتي لون بشرتها ابيض، ولون وجنتيها احمر. وما انقى وأحلى الوان حبيبتي!

فالان: هي أنقى من افكاري التي تختبىء، يا سيدي، خلف قناع هذه الالوان.

ارمادو: أوضح، وزدني ايضاحا ايها الولد النجيب.

فالان: يا روح ابي، ويا حنان أمي ساعداني.

ارمادو: أوضح، وزدني ايضاحا ايها الولد النجيب.

فالان (ينشد):

ان كانت حبيبتك تتصف بالبياض والاحمرار،
فلن تعرف اخطاؤها الا سبيل الانتشار.
لان احمرار الوجنات يكشف عن الذنوب،
والخوف يفضحه التردد والشحوب.
وهكذا ان كانت خائفة او مخطئة
لن تبرز ذلك ألوانها بل عواقب المعصية
وإلا لم تجد في خديها دوما لون الورود
تستمده بصورة عفوية من مباهج الوجود.

هذه، يا سيدي، بعض الاشعار التي تذمّ الابيض والاحمر معا.

ارمادو: أوَلا تعرف، يا غلام، أنشودة عنوانها: الملك والمتسولة؟

فالان: أخطأ الناس بترويج مثل هذه الاغنية، منذ حوالي ثلاثمئة سنة، لكني بتّ أعتقد الان بأنها اصبحت نادرة، ويصعب الاهتداء اليها. وان وُجدت، فلا سبيل الى ترديد كلامها او لحنها.

ارمادو: سأعيد نظم الابيات في هذا الموضوع، حتى أتمكن من تبرير انزوائي بسبب بعض السوابق الهامة. يا غلام، انا اهوى هذه الفلّاحة التي فاجأتها في الحديقة مع هذا الحيوان الناطق تروني. على كل حال، هي فتاة تستحق كل اعتبار وتقدير.

فالان (على حدة): أجل، انها تستحق ان تجلد بالسياط، وأن لا يكون لها عشيق افضل من معلمها.

ارمادو: اطلب منك ان تغني لي، يا غلام. فالحب يرهق قلبي بالهموم والأكدار.

فالان: غريب جدا ان تهوى انت فتاة لعوبا مثل هذه.

ارمادو: هيا انشد.

فالان: مهلا حتى تتجاوزنا الجماعة السائرة وراءنا.

(يدخل بالور وتروني وجاكينات)

بالور (لأرمادو): يا سيدي، اصدر الملك امرا بأن تحتفظ بتروتي تحت الحراسة المشددة. ويتحتم عليك ان لا تدع المخالف ينال أي ثواب أو عقاب. اذ عليه ان يصوم ثلاثة ايام في الاسبوع. (يشير الى جاكينات) اما هذه الآنسة فلديّ أوامر مشددة بأن أحتجزها في الحديقة لتشتغل كحلّابة. حفظك الله بتمام الصحة والعافية.

ارمادو (على حدة): ان احمرار وجهي يفضحني. (بصوت خافت لجاكينات) يا صبيَّة.

جاكينات: ماذا تريد يا رجل؟

ارمادو: أود ان أذهب لزيارتك في البيت.

جاكينات: على بركة الله.

ارمادو: انا أعرف اين تقيمين.

جاكينات: رباه! ما أغزر معلوماتك!

ارمادو: وسأروي لك قصصا عجيبة.

جاكينات: هذا ظاهر على محياك.

ارمادو: اني احبك.

جاكينات: لقد سمعتك تقول هذا قبلا لسواي.

ارمادو: الى اللقاء.

جاكينات: أتمنى ان يصفو لي الجو من بعدك.

بيرون: هيا يا جاكينات، سيري امامي (يخرج بالور وجاكينات).

ارمادو (لتروني): يا مغفل، سيفرض عليك الصيام بسبب قبائحك، ولن ينوبك أي عفو.

تروني: لا بأس، يا سيدي. فعندما أصوم ارجو ان يتم ذلك بعد ملء بطني.
ارمادو: سيكون عقابك صارما.
تروني: انا أسبب لك الضيق اكثر من جماعتك، مهما كانوا من المزعجين.
ارمادو (**لفالان**): خذ هذا الغبي واحجزه.
فالان (**لتروني**): هيا سر امامي ايها المحتال اللعين.
تروني: لا تحبسني، يا سيدي، فأنا مستعد لان اصوم طوعا.
فالان: كلا، يا سيدي، ستصوم مرغما وستبيت في السجن على الطوى.
تروني: حسن. اذا عادت ايامي السعيدة التي نعمت بها زمنا، لا بد من ان يلاحظها الناس.
فالان: وماذا يلاحظ الناس؟
تروني: سيرون، يا معلمي فالان، ما سيحل بي. وماذا يفيد السجناء ان أكثروا من الكلام؟ لذا لن افوه ببنت شفة. الحمد لله، لديّ من الصبر ما لم يتوصل اليه احد بعد. ولذلك، سأعرف كيف أحافظ على هدوئي. (يخرج فالان وتروني).
ارمادو (**وحده**): انا أعبد حتى الارض الوعرة التي تطأها أقدامها القذرة. واذا عشقت غيرها سألوم نفسي. فهذا دليل قاطع على قلة امانتي. وكيف يتسنى للحب ان يكون وفيا عندما يتولد من العقوق. الحب ملاك جميل، لكنه ايضا شيطان رجيم، اذ ليس في الكون من مستبد يجاري الحب في غطرسته. فقد ذهب شمشون ضحيته بالكيد والخداع بالرغم مما يمتلكه من قوة خارقة. وكذلك حال سليمان الملك الذي ذهب ضحية الاغراء مع ان حكمته فاقت كل حد. وسهام الحب بانطلاقها العنيف اخترقت ضخامة صدر هرقل. وهكذا لم يستطع مقاومتها أدهى العشاق، لان اجمل فنون الغرام لا تجدي نفعا، ما دام صاحبها لا يبالي بالسيف، بل يهزأ بقوانين المبارزة، ويعدّ ضربا من التحقير، اعتبار الحب طفلا ماجنا وإن أكسبه تغلبه على اقوى الطغاة تاجا نفيسا من الانتصارات والامجاد. فوداعا ايتها القيم. وسيكون نصيبك الهلاك، ايها المخادع المحتال. اصمتي ايتها الطبول لان سيدك مغرم ولهان. أجل أنا

متيم، وأسأل رب القوافي المرتجلة ان يعينني، لاني حتما سأصبح ناظم اغنيات. إحلم يا خيالي، وسطِّري يا ريشتي، ما دام عليّ ان أملأ أعدادا كبيرة من الصفحات. (يخرجون).

الفصل الثاني

المشهد الاول

عند أطراف الحديقة الملكية ــ علم مرتفع، وحوله خيام متباعدة

(تدخل اميرة فرنسا وروزالي وماريا وكاترين وبوايه وحاشية من الوجهاء الظرفاء)

بوايه (للاميرة): الان، يا سيدتي، إشحذي كل حذاقتك وتفكيرك. ولا تنسي ان والدك الملك ارسلك في مهمة خطيرة، وقدّري جيداً الى من، ولأية غاية انت آتية كسفيرة. انت صاحبة المقام الرفيع في كل أرجاء الكون، مزمعة على مفاوضة الوريث الوحيد لجميع الصفات المتازة التي يتسنى لرجل ان يتحلى بها، ألا وهو ملك نافار المبجَّل وان موضوع المحادثات هو استرداد مقاطعة الاكيتان التي توازي بائنة ملكة. فجودي عليه اذاً بكل المفاتن التي منحتك اياها الطبيعة وحرمتها سائر نساء الدنيا.

الاميرة: حسن، يا مولاي بوايه. ان جمالي، وان لم يكن ضئيلا، لا يحتاج الى تزيينه بمديحك. فسلطان الجمال كامن في سحر العيون لا في مطالبة بذيئة بصوت متوسل. وكبريائي يتواضع عندما أسمعك تشيد ببهاء طلعتي، باذلا قصارى الجهد في ابراز محاسني بسخاء ثنائك. كنت فيما مضى ببراعتك تعلمني مهنتي فبتَّ انت الان بحاجة الى من يعلمك مهنتك. ايها الكريم بوايه، انت لا تجهل، وقد اعلنت ذلك في كل مكان، ان ملك نافار أقسم على قضاء

ثلاثة أعوام في دروس شاقة بدون ان يدع امرأة تقترب من بلاطه المنعزل. يظهر ان علينا قبل اجتياز الابواب الموصدة، ان نعرف نيات أصحابها. ولهذه الغاية، اعتبرك أفصح المفاوضين وأبلغهم. وأرجوك ان تقول له ان ابنة ملك فرنسا، لاجل غاية سامية، تلتمس باستعجال موعدا شخصيا لمقابلة جلالته، وبلِّغه رغبتي الملحّة هذه بسرعة ورقَّة، بينما أنا أنتظر الجواب هنا.

بوايه: سأبادر الى تنفيذ امرك فوراً، وأنا فخور بهذه المهمة السنية.

الاميرة: التهاون غالبا ما يكون دليل الغرور، وأنا أريدك ان تحيد عن هذه القاعدة (يهم بوايه بالخروج ويلتفت الى رجال حاشيته) ايها السادة الأحباء، من هم المستجدّون الذين شاركوا ملكنا الفاضل في قسمه؟

النبيل الأول : أولهم لنكفيل.

الأميرة : هل تعرفون هذا الرجل ؟

ماريا : أنا أعرفه، يا سيدتي. وقد التقيت به في حفلة زواج حاكم مقاطعة الباريكور، وهو احد ورثة جاك فولكنبريدج الجميلة، وسيدة مقاطعة نورمندي. ولنكفيل هذا رجل ثقة، واسع الثقافة ملمّ بالفنون، وله أمجاد في استخدام السلاح، وقد نجح في الفوز بكل ما طمح اليه. اما الشائبة الوحيدة التي تعتري فضائله، اذا كان لا بد لكل فضيلة من شائبة، فهي امتزاج ميوله الضيقة بارادته الحديدية البطاشة: الاولى تتسلط بدون ان تحسم، والثانية تتعنت بدون ان ترحم.

الاميرة: يخيل اليّ انه ايضا ساخر لاذع، أليس كذلك؟

ماريا: هذا ما يؤكده بنوع خاص من خبروا طباعه.

الاميرة: انه ظريف عابر التألق، لا يكاد يلمع نجمه حتى يخبو بريقه. فمن هم الآخرون؟

كاترين: الشاب دماين، وهو فتى كامل الاوصاف، يحبه على فضائله كل من يقدرون الفضيلة، لا يعجز عن عمل الشر، ولكن ضميره لا يطاوعه عليه. هو متحدث لبق يحوّل البشاعة ببراعته الى جمال، وله من الحسن ما يعجب بدون ان يبهر الانظار. ولقد صادفته فيما مضى عند دوق آلنسون، فلمست ان ما

يوصَف به من الخير، يفوق بمراحل ما يتحلى به من المزايا الحميدة التي عرفتها فيه.

روزالي: كان بصحبته هناك، ان لم اكن مخطئة، احد المعجبين به، ويدعى بيرون. فلم أسعد بساعة من التحدث الى رجل أوفر منه مزاجا ضمن حدود الدعابة اللائقة. بينما هيبته تمنح مخاطبه ارتياحا لا حدود له، وكل حوار معه يغنمه المرء ليستمد منه الفكاهة اللذيذة، ولسانه المرن يعبر بطلاقة عن افكاره السديدة، وألفاظه الرصينة المنمَّقة تسترعي انتباه الشيوخ بما تبرزه من رزانة في رواياته، كما يجتذب بسحر بيانه سامعيه من الشبان، تأسرهم طلاوة أحاديثه الشيقة.

الاميرة: بركة الله تحل عليك، يا سيدتي. هل انت معجبة بهذا الرجل الشريف الى حد انك تخلعين عليه هذا الوشاح الوقور من المديح والثناء.

ماريا: ها هوذا بوايه قادم.

(يدخل بوايه)

الاميرة: كيف استقبلك، يا سيدي؟

بوايه: لقد تلقى ملك نافار إشعارا بمجيئك الميمون، فكان ورفاق خلوته على أتم الأهبة للترحيب بك، يا سيدتي النبيلة، عندما وصلت انا. لكني علمت، مع الأسف، انه يفضل أن تخيمي في السهل نظير عدو جاء الى هنا لمحاصرة بلاطه، على ان ينقض قسَمه ويستقبلك في قصره الخاص. ها هوذا ملك نافار.

(يدخل الملك مع لنكفيل ودماين وبيرون والحاشية)

الملك: أرحب بك في بلادي نافار، ايتها الأميرة المحبوبة.

الاميرة: المحبوبة! هذه صفة ارجوك ان تحتفظ بها لنفسك. أما الترحيب فلم ألمسه بعد. (تشير الى العلاء) ان سماء هذا القصر أرفع من ان تكون ملكا لك، والضيافة وسط الحقول أوضع من ان تليق بي.

الملك: اهلا بك اذاً في بلاطي، يا سيدتي.

الاميرة: أوافق، شرط ان اكون ضيفة في قصرك الذي ارجوك ان ترافقني اليه.

الملك: اسمعي، يا سيدتي العزيزة. اني اقسمت على التقيد بنذر فرضته على ذاتي.

الاميرة: كان الله في عونك، ها انت تخلّ بقسَمك.

الملك: ليس في الكون من داع يحملني على الحنث بيميني راضيا.

الاميرة: هل ارادتك وحدها هي التي تنقض هذا اليمين؟

الملك: انت تجهلين موضوع قسَمي، يا صاحبة السمو.

الاميرة: لو كنت يا مولاي، جاهلا مصيرك، لجاء جهلك حكمة. اما الان، وبناء على تصريحك، فلن يكون تصرفك الا تثبيتا لجهلك. انا اعرف انك، يا صاحب الجلالة، أقسمت على العيش في عزلة تامة. ومحافظتك على هذا القسم ستعدّ نقيصة لا تغتفر، ونقضه ذنبا وخيم العاقبة. ولكن، سامحني على جسارتي التي تعدت كل حد، اذ لا يليق بي ان اعطي درسا لاستاذ. فتنازل واقرأ وثيقة انتدابي كسفيرة اليك، وتفضل باستجابة طلبي (تسلمه ورقة).

الملك: اذا أمكنني، يا سيدتي، لبَّيته حالا بدون إمهال.

الاميرة: ارجو التنفيذ عاجلا كي أنسحب بأقرب وقت. وإلا تعرضت، يا مولاي، للحنث بيمينك، ان انا بقيت هنا. (يفتح الملك الورقة ويقرأها).

بيرون (لروزالي): أولم أرقص معك مرة في برابان؟

روزالي: انا اسألك، أولم أرقص معك مرة في برابان؟

بيرون: أجل، انا على يقين من ذلك.

روزالي: اني أستغني عن هذا السؤال.

بيرون: انت تقاطعني بخشونة.

روزالي: الذنب ذنبك، لانك أثرت حفيظتي بمثل هذا الاستفهام الاستنكاري.

بيرون: ان تفكيرك صاخب وسريع، ولن يلبث ان يتعب.

روزالي: ليس قبل ان يلقي خصمه في الوحل.

بيرون: كم تبلغ الساعة الان؟

روزالي: الساعة التي ينتظرها الاغبياء.

بيرون: ما اهنأ قناع وجهك بحظه السعيد!

روزالي: الحظ السعيد للوجه الذي يخفيه هذا القناع.

بيرون: ارجو ان تتحفك الايام بعدد كبير من العشاق.

روزالي: آمين، ثم آمين، شرط ان لا تكون انت واحدا منهم.

بيرون: لا خطر عليّ، لاني أنسحب حالاً.

الملك (للاميرة): يا سيدتي، ان والدك يتكلم هنا عن دفع مئة الف دينار، لا تشكل سوى نصف المبلغ الذي دفعه له ابي خلال حروبه. لنفترض، وهذا غير صحيح، ان والدي الملك المتوفي، رحمه الله، او انا، قد استلمنا هذا المبلغ، فلا يزال متوجبا عليكم دفع الدنانير المئة الف الباقية. ولضمان استيفائي هذا الدّين، احتفظ بجزء من الاكيتان مهما كانت هذه الرهينة أقل من القيمة التي ترمز اليها. فاذا كان والدك الملك يود ان يسدد لي فقط نصف المبلغ المتبقي، فاني أتنازل عن حقي في الاكيتان وألتزم بمعاهدة الصداقة المعقودة بيني وبين جلالة الملك والدك. ولكن يبدو لي انه ينوي عكس هذا، لانه يطالبني بدفع الدنانير المئة الف سهواً، بدل ان يقوم هو بدفع هذا المبلغ المتوجب عليه لاسترداد حقه في الاكيتان. اما انا فكنت أود ان افرج عن هذه المقاطعة لقاء المبلغ المذكور الذي اقرضه والدي لأبيك، عوضا عن الاحتفاظ بالاكيتان المحجوزة. ايتها الاميرة العزيزة، لو لم يكن طلب والدك بعيداً عن كل مساومة مقبولة، لاستطاع جمالك ان يحظى بتنازلات مهما كانت غير معقولة، لن يضن عليك بها قلبي المحب، ولرجعت الى فرنسا راضية كل الرضى.

الاميرة: انت تبالغ في التنديد بوالدي الملك، وتشوه سمعتك بيدك في نفس الوقت، اذا اصررت هكذا على رفضك الاعتراف بما دفعه لكم والدي بأمانة.

الملك: انا أحتج، لاني لم أسمع ابدا بأن دفع هذا المبلغ قد تم. فاذا امكنك اثباته فاني مستعد لرد المبلغ ولارجاع الاكيتان معا.

الاميرة: انا أقبل بقرارك هذا حرفيا. فتفضل، يا بوايه، بابراز الايصالات التي اعطاها في حينها لقاء هذا المبلغ، المسؤولون الذين كلفهم بذلك والده الملك كارلوس.

الملك: أعطني هذه المستندات، من فضلك.

بوايه : لم أستلم بعد الحقيبة التي تحوي هذه الايصالات وسواها من الوثائق الثبوتية، يا صاحب الجلالة. غدا ستكون حتما بين يديك.

الملك: اني أكتفي الان بهذا الاجتماع، وأنا مستعد لان أتقبل كل اجراء

معقول. في هذه الاثناء تفضلي بقبول الضيافة التي يمكنني ان أقدمها لمقامك، ضمن حدود اللياقة، بدون ان أتنقص من رفيع شرفك. يؤسفني ان لا يتسنى لك عبور باب قصري، ايتها الاميرة الجميلة. لكن الاستقبال الذي أخصك به هنا خارج القصر، يبين لك مقدار المودة التي يكنها لك قلبي تعويضا عن حرمانك من نزولك ضيفة تحت سقف بيتي. فاشمليني بحلمك الواسع، واعذريني. الوداع. غدا اقوم بزيارتك مجدداً.

الاميرة: اطلب من الله ان يمنحك الصحة التامة، ويحقق لك جميع امانيك، يا صاحب الجلالة.

الملك: اني أبادلك نفس هذه التمنيات (يخرج الملك مع حاشيته).

بيرون (**لروزالي**): انا أوصيك بقلبي خيرا، يا سيدتي.

روزالي: ارجوك ان تشدد التوصية. اذ يسرني كل ما يفيض به فؤادك العطوف.

بيرون: أود ان تستمعي الى انينه.

روزالي: وهل يشعر المهووس بأي ألم؟

بيرون: نعم ألم الاشتياق.

روزالي: مع الاسف، هو معرّض الى كثير من النزف.

بيرون: وهل هذا ينفعه؟

روزالي: في شرع طبي انا، أعتقد انه مفيد.

بيرون: أوتستطيعين ان تخترقيه بسهام لحظك؟

روزالي: بل بسكيني.

بيرون: مع ذلك، أدعو لك بطول العمر.

روزالي: يطول عمرك ايضا.

بيرون (**ينسحب**): لا وقت عندي لتكرار الدعاء.

دماين (**يشير لبوايه نحو روزالي**): مولاي، اسمح لي بكلمة. ارجوك ان تقول لي من هي هذه السيدة؟

بوايه: هي وريثة آلنسون، واسمها روزالي.

دماين: انها سيدة انيقة. الى اللقاء، يا سيدي (يخرج).

لنكفيل (يشير لبوايه نحو ماريا): كلمة، من فضلك. أستحلفك بكل عزيز ان تقول لي من هي صاحبة الثوب الابيض هذه؟

بوايه: اذا تفرست فيها جيدا، رأيت انها امرأة جميلة.

لنكفيل: قد ارى فيها ايضا بعض الخفة. انا اسأل عن اسمها.

بوايه: اسمها أشهر من نار على علم، والسؤال عنه يعد تقصيرا.

لنكفيل: ارجوك ان تعلمني ابنة من هي؟

بوايه : ابنة أمها على ما أعتقد.

لنكفيل : جزاك الله عني خيرا.

بوايه: حسن، يا مولاي، لا تحنق. هي وريثة فالكنبريدج.

لنكفيل: لقد اطمأن بالي الان. هي امرأة فاتنة.

بوايه: هذا ظاهر، يا سيدي، وليس من ينفيه. (يخرج لنكفيل).

بيرون (يدل بوايهِ على كاترين): وما اسم هذه السيدة التي ترتدي القبعة؟

بوايه: اسمها كاترين، على ما أظن.

بيرون: وهل هي متزوجة؟

بوايه: أظنها هكذا، او على وشك الزواج.

بيرون: اهلا بك، يا سيدي. ثم الوداع.

بوايه: الوداع لي انا، يا سيدي، وبك انت الترحيب (يخرج بيرون).

ماريا: هذا الاخير هو بيرون، الوجيه الفضولي المرح الذي لا اجد على لسانه الا الدعابة.

بوايه: وأغلب دعاباته مشبوهة.

الاميرة: احسنت صنعا بأن لا تترك له قول الكلمة الاخيرة.

بوايه: انا على أتم الاستعداد لاستدراجه، كما انه متأهب للتحدث اليّ.

ماريا: وكلاكما ككبشين مجفلين يتناطحان.

بوايه : بل كمركبين متعاديين يتصادمان. كم أود أن أكون كبش الفداء، وكالحمل الوديع أرعى من شفيتك !

ماريا : أأنت الكبش، وأنا المرعى؟ هلا وضعت حدا لهذه الدعابة السمجة؟

بوايه (يحاول ان يعانقها): اذا شئتِ ان تمنحيني المرعى.

ماريا (تدفعه): ليس هكذا، ايها الحيوان الماكر. ولن تكون شفتاي مرعى سهلا لك مهما تقربت مني.

بوايه: لمن تخصان؟

ماريا: لمن هو نصيبي.

الاميرة: اصحاب الطموح يتزاحمون باستمرار. انما عليكم ان تظلوا متفقين، يا خلّان. والاجدر بكم ان تحوِّلوا هذه المزاحمة الغزلية فيما بينكم الى مخاصمة ملك نافار ومَن حوله من طلاب العلم. لان نزاعكم لا مبرر له هنا.

بوايه: اذا كانت مقدرتي، الفائقة عادة، في حل رموز لغة القلوب التي تنطق بها العيون الصامتة، لم تنجح هذه المرة فانها قد أثرت على ملك نافار.

الأميرة : بماذا ؟

بوايه : بما نحن، ذوّاقة الجمال، ندعوه تباريح الهوى.

الاميرة: وما برهانك؟

بوايه: ان كل نباهته قد انحصرت في عيونه المنفتحة على نضارة شبابك. وقلبه الشبيه بالياقوت قد نقشت عليه صورتك بكل اعتزاز، كما تعبر عنه مقلتاه. ولسانه التوّاق الى الكلام الذي يسابق نظره، كان ينطق بالثناء في سياق الحديث، مؤيدا لغة العيون. وجميع مشاعره تتركز في حواسه المرهفة، المتأملة باعجاب في محيا احلى الحسناوات. نعم يخيل اليّ ان افكاره كانت ترافق أنظاره، كأنه امام قفص من البلور، وهذه الجواهر الملكية النادرة التي تبرز قيمتها من خلال الواجهة الشفافة، تغريه على اقتنائها عندما يمر بها مشدوها. ان مثل هذه القرائن تقرأها في حدقتيه، جميع الابصار المنجذبة اليها بافتتان. أما انا فسأعطيك الاكيتان وما تحويه، اذا جدتِ عليه بالقبلة الحارة التي ارجوها منك.

الاميرة: هيا بنا الى خيمتي، يا بوايه، ما دام الملك على أتم الاستعداد...

بوايه: ليبوح بالكلام، بما تشهد به عيناه، وما يخترق قلبه من سهام الحب. هٰذا اذا اكتفيت بتفسير نظراته الهائمة، وشرح ما تنطق به من تعابير صادقة ليس فيها على ما أعتقد أي أثر للنفاق.

روزالي: انت خبير عليم بأسرار القلوب وتتحدث عنها ببلاغة.

ماريا: هو خادم امين في هيكل الحب، وقد استقى منه هذه الاخبار السارة.

روزالي: في هذه الحالة، أعتقد ان والدته لا بد لها من ان تشبه إلهة الجمال فينوس، وان يكن والده قبيح المنظر.

بوايه: هل تسمعن يا آنساتي الحبيبات ؟

ماريا: كلا.

بوايه: اذاً، ماذا ترين ؟

روزالي: طريقنا للعودة.

بوايه: انكن أدهى مما كنت أتوقعه. (يخرج الجميع).

الفصل الثالث

المشهد الأول

في الحديقة الملكية

(يدخل ارمادو وفالان)

ارمادو: أنشد، يا بنيّ، وشنِّف أذنيَّ.

فالان (يغني): طلعت يا ما احلى... الخ.

ارمادو: لحن جميل، أيها الفتى العاطفي. خذ هذا المفتاح، ونادِ الراعي كي يأتي حالا الى هنا. لأني أود أن أكلفه بنقل رسالة الى حبيبتي.

فالان: هل تريد أن تغري فتاتك، يا سيدي ؟ تعلَّم اذاً ما يلزم من التعابير المؤثرة.

ارمادو: ماذا تقصد بالتعابير المؤثرة ؟

فالان : اليك الشرح، يا سيدي الكريم. عليك أن تدمدم نغما من خلال شفتيك، وتضرب الايقاع بقدمك وتشفعه برفع عينيك الى العلاء. ثم تدمدم لحنك وتترنم تارة من حنجرتك، كما لو كنت تبتهل الى رب السماء، وطورا من انفك كما لو كنت تتنشق عبير الهوى وتتنسم أريجه. وترفع قبعتك كأنها عصبة فوق حاجبيك، وذراعاك مشبوكتان على صدرك مثل أرنب مشكوك بسيخ ليشوى على النار، أو يداك مدسوستان في جيبك كأنك شخصية

أسطورية تزيد قيمة لوحة زيتية قديمة. ثم تسعى الى عدم البقاء مدة طويلة على وتيرة واحدة. فهذا ليس سوى اجراء بسيط لكنه كاف. وهو المعين السحري الذي يتيح للرجل تضليل فتاة متبرّجة متأنقة هائمة في بحر الغرام، وبتغاضيه عن ضآلة ثقافتها، التوصل الى احتلال مكانة مرموقة في قلبها.

ارمادو: كم كلفتك هذه الخبرة ؟

فالان: ملاحظة زهيدة.

ارمادو: ولكن...

فالان (يدمدم اغنية) : لو كنت حصانا...

ارمادو: وهل تظن ان حبيبتي حصان ؟

فالان: كلا، يا سيدي. ان الجواد فحل، وحبيبتك ليست من هذا النوع. هل نسيتها ؟

ارمادو: تقريبا.

فالان: تباً لك من طالب بليد ! اذكرها ولو عن بعد.

ارمادو: عن بعد، وبكل اشتياق، يا غلام.

فالان: رغما عنك، يا سيدي. وأنا مزمع ان أثبت لك أمورا ثلاثة.

ارمادو: ماذا تثبت ؟

فالان: اني رجل عظيم، استخلص فورا استنتاجا من ثلاث نقاط : انت تهوى فتاتك عن بعد، لأن قلبك لا يعرف طريق الوصول اليها. وتحبها باشتياق لأن فؤادك مشغوف بهواها. وأخيرا تحبها رغما عنك لأن عدم حصولك عليها يحطم قلبك.

ارمادو: وأنا موزع بين هذه الحالات الثلاث.

فالان (على حدة) : وستجد نفسك في حالات أخرى وأنت تقبض على الريح.

ازمادو: اذهب واستدعِ لي الراعي، لأكلفه بإيصال رسالة من قبلي.

فالان: هذه مهمة موفقة كمهمة حصان مرسل سفيرا من قبل حمار.

ارمادو: ماذا تقول ؟

فالان: أقول، يا سيدي، ان الأولى بك أن تضع على ظهر الحصان السريع

هذا الحمار الذي يبدو بطيئا للغاية. أنا ذاهب.

ارمادو: الطريق ليس طويلا. فانهب الأرض نهبا.

فالان : سأمضي بعجلة أسرع من الرصاص، يا سيدي.

ارمادو: ماذا تعني، أيها الصغير الحاذق ؟ أوَليس الرصاص من المعادن الثقيلة البطيئة ؟

فالان: هو ثقيل جدا، يا سيدي النبيل، انما أحيانا هو بالعكس في غاية السرعة.

ارمادو: الرصاص بطيء دائما يا غبي.

فالان: أنت تتكلم بعجلة فائقة، يا سيدي، وكلامك أثقل من الرصاص المنطلق من فوهة البندقية.

ارمادو: أما دخانه الكثيف فيلف المبادىء، ويجعل مني مسدسا أصوّب احدى طلقاته الى المتحدي.

فالان: إضغط اذاً على الزناد حتى أهرب (يخرج).

ارمادو: هذا الفتى زلق اللسان. فما أكثر كلامه، وما أبلغه ! المعذرة. أستغفرك اللهم، لأني تماديت في الحديث. ما أقسى الكآبة التي تحل محل الشجاعة ! ها هوذا رسولي قد عاد.

(يعود فالان وبصحبته تروني)

فالان: لقد حدثت أعجوبة، يا سيدي. ها هوذا تروني الغريب قد خدش ساقه.

ارمادو: ما هذه الأحجية ؟ ما هذا الطلسم ؟ هذه هي مهمتك، فابدأ بها.

تروني (يحك فخذه) : لا أحجية، ولا طلسم، ولا رقية، يا سيدي. هل يوجد أفضل من المرهم لتضميد الساق ؟

ارمادو: بالفضيلة تجعل الضحك لا يقاوم، يا مغفل. أما الغباوة فانها تفشّل تدابيري. وإذ ألجأ الى الحيلة تتولد على شفتيّ ابتسامة جهنمية. أستغفرك، يا إلهي. هذا الأبله يعتمد على الرقية بدل المرهم الشافي، ويظن انها تنفع في التضميد.

فالان: الأبله يتكلم كالانسان الحكيم أحيانا. فهل في الرقية ما يدل على التفكير ؟

ارمادو: كلا، يا غلام. ان الرقية هي عبارة عن مقدمة أو خطاب يرمي الى شحر الغامض من الأقوال. واليك أحد الأمثلة :

الثعلب والقرد والدبور.
شكّلت عددا مفردا هو ثلاثة.
هذه هي الفاتحة. والآن، اليك بالرقية.

فالان: سأضيف الرقية. فكرر الفاتحة.

ارمادو: الثعلب والقرد والدبور.
شكّلت عددا مفردا هو ثلاثة.

فالان: وعندما خرجت الأوزة من البيت
زاد العدد المفرد فبلغ الأربعة.
والآن سأكرر المطلع، وأنت ستتبعني بالرقية.
الثعلب والقرد والدبور.
شكّلت عددا مفردا هو ثلاثة.

ارمادو: وعندما خرجت الأوزة من البيت، زاد العدد المفرد فبلغ الأربعة.

فالان: الرقية ممتازة، وقوامها أوزة. فهل تتمنى أفضل منها ؟

تروني (يشير الى ارمادو) : أعطِ الغلام الأوزة. الامر واضح. (لارمادو) يا مولاي، اذا كانت الأوزة سمينة، فهذا أصلح لك، لأن الأوزة السمينة رقية مضمونة الفعالية.

ارمادو: أخبرني، كيف بدأت هذه المحاورة ؟

فالان: كنت أتكلم عن تروني الغريب الذي خدش ساقه، واذا بك تطلب الرقية.

تروني: هذا صحيح، وأنا طلبت الذرة. عندئذ جاءت حجتك أقوى وتلتها الرقية المضمونة الفعالية التي أتى بها الغلام، ثم الأوزة التي أعطاك اياها. وتمت الصفقة هكذا.

ارمادو: لكن، قل لي كيف اتفق لتروني أن يخدش ساقه ؟

فالان: سأشرح لك الحادث بصورة واضحة.

تروني: أنت لا تدرك القضية مثلي، يا فالان. ان هذه الرقية تخصني. فأنا تروني، عندما هربت من المكان الذي مكثت فيه بأمان، تجاوزت العقبة وخدشت ساقي.

ارمادو: لندع هذه المسألة جانبا.

تروني: أجل، ولننتظر حتى يسري العلاج في ساقي.

ارمادو: يا صديقي تروني، سأخلصك من مأذقك.

تروني: أجل، ان ما أتمناه من صميم فؤادي هو أن تزوجني فتاة مناسبة. وهنا أيضا يخيل اليّ اني كالأوزة.

ارمادو: والله، أنا أنوي أن أحل مشكلتك وأنقذك من أسرك.

تروني: لا أشك في ذلك. فساعدني على الخلاص باطلاق سراحي.

ارمادو: سأرد اليك حريتك، وأفتح لك باب سجنك، انما بشرط أن تنقل هذه الورقة الى الفلاحة جاكينات. وهاك أجرك. (يعطيه رسالة وبضع قطع نقدية صغيرة) لأن خير برهان على استقامتي هذه اعطاء خدمي ما يستحقونه من أجر. اتبعني يا فالان. (يخرج).

فالان: نعم، يا سيدي. وهذا يكون مسك الختام. الوداع، يا سنيور تروني.

تروني (لفالان) : يا قطعة من كبدي، يا جوهرتي الغالية. (يخرج فالان. تروني وحده يواصل كلامه) والآن، لأرَ ما أعطاني كأجر. (يفحص القطع القليلة التي أعطاه إياها ارمادو) الأجر ! لا أعتقد أن يكون عطاؤه أكثر من ثلاثة دراهم. الأجر ! لقد قال في سره ماذا يساوي هذا التافه ؟ فلسا ؟ كلا. سأعطيه أكثر، وينقضي الأمر. الأجر كلمة رنينها أرخم من الذهب. في المستقبل، لن أعقد أية صفقة بدون هذه الوسيلة السحرية.

(يدخل بيرون)

بيرون: يا لك من منافق، يا عزيزي تروني ! ما هذه الصدفة السعيدة ؟

تروني: العفو، يا سيدي. كم ذراعا من شريط بلون اللحم يسع المرء أن يتشري بأجره ؟

بيرون: ماذا تعني بالأجر ؟

تروني: بالنسبة اليّ، يا سيدي، درهم ينقصه فلس.

بيرون: باستطاعتك اذاً أن تشتري حريرا بثلاثة فلوس.

تروني: أشكر سيادتك على هذا الكرم الحاتمي، وأسأل الله أن يجزيك عني خيرا.

بيرون: أصمت، يا خبيث. سأكلفك بمهمة. واذا كنت تريد كسب مودتي، أيها المحتال البارع، قم بما أطلبه منك بدون إمهال.

تروني: متى تريد أن يتم الأمر، يا سيدي ؟

بيرون: بعد ظهر هذا النهار.

تروني: سمعا وطاعة، يا سيدي. سأفعل ما تشاء، فالى اللقاء. (يهم بالانسحاب).

بيرون: ولكنك لم تعرف بعد ماذا أرغب.

تروني: سأعرفه، يا سيدي، بعد أن أقوم به.

بيرون: يا غبي، لا بد لك من الاطلاع عليه قبل أن تباشر فيه.

تروني: سأسألك عنه منذ صباح الغد.

بيرون: لا بد للمسألة من أن تتم بعد ظهر هذا النهار بالذات. فاسمع يا مغفل. انها كما يلي : ستأتي الأميرة لتصطاد هنا في الحديقة. من جملة حاشيتها سيدة لطيفة جميلة، سيُذكر اسمها وستسمع صوتها الرخيم، وهي المدعوة روزالي. فاطلبها واجتهد أن تضع في يدها الناعمة هذا المغلف السري. (يعطيه رسالة) واليك بما يرضيك، فاذهب حالاً (يعطيه نقودا).

تروني: ما يرضيني ! وما أحلى ما يرضيني ! المبلغ قدره أحد عشر درهما وفلس واحد. ما أحلى ما يرضيني، وما هو خير أجر لي ! (يخرج).

بيرون (وحده) : هل هذا ممكن ؟ أأنا مغرم ؟ أأنا صريع الهوى ؟ أنا جلّاد التنهدات والأشواق، أنا الناقد القاسي، أنا حارس الليل، أنا العالم الكبير الذي يفاخر الجميع بنبوغه، أنا الفتى المعصوب العينين، البكّاء الأعمى، أنا الصبي النزق، أنا الشاب العجوز، أنا القزم المارد، أنا إله الحب الوصي على قوافي الهيام، أنا صاحب الذراعين المتشابكين على الصدر، سلطان الأسى والحنين، أنا رب المتشردين الناقمين، أنا أمير الأثواب الرهيب، أنا ملك السراويل

وأمبراطور الصداري، أنا القائد المغوار الذي يرتعد لذكره أشجع الفرسان. آه يا قلبي الصغير المسكين ! هل يهون عليك أن أرى نفسي أخيرا تحت رحمتك، أحمل لواءك كعلم خفاق، وأرفعه كراية الشوق بأعلى يدي ؟ ماذا جرى لي ؟ أأنا أعشق وأغازل ؟ أأنا أسعى الى الاقتران بامرأة هي أشبه بساعة كبيرة تحتاج دوما الى الاصلاح لأنها تتعطل باستمرار، وتتدهور حالتها من سيىء الى أسوأ مهما أحيطت به من عناية ورعاية ؟ ماذا أقول ؟ أأنا أورط نفسي، في أردأ الحالات، بين ثلاث نساء، وأهوى أحطّهن خلقا، أعني المتبرّجة ذات الحاجبين المزجّجين كسيفين مسلولين يعلوان حدقتي عينيها السوداوين الزائغتين دوما في محجريهما ؟ أي وربي، هي فتاة جريئة، لا تتردد في استخدام براثنها عند الحاجة، وأنا مستعد لأن أموت فداها، أنا الذي حُرمت النوم بسببها، وأتوسل بدون انقطاع لامتلاكها. في الحقيقة، هذا عقاب أنزله بي إله الحب، لأني باستخفاف تجاهلت سلطانه الجبار وقبضته الناعمة المدمرة. على كل حال سأظل أحب وأكتب وأتنهد وأصلي وألتمس وأئنّ، اذ يتحتم على كل رجل أن يهوى إما سيدة محترمة، وأما غادة مستهترة.

الفصل الرابع

المشهد الأول

في جانب آخر من الحديقة

(تدخل الأميرة وروزالي وماريا وكاترين ثم يدخل بوايه والوجهاء ورجال الحاشية وحارس الصيد)

الاميرة: أهو الملك الذي يهمز حصانه بحدّة لمحاصرة هذه الأكمة المتعرّجة الدروب ؟
بوايه : لست أدري. ولكن يخيل اليَّ انه ليس هو.
الاميرة: كائنا من كان، فهو خيَّال لا يُشقّ له غبار. هيا، يا سادة، في هذا النهار ننهي أعمالنا، ويوم السبت نعود الى فرنسا. يا صديقي، حارس الصيد، أين الحرج الذي علينا أن نكمن فيه للقيام بدورنا كقتلة ؟
حارس الصيد : هو على مقربة من هنا، عند سفح المنحدر. وحين تقفين هناك، يا أميرتي، أنا على يقين بأنك تبدين كأجمل صيادة في الكون.
الاميرة: أجل، هذا بفضل مفاتني أنا الجميلة، وبما اني أجيد الصيد، أنا واثقة بأني، كما تقول، أبدو كأروع صيادة.

حارس الصيد : العفو، يا سيدتي، أنا لم أقصد ذلك.

الاميرة: كيف، كيف ؟ لقد بدأت تمدحني ثم تراجعت. يا لحماقة الغرور ! من المؤسف جدا أن لا أكون اذاً جميلة.

حارس الصيد : أنت من أحلى الحسان، ولا مجال للشك في ذلك، يا سيدتي.

الاميرة: لا تهتم بمظهري. فالمديح لا يُصلح وجها جفاه الحسن والبهاء. ما أصدق مرآتي ! هيا خذ هذا لأنك صارحتني بالحقيقة (تعطيه نقودا) ان عطاء المال الحلو لقاء كلمات مرة يعني تسديد ما هو أكثر من المبلغ المستحق.

حارس الصيد : كل ما تمنحينه هو سخاء يجود به جمالك.

الاميرة : كفى. لا شيء يحفظ رونق الحسن نظير صالح الأعمال. ما أردأ الذوق الذي يشبه شؤم هذه الأيام. أما اليد التي تعطي، فمهما كانت قبيحة، تراها واثقة من فوزها بشكر من يتلقى المنحة، شاء أو أبى. هيا ناولني القوس (خادم الصيد يسلمها قوسا وسهاما) عندما يتأهب طيِّب القلب لازهاق روح، كما هو الحال في هذه الساعة، تبدو له الضربات الصائبة كأنها فاشلة. هكذا، أنا موقن بأني سأنسحب من هذا الصيد ظافرة. فاذا لم أصب الطريدة يكون اشفاقي قد حال دون فوزي، وان أصبتها أكون قد أبرزت مهارتي لكي أحظى بالثناء المستعذب لا بلذة القتل. ولقد جرى ذلك أكثر من مرة. فالمجد لا يعفّ عن اقتراف جريمة فظيعة، بينما اكتساب المديح والسمعة المشكورة يعتبر من أباطيل المظاهر الخارجية، الضرورية لاستنفاد قوانا الداخلية كما حصل لي أنا التي، لكي أحظى بتقريظ بسيط، أسعى في هذه اللحظة الى سفك دم غزال مسكين لا أضمر له أي أذى.

بوايه : أوَليس أيضا حبا بالاستعلاء تقصد الزوجة المغرورة أن تفرض سلطتها على زوجها وتتحكم بشريك حياتها ؟

الاميرة: أجل، هذا هو الواقع المرير، ما دمنا نكيل الثناء جزافا لكل امرأة تفرض سيطرتها على رجلها.

(يدخل تروني)

الاميرة: ها هوذا عضو من الجمعية مقبل علينا.

تروني: حفظ الله كل أفراد الجمعية. العفو. من هي هذه السيدة المترئسة هنا ؟

الاميرة: لمعرفتها، أيها الصديق، عليك أن تنظر الى من لا رأس لها.

تروني: من هي السيدة الأرفع مقاما هنا ؟

الاميرة: الأسمن والأطول بينهن.

تروني: الأسمن والأطول ؟ هل هذا هو المهم ؟ الحقيقة هي الحقيقة. فاذا كان قوامكِ ، يا سيدتي، هكذا نحيلا مثل فكري، فان زنار احدى هؤلاء الآنسات يلائمك حتما. أولستِ هنا المرأة الرئيسة؟ فأنت اذاً الأعرض جاها.

الاميرة: ماذا تعني، يا سيدي، بهذا الاستخلاص ؟

تروني: في حوزتي رسالة من السيد بيرون الى سيدة تدعى روزالي.

الاميرة: عجِّل وسلمني اياها. انه صديقي الحميم. (تأخذ الرسالة التي يمدها اليها تروني). تعال الى هنا يا عزيزي ساعي البريد بوايه. أنت ماهر في فض الرسائل، فافتح لي هذا المغلف (تسلم بوايه الرسالة).

بوايه : أنا مستعد لكل خدمة تلزمك (يقرأ العنوان). هناك التباس، لأن هذه الرسالة غير موجهة الى أحد من هنا، هي مرسلة الى جاكينات.

الاميرة: لا بد من أن أطَّلع عليها. فض هذا الخاتم، وليصغِ كل واحد منكم.

بوايه : (يفض الرسالة ويقرأ): لعمري، أنت آية في الجمال، بدون أي ريب. أنت حقا رائعة. أنت محبوبة، أنت لطيفة، أنت كريمة، فاشفقي على أسير هواك المتدله. في غابر الزمان ألقى الملك الشهير كَفتيا العظيم نظرة على المتسولة المحتالة زينولوفون الفاسقة، فما لبث أن هتف : أتيت، وعاينت وظفرت. وهذا معناه في اللهجة العاميَّة، ويا لها من عاميِّة غامضة، انه جاء ورأى وانتصر. أولا جاء، ثانيا رأى، ثالثا انتصر. فمن الذي أتى ؟ الملك. لماذا أتى ؟ لينظر. ولماذا نظر ؟ لكي ينتصر. الى من أتى ؟ الى المتسوّلة. ومن رأى المتسوِّلة، وعلى من انتصر ؟ على المتسوِّلة. فالنتيجة هي الانتصار. من أية جهة ؟ من جهة الملك. والأسر هو اثراء. من أية جهة ؟ من جهة المتسوّلة. والوليمة هي الكارثة. من أية جهة ؟ من جهة الملك. بل من الجهتين لواحد،

أو بالحري من جهة واحدة لاثنين. أنا الملك : اذاً هكذا تمَّت المقارنة تلقائيا. أنتِ المتسوّلة : اذاً هذا ما أثبته ضعف موقفك. هل يمكنني أن أجابه حبك ؟ أنا قادر على ذلك. هل أقتحم قلبك ؟ أنا قادر أيضا على ذلك. فهل ألتمس عطفك متوسلا ؟ لكن إبائي يرفض ذلك. بماذا تستبدلين أسمالك البالية ؟ بأثوابك الجديدة. ومكرك ؟ بأخلاقك الحميدة. وشخصيتك ؟ بشخصي أنا. فبناء على ذلك، وبانتظار ردك، أمرّ شفتي على قدميك، وعينيَّ على رسمك، وقلبي على عواطفك وحنوّك. أنا دوما رهن اشارتك وأغلى أمانيَّ أن أكرِّس حياتي لخدمتك.

المخلص لك : دون أدريانو دي أرمادو.

هل تسمعين الأسد يزأر أمامي أنا النعجة الصغيرة الضعيفة التي ستصبح ضحيته. اين أزحف باتِّضاع عند قدمي مليكي، وربما حين يُشبع أهواءه، يتنازل الى مداعبتك. ولكن، يا مسكينة، اذا شئت المقاومة، ماذا يحل بك ؟ ستكونين فريسة غضبه ومرعى خصيبا لنزواته المتقلبة العنيفة.

الاميرة: من أي معدن هو، من دبَّج هذه الرسالة بل أية قريحة جادت بها ؟ هل سمعت في حياتك ما هو أروع ؟

بوايه : حقا، إما أن أكون على خطأ مبين، واما أن أتذكر جيدا هذا الأسلوب !

الاميرة: تكون ذاكرتك خرقاء، اذا نسيت بهذه السرعة.

بوايه : ان ارمادو هذا هو اسباني مقيم هنا في البلاط. وهو صلب الطباع متمسك بصحبة الملك، يسليه مع رفاقه أثناء الدرس.

الاميرة (لتروني): اسمح لي يا صديقي العزيز بكلمة. من سلمك هذه الرسالة ؟

تروني: لقد قلت لك انه سيدي.

الاميرة: والى من كنت مزمعا أن توصلها ؟

تروني: الى سيدتي، من قبل سيدي.

الاميرة: من أي سيد الى أية سيدة ؟

تروني: من سيدي بيرون، وهو معلمي الكريم، الى السيدة الفرنسية التي دعاها روزالي.

الاميرة: لقد أعطيتها رسالة أخرى بدل الرسالة الموجهة اليها. هيا نذهب، يا سادتي. (تسلم روزالي الرسالة). خذي هذه، يا عزيزتي، وقريبا تصلك الرسالة الموجهة اليك. (تخرج الاميرة مع حاشيتها).

بوايه : من الذي يصطاد هنا، يا حلوة ؟

روزالي: هل عليّ أن أخبرك بذلك ؟

بوايه : نعم، يا فاتنتي الجميلة.

روزالي: اذاً، هي التي صوبت السهم. وهي مزودة بكل ما يلزم. أليس كذلك ؟

بوايه : ستصطاد الأميرة كل حيوان له قرون. ولكن عندما تتزوجين، سأشنق نفسي اذا فقدت القرون في تلك السنة. وهذا القول في محله، أليس كذلك ؟

روزالي: سأثبت لك حينئذ انني صيادة ماهرة.

بوايه : ولكن، أين غزالك ؟

روزالي: اذا اخترته بقرون، تكون أنت. إقترب، هذا حقا ضرب محكم.

ماريا: أنت تخاصمها على الدوام، يا بوايه، وهي ترد لك الصاع صاعين.

بوايه : وهذه المرة اصابتك في مكان أوطى. فتلقّى.

روزالي: بما اننا نتكلم عن الاصابات، هل تريد أن أرميك بقطعة قديمة من الدهن، عمرها منذ أن كان الملك طفلا بحجم بذرة تفاح فرنسا.

بوايه : بشرط أن يتسنى لي الرد عليك برسالة قديمة أيضا بعمر المرأة يوم كانت ملكة بريطانيا كينوفار لا تزال طفلة رضيعة.

روزالي (تنشد) : بما انك لا تستطيع اصابة الهدف،
هكذا أنا لا أتمكن من وصل حبيبي.

بوايه (ينشد) : ان أنا لم أستفد من الصدف
فلا أحد غيري يداوي علّتي.

(تخرج روزالي وكاترين)

تروني: أقسم بأن هذا المشهد مسلٍ، وانه الأقرب الى الصواب.

ماريا: الرماية حقا محكمة التسديد وتستحق الاعجاب. فكلاكما أصبتما الهدف في الصميم.

بوايه : يا له من هدف مرموق. عجِّلي، يا سيدتي، وائتني بمسمار قوي لتثبيت هذا الهدف الممتاز.

ماريا ألا أنتبه الى المسمار، انك تدقه في غير محله. في الحقيقة، آلتك خرجت عن المكان المعيَّن.

تروني: عليه اذاً أن يستهدف نقطة أقرب، وإلا اخطأ كليا.

بوايه : اذا كانت آلتيْ في الخارج، فبالمقابل آلتك هي حتما في الداخل.

تروني: ستصيب الهدف حالما يفلت الاسفين الذي يشد الوتر.

ماريا: اخجلوا، يا جماعة، فكلامكم أضحى مغموسا في الذهن، وبات يلوث شفاهكم.

تروني: هي أقدر منك بكثير في الرماية، يا سيدي. فتحداها أنت بالكريات.

بوايه : أخشى حينئذ أن تعطبني. (لماريا) ليلتك سعيدة، أيتها الحلوة الكريمة. (يخرج وتتبعه ماريا).

تروني (وحده) : والله لم أشاهد انسانا غليظاً مثله. ما أغباه ! يا إلهي، تقاذفناه كالكرة أنا وهؤلاء السيدات. يا لها من مداعبات ظريفة. ألا تحدثني عن الفكاهة الا عندما تكون غريبة وبذيئة، تسيل من ينبوع هكذا وضيع ومزدوج المعاني ؟ ان ارمادو رجل أنيق بكل معنى الكلمة، ولا بد من مشاهدته حينما يتمايل أمام المرأة بل عندما يحمل المروحة، ويرسل القبلات بيده على جناح الأثير، ويغدق ألف وعد ووعد في سباق مطارحة الغرام. ثم هناك غلامه الذي أصبح يؤلف معه ثنائيا فكاهيا نادرا. ربَّاه ! انه حقا لحيوان حقير سريع الانفعال، لم أجد له شبيها طوال حياتي. يا الهي، يا الهي. (تسمع ضجة صيد بعيدة يخرج تروني راكضا).

المشهد الثاني

يدخل هلفارن والسير نتنايل وبالور

نتنايل : هذا حقا صيد محترم للغاية بشهادة كل صاحب ضمير حي.

هلفارن : لقد كان الغزال، كما تعلم، لا يزال يتخبط بدمه، شهيا كالخوخة الدانية القطوف المتدلية من الغصن، بل كجوهرة براقة على صدر حسنناء، وها هو قد سقط أرضا نظير تفاحة لذيذة ناضجة مغرية.

نتنايل : حقا، يا سيدي هلفارن، أنت توزع النعوت بحذق كرجل علم بارع. لكنني أؤكد لك ان الغزال لم يبلغ السنة الأولى من عمره.

هلفارن : أنا أصدّق قولك، يا سيدي نتنايل.

بالور : أجل، هو غزال صغير السن.

هلفارن : يا للملاحظة البديهية! هذا مع ذلك نوع من التلميح الجري، كمن يشرح تفسيرا أو يعطي جوابا، ولا يتوصل الى التعبير عن خواطره. يا للحكم الجائر الأبله الخالي من كل خبرة وثقافة وتبصُّر، يعتبر الوهم كأنه غزال.

بالور : أؤكـد لك ان الغزال ليس وهماً، بل هو غزال صغير حقيقي.

هلفارن : هذه سذاجة مغلفة بالخداع. ما أقبحك أيها الجهل المخزي !

نتنايل : هذا الصبي، يا سيدي، لم يتذوق يوما ما تعج به بطون الكتب من فوائد جليلة. ولم يألف أبدا ما يتضمنه الحبر والورق من علوم نافعة مفيدة. وهكذا تكون ثقافته ناقصة. انه حيوان حساس فقط في أجزائه المبتذلة، بل كاحدى النباتات العقيمة التي تعرض على أنظارنا لنكتفي، نحن أصحاب الذوق والرغبة، راضين بحصولنا على الخصب الذي ينقص سوانا من الرجال. اذ، كما لا يليق بنا التظاهر بالغباء والبلاهة، وكذلك لا يليق بالبليد ان يدّعي العلم والفهم، وأن ينتسب الى أية مدرسة فكرية. غير اني لست من رأي

الكهل المتقدم في السن الذي يهتف قائلا ان كثيرين ممن يقوون على تحمل الأنواء، يتجنبون مواجهة العاصفة عن حكمة لا عن خوف وعجز.

بالور: أنا أقدّر سعة اطلاعك. فهل يمكنك مع كل ما تختزنه من معلومات، أن تسمي لي مخلوقا كان عمره شهرا عند ولادة قايين، لم يبلغ بعد حتى الان أسبوعه الخامس ؟

هلفارن: هي دكتينا، يا بالور الساذج.

بالور: ومن هي دكتينا ؟

نتنايل: هذا لقب يعطى لغابا والقمر.

هلفارن: القمر كان عمره شهرا واحدا عندما لم يكن عمر آدم أكثر من ذلك. ولم يبلغ القمر من العمر خمسة أسابيع حتى أمسى عمر آدم مئة عام. هذا تلميح موفق من ناحية أو من أخرى.

بالور: بل استنتاج موفق جدا.

هلفارن: زادك الله علما اذ حكمت بأنه موفق.

بالور: أنا أؤكد انه موفق، لأن القمر لم يكن عمره أكثر من شهر، وأؤكد من جهة ثانية ان الأميرة قتلت غزالا صغيرا.

هلفارن: سيدي نتنايل، هل تريد أن تسمع رسالة مرتجلة عن موت الغزال. اني، لإرضاء هذا الجاهل، نعتُّ الغزال الذي اصطادته الأميرة بأنه صغير.

نتنايل: ليطمئن بالك، يا سيدي هلفارن. كفاك التنديد بالواقع.

هلفارن: عليّ أن أتلاعب قليلا بالكلام، لأن هذا بالذات يبرهن على حسن التصرف.

(يلقي الأبيات التالية) :

للحصول على الغزال الصغير الذي صرعته الأميرة
يؤكد بعض الناس ان الغزال طريدة حقيرة
ولو شاء أن يجري بكل سرعته وقوته البالغة
لقالوا هم أنفسهم ان اصالته بدعة زائفة.

نتنايل: ما أروع بلاغتك !

بالور: ان فصاحته تهيمن على شخصيته، بدون أية مبالغة من رأسه الى أخمص قدميه.
هلفارن : هذه هبة، حباني بها ربي، ولا فضل لي فيها. أما مخيلتي فخصبة تفاخر أجواز الفضاء بما تحويه من أشكال وألوان وأوصاف ومشاهد وأفكار وعواطف ومهارات، كلها مخزونة في إحدى خلايا ذاكرة تغذيها العبر التي تحبل بها الصدف وتلدها الظروف. وهذه المواهب الخلّاقة بطبيعتها هي أحيانا لاذعة. وعلى هذا الأساس أصرح بأن ليس لديَّ من مزايا أوزعها يمينا ويسارا.
نتنايل : سيدي، يعلم الله اني من مؤيديك، وكل أنصاري حتما يحذون حذوي نظرا الى ما تجنيه بناتهم من فوائد في عهدك، لأنك عضو صالح في مجتمعنا.
هلفارن : ثق بأن فتيانهم، اذا كانوا يتمتعون بالذكاء، لن تحجب الثقافة عنهم. واذا امتلكت فتياتهم المقدرة اللازمة، سأؤمِّن لهن التمرّس حتى يصبحن أفضل جميع بنات حواء.

(تدخل جاكينات، يتبعها تروني)

جاكينات (لنتنايل) : صباح الخير، يا سيدي.
هلفارن : من منكم يود أن يصبح رجلا مثاليا ؟
تروني: من يعتبر نفسه في مصاف العلماء.
هلفارن : هذا صحيح. يجب أن يكون من العلماء. هذه فكرة ممتازة بالنسبة الى مجتمعنا، وشعاع مضيء بالنسبة الى جوّنا المظلم، ولؤلؤة نادرة بالنسبة الى من يستحقها. هذا جميل وملائم.
جاكينات: سيدي الفاضل، ارجوك أن تتكرم عليّ بقراءة هذه الرسالة التي سلمني اياها تروني من قبل « دون ارمادو ». أتوسل اليك ان تقرأها لي.
هلفارن (يقرأ بلهجة غير مفهومة) : ... الخ، الخ. أيها الشيخ الكريم، يسعدني أن أقول عنك ما يتناقله المسافرون عن مدينة البندقية. يا لك من شيخ جليل ! ان من لا يفهمك لا يسعه أن يقدرك. (يدمدم) دو، ره، مي، فا، صول. العفو، يا سيدي. ما هو مضمون هذه الرسالة ؟ أو بالحري، ماذا يقول هوراسيوس في هذه الأشعار ؟
نتنايل : انها عويصة المعنى.

هلفارن : أسمعني بعضها أو مقطعا منها.

نتنايل (يقرأ): اذا جفاني الحب، كيف يتسنى لي أن أتغنى بالهوى ؟
أما الوعود فلا تليق الا بالحسناوات ذوات الغوى
والفكرة الراسخة في مخيلتي كسنديانة هائلة
تنحني امامكِ كقصبة مرضوضة في مهب الريح مائلة.
رجل العلم ان تجنب الزوغان اتخذ من عينيك كتابا
يحوي في رياض الهوى والشباب المتع والمباهج العذابا
واذا كانت الغاية هي المعرفة فان علومك كافية
واللسان الزلق يشيد دوما بمحاسنك الوافية
نفسي الحائرة تنتشي بنفح شذاكِ
وفي الحب يكفيني التأمل بروعة سناكِ
فالشوق يتجلّى في طرفكِ والرقة في صوتكِ
وان أضناني الجوى طلبت السلوى من وجنتكِ
انت ملاك سماوي يا حبيبتي، فسامحي هفوتي
وان وصفت حسنك بلغة الأرض فلأجد فيك جنتي.

هلفارن : أنت لا تقف عند النقاط، ولا تعطي كل كلمة ما تستحقه من نبرة خاصة. دعني أتفحص هذه الانشودة التي لا أجد فيها من صالح سوى الايقاع. أما الانسجام والسهولة في ضبط النغم الشعري فقلّ ان أرى له من أثر. وقد اشتهر بذلك اوفيديوس ناسُّو. ولذلك دُعي باسمه هذا العمل الذي يفوح منه أريج الزهور تنميقا وتفننا وتحليقا في سماء الخيال والابداع. أما التقليد فلا قيمة له. لأن الكلب يقتفي أثر صاحبه، والقرد يحذو حذو حارسه، والحصان ينقاد الى توجيه راكبه. والآن، أيتها الآنسة العفيفة، هل هذا مرسل اليك ؟

جاكينات: نعم، يا سيدي، من قبل مولى يدعى دون أرمادو.

هلفارن : دعيني ألقِ نظرة على العنوان : « ليد السيدة روزالي البارعة الجمال، الناصعة البياض كالثلج » وبتفحُّصي مجددا أختام التحرير، أتعرف الى شخصية كاتبه، وشخص المرسل اليها : « المخلص لجمالك الغض ــ بيرون ». فيا

سيدي نتنايل، ان بيرون هذا طالب جديد يرافق الملك. وقد وجه إلى إحدى فتيات الأميرة الغريبة رسالة ضلّت طريقها صدفة أو عن سابق قصد. (لجاكينات) اذهبي بعجلة، يا فاتنتي، وسلمي هذه الورقة الى جلالة الملك، فقد تكون لها أهمية كبيرة. لا تتوقفي أثناء سيرك اذا سمعت بعض المديح، وأنا أعفيك من رسميات التحية. الوداع.

جاكينات: تعال معي، يا تروني الكريم. حفظك الله على مدى الأيام.

تروني: ها أنا في خدمتك، يا بنيتي. (يخرج تروني مع جاكينات).

نتنايل : سيدي، لقد تصرفت الان بما يرضي ربك وضميرك، كما يقول اساطنة الفلسفة.

هلفارن : مولاي، أرجوك أن لا تكلمني عن الأقدمين لأني أخشى المضلّلين منهم، بل لنعد الى هذه الأشعار. كيف تجدها، يا سيدي نتنايل ؟

نتنايل : ممتازة من ناحية السبك والأسلوب.

هلفارن : اليوم أنا مدعو الى الغداء عند والد أحد تلامذتي، فأرجوك أن تنضم الينا قبل أن نجلس الى المائدة لمشاركتنا الطعام. اذ بموجب دعوة أهلّ تلميذي، أدعوك وأرحب بك الى هذه المائدة. هناك أثبت لك ان أبياتك غير مكتملة الوزن، اذ ليس فيها نفحة شعر ولا روح ابتكار. فألتمس عفوك على صراحتي.

نتنايل : اني أقبل الدعوة بامتنان. لأن المجتمع حسب النصوص المقدسة، يعمل على تحقيق السعادة في الحياة.

هلفارن : وبالطبع، هذه النصوص تؤدي الى نتيجة أكيدة لا تقبل الشك. (لبالور) اني أدعوك أنت أيضا، يا سيدي، فلا ترد طلبي خائبا. هيا نذهب، لأن البلاط الملكي منصرف الى متعة الصيد، ونحن أيضا نريد أن ننال نصيبنا من التسلية. (يخرجون).

المشهد الثالث

في أحد مماشي الحديقة

(يدخل بيرون، وبيده ورقة)

بيرون: الملك يلاحق الغزال، وأنا أسلّم عنقي. هو يأسر الحيوان بالشبك، وأنا ألصق بدبق الحب اللزج. يا للفظاعة ! ما اشقاني ! كما يقول هذا المجنون، وكما أقول أنا المتهوّس أيضا. ان الامعان في التفكير يخلّ بتوازني العقلي، وكسائر العشاق يفقدني رشدي أحيانا، ويحجب عني رزانتي عندما يستبد بي الشوق المبرّح. ها هوذا تحليل منطقي يعذرني. كلا، أنا لا أريد ان أعشق. وعندما أهوى أستحق الشنق، لذا قررت الابتعاد عن الحب. ولكن، لولا عيونها السوداء، أو بالحري لولا سحرها المستبد لما تدلّهت هكذا بهواها. انما لا يسعني تكذيب نفسي وتكذيب وعودي. أنا عاشق، والحب علمني ضبط القوافي بعد أن غمر روحي بالأحزان. هذا نموذج من أشعاري ومن كآبتي. وفوق ذلك، هي تحتفظ بإحدى قصائدي : المجنون أرسلها، والغبي حملها، والسيدة استلمتها. هذا جنون مطبق وهذيان غير معقول حيال رصانة سيدة كاملاة الأوصاف. وحق الكون، لن أستاء اذا ضبط أحد من رفاقي الثلاثة بجريرةٍ مثلي. ها هوذا أولهم يصل وبيده ورقة. أطلب من الله أن يفرّج همّه وكربته. (يتسلق شجرة).

(يدخل الملك وبيده ورقة)

الملك: واأسفاه !

بيرون (على حدة) : لقد ذهب المسكين ضحية عواطفه. تابع، يا عزيزي كوبيد، لأنك أصبت بسهمك عصفورا كبيرا في صميم عنفوانه. وها قد افتضح أمره الان.

الملك (يقرأ): الشمس الذهبية اللون لا تمنح قبلة أحلى
للورد المتفتح النضير من بسمة الفجر أطلى
تحاكي نظراتك عندما ترسل نورها الوضّاح
على وجهي الكئيب وقد رطّبه ندى الصباح.
القمر المنير لا يضاهي ضياءها الصافي
وهو عذب كماء النبع المترقرق الشافي
ألا ليتها تكفكف سيل دموعي السخينة
المتدحرجة على خديَّ من مآقيّ الحزينة.
كل دمعة حرّى تؤجج نار حبي المسالم
وفي تدحرجها تخترق قلبي الجريح المعالم
فانظري وارحمي دمعي المنهمر من المحجر
وتلمّسي هيامي من خلال أساي المنفجر.
وإلا ارحلي ولا تزدري، فأنت العزاء
واذكري دوما انك العلة وانك الدواء.
يا ربة الحسن، كم أنت قاسية، ان صدّك جريرة
اليها قلبي غير مرتاح، ولا نفسي قريرة.

آه ! كيف أدعها تشعر بولهي وعذابي ؟ سأترك هذه الورقة تقع مني. فيا أيتها الورقة اللطيفة اشفقي على هجراني. من الآتي الى هنا ؟ (يختبىء خلف شجرة).

(يدخل لنكفيل وبيده ورقة)

الملك : ما وراءك، يا لنكفيل ؟ انه يقرأ، فلأصغِ اليه.

بيرون (على حدة) : إظهر على حقيقتك أيها المجنون الجديد على صورتي أنا بيرون.

لنكفيل: واأسفاه ! لقد انكشف سري.

بيرون (على حدة) : في الواقع، هو آت كالتهمة المكتوبة على لوحة القدر.

الملك (على حدة): أرجو ان يكون عاشقا، فيمسي زميلي بهذا العار المستطاب.

بيرون (على حدة) : ان السكران يميل دائما الى كل ثمل نظيره.

لنكفيل: هل أنا أول من افتضح أمره ؟

بيرون (على حدة) : أؤكد لك ذلك. وأنا أعرف اثنين مثلك. فأنت تكمل المثلث الذي يهيمن على مجموعتنا، أعني المثلث الذي جلده الحب بسياط الهجران حين استشهدت أمانينا.

لنكفيل: أخشى أن لا تكفي هذه الأشعار الهزيلة لاستمالتها. يا ماريا الحلوة، يا مالكة مهجتي، سأمزق هذه المقاطع الشعرية وسأكتب لكِ نثرا.

بيرون (على حدة) : ان الأشعار هي مثل التطريز على أذيال وشاح إله الحب المستهتر، فالأمل ان لا تشوّه رعته.

لنكفيل: باذن الله، سيسهر الأمر (يقرأ) :

أليست النجوم هي دروب الجنان الى عينيكِ
لا سبيل الى بلوغها الا من خلال شفتيكِ
قد سمتِ قلبي المتيَّم أقسى العذاب
ونقض العهد في هواك يستحق العقاب.
لقد جفوتُ حواء، ولكني سأثبت لكِ
وأقنعك بأن هجري لا يتناول شخصكِ
لأن عهدي ارضيّ وأنت حبك سماوي
وهباتك الفيَّاضة وحدها تشفي وتداوي
الوفاء تلتزم به نفسي، والنفس ليست بخار
ما دامت الشمس تسطع فوق الأرض والبحار
هل تريدين ضم فؤادي اليك وهو فيك يذوب
وان خنتِ عهدك فذنبي من أفظع الذنوب
عندما أراني مخطئا، أي جنون ينكر ويبيح
فالتضحية بقسَمي لا تكسب الجنة ولا تريح.

بيرون (على حدة) : ها هي المحبة الهزيلة تصنع من الجسد إلهاً، ومن الأوزة الحمقاء قديسة. ما أحطها من عبادة أوثان. لقد عاقبني ربي لأني حدت عن الطريق القويم.

(يدخل دماين وبيده ورقة)

لنكفيل: مع من أرسل هذا ؟ أنا لا أرى أحدا آتيا. 'سأقف جانبا وأراقب. (يقف جانباً).

بيرون (على حدة) : هذه لعبة صبيانية قديمة. مثل نصف إله، أنا غارق بين الغيوم وأتأمل الكشف من الأعالي عن أسرار هؤلاء الهائمين البؤساء. ها هو شخص آخر قد وقع في الفخ. يا إلهي، لا تخيب رجائي. ها هو دماين أيضا قد تغير. فبتنا أربعة عصافير في قفص واحد.

دماين: ما أكرم هذه المنَّة السماوية !

بيرون (على حدة) : تباً لك من دجَّال محتال.

دماين: بحق السماء انها أعجوبة تبهر العيون الكليلة.

بيرون (على حدة) : أنت مراوغ أفَّاك. والله، لها جسم يراود عضمة النسَّاك.

دماين: الذهب يفقد لمعانه بجانب شعرها الأشقر.

بيرون (على حدة) : ان الغراب الأبلق يستلفت الأنظار.

دماين: قدها المستقيم أشبه بالنعامة المتشامخة.

بيرون (على حدة) : انما لا بد من تطعيمها. فكتفها مشتاق الى حمل الأطفال.

دماين: وبشرتها ناصعة كضوء النهار.

بيرون (على حدة) : بل هي كامدة اللون كبعض الأيام التي لا تسطع فيها الشمس.

دماين: آه لو تحققت أحلامي !

لنكفيل (على حدة) : وأحلامي أنا أيضا.

الملك (على حدة) : وأحلامي أنا أيضا، يا إلهي !

بيرون (على حدة) : آمين، بشرط ان تتحقق أحلامي أنا أيضا. إلهي استجب دعائي.
دماين: أريد أن أنساها. لكنها كالحمى متغلغلة في دمي، ولا يسعني إلا أن أفكر بها.
بيرون (على حدة) : اذا كانت الحمى في دمك، فان قليلا من فصد الدم سيحملك على افراز ما بك بالنزف لتبرأ.
دماين: لأراجع مرة أخرى القصيدة التي نظمتها.
بيرون (على حدة) : سأرى الان كيف ينوّع أساليبه في الحب.
دماين (يقرأ) : ذات يوم مشؤوم، طغى فيه واستبد

حب لا تدوم وروده الى الأبد
واكتشفت زهرة نضرة عطرة ساحرة
تختال تيها ودلالا وتشرئب حائرة
تداعب أوراقها أنامل النسيم العليل
ناعما مدغدغا متمايلا يتلمس السبيل
حتى هفا العاشق الولهان المريض المدنف
وراح من أنفاسها العاطرة يتنشق المتصوّف
فصحت، يا أيها النسيم الشافي، بح لي بسرك
واخبرني لماذا لا يتسنى لي أن أظفر مثلك
بما اني أقسمت اليمين ونويت حفظ عهدها
فلا تجافيني وتقصيني، فتراني دوما عبدها.
انما هذا القسَم، يا للأسف، يشق على الشباب
الذي يصبو الى قطف الأزهار قبل الغياب
لا تلوميني، لا تصدّيني، لا تعاتبيني على ذنبي
فأنا لا أحنث بوعد قطعته ولا أتنكر لحبي
يا من بقربك الإله المشتري المتيَّم يقسم
بأن جينون حبيبته على الدوام مفترّة الثغر تبسم.
فلأجل سعادتك الغالية ارتضيت الموت الزؤام

وفي سبيل هواك تعذبتُ وبتُّ شهيد الغرام.

سأرسل هذا مع عبارات أشد تأثيرا تؤكد صدق أشواقي وحبك المضني. وأدعو الله أن يرمي الملك وبيرون ولنكفيل بالهوى مثلي. فيوازي ذنبهم حينئذ غلطتي ويمحى عن جبيني أنا الولهان عار فضيحتي. اذ لا أحد في الواقع يُعدّ مذنبا عندما يخطىء الجميع.

لنكفيل (يتقدم على خشبة المسرح) : دماين، ان حبك لا يواسي زميلك في العذاب. يمكنك أن تبدو شاحب اللون على هواك. غير ان وجهي يحمر خجلا اذا ما فاجأني أحد في هذه الحالة من الانهيار.

الملك (يتقدم نحو لنكفيل) : عليك أن تستحي، يا سيدي، فانت في نفس وضعه، وبلومك اياه ترتكب جرما مزدوجا. كلا، انت لا تحب ماريا. ولنكفيل لم ينظم أية قصيدة في مدحها، ولم يشبك أحد ذراعيه على صدره ليكتم خفقان قلبه المتدلّه. منذ هنيهة، وأنا مختبىء بين الأشجار المجاورة، راقبتك وقد ساورني الخجل من تصرفك لدى سماعي أشعارك الجريئة، ولاحظت استرسالك في التنهد العميق المتصاعد من صدرك، وأيقنت بأنك عارق في بحر التأمل والاعجاب. فهتفت أنت متأسفا، وصاح رفيقك : أعنّي أيها الإله المشتري. أنت أشدت بوصف الشعر الأشقر، وهو تغزّل بالعيون الصافية كالبلُّور. (للنكفيل) أرى انك مستعد، لكي تدخل الجنة، أن تتنكر لايمانك ووعودك. (لدماين) اما الإله المشتري، فاكراما لحبيبته قد برّ بقسَمه. فماذا سيقول بيرون عندما يدري بأنك جحدت ايمانك وقد أقسمت للمحافظة عليه متحمسا. كم سيتندّر بك، وكم سيندد بتصرفاتك، وكم سيتشفّى ويبالغ بالابتهاج ويغرب في الضحك مقهقها.. أنا لن أرضى أبدا، ولا لقاء ذهب العالم أجمع، أن يعلم بمثل هذا من اسرار قلبي.

بيرون: دعهم يشاهدونا الان، لنكشف رياءهم (ينزل عن الشجرة ويوجه كلامه الى الملك) عفوك، أيها الملك المفدّى. هل تسمح لك رقة قلبك بأن تلوم هذين العاشقين على ما يملأ صدريهما من الحب، بعد أن داعب الهيام فؤادك. أوَلم تنهمر دموعك على وجنتيك من جراء حرمان ناظريك من التمتع

بسنى جمال أميرة فاتنة، وأنت لا تريد افتضاح أمرك لأنك تعتبر ان في ذلك منتهى الحرج. أما نظم القصائد فلا يلائم الا المبتذلين الذين لا يخجلون. وأنتم الثلاثة لا تخجلون من ضبطكم هكذا بالجرم المشهود. (يشير الى دماين ولنكفيل) لقد أبصرتم القشة في عين الملك، وهو شاهدها في أعينكم أيضا، وأنا قد رأيت الخشبة في عين كل واحد منكم أنتم الثلاثة. وما عساي أن أعاين، وأي مشهد مؤلم، وتنهد عميق وأنين وتفجُّع ألاحظ ؟ كم أبديت من صبر لأبصر بهدوء ملكا يتحول الى ذكر نحل، والاله المشتري يدور في حلقة ضيقة، وسليمان الحكيم يدمدم بعض الأنغام، ونسطور يداعب أولادا، وتيمون المراقب يتلهى بالألعاب. قل لي، يا دماين، مما يشكو ؟ وأنت، يا لنكفيل الظريف ماذا يوجعك ؟ وماذا يعذب مليكي ؟ جميعكم تتضايقون من خفقان قلوبكم، وتحتاجون الى الاخلاد الى السكينة.

الملك: ان هزئك مرير للغاية. لماذا فضحنا ذواتنا جميعا هكذا أمامك ؟

بيرون: أنت لم تخن نفسك. انما أنا الشريف اعتبرت ذاتي خاطئا لمخالطتي المغفلين المتسمين بالضعة وعدم الاستقرار. متى شاهدتموني أنظم القوافي بحب امرأة مستهترة، أو أضيع دقيقة واحدة في مغازلتها ؟ متى سمعتموني أشيد بيد أو برجل أو بوجه أو بنظرة أو بمظهر أو بعاطفة أو بجبهة أو بصدر أو بقامة أو بساق أو بأي عضو من الجسم ؟

الملك: مهلا. لماذا تسترسل في الغيظ هكذا سريعا ؟ بربك قل لي هل هو رجل شريف أو لص سارق من ينسحب هكذا بعجلة ؟

بيرون: أنا هارب من الحب. فدعني أيها العاشق الكريم أنصرف بسلام.

(تدخل جاكينات وتروني)

جاكينات (في يدها رسالة) : أطال الله عمر مولانا الملك.

الملك: ما هذه الهدية التي تحملينها ؟

تروني: هي خيانة أكيدة.

الملك: ما دخل الخيانة هنا ؟

تروني: لا دور لها هنا، يا مولاي.

الملك: ما دامت الخيانة لا تسفر عن نتيجة مرضية، يمكنك أن تصطحبها وتذهبَ في سبيلك.

جاكينات (تري الملك الرسالة) : ألتمس من جلالتك أن تطلب من أحد أن يقرأ لك هذه الرسالة. فان نتنايل يشك فيها ويظن انها تنطوي على خيانة ما.

الملك: اقرأها لنا، يا بيرون. (يأخذ بيرون الرسالة — لجاكينات) ممن استلمتها ؟

جاكينات: من تروني.

الملك (لتروني) : وأنت من أعطاك اياها ؟

تروني: دون أرمادو، دون أرمادو. (يمزق بيرون الرسالة).

الملك: ماذا دهاك ؟ ولماذا تمزق الرسالة ؟

بيرون: لأنها بذيئة، يا جلالة الملك، لأنها بذيئة. لا يقلق لك بال من نحوها.

لنكفيل: لقد سببت له اضطرابا عميقا. فلنقرأها اذاً.

دماين (يلمّ القطع الممزقة) : هذا خط بيرون. وهذا اسمه.

بيرون (لتروني) : تباً لك من غبي أحمق، أيها اللقيط المنحطّ. هل وُجدت على الأرض لتلطخ اسمي بالعار ؟ (للملك) أنا مذنب، يا مولاي. أنا أقر وأعترف بأني مذنب.

الملك: ما هذا القول ؟

بيرون: أنا مهووس. لقد كنتم أنتم الثلاثة بحاجة اليّ لنؤلف رباعي اللعبة. فأنا وأنت، أيها الملك، وهو معنا، جميعنا لسنا سوى متهتكين ساعين الى ملذات الغرام، ولذلك نستحق الموت. فأرجوك أن تصرف هؤلاء الحاضرين لأحكي لك المزيد.

دماين: الان نحن نشكل عددا مفردا.

بيرون: هذا صحيح، يجب أن نكون أربعة. فهل سيمضي هذان المتصابيان ؟

الملك (لجاكينات وتروني) : اذهبا أنتما، هيا اذهبا.

تروني: هلم بنا ننصرف، أيها الأفاضل، ولندع المخالفين هنا وحدهم (يخرج مع جاكينات).

بيرون: أيها العشاق الأعزاء، لنتعانق، فاننا من لحم ودم. لا بد للبحر من المد

والجزر وليقضِ الله أمرا محتوما. ان نزق الشباب لا يسعه أن يخضع لنصائح المسنين ونحن لا قدرة لنا على معاندة الغاية التي لأجلها خلقنا. لذلك، لا بد لرغباتنا من أن تورّطنا بمشاكل العاشقين.

الملك: ان الرسالة التي مزقتها أنت، برهان قاطع على ان بيرون مغرم.

بيرون: أنتم تسألونني : من يمكنه أن يرى الملك وروزالي بدون أن يحني رأسه تقديرا، تماما كالهنود الحمر البدائيين أمام طلائع أشعة الشمس المشرقة. وفجأة، وقد نسي ذاته، قبّل التراب الذي تطأه قدماها، وعفّر به وجهه الوضيع ؟ من يجرؤ على التأمل في جبينها العالي، بدون أن يبهر نظره جلال بهائها ؟

الملك: أية عبقرية بل أي نبوغ ألهمك هذا الكلام ؟ ان حبيبتي، وهي سيدة محبوبتك، أشبه بقمر ساطع، وحبيبتك روزالي ليست بجانبها سوى كوكب يدور في فلكها وتكاد العين تقوى على التطلّع اليها.

بيرون: اذاً عيناي ليستا بعينين، وأنا لست بيرون. اذ بدون محبوبتي، ينقلب نهاري ليلا، لأن أبدع الألوان الرائعة تزين محياها حيث تلتقي جميع ملامح الجمال وتنعكس في مقلتيها الساحرتين، ولا ذرّة مما تتمناه الحسناوات من تألق ونضارة ينقص بهاء طلعتها السنية. أعيروني مقدرة البلاغة والبيان، لأصفها لكم. كلا : ان أزهى النعوت تأتي هزيلة ولا تفي بالمرام. لأن البضاعة الكاسدة وحدها تحتاج إلى الترويج والشكران. بينما حبيبتي تفوق كل مديح، والثناء الضئيل يقلل من حسن رونقها. فالناسك الهرم بالرغم مما يثقل كاهله من أعوام، يستطيع أن يهزم خمسين بما يستمده من قوة اشعاع نظراتها الجذابة، وجمالها يضفي الاخضرار على خريف العمر وينشط الشيخوخة، ويهب المتوكيء على عكازه همة الفتيان. انها كالشمس الخيِّرة التي تمنح كل ما في الحياة من بهجة ومرح.

الملك: محبوبتك سوداء كخشب الابنوس.

بيرون: ان كان الابنوس يشبهها، فيا له من خشب كريم ثمين ! وبما ان السعادة تتجسم في زوجة بلون هذا الخشب النادر، فلا يسع الرجل أن يخون عهدها. أين الكتاب المبجّل لأحلف عليه، بأن الجمال لا يكون جمالاً اذا لم

يستمد منها روعته، وليس من وجه بشوش أشد. بهاء من محياها المشرق.

الملك: يا للتناقض الفاضح ! ان السواد شعار الجحيم، ولون الأبراج المريعة وغضب الليل الفاحم، وان يكن أيضا سحر الجمال وروعة السماء المتلألئة.

بيرون: ان الأبالسة الأكثر اغواء يشبهون أشباح العتمة. وإن تكلل جبين سيدتي بالسواد، فلأنه لبس الحداد بسبب رؤيته كذا من الوجوه المتبرّجة وكذا من الشعر المستعار الذي يسبي عقول العشاق ويستر خداع مظاهرهم الغشاشة لقد جاءت الى هذا العالم لتقلب السواد الى سناء فتّان. وها هو لونها يتبدل نظير أيامنا الحاضرة. فتورّد الطبيعة غدا أحمر قاتما، وكذلك الخدود المحمَّرة التي تهرب من البشاعة وتتجلل بالسمار لتحاكي ما يكلل جبهتها من شعر ناعم فاحم اللون.

دماين: ولكي يتشبه منظفو المداخن بمظهرها، تراهم اتشحوا بالسواد.

لنكفيل: ومنذ قدومها اشتهر الفحّامون باستئثارهم بمعالم الجمال.

الملك: وراح أهالي الحبشة يتبجحون ببهاء لون بشرتهم المغرية.

دماين: العتمة تحتاج الى الشموع، كي يبدد نورها وحشة الظلام.

بيرون: ليس بين حبيباتكم من تجرؤ على التعرض الى المطر خوفا من أن يذهب بسوادها الزائف الزائل.

الملك: أما حبيبتك أنت، فلا خشية عليها من الماء لأن محياها، بكل صراحة، يا عزيزي، يظل بين شتى الوجوه غير المغسولة، أشد سوادا من سواه.

بيرون: أنا مستعد لأن أثبت لكم انها الضياء بعينه، ولو اضطررت الى مواصلة الكلام حتى يوم القيامة.

الملك: وفي ذلك الحين، لن يوجد شيطان يخيفك أكثر منها.

دماين: لم أرَ في حياتي رجلا يذمّ أمرا مفيدا كهذا.

لنكفيل (يشير الى حذائه) : هذه هي حسناؤك، فانظر الى رجلي تبصر محياها.

بيرون: عندما يمسي وجهك بلاطا للشوارع ستكون أقدامها أنعم من أرض كهذه فتأبى ان تطأها.

دماين: بئس سيرها على بلاط أي شارع، لأنها تبدو حينئذ كأنها تمشي على قلبك.

الملك: ما الفائدة من هذا النقاش ؟ أولسنا جميعنا مغرمين ؟

بيرون: بكل تأكيد، ولذا ترانا كلنا متورطين وواقعين في حبائل الحب.

الملك: دعونا من هذه الثرثرة الفارعة. وأنت يا عزيزي بيرون، يجدر بك أن تبرر لنا حبنا الشرعي، وتبرهن ان نيتنا سليمة.

دماين: والله هذا عين الصواب. دبروا لنا بسرعة تغطية لأغلاطنا.

لنكفيل: وحجة لتبرير سلوكنا المشبوه، بل نزعة صوفية ونزاهة تفحم إبليس.

دماين: حبذا التستُّر على ورطتنا.

بيرون: لدينا أوفر مما نحن بحاجة اليه. انتبهوا اذاً يا عبيد اللهو والهوى. فكروا بما أقسمتم اليمين على القيام به من صيام ودرس وامتناع عن رؤية النساء. فهذه في الحقيقة محاولة لاغتيال عنفوان شبابنا. قولوا لي هل يمكنكم ان تصوموا ؟ ان معدكم الضعيفة لا تتحمل الاقلال من الطعام لئلا تصابوا بأمراض شتى. وبقسمكم على انصرافكم الى الدرس، يا سادتي، كل واحد منكم قد كفر بالكتاب الحقيقي الأصيل. هل يمكنكم أن تتأملوا دائما وتحلموا دائما وتفكروا دائما ؟ كيف يتسنى لجلالتك، ولكم، يا سادة، ان تكتنزوا جوهر الدرس بدون أن تستنيروا بجمال عيون المرأة وأنوثتها الناعمة ؟ ان الادمان على الدرس يخنق في الصدز بهجة الحياة، كما تستنفد الحركة وطول الطريق همة المسافر بعد أن ينهكه الضجر. عندما وعدتم بعدم التطلع الى محيا حواء قد شجبتم الاستفادة من عيونكم لمشاهدة العالم الرائع الذي يلقنكم مبادىء الجمال المتمثل في نظرة المرأة الحسناء. العلم هو ألزم ما نحتاج اليه للنجاح. وحيثما كنا لا بد لنا من اللجوء اليه. فاذا رأينا ذواتنا في عيون النساء، أولا نرى أيضا فيها وحي علومنا. لقد نذرنا أنفسنا للدرس، يا سادتي، وبهذا النذر كفرنا بكتبنا الحقيقية. قل لي، يا مولاي، وأنت يا سيدي، هل وجدت في التأمل شاعرية هكذا ملتهبة حبا وصبابة مثلما يصوره لك اغراء غادة فاتنة تغدق عليك كنوزها. ان مجمل العلوم تظل عقيمة في الدماغ وعديمة الفائدة، لا تعطي عند الحصاد الغلال المنشودة مهما بُذل في جدية

العمل من جهد ومشقة. لكن الحب اذا علّمته عينا المرأة لا يبقى سجين الفكر، بل يحرك جميع العواطف وينتشر سريعا كالشعور في كل حواسنا، ويعطي مجموع قوانا نشاطا مضاعفا بتجديد حيوية القدرة ومضاعفة الجلد على العمل والانتاج. انه يمنح البصر نظرا غاليا جديدا، لأن لعين العاشق تفوق حدقة النسر حدة، وأذن العاشق تلتقط أخفت الأصوات التي يعجز عنها حتى سمع السارق اليقظ، وذوق المغرم سليم وحسَّاس أكثر من قرني الحلزونة المطلة من قوقعتها. وبالنسبة الى الحب، يبدو ذوق إله الخمر باخوس الشره سمجا. ومن ناحية القوة والبأس، أوَليس الإله هرقل متأهبا على الدوام لتسلق الأشجار الباسقة ؟ هو صامت هادىء نظير أبي الهول، هو عذب ورخيم نظير قيثارة الاله ابولون ذات الأوتار الذهبية الرائعة. وعندما يتكلم الحب تسبحه جميع طغمات السماء بصوت ملائكي، ولا يجرؤ الشاعر على تناول ريشته لينظم اذا لم يكن موضوعه مغسولا بدموع الحب. عند ذاك تطرب أشعاره حتى آذان الطغاة العتاة الذين لا يعرفون للحلاوة والنعومة معنى. كل هذه المعلومات القيِّمة مستمدة من عيون حواء التي تلمع بلهيب الشوق والحنين، وتوحي التآليف والفنون وتلهم المجامع العلمية التي تثقِّف وتوجه وتنوّر العالم بأسره، وبدونها لا سبيل للابداع في أي مجال. لقد برهنتم على حماقتكم حين تعهدتم بتنفيذ وعودكم. فباسم الحكمة العزيزة على نفوس معظم الرجال، وباسم الحب الذي تهفو اليه قلوب المحبين وباسم الرجال الذين يقدرون أنوثة المرأة، وباسم النساء اللواتي يخلقن فينا نحن الرجال روح الرجولة والاقدام نضحي بايماننا لصيانة مصلحتنا، اذا لم نعمد الى التضحية بأنفسنا لحفظ عهودنا. ان نكران الذات هو من صميم ناموس الحياة والدين الصحيح، والمحبة أساس الشرائع الالهية، فكيف نفرّق بين الحب والصلاح ؟

الملك: أستحلفكم بقدسية الحب، أيها العشاق، أن تتأهبوا وتسيروا الى الأمام.

بيرون: ارفعوا أعلامكم، يا سادتي، وكرّوا على أعداء الخير، واكتسحوهم بلا شفقة، واجتهدوا ان تستبسلوا وتنتصروا في معركة الشهامة والشرف.

لنكفيل: لننتقل الى الأعمال، كفانا براعات كلامية. هل نحن مصممون على مغازلة ابنة حواء ؟

الملك: نعم، وعلى امتلاكها أيضا. لنفكر اذاً بوسيلة تمكننا من خطب ودها.

بيرون: ليوصل كل منا رفيقته الجميلة من الجنينة الى مخدعها. وفي أثناء الطريق يتأبط ذراعها .ويداعبها، ثم يسليها بمتعات لذيذة لن يعدم وسيلة لارتجالها في برهة وجيزة. لأن الحفلات والرقصات والنكات وهنيهات الطرب الحلوة يجب أن تسبق الحب، وتفرش دروبه بالأزهار والرياحين.

الملك: تعالوا نذهب بدون أن نضيع لحظة من الوقت الذي نستطيع الاستفادة منه الى أقصى حد.

بيرون: هيا بنا. ان بذار الزؤان لا يعطي قمحا، وميزان العدل يتأرجح غالبا بين الحق والباطل، والصبايا المستهترات لا يترددن في فضح الرجال المترددين، فنقبض عندئذ أجر عملنا ونجني ما زرعت أيدينا. (يخرجان).

الفصل الخامس

المشهد الأول

في قسم آخر من الحديقة

(يدخل هلفارن، وسير نتنايل وبالور)

هلفارن : وقانا الله شر هذا النهار.
نتنايل : أشكر الله، يا سيدي. ان حديثك على المائدة أثناء الغداء كان مثيرا بدون ازعاج، وطليا بدون خطورة، وفكاهيا بدون لذع، وجريئا بدون اباحة، وعلميا بدون تبجّح، وغريبا بدون خروج عن المألوف. لقد اتفق لي ان كلمت ذات يوم رفيقا للملك يدعى دون أدريانو دي أرمادو، فما رأيك فيه ؟
هلفارن : هذا رجل متقلب المزاج، حاد الطبع، جارح اللسان، ناعس الطرف، مترنّح المشية، ماجن السلوك، سخيف متهتك. هو متكلف مدّعي متصنع مبتذل، وبكلمة، غير أهل للركون اليه والوثوق به.
نتنايل (يأخذ دفتره ويكتب) : هذه نعوت منوعة مختارة.
هلفارن : ان لحمة حديثه أوهى من نسيج العنكبوت نظير حججه واستناداته. أنا أكره أهواءه المتعصبة وفظاظة معشره وعباراته المشبوهة التي تشوه الحقائق

وتحرّف المعاني. وهذا لؤم من قبل دجّال يُعتبر وجوده عارا على البشرية، ويجب أن يحسب في عداد المفسدين المنبوذين.

نتنايل : وقانا الله شرّه.

هلفارن : حقا، حمانا الله من أذاه.

(يدخل ارمادو وفالان وتروني)

نتنايل : من الآتي ؟

هلفارن : صديق.

ارمادو (لفالان) : ونعمَ القادم.

هلفارن : أهلا ومرحبا.

ارمادو (يلتفت الى هلفارن ونتنايل) : يسرني ان أقابلكم، يا رجال السلام.

هلفارن : تحية عسكرية، يا سيدي.

فالان (بصوت خافت لتروني) : كانا في مأدبة الألسنة الطويلة، وقد اغتابا سمعة عدد من الصبايا.

تروني (بصوت خافت لفالان) : انهما يعيشان على لغو الكلام الذي لا يستحق الا القاءه الى سلة المهملات. يدهشني من سيدك ان يصدّق أقوالهما، ولا يكون حتى الان قد كذّبهما رغم كل تبجحهما وتطاولهما، وهو يظنهما سهلي الالتهام كاللحم المشوي.

فالان: اصمتوا. لقد شبت النار.

ارمادو (لهلفارن) : هل أنت من المثقفين، يا سيدي ؟

فالان: هو يعلّم الأولاد الأبجدية. (لهلفارن) وماذا يعلمهم أيضا ؟

هلفارن : أن يلفظوا : با...

فالان: با، با، با. ويجعل منهم أكباشا بقرون.

هلفارن : وكيف يعلمهم الكتابة ؟

فالان: حسبما يخطر بباله، لا أدري كيف.

هلفارن : مثلا : أنا، يكتبها : ألف نون ألف.

فالان: والكبش، يعني أنت : ألف نون تاء. (لأرمادو) هل لاحظت مهارته؟

ارمادو : بحق البحر المتوسط المالح، هذا علم وفن منقطع النظير، وهو يزكي

شعلات متوقدة من الفطنة. فلا نكاد نعدّ واحدا واثنين حتى نصل رأسا الى الغاية. وهذا يزيد ادراكي اقتناعا بفوائده الفائقة.

فالان: أنت كالطفل تقيس النباهة بخبرة الشيوخ.

هلفارن : هذا استنتاج ولد يضرب الأرض نزقا بكعب حذائه.

فالان: اعطني قرنك كي أصنع منه كعبا لي، وأحطم به عماهة قلبك، ثم اصنع من قرن زوج مخدوع أجود الكعاب.

تروني (لفالان) : لو بقي لي فلس واحد من مال هذه الدنيا لأعطيتك اياه كي تشتري لي قالب سكر. (يعطيه قطعة نقود صغيرة) هذا ما تستحقه من أجر تلقيته من سيدك. ليس لك، يا مستودع الذكاء، مقدار ذرّة من التمييز. آه ! لو قيَّض الله لك أن تكون لي ابنا لربيتك أفضل تربية، ولما أغفلت صفة تليق بك حتى الكياسة، الا حلَّيت بها طبعك.

هلفارن : ما أكثر الدواهي المختبئة تحت مظاهر السواهي !

ارمادو (يأخذ هلفارن جانبا) : انت حقا رجل علم، ويجمل بك أن تبعدنا عن جهل البرابرة. أولست أنت من يدفع الشبيبة الى المدرسة الفريدة القابعة على رأس الجبل.

هلفارن : أنت تعني أعلى الرابية.

ارمادو : كما تشاء بل قل الرابية بدل الجبل.

هلفارن : أنا لا أخالفك.

ارمادو: ان الملك يجد متعة بل رغبة جامحة في استقباله الأميرة تحت سقف قصره حول آخر النهار الذي يسميه عامة الناس بعد الظهر.

هلفارن : آخر النهار، أيها المولى المحترم، هو تعبير مناسب جدا وفي محله، ينطبق على ما بعد الظهر. والكلمة منتقاة ورخيمة وملائمة من كل نواحيها، يا سيدي.

ارمادو: الملك رجل نبيل كريم، وأؤكد لك انه صديقي الحميم. سأحدثك عن عدم التكليف القائم بيني وبينه. فعندما يستقبلني يطلب مني أن أعيد قبعتي الى رأسي بدون أية كلفة، وهو يكلمني بكل بساطة، كما لو كنت أخاه. لننتقل الان الى موضوع آخر. أؤكد لكم بشرفي ان جلالته يتوكأ أحيانا على

كتفي، وتداعب أنامله الملكية شعري وشاربي. لننتقل أيضا الى موضوع آخر، يا عزيزي. أكرر عليك اني أقسم بشرفي بأني لا أقص عليك حكاية مختلقة. ان جلالته لا يتأخر عن منح أرمادو امتيازا خاصا بصفته محارب جاب معظم أقطار المعمورة. لننتقل الى موضوع جديد. بالاختصار أقول، وأنا يا عزيزي ألتمس منك الكتمان، ان الملك رجاني أن أقدم للأميرة الجميلة بعض المشاهد المسلية والاستعراضات المشوّقة والألعاب النارية. واذ علمت بأن الصديق نتنايل، وبنوع خاص شخصك الكريم، كلاكما تمتازان في تذوّق هذه الملاهي والفكاهات المرحة، جئت أفاتحكما بالأمر وأطلب منكما النجدة في هذا الموضوع.

هلفارن : يا مولاي، عليك ان تطلب تمثيل رواية هزلية أمام الأميرة. فيا سيدي نتنايل، المرغوب ان نحيي حفلة مسلية حسب تعليماتك، وبناء على رغبة هذا الوجيه الأنيق الشهير والعالم الظريف المفضال، ستكون هذه المناسبة أوفى تكريم للأميرة بحضورنا في آخر النهار. وهكذا تكون التمثيلية أفضل ما تشتمل عليه هذه الحفلة.

نتنايل : ولكن أين نجد من يقدم هذه التمثيلية ؟

هلفارن : أنت تقوم بدور، وأنا كذلك بدور، وهذا الظريف أيضا بدور (يشير الى تروني) وهذا المارد وغلامه يشتركان معهم.

ارمادو (يشير الى فالان) : العفو يا سيدي، أنت مخطىء. ليس للغلام من مؤهلات ليقوم بأي دور. فقامته تكاد تكون بطول الهراوة.

هلفارن : هل لي أن أدلي برأيي ؟ يمكننا أن نكلفه بالقيام بدور على قدر كفاءته الضئيلة، وأنا مستعد لأن أتدبر أمره.

فالان: فكرة ممتازة. واذا استهجنني أحد الحاضرين ستبادر الى رفع صوتك وترديد كلمة « سلمت يداك ». وهكذا ينقلب التنديد الى تقدير كما يحدث في مثل هذا الموقف.

ارمادو: وكيف تختتم الرواية ؟

هلفارن : سأرتب المسألة في حينها.

فالان: أنا أساعدك في ذلك.

ارمادو: اسمح لي بقول كلمة.
هلفارن : كلّي آذان صاغية.
ارمادو: واذا لم تجرِ الأمور على ما يرام، أقوم بتمثيل رواية ايمائية. هل توافق على فكرتي ؟
هلفارن : وأنت، يا بالور، لم تنبس ببنت شفة الى الان.
بالور: لاني لا أفهم منك ما تقصد، يا سيدي.
هلفارن : على كل حال، سنجد لك دورا.
بالور: أود أن أرقص أو أن أضرب بالدف لأدع غيري يرقص.
هلفارن : يا لك من رجل شهم، يا بالور. هيا نرتب الحفلة. (يخرجون).

المشهد الثاني

أمام خيمة الأميرة

(تدخل الأميرة وكاترين وروزالي وماريا)

الاميرة: يا عزيزاتي، سنغتني قبل أن نغادر هذا المكان، لأن الهدايا لا تزال تنهمر علينا كالمطر. فالسيدة مثقلة بالماس. أنظري الى ما أغدقه عليّ الملك العاشق (تشير الى قلادة من الاحجار الكريمة).
روزالي: أولم يرسل لك شيئا آخر مع هذا، يا سيدتي ؟
الاميرة: لا شيء. وبالحري بلى. فقد تلقيت قصيدة عامرة بقوافي الغرام، مخطوطة على صفحتي الورقة، وعلى الهوامش، وممهورة بخاتم كوبيد إله الحب.
روزالي: الحب عمره من بدء الخليقة، ومع ذلك، بعد خمسة آلاف سنة من التاريخ لا يزال الناس يعتبرونه كطفل.
كاترين: أجل، وله رغم حداثته، صولة لا يستهان بها.

روزالي: كلاكما لن تصبحا أبدا أصدقاء مخلصين، لأنه خدع أختك.

كاترين: لقد سحق قلبها حسرة وأسى، حتى كادت تموت كمدا. ولو كانت طائشة نظيرك ومتساهلة، لتسنى لها أن تصبح جدة قبل أن تقضي نحبها كما هو حالك، لأن أصحاب البال الخالي من الهم فقط يعمرون طويلا.

روزالي: ما هذا الشرح المبهم، أيتها الفأرة الصغيرة؟ كيف تنعتينني بالطيش؟

كاترين: لا بد لخفة الطبع من أن تلازم الجمال الحزين. وهذا أمر بديهي لا يحتاج الى اثبات.

روزالي: أنا بحاجة الى ايضاح أوفر، لكي أحزر ما بك.

كاترين: اذا بقيت في العتمة لن تري بجلاء، فابعدي تفكيرك عن الظل.

روزالي: ألاحظ انك تتصرفين على الدوام كأنك في ظلام.

كاترين: أنا لست مثلك. فأنت فتاة طائشة علنا.

روزالي: في الحقيقة، أعتقد اني لا أضاهيك رصانة. ولذا أبدو لك خفيفة التصرف.

كاترين: أنت تجهلين خصالي، فلا يسعك أن تقدري قيمتي.

روزالي: لعمري، هذه ميزة فريدة، تزيدك شرفا ورفعة.

الاميرة: قولك في محله. فأنت بارعة في تفنيد التعابير. لكنك، يا روزالي، تلقيت هدية ثمينة، فقولي لي من أرسلها اليك؟

روزالي: ستعرفين ذلك. ولو كنت جذابة نظيرك لحصلت على هدايا توازي هداياك. انظري الى هذا (تشير الى جوهرة) لقد تلقيت أشعارا أشكر بيرون عليها، وهي رائعة كهذه الجوهرة. فلو كان التقدير بمثابتها لأصبحت أجمل الحسناوات على وجه الأرض، ولأعجب بي الجميع كلوحة زيتية نادرة.

الاميرة: هل صحيح ما تعانين منه؟

روزالي: بالقول لا بالفعل.

الاميرة: أنت حسناء رائعة كالقمر، وعالية الأخلاق كالقمم الشاهقة.

كاترين: بل ناصعة البياض كالثلج الذي يكلل رؤوس الجبال.

روزالي: حذارِ من المداهنة. أنا لا أريد أن أموت ولك عليّ دَين. في

الحقيقة، تورّد وجنتيكِ مائل الى لون الأرجوان.

كاترين: ما أثقل مزاحك ! أرجو قص كل لسان ينطلق بالتهكم والسخرية أمامي.

الاميرة (لكاترين) : وأنت، ماذا أرسل لك دماين الأنيق ؟

كاترين: هذا القفاز.

الاميرة: أولا تودين أن يرسل لك رفيقه ؟

كاترين: طبعا، ويجمل به أن يرسل أيضا ألف بيت من الشعر الغزلي الصادق الرقيق، يقوم دليلا قاطعا على محاباته، ويحوك مؤامرة دنيئة على البراءة المصطنعة.

ماريا (تشير الى عقد وورقة) : هذا ما بعث به لنكفيل مع هذه اللآلىء، والرسالة يبلغ طولها نصف ميل.

الاميرة: هذا رأيي. أوَما تمنيتِ أن يكون العقد أطول، والرسالة أقصر.

ماريا: نعم، ولأجل الحصول عليها لا بد لي من يدين أطول من يديّ.

الاميرة: يا لنا من فتيات عاقلات نهزأ هكذا بالمحبين.

روزالي: انهم أشد جنونا مما نظن حتى يشتروا سخريتنا بثمن باهظ كهذا. كم أود أن أعذّب بيرون قبل رحيلي ! لو تسنى لي استخدامه لأجبرته على الزحف على ركبتيه والتماس رضاي متوسلا، وعلى انتظار الساعات وعدّ الدقائق وارهاق فكره الغني بالقوافي العقيمة، واخضاعه لجميع أهوائي، وعلى تحقير نفسه وتمجيدي أنا بتقبل هزئي وتهكُّمي. أريد أن أؤثر على مجرى حياته بطريقة عفوية، فيصبح كاللعبة بين يديّ وأمسي أنا قدره الغامض المحتوم.

الاميرة: لا أحد يخطىء مثل العاقل الذي يفقد تبصُّره. فان استهتاره المتفتِّح كالزهرة على الحكمة الخالصة، له كل سلطان الذكاء وكل خبرة الثقافة، مع ما لها بفضل مباذلها من وفرة الادراك والحنكة.

روزالي: ان الشباب المنجرف وراء أشواقه هو أقل اندفاعا وخطورة في فورة حبه النزق.

ماريا: أما جنوح فاقد العقل فليس خطرا كما هو حال العاقل الذي يصيبه مس

من الجنون. لأنه عندئذ يستخدم كل مواهبه لإذكاء لؤمه بوسائل الكيد والاحتيال.

(يدخل بوايه)

الاميرة: ها هوذا بوايه يعود وبشائر السرور بادية على محياه.
بوايه: لقد أغظتني بضحكك الذي يحاكي طعنة الخنجر. أين جلالة الملك ؟
الاميرة: ما وراءك من الأخبار، يا بوايه ؟
بوايه (للأميرة) : تأهبي، يا سيدتي، تأهبي، الى السلاح، أنت وآنساتك، الى السلاح. لقد نظمت حملة لإقلاق راحة تكفيرك. فالحب يتقدم متنكرا ومدججا بالحجج الدامغة كأمضى سلاح. استنهضي همتك وذهنك، وبادري الى الدفاع عن نفسك أو اذعني واغنمي رأسك كالرعديد، واهربي من هنا.
الاميرة: من يقوى على مقاومة الحب ؟ ومن يستطيع تسخير بلاغته لانقاذنا ؟ أرجوك، يا صاحب الانذار، أن تكشف لنا عما في جعبتك. ففي فيء شجرة وارفة الظلال كنت على وشك اغماض عيني برهة، عندما ازعجتني مفاجأة، وأنا مزمع ان آخذ قسطا من الراحة، ورأيت الملك متجها مع حاشيته الى هذه الواحة الخضراء. فبادرت الى التواري بحذر بين الأشجار حيث سمعت ما ترغبين في الاطلاع عليه، مع العلم ان المقبلين آتون فورا الى هنا متنكرين، ودليلهم غلام بهي الطلعة يعرف جيدا مهمته، عملا ولهجة، تماما كما لقّنه اياها سادته اذ قالوا له ستتكلم كذا وتفعل كذا. وبالرغم من ذلك أظهروا خشيتهم من أن لا يتصرف كما يجب أثناء حضورك، اذ قال له الملك ستشاهد ملاكا، انما التزم الهدوء ولا تخف، بل تحدّث بشجاعة. فأجاب الغلام ان الملاك ليس شيطانا، ولو كانت هي شيطانا لما خفتُ منها. لدى هذا التصريح ضحك الجميع ووضعوا يدهم على كتف المهرج الجسور وشجعوه بالثناء عليه. ففرك أحدهم يديه فرحا وتلوّى وأقسم بأنه لم يسمع في حياته كلاما أفضل منه، وضرب سبَّابته على الوسطى هاتفا : سننجز المهمة مهما كلف الأمر. وتشامخ ثالث وصاح : كل شيء يجري على ما يرام. وثبّت رابع دولاب هواء على أصبع رجله فسقط الدولاب. وما لبث الجميع ان هووا الى الحضيض من شدة الضحك مقهقهين. فبدا عليهم بجلاء تأثرهم بالموقف

الحرج ليكبحوا جماح تهوّرهم ويكفكفوا دمع ألمهم الظاهر للعيان.

الاميرة: كيف يأتون لزيارتنا ؟

بوايه: وهم متنكرون بلباس الروس، وأنا واثق بأنهم قادمون للتفاوض والمغازلة والرقص، وكل منهم يعلن حبه للصبيَّة التي اختارها وعرفها من الهدية التي أرسلها اليها، وتزينت بها.

الاميرة: هل جرى هذا حقا ؟ هؤلاء الظرفاء اذاً لا همّ لهم الا الهرج والمرج. سيداتي، نحن أيضا سنتنكر جميعنا، ولن يحظى أحد منهم، بالرغم من رجائه المتكرر، برؤية وجه امرأة. هيا، يا روزالي، ستتحلين بهذه الجوهرة، فيغازلك الملك كما لو كنت أنت صديقته. خذيها، يا عزيزتي، وافسحي المجال لكي يتاح لبيرون أن يظنني روزالي. (لكاترين وماريا) تبادلا هداياكما مثلنا لكي يتنهد عاشقاكما قهرا.

روزالي: تعالي نرتب الهدايا ونضعها في مكان بارز.

كاترين: ولكن، ما الغاية من هذا التبادل ؟

الاميرة: أريد أن أعرقل خطة الملك وجماعته، لأنهم لا يتصرفون الا اعتباطا، ويبوحون بأخفى أسرارهم جزافا. ونحن نهزأ بهم حالما نقابلهم ونكلمهم بوجه مكشوف.

روزالي: أولا نراقصهم اذا دعونا الى ذلك ؟

الاميرة: كلا. أنا أفضل أن أموت على أن أحيد قيد أنملة عن خطتي. ولن نشكرهم على خطابهم ولو كتب بأحلى الخطوط. وبينما هم يحادثوننا سندير لهم ظهورنا.

بوايه : سيجرح هذا الاحتقار كبرياء كل متحدث، وحالا تنفصل مهمته عن دوره.

الاميرة: هذا ما أبغيه تماما. وأنا واثقة بأن كلا منهم حالما يصل، سينسى ما يتوجب عليه. وما أحلى ان ينوء الساخرون تحت وقر هزيمتهم، وأن ينسبوا الينا اخفاقهم وهم يدّعون ادخال السرور الى قلوبنا. فهكذا نظفر بالنيل ممن يستهدفون الهزء بنا. لكن، حينما نتهكم عليهم سيولون الادبار مع خيبة أملهم. (يسمع صوت بوق).

بوايه: ها هوذا صوت البوق. فخبِّئن وجوهكن خلف الأقنعة.

(يدخل الملك وبيرون ولنكفيل ودماين بلباس الروس، وهم مقنَّعون. ثم يتبعهم فالان والموسيقيون والخدم).

فالان (يحيي الأميرة ونساءها) : تحياتي لأحلى جميلات الأرض طرًا.
بيرون (على حدة) : رائعات بمستوى الأقنعة الحريرية الناعمة.
فالان: ما أجمل هذا الجمع المقدس من السيدات الفاتنات.
(جميعهن يدرن له ظهرهن)
من منا يود أن يدير ظهره الى الحسان ؟
بيرون (يعيد الكرة) : إتقِ العيون، يا مغفل، اتق سحر العيون.
فالان: أكرر سؤالي : من منا يود أن يدير ظهره الى الحسان ؟ أيتها...
بوايه: والله، لم أعد أطيق المزيد.
فالان: أيتها الأرواح السماوية، ساعديني كي لا أنظر الى...
بيرون: كي لا تنظر الى ماذا، يا أغبى الأغبياء ؟
فالان: كي لا أنظر الى عينيها العميقتين كالبحر.
بوايه: لن تلقى جوابا على هذا التشبيه البعيد عن الواقع. الأولى بك أن تنتبه الى عينيك الساحرتين كألحاظ البنات الجذابات.
فالان (لبيرون) : اني أرى تغاضيها عني، وهذا ما يضايقني جدا.
بيرون: هل أنت معصوم عن الخطأ. هيا أغرب من وجهي، أيها الدجال (ينسحب فالان).
روزالي: ماذا يريد منا هؤلاء الغرباء ؟ أنا أعرف نياتهم، يا بوايه. ان كانوا يتكلمون لغتنا، فمشيئتنا هي أن يعرض علينا كل منهم مشروعه بكل بساطة. المهم أن نعرف مرادهم.
بوايه : (يذهب الى بيرون) : ماذا تبغي من الأميرة ؟
بيرون: أنا لا أبغي سوى الأمان ومقابلة ودية تتكرم بها عليّ.
روزالي: اذا كان مرامك، فأوعز الى هؤلاء أن ينسحبوا.
بوايه (يعود الى بيرون) : هي تقول : انكم حاصلون على ما ترغبون، ويمكنكم أن تنصرفوا.

الملك: أبلغها اني اجتزت أميالا عديدة لأرقص معها على الوحدة، فوق هذا المرج الأخضر.

بوايه (يعود الى قرب روزالي) : يصرح بأنه قطع أميالا عديدة ليرقص على الوحدة فوق هذا المرج.

روزالي: هذا لا يتم بسهولة. اسألهم كم من البوصات يتضمن الميل. فاذا مشوا مسافة طويلة، فباستطاعتهم أن يحددوا لي طول الميل الواحد.

بوايه (يدير وجهه الى المتنكرين) : اذا كنتم، للوصول الى هنا، قد اجتزتم أميالا عديدة فان الأميرة ترجوكم أن تفيدوها كم من البوصات تحتوي هذه الأميال.

بيرون: أجبها بأننا مشيناها بخطوات أليمة.

بوايه: هي تنتظر ردكم الدقيق.

روزالي: كم من الخطوات العسيرة عددتم أثناء اجتيازكم كل هذه الأميال المضنية ؟

بيرون: نحن لا نحسب ما نتحمله لأجلكن. ان اخلاصنا غني عن التعريف ونشاطنا غير محدود، بحيث نستطيع أن نواصل عدّنا بدون حساب الى ما شاء الله. فتنازلن وأريننا الشمس الساطعة على محياكن كي نعبدها نظير الأقدمين البدائيين.

روزالي: ان وجهي كقمر لا يزال محتجبا وراء الغمام.

الملك: سيدتي، ان كان الغمام يخفيك عني فتنازلي، كالهلال المتلألىء مع ما حوله من كواكب، وأزيلي هذه السحابة لتسطعي أمام عيوني المغرورقة بالدموع.

روزالي: أيها المطالب المتمادي، إلتمس ما هو أجدى مما تشير اليه، لأن ما تسأله هو انعكاس البدر على صفحة الماء.

الملك: لأجل التبديل، امنحيني اذاً فرصة للرقص معك. لقد اقترحتِ ان اسأل، وها هو سؤالي ليس بغريب.

روزالي: هيا اعزفوا، أيها الموسيقيون. (تصدح الموسيقى) أسرعوا، وإلا توقف الرقص. فكما ترى، أنا أتغير كالقمر.

الملك: أنت لا ترغبين في الرقص. فمن أين لك هذه الحماسة ؟
روزالي: لقد حاكيت البدر في أكمل لياليه، لكنه الان قد تبدل.
الملك: أنت لا تشبهين القمر أكثر من سواك. وأنا لا أملك رهجة البدر. الموسيقى تعزف، فبالله عليكِ دعيني أستمتع بأنغامها الساحرة.
روزالي: ها هي تشنف آذاننا.
الملك: يتحتم على أرجلنا أن تتبع ايقاعها.
روزالي: بما انكم غرباء، وأنتم آتون الى هنا صدفة، فاننا لا ننوي أن نعزز أنفسنا. هيا أمسكوا بأيدينا، مع اننا لا نود الرقص.
الملك: لماذا اذاً نمسك بأيديكن ؟
روزالي: بكل بساطة لكي لا نفترق ونحن أصدقاء. لذلك لا يلزمنا سوى الانحناء باحترام، واختتام جولة الرقص هكذا. (تحيِّي).
الملك: حددي لي نبرة الايقاع بشكل أدق، ولا تكوني مبهمة التعبير.
روزالي: لا يسعني أن أعطي مزيدا من الايضاح.
الملك: قدّري أنت نفسك ثمن صحبتك.
روزالي: ثمنها غيابك فقط.
الملك: أنت تطلبين المستحيل.
روزالي: لأنني لست معروضة للبيع. وهكذا أقول الوداع مرتين لقناعك، ولك شخصيا نصف مرة.
الملك: اذا رفضتِ مرافقتي، واصلي على الأقل محادثتي.
روزالي: في جلسة خاصة اذاً.
الملك: هذا يضاعف سروري (يبتعدان وهما يتحادثان).
بيرون (للأميرة) : يا مولاتي ذات الحسن الفاتن، أنا لا أجد البهجة والارتياح الا بجوارك.
الاميرة: أهذا عسل مصفّى، أم شراب محلّى بالسكر ؟
بيرون: دعينا نضاعف المتعة الثلاثية. بما انك بتّ هكذا نهمة في أكل الحلويات وتناول المشروبات اللذيذة، هذه دفعة على الحساب، بينها ستة ألوان من الحلوى.

الاميرة: وسابعها هو الوداع.

بيرون: تكرّمي اذاً عليَّ بكلمة واحدة ولو سرا.

الاميرة: بشرط أن لا تكون في موضوع الحلوى.

بيرون: انك تزيدين مرارتي.

الاميرة: المرارة هي حقا طعم الحنظل.

بيرون: اذا كانت في محلها. (يبتعدان وهما يتحادثان).

دماين (لماريا) : هلا تنازلتِ الى مبادلتي كلمة وجيزة ؟

ماريا: في أي موضوع ؟

دماين: سيدتي الجميلة !

ماريا: هل هذا كل ما تريد أن تقوله، يا سيدي الكريم ؟ ارجوك أن تبلغه مولاتك الرائعة.

دماين: من فضلك، كلمة أخرى. أرجوك أن تصغي اليّ. ثم أودعك. (يبتعدان وهما يتحادثان).

كاترين (للنكفيل) : ماذا تقصد ؟ أوليس لك لسان، أيها المقنَّع الظريف ؟

لنكفيل: أنت تعرفين غايتي، يا سيدتي. فلماذا تمعنين في طلب المزيد.

كاترين: أرجوك، يا سيدي، أن تبين لي غايتك حالا، لأني أكاد أذوب شوقا الى ادراكها.

لنكفيل: ان براعة لسانك لا تضاهي ما لديك من حيلة الثعلب الجائع، وتريدين أن تتنازلي عن نصف ميزاتك لهذا المقنَّع الأخرس.

كاترين: هذا استنتاج ممتاز، وأنا أهنئك على اكتشافك الرائع.

لنكفيل: أنا لا أتجاهل مقدرتي، ولكني لا أتغافل أيضا عن مكركُ.

كاترين: ليس ما يمنعك عن اللجوء الى الاحتيال أنت أيضا، فتفوقينني فيها براعة.

لنكفيل: ان سخريتك اللاذعة سترتد عليك. هل ترومين يا سيدتي العفيفة أن تجعليني من ذوي القرون ؟

كاترين: لن يفيدك دهاؤك في هذه الحالة، لأنك ستموت قبل أن تنبت لك قرون بسببي.

لنكفيل: اصغي اليّ اذاً لأسمعك كلمة لطيفة قبل أن أرحل عن هذه الدنيا.
كاترين: لا ترفع صوتك لئلا يسمعك أحد (يبتعدان وهما يتحادثان).
بوايه: ان لسان الفتيات المتهكمات أحدّ من موسى الحلاقة الذي يشطر الشعرة، ونحن نكاد نراها بالعين المجردة. وهذا اللسان الخالي من كل ذوق سليم يتمادى في الكلام جزافا، ويندفع في الحديث حتى يسابق السهام والرياح والأفكار التي لا تضاهى سرعتها.
روزالي: لا تزد لفظة واحدة. ولنقف عند هذا الحد. (تفترق جميع السيدات عن رفاقهن).
بيرون: أراك تطردينني بطريقة جافة للغاية.
الملك: الوداع، أيتها الآنسات المغامرات. ما أسخف تفكيركن. (يخرج الملك والوجهاء وفالان والموسيقيون وكل رجال الحاشية).
الاميرة: الوداع ألف مرة، يا أهالي الشمال الذين ترتجفون من البرد بالرغم من تعودكم عليه. ها قد انفرط عقدكم وتبددت كياستكم أدراج الرياح.
بوايه: انهم الان أشبه بالمشاعل وقد اطفأها نفَسَك اللطيف العنيف.
روزالي: لقد انتفخت أوداجهم من كثرة ازدراء المآكل حتى أخذ دهنهم يسيل عرقا.
الاميرة: عقول فقيرة وواجهة ملكية هزيلة. هل تعتقدين انهم يجرؤون على الظهور أمامنا ثانية الا خلف أقنعتهم الساترة، ولا سيما بيرون المرتبك الذي طاش صوابه ؟
روزالي: جميعهم مضوا وهم في حالة يرثى لها. وكادت دموع الملك تنهمر وهو يلتمس كلمة حلوة.
الاميرة: أما بيرون الذي فقد كل أمل، فراح يتسكع يمينا ويسارا.
ماريا: ودماين البارع في امتشاق الحسام، إلتمس مني قبوله في خدمتي. فما كان مني الا أن بادرته بالرفض القاطع، وتركته ذليلا فاغر الفم مشدوها.
كاترين: صرح لي مولاي لنكفيل بأن ذكري ثقيل على صدره كالكابوس. فهل تعلمون كيف سماني ؟
الاميرة: ربما حية.

كاترين: بالضبط.

الاميرة: ابتعدي عني اذاً لئلا تُلحقي بي الأذى.

روزالي: سنجد عقلية أفضل في شخص آخر أقل طيشا. اعلمي ان الملك يغازلني علنا.

الاميرة: بيرون المتهافت، أقسم لي بأن يظل أمينا على عهدي.

كاترين: ولنكفيل وقف حياته على خدمتي.

ماريا: ودماين يتمسك بصداقتي كما تلتصق القشرة بجزع الشجرة.

بوايه: وأنت، أيتها السيدة الجميلة مع آنساتك، أصغين اليّ. سيعود أصحابنا الى هنا بعد فترة بهنْدامهم العادي. اذ من المستحيل أن يبتلعوا ويهضموا مثل هذا التصرف السمج.

الاميرة: أجلْ، سيعودون، والله أعلم، وهم يرقصون مذبوحين من شدة الألم، بعد أن هشمتهم ضرباتكن المحكمة. فلتسترجع كل واحدة هديتها، وعند ظهورهم ثانية، فلتبتسم كالوردة التي تتفتح أكمامها لدى تلقيها قطرات الندى عند اقتراب الصيف.

روزالي: أنحن نبتسم كالزهور ؟ تفضل واشرح لنا كيف.

بوايه: ان السيدات المقنَّعات كبراعم الورد، متى خلعن قناعهن تبدو حينئذ ألوانهن الرائعة باهتة، ويظهرن كالقمر الذي تغشيه الغيوم أو كالأزهار وقد أفقدها الحر نضارتها.

الاميرة: ابعدوا عنكم هذه الفكرة الساذجة : ماذا نصنع اذا عادوا يتمايلون في هندامهم الطبيعي ؟

روزالي: سيدتي الكريمة، اليك ما أرتأيه : سنهزأ بهم وجها لوجه كما سخرنا منهم من وراء القناع، وسنشكو لهم تبرّمنا بهم كمجاذيب قادمين الينا متنكرين بألبسة مختلفة. وسنسألهم ماذا كانوا ينوون عمله، ولأية غاية عرضوا علينا، في خيامنا، مشاريعهم الحقيرة وأحاديثهم السخيفة ومناظرهم المقذعة وتصرفاتهم الفظّة.

بوايه: انسحبن أيتها السيدات، فان ظرفاءنا قد اقتربوا.

الاميرة: لنسرع الى خيامنا، كما تهرب الغزلان عبر السهول (تخرج الأميرة ومعها روزالي وكاترين وماريا).

(يدخل الملك وبيرون ولنكفيل ودماين بألبستهم العادية)

الملك (لبوايه) : حفظك الله، أيها المولى الجليل. أين الأميرة ؟

بوايه: عادت الى خيمتها. هل تريد جلالتك أن تكلفني بأية مهمة ؟

الملك: أن تطلب منها التكرم عليّ بمقابلة قصيرة.

بوايه: أنا رهن اشارتك نظيرها تماما. وأنا واثق بأنها ستقبل حتما يا مولاي. (يخرج).

بيرون: هذا الرجل ينقد الحَب بسرعة كالحمام ويهضمه على مهل فيما بعد. هو صاحب نكتة، ويعرض بضاعته في السهرات والحفلات والاجتماعات والأسواق والمزادات. ونحن الذين نبيعها بالجملة، يعلم المولى، لا يسعنا أن نرد له ما يسديه الينا من معروف. انه ظريف، ومن البديهي أن يغازل الصبايا الجميلات. ولو كان محل آدم لخدع حواء قبل أن تغريه. على كل حال، هو يتقن الغنج والدلال، ويبرع في تقبيل الأيدي بلباقة، دلالة على طول باعه في حقل المداعبات. وهو حاذق في لعب النرد يتحكم بالزهر فيصول ويجول ويفوز بأرباح مدهشة. وهو يجيد الانشاد بصوت جهوري متناسق كأنه في حقل الطرب سيد لا يشق له غبار. فيجتذب السيدات كأنه رب السحر الحلال، وتنساق العاشقات وراءه ويقبّلن موطىء قدميه. أما هي فكالزهرة تأسر الولهان المتيم حالما يفترّ ثغرها عن أسنانها البيضاء كاللؤلؤ المنضود، ويشرق محياها على المستميت في هواها وقد منحته لقب بوايه ذي اللسان المعسول.

الملك: بئس هذا الحديث الحلو الذي أخرج غلام ارمادو عن صبره.

(تدخل الأميرة، يتقدمها بوايه ثم روزالي وماريا وكاترين وحاشيتهما)

بيرون: ها هم آتون (ينظر الى بوايه) يا لموقفك النبيل ! أين كنت قبل أن يشيد بك هذا الرجل ؟ وماذا أنت الان فاعل ؟

الملك (للأميرة) : نهارك سعيد، يا سيدتي. وأتمنى أن يكون كذلك للجميع.

الاميرة: فيمسي هذا النهار عندي أجمل أيام حياتي، ان شاء الله.

الملك: فسِّري كلامي كما تشائين.

الاميرة: أنا لا أرى مانعا من أن تعلن أمانيك بأفضل الأساليب.

الملك: جئت أزورك، وقصدي ان أصطحبك الى بلاطي. فتفضلي بمرافقتي.

الاميرة: سألازم أنا هذا المخيم. فالتزم أنت تنفيذ وعدك. لأني، يشهد الله، لا أقدّر الا الرجال الذين يرتبطون بكلامهم.

الملك: لا تلوميني على ما أنت ذاتك حرضتني عليه، ما دامت نظراتك هي التي حملتني على نقض عهدي.

الاميرة: انك تخلع عليّ ثوب الفضيلة بغير حق، بينما يتحتم عليك أن تتهمني بالرذيلة. لأن دور الفضيلة ليس حمل الرجال على نكث عهودهم. أقسم لك بشرفي كعذراء نقية، تحاكي الزنبق بطهارتها، بأني آليت على نفسي، مهما ذقت من مر العذاب، أن أرفض مخاصمتك تحت سقف بيتك بقدر ما أكره التكلم عن نقض وعدك الذي أعلنته بنيَّة حسنة أمام الجميع.

الملك: لقد عشتِ هنا كأنك في صحراء، غير مكرمة بل مهملة الى حدِ الازعاج.

الاميرة: كلا، يا مولاي. أؤكد لك ان ذلك مخالف للواقع. فقد لقيت كل أسباب التسلية والبهجة قبل أن تغادر الفرقة الروسية هذا المكان منذ هنيهة.

الملك: ماذا تقولين، يا سيدتي ؟ فرقة روسية ؟

الاميرة: نعم، يا سيدي. في الحقيقة، أفرادها الكرام كلهم لباقة ومهارة.

روزالي: تكلمي بصراحة، يا سيدتي. فليس صحيحا ما تقدم ذكره، يا مولاي. ان سيدتي كما يجري في هذه الأيام، تخلع عليهم، من قبيل اللياقة، ثناء لا يستحقونه. نحن الأربعة، في الواقع، واجهنا أربعة أشخاص بملابس الروس. وقد مكثوا هنا ساعة من الزمن بدون أن ينقطعوا عن الحديث. وفي هذه الأثناء لم يوجهوا الينا كلمة مناسبة، يا مولاي. أنا لا أجسر على نعتهم بما لا يستحقون، غير اني أعتقد بأن الانسان العطشان، يظن ان الناس مثله يتوقون الى الارتواء.

بيرون: هذا كلام غير واقعي، أيتها الحسناء الفاتنة. ففكاهاتك الناعمة تحوّل الرصين الى مهووس. ونحن، اذ نحدق بأعيننا المبهورة في وهج شمسك

المتألقة، يرتد بصرنا كليلا، بسبب ما يغمرنا من فيض النور. هكذا تكون مقدرتك من الفئة التي اذا أشرق عليها ضياء حسنك المثالي يمسي العقلاء ازاءها مجانين والأغنياء فقراء.

روزالي: وهذا برهان ساطع على انك ثري وعاقل. بينما أنت في نظري...

بيرون: مخبول مسكين.

روزالي: ان لم تتراجع عما يعنيك، فانك تخطىء عندما تنتزع النطق هكذا من فمي.

بيرون: انا لك بكل ما يخصني.

روزالي: ها قد أصبحت غنية أملك العالم بأسره.

بيرون: لا يسعني أن أحسبك أقل من هذا.

روزالي: خلف أي قناع كنت تختبىء ؟

بيرون: أين ؟ ومتى ؟ وأي قناع تعنين ؟ ثم لماذا تطرحين عليّ هذا السؤال ؟

روزالي: أنت تعرف جيدا ان هذا القناع الذي يخفي معالمك لا لزوم له، وهو يستر أقبح وجه ليبرزه بأجمل صورة.

الملك: لقد أضحينا معروفين، وهن يهزأن منا بسماجة.

دماين: دعونا نعترف بأخطائنا ونحوّل الاساءة الى مزاح.

الاميرة (للملك) : يبدو عليك بعض الوجوم، يا مولاي. فلماذا أنت مرتبك هكذا يا صاحب الجلالة ؟

روزالي: النجدة ! أرجوك أن تسعفه. انه على وشك الاغماء. لماذا شحب لونك هكذا ؟ أهو دوار البحر ؟ أظن، عندما يأتي أحد من روسيا...

بيرون: حين تقصف السماء جحودنا بصواعقها، أي رأس مهما كان صلبا يمكنه أن يصمد ؟ ها أناذا بين يديك، يا سيدتي، فصبي جامْ غضبك عليّ وهشميني بسخريتك، وارهقيني بمضايقاتك، ومرغي جهلي بتراب استخفافك، حطميني بمطرقة احتقارك. فلن أغامر بعد الان بدعوتك الى الرقص، أو بالمجيء اليك بلباس روسي. لن أثق بالخطب المكتوبة ولا بحماسة لغة الطلاب، ولن أظهر بعد الان بقناع صديقتي، ولن أنظم قوافي الحب كأغاني الأعمى التائه. هي عبارات منمقة، وألفاظ مهذبة مختارة، وعواطف رقيقة

ووجوه متفلسفة. كل هذه الحشرات الضارة التي عقصتني قد آلمتني بثورُها الخبيثة. فأنا أكرهها الى الأبد، وأحلف بهذا القفاز الأبيض، والله يعلم كم هو أنصع بياضا من اليد التي تلبسه، اني من الان وصاعدا لن أعبر عن شعوري، وأكشف عن مكنونات صدري بغير جواب صادق أو نزيه. ومنذ هذا الحين، أسأل ربي أن يعينني عليك أيتها الفتاة البارعة.

روزالي: أرجوك ان لا توجه اليّ هذه العبارات المؤثرة.

بيرون: أنا لا أزال أحتفظ بشيء من هذياني القديم. اعذريني لأنني مريض وسأتخلص من الحمى على مراحل، فصبرا اذاً (يشير الى الملك ودماين ولنكفيل) ضعي بين هؤلاء الثلاثة، هذه اللوحة المكتوب عليها : « ارحمهم أيها السيد » لأن قلوبهم ملوثة بالضغينة، وأجسادهم مبتلاة بالطاعون الذي انتقل اليهم بالعدوى من عيونكِ الشريرة. هؤلاء السادة مصابون بالوباء، وأنت لست سليمة أكثر منهم، يا سيدتي. وفوق ذلك، لا أرى على أي منهم علامة فارقة.

الاميرة (تشير الى الجوهرة التي تحملها) : ان من أرسلوا اليّ هذه التحفة هم أحرار.

بيرون: أنا غير متمسك بها. فلا تسعي الى تدمير حياتي.

روزالي: أبدا. كيف يتيسر لك أن تقلع عن أمر وأنت تلح في الحصول عليه.

بيرون: مهلا. أنا لا أريد الاصطدام بك.

روزالي: ولا أنا بشخصك، ان أمكنني التصرف كما أشاء.

بيرون: تكلمي، يا سيدتي، عن نفسك. فانني لم أعد قادرا على احتمال المزيد.

الملك (للأميرة) : مع انكِ اهنتني، أرجوك يا سيدتي، ان تشمليني بحلمك وعفوك.

الاميرة: ان أجدى اعتذار هو الاقرار. أولم تكن هنا متنكرا منذ برهة فقط ؟

الملك: أجَل يا سيدتي.

الاميرة: أولم تكن غائصا في التفكير ؟

الملك: نعم، أيتها السيدة الجميلة.

الاميرة: وعندما كنت هنا، بماذا كنت تهمس في أذن سيدتك ؟

الملك: اني أقدّرها وأفضلها على كل نساء الكون.

الاميرة: وحين تود أن تتقيد بتصريحك حرفيا، بماذا تتعهد ؟

الملك: بشرفي.

الاميرة: مهلا، مهلا. بعد قسَمك الذي حنثت به، ألم تعد تشمئز من تجميد تعهدك ؟

الملك: احتقرْيني اذا تنكرت لقسَمي.

الاميرة: سأحتقرك حتما للسبب التالي : يا روزالي، بماذا همس الروسي في أذنك ؟

روزالي: لقد أقسم لي، يا سيدتي، بأني أعز عليه من حدقة عينه التي يحرص عليها كأغلى ما في الوجود، وقد أضاف قائلا لي انه سيتزوجني أو يموت كمدا، وفاء لتعلقه بي.

الملك: ماذا تعنين بذلك، يا سيدتي ؟ والله، أنا لم أدلِ في حياتي لهذه السيدة بأي تصريح من هذا النوع.

روزالي: أؤكد لك بأنك صرحت لي بذلك. وكعربون، أعطيتني هذه الجوهرة. فأرجوك أن تستردها يا مولاي.

الملك: لقد أهديتها للأميرة مع أخلص تمنياتي، وقد عرفتها من هذه اللؤلؤة النادرة التي تزين جيدها.

الاميرة: العفو، يا صاحب الجلالة. ان روزالي هي التي كانت متحلية بها. فبالنسبة اليّ، يكون السيد بيرون حبيبي، وسأظل وفية له (لبيرون) والآن هل تريد الاحتفاظ بحبي أم تريد استرداد لؤلؤتك ؟

بيرون: لا هذا، ولا ذاك. أنا لا أطالب بك ولا بها، لأني لاحظت اللعبة، وأدركت التصرف الفظّ. أنا أعرف سلفا ما يسليني وما أعتبره مهزلة المهازل. هناك بعض الرواة المبالغين، والثرثارين السمجين، ملفقي الأخبار، وفرسان الملاعق والصحون، والمنافقين الذين يشيخون ولا يزالون يتبجحون، ويعرفون كيف يُضحكون سيدتي عندما تكون على استعداد لتقبُّل هرجهم، فتنبأوا سلفا بمشروعنا. وحين انكشف أمرهم، كانت هؤلاء السيدات قد تبادلن الهدايا،

ونحن قد خدعنا الشبيه المنتحل صفة الأصيل، فغازلت أنا شبيهة سيدتي المفضلة. وهكذا تفاقمت قباحة غلطتنا وافتضح أمر جحودنا بصورة مزدوجة، مرة عفواً ومرة خطأ. هذا بالاختصار كل ما جرى. (لبوايه) : أولست قادرا على أفساد خطتي فلا أصبح منبوذا ؟ أولست أنت الذي قست طول أقدام سيدتي، ومزحت مداعبا متماديا، حتى اخجلت الغلام. وقد سمحت لنفسك جميع التجاوزات. ستموت هلعا وسيكون كفنك غطاء مائدة الوليمة. يبدو عليك انك تنظر اليّ بطرف عينك. وهذه الشذرة تجرح قلبي كخنجر حاد.

بوايه: ما أشد سروره بتأمين هذه المهمة الحافلة بالمصاعب.

بيرون: هو على وشك أن ينقلب له ظهر المجنّ. مهلا، لقد أنجزت عملي.

(يدخل تروني)

أهلا بك، يا شيخ الظرفاء. أنت تثني الناس عن أفظع المشاحنات.

تروني: يا مولاي، ويا سادتي، هل من الممكن أن نعلم ان كنت مصمما على حضور تمثيلية الشجعان الثلاثة أم لا ؟

بيرون: ماذا تقول ؟ أليسوا سوى ثلاثة ؟

تروني: أجل يا سيدي. لكن الحفلة جريئة وشيقة، لأن كل واحد يمثل ثلاثة أشخاص.

بيرون: ثلاث مرات ثلاثة تساوي تسعة.

تروني: ما عدا السهو والغلط، يا سيدي، أرجو أن لا يصح هذا الحساب مطلقا. أؤكد لك انني لست غبيا. أنا أعرف جيدا ما أعرف. وأرجو أن تكون ثلاث مرات ثلاثة...

بيرون: تساوي تسعة.

تروني: ما عدا السهو والغلط، يا سيدي، أنا أعرف كم تساوي.

بيرون: والله، لقد اعتقدت دائما بأن ثلاث مرات ثلاثة تساوي تسعة.

تروني: ما هذه الفضيحة، يا مولاي ؟ لو كنت مضطرا الى كسب معيشتك من المحاسبة...

بيرون: فكم تساوي اذاً ؟

تروني: يا سيدي، الحساب لا يتغير، والممثلون يعرفون كم تساوي. من

طرفي، كما يقال، أنا لا أساوي سوى رجل واحد مسكين، أعني به بومبيوس الكبير.

بيرون: وهل أنت أحد الشجعان ؟

تروني: هكذا قدّروا اني أستحق دور بومبيوس الكبير. وأنا لا أتحلى بصفات هذا الشجاع، انما سأقوم بدوره، بقدر المستطاع.

بيرون: اذهب وقل لجماعتك أن يستعدوا.

تروني: سنبذل أقصى جهدنا لنضفي على الرواية رونقا جذابا، يا سيدي. (يخرج تروني).

الملك: سيلحقون بنا العار، يا بيرون. فلا تدعهم يقتربون من هنا.

بيرون: نحن بعيدون كل البعد عن التلبُّس بأي خزي، يا مولاي. ومن باب الكياسة، علينا أن نقدم لهؤلاء السيدات عرضا أقل شأنا من الذي يقدمه الملك ورجاله.

الملك: أنا أؤكد لك انهم لن يأتوا.

الاميرة: يا مولاي الكريم، طاوعني في هذا الموضوع. فالتسلية التي ترضي أكثر من سواها هي التي تعجب بدون سابق استعداد. وعندما لا يُدخّر جهد لمراضاتنا ويحاول الساعون لإحياء الحفلة استهواء المترددين منا، فان أشكال الفوضى تتجسم في مظاهر الغرور حين تُحبط معظم المساعي الكبيرة المبذولة لنجاح العمل.

بيرون: هذا بالذات ما تتصف به حفلتنا، يا مولاي.

(يدخل المراوغ ارمادو)

ارمادو: هل يمكنني أن أعتمد على حلم مولاي لكي ألتمس منه السماح بابداء رأيي في هذا الموضوع ؟ (أرمادو يسلم الملك ورقة ويحادثه على حدة).

الاميرة (تشير الى ارمادو) : هل هذا الرجل من أهل الخير ؟

بيرون: لماذا تطرحين سؤالك ؟

الاميرة: لأنه لا يتكلم كرجل حائز على رضى ربه.

ارمادو (بصوت عالٍ للملك) : لا يهمني ذلك، أيها الملك المعظم. لكني

أحتج على كون معلم المدرسة كثير التهويل، وهذا منتهى الغباوة. غير اني أستدرك الأمر، كما يقال، ان أمكن، وأتصرف حسب ما تسمح به الظروف. أتمنى لكِ راحة البال يا صاحبة السمو. (ارمادو يخرج وهو يحيِّي).

الملك: سنرى بدون شك استعراضا جميلا لبطولات الشجعان. فان تروني يمثل دور هكتور طروادة والفلاح وبومبايوس الكبير معا. ثم نتنايل يمثل دور الاسكندر، وفالان غلام ارمادو دور هرقل، وهلفارن دور يهوذا المكابي. واذا نجح هؤلاء الشجعان الأربعة في أدوارهم الأولى، سيستبدلون جميعهم ملابسهم ويمثلون الشجعان الخمسة الباقين أحسن تمثيل، كما أتمنى.

بيرون: سيكونون خمسة في القسم الأول.

الملك: انت مخطىء.

بيرون: اذا صح ظني، فالأدوار يقوم بها عالم وجبان وصديق وغبي وغلام. ومهما كنت بارعا في القاء زهر لعب الطاولة، لن يجتمع في الكون برمته، سوى خمسة أشخاص مناسبين على هذه الصورة الفريدة.

الملك: المركب منشور الشراع، وها هوذا يقترب على مهل.

(يؤتى بمقاعد للملك والأميرة والحاشية من سادة وسيدات فيجلس الجميع)

تمثيلية الشجعان التسعة

(يدخل تروني مسلّما، وهو يمثل دور بمبايوس)

تروني (بأبّهة) : أنا بمبايوس.

بوايه: أنتِ كاذب، ولست بمبايوس.

تروني (يكرر) : أنا بمبايوس.

بوايه: برأس فهد جاثم.

بيرون: قول جميل، أيها الساخر العجوز. يجب عليّ أن أصالحك.

تروني: أنا بمبايوس الملقب بالبدين.

دماين: بل الكبير.

تروني: الكبير، هذا أصح، يا سيدي. (يكرر) بمبايوس الملقب بالكبير، الذي كثيرا ما جعل العدو يرتعد منه هلعاً في السهل. لقد سافرت على طول الشاطىء حتى وصلت الى هنا صدفة لأرمي سلاحي عند قدمي هذه الفرنسية الحلوة.

(يوجه كلامه للأميرة)

اذا سمحتِ ، يا صاحبة السمو. شكرا، يا بمبايوس، فأنا قد انتهيت.

الاميرة: شكراً جزيلا، يا بمبايوس الكبير.

تروني: أنا لا أستحق كل هذا التعظيم. غير اني أشكر الله على ما وهبني اياه من امكانية، قبل أن أرتكب هفوتي في كلمة « كبير ».

بيرون: أراهن بقبعتي مقابل فلس واحد بأن بمبايوس سيكون خير الشجعان.

(يدخل نتنايل مسلّما وهو يمثل الاسكندر)

نتنايل : عندما كنت أحيا بين الناس، كنت سيد العالم، شرقا وغربا وشمالا وجنوبا، حيث كنت أنشر قواتي الغازية، وشعاري يشير بوضوح الى اني أنا الاسكندر.

بوايه: أمّا انفك فيصرخ : كلا، أنت لست هو، نظرا الى استقامته.

بيرون (لبوايه) : وأنفك يدل على انك لست هو، أيها الفارس صاحب الحس المرهف.

الاميرة: ما لي أرى الفاتح يرتعد ؟ عليك أن تتابع كلامك أيها الاسكندر الفذ.

نتنايل (يكرر) : عندما كنت أحيا بين الناس كنت سيد العالم.

بوايه: هذا، لعمري، صحيح. كنتَ الاسكندر.

بيرون (يشير الى تروني) : يا بمبايوس الكبير.

تروني (منحنيا) : ها انذا في خدمتك، يا تروني.

بيرون: خذوا عني هذا الفاتح، خذوا الاسكندر.

تروني (لنتنايل) : يا مولاي، لقد سببت سقوط الفاتح. وقصاصا لك ستنتزع عنك البذة العسكرية. وزعيمك، مهما تمسَّك جيدا بسلاحه، وهو جالس على

كرسي مخلع، لن يستأثر بالبطولة. ما أسخف الغازي الذي يخشى أن يتكلم. فمن قبيل الحياء، عليك أن تتوارى عن العيان، أيها الاسكندر. (ينسحب نتنايل). ها هو الأبله المتواضع، بل الرجل السريع الهزيمة الذي لا يمتاز الا بلعب الكرة. أما في دور الاسكندر، فيا للأسف، أنتم ترون معي حتما ان شخصيته أوضع قليلا من دوره. ومن حسن حظه، ها قد أقبل سواه من الشجعان الذين سيعبرون عن أفكارهم بأسلوب آخر.

الأميرة: قف في الصف، يا بمبايوس الكريم. (ينسحب تروني).

(يدخل هلفارن مسلّما وهو يمثل يهوذا، وفالان مسلما أيضا وهو يمثل هرقل)

هلفارن : هل هذا الجبان يمثل هرقل المتغطرس الجبار الذي قتل بهراوته الثعبان المثلث الرؤوس، والذي لم يكن سوى طفل رضيع ثم لعوب، يخنق هكذا الحيات بيديه، وهو يبدو هنا أيام حداثته، بينما أنا صاحب هذه الفكرة. (لفالان) تظاهر ببعض الأبهة والجبروت أثناء خروجك ثم احتجب عن الأنظار (يخرج فالان). أنا يهوذا.

دماين: أي يهوذا ؟

هلفارن : ليس الاسخريوطي، يا سادتي. فأنا يهوذا الملقب بالمكابي.

دماين: يهوذا النمّام ما هو الا يهوذا الماكر اللئيم.

بيرون: أيها الخائن المحتال، كيف صرت يهوذا ؟

هلفارن : أنا يهوذا.

دماين: عار عليك اذاً، يا يهوذا.

هلفارن : ماذا تقول، يا سيدي ؟

بوايه: هيا ساعدوا يهوذا على شنق نفسه.

هلفارن: أنت رجل غير أهل للثقة.

بيرون: قولك في محله. لقد شنق يهوذا نفسه متدليا من غصن شجرة.

هلفارن : أنا لا أسمح لأحد أن يهينني وجاهيا.

بيرون: لأن ليس لك وجه يستحي.

هلفارن (يشير الى وجهه) : ما هذا اذاً ؟

بوايه: رأس مهرّج.

دماين: بل رأس حمار.

بيرون: هو بالحري رأس ميت منقوش على خاتم.

لنكفيل: بل وجه قطعة نقود رومانية قديمة تكاد تكون ممسوحة.

بوايه: لا بل هو قبضة سيف بيد قيصر.

دماين: هو وجه من عظمٍ منحوت يعلو سدادة قنينة.

بيرون: بل هو وجه فارس محفور على صفيحة.

دماين: أجل، على صفيحة من رصاص.

بيرون: موضوعة على قبعة قالع الأسنان. والآن أكمل، فلقد تركناك تستجمع صبرك.

هلفارن : لا بل أخرجتموني عن صبري.

بيرون: أنت مخطىء. لقد خلقنا لك عدة جبهات.

هلفارن : أنتم لم تجلبوا لي سوى الخزي والعار.

بيرون: سأتصدى لك عندما تصبح أسدا.

بوايه: لكن، بما انه ليس سوى حمار، دعوه ينهق. الوداع، يا يهوذا السخيف. بالله عليك، ماذا تنتظر كي ترحل ؟

دماين: آخر قسم من اسمه.

بيرون: هذا صحيح. أعده اليه. الوداع، يا يهوذا العجوز، يا أس البستوني.

هلفارن : هذا لا يدل على الكرم، ولا على اللطف، ولا على المحبة.

بوايه: هو ضوء للسيد يهوذا يستنير به أثناء الليل خوفا من أن تتعثر رجله فيسقط (ينسحب هلفارن).

الاميرة: واأسفاه ! مسكين مكابي. كم تغاضى عن اهانات.

(يدخل ارمادو مسلحا وهو يمثل دور هكتور)

(أثناء هذا الحوار، يقول بيرون بعض كلمات بصوت خافت)

بيرون: خبىء رأسك، يا أخيل البطل الهمام. ها هوذا هكتور قادم وهو مدجج بالسلاح.

دماين: عندما ستسقط مداعباتي على رأسي، أود أن يتطرق السرور الى نفسي.

الملك: هكتور كان طرواديا. وما أبعد الفرق بينه وبين هذا البليد.

بوايه: ولكن، هل حقا هذا هو هكتور ؟
دماين: أظنه لم يكن مفتول العضلات هكذا.
لنكفيل: ها ان فخذه أغلظ من فخذ هكتور.
دماين: أما عضلاته فلا تشبه التي نراها الان.
بوايه: كان عليه ان ينحفها قليلا.
بيرون: يستحيل على هذا ان يكون هكتور.
دماين: هو اما إله واما رجل عادي، وسحنته كثيرة التبدل.
ارمادو (بلهجة الالقاء) : ان إله الحرب مارس، المدجج بالسلاح، الذي لا يغلب رمحه قد أهدى هكتور...
دماين: جوزة طيب مذهبة.
بيرون: وليمونة.
لنكفيل: مزينة ببعض كبوش القرنفل.
دماين: وقد كانت مشطورة.
ارمادو: مهلا (يكرر) : ان إله الحرب مارس، المدجج بالسلاح، الذي لا يغلب رمحه ولا يُقهر، أهدى هكتور، وريث صنوه ايليون، نفَسا طويلا ليقاتل، وكانت مهارته تتجلى من الصبح الى المساء، خارج خيمته، ما دمت أنا القيِّم على ازدهار نضارته وزهوه.
دماين: هذا قناع لستر الخديعة.
لنكفيل: بل هذا مظهر يمامة وديعة.
ارمادو: مولاي الكريم لنكفيل، أرجوك أن تلجم لسانك.
لنكفيل: عليّ أن أرخي له العنان لأنه يلاحق هكتور الرشيق راكضا.
دماين: حقا، ان هكتور سريع القفز كأنه كلب سلوقي.
ارمادو: المحارب العزيز قد مات وأنتَن. فيا أولادي الأحباء، لا تزعجوا رفات المتوفي الذي تصرف كرجل قبل أن يرتاح من المعركة الى الأبد. والآن لأكمل دوري. (للأميرة) : يا مليكتي الفاتنة، أرجوك أن تعيريني سمعك.

الاميرة: تكلم يا هكتور الباسل، لأن حديثك يسرني.

(أثناء هذا الحوار، يقول بيرون بعض كلمات بصوت خافت لتروني الذي يدخل وهو مجرد من بذتها)

ارمادو: دعيني أقبِّل نعلي سموِّك، يا مولاتي الكريمة.

بوايه: هو يحب الأقدام.

دماين: لأنه لا يمكنه أن يستخدم القضيب.

ارمادو (يعلن) : ان هكتور هذا قد فاق هنيبعل بمراحل.

تروني (بخشونة) : هي شريكتك في العمل، يا رفيقي هكتور، وقد مضى عليها شهران وهي حامل.

ارمادو: ماذا تقول ؟

تروني: بلى، ان لم تقم بدورك كبطل طروادة النبيل، فالفتاة المسكينة ستجد نفسها في مأزق حرج، لأنها حبلى، والجنين الذي يسرح ويمرح في بطنها، هو حتما منك.

ارمادو: ما لك تشهِّر بي أمام المسؤولين ؟ سأزهق روحك (ينتضي خنجره).

تروني: اذاً، يستحق أن يجلد بالسياط، لأنه أخصب جاكينات، ثم أن يشنق لأنه قضى على بمبايوس.

دماين: بمبايوس لا مثيل له.

بوايه: وشهرته واسعة.

بيرون: ان بمبايوس كبير، وأكبر من الكبار، وهو عظيم، وأعظم من العظماء.

دماين: وقد جعل هكتور يرتجف هلعا.

بيرون: بمبايوس في غاية الانفعال، وقد أمعن في اثارة أخصامه. فما عليك الا أن تحرضهم عليه.

دماين: سينقذهم هكتور.

بيرون: أجل، وان لم يكن في عروقه دم يكفي عشاء برغوث.

ارمادو (يتقدم نحو تروني) : باسم القطبين الشمالي والجنوبي، أنا أتحداك.

تروني: أنا لا أود أن أقاتل كرجل روسي. أنا أرغب في المقارعة بالسيف (للمقاتلين) أرجوكم أن تدعوني أسترد سلاحي من هكتور.
دماين: افسحوا المجال للشجعان الغاضبين.
تروني (يفك صدرته الارجوانية) : سأقاتل حتى ان كنت بالقميص فقط.
دماين: يا لك من محارب عنيد مصمم على الانتصار، يا بمبايوس !
فالان (لأرمادو) : دعني أفك لك أزرارك، يا معلم. ألا ترى ان بمبايوس يخلع ثيابه تأهبا للقتال ؟ ماذا تقصد ؟ أتريد أن تفقد سمعتك الطيبة؟
ارمادو: العفو، يا سادة ويا جنود. أنا لا أريد أن أحارب وأنا بالقميص.
دماين: لا يسعك أن ترفض، بعد أن تحدّاك بمبايوس.
ارمادو: يا أحبائي المخلصين، أنا أريد فقط ما أقدر عليه.
بيرون: فسِّر كلامك.
ارمادو: الحقيقة المجردة في كل هذا، اني لا أملك قميصا. وسأقاتل وأنا ألبس الصوف الخشن، على سبيل التكفير عن ذنوبي.
فالان: هذا صحيح. ولقد أتتني توصية من روما بالامتناع عن الظهور مرتديا ثيابي الداخلية. ومنذ ذلك الحين، أنا مستعد لأن أقسم بأنه لم يحمل غير رقعة نسيج من جاكينات، يضمها الى صدره كتذكار عزيز.

(يدخل مركاد)

مركاد (للأميرة) : حفظك الله، يا سيدتي.
الاميرة: أهلا بك، يا مركاد، مع انك تقاطع حفلتنا.
مركاد : أنا مستاء، يا سيدتي، لأن النبأ الذي أحمله اليك يصعب عليّ ابلاغك اياه. ان والدك الملك...
الاميرة: ماذا حل به ؟ هل مات ؟ بربك أصدقني القول.
مركاد : أجل، يا سيدتي، وليس عندي من مزيد.
بيرون: إنسحب، أيها الشجاع. فالعتمة أخذت تخيم على المشهد.
ارمادو: من جهتي، أنا أتنفس الصعداء. فيوم الانتقام قد بزغ فجره بالنسبة اليّ من خلال ثغره الاعتدال. غير اني سأحظى بالتعويض كجندي أصيل (يخرج الشجعان).

الملك (للأميرة) : كيف حالكِ الان، يا صاحبة السمو ؟
الاميرة: هيىء كل شيء، يا بوايه، فسأرحل هذا المساء.
الملك: لا، يا سيدتي. أرجوك أن تبقي.
الاميرة: أكرر عليك : هيىء كل شيء. أشكرك، يا مولاي، على ما تحيطني به من رعاية، وأستحلفك من أعماق حزني، أن تعذرني وأن تتغاضى بواسع حلمك وحكمتك، عما بدر من مزاجي الساخر. واذا كنت تعديت حدود اللياقة في التحدث اليك بدون كلفة، فالملامة تقع على وافر كياستك. (للملك) الوداع، يا مولاي المبجل. ان القلب الجريح لا يسامح اللسان السليط المتطاول. لكني، أرجوك أن تعذرني، لأني لم أشكرك بإسهاب على ما منحتني من تسهيلات.
الملك: ان الزمان، في مراحله الدقيقة، يستعجل كل أمر نحو الخاتمة المنشودة. وغالبا، عندما يكاد زمام الأحداث يفلت من أيدينا، يحل ما لا تبلغه أبرع المرافعات والوساطات. ومهما حرّم الحداد البنوي على المحب المتفائل المصمم على الدفاع عن حقه المقدس يأبى أن يخسره مع ما حظي به بمودة من المطالب السمحاء، بالرغم من غيوم الكدر التي تبعده عن هدفه. ان البكاء على فقد الأصدقاء ليس أجدى ولا أنفع من الابتهاج بالأصحاب الجدد.
الاميرة: أنا لا أفهمك، وهذا ما يضاعف أحزاني.
بيرون: ان الكلام البسيط الصريح يصل بسهولة الى الأذن المتفهمة. ومن هذه الايضاحات، عليكِ أن تدركي فكرة الملك. انني، من أجل حبك أيتها الفاتنة، قد أضعت وقتي وتنكرت لوعودي. فجمالك، يا سيدتي قد شوّه استقامتي وضعضع ذوقي وارادتي. واذا لاحظتِ عليّ بعض السماجات فلأن الهوى مشحون بالغرائب والتصرفات الصبيانية بين المرح والمجون الذي تفيض به العيون. وبالتالي لا حرج على النظر الذي يقع على شتى الأشكال والألوان من المظاهر والصور العجيبة، فيتنقل مستطلعا من حقل الى حقل، ومن موضوع الى موضوع، باحثا عن المتعة. أجل ان هذه الامارات التي وسمك بها الهيام والحنين، ولا سيما فتنة عيونك الشاهدة على ضعفي وزلتي، قد شجعتني على اقتحام ما قد تلومينني عليه. وهكذا، يا سيدتي، بما ان حبي

هو صنيعتك، تجدين ان الذيول التي أثارها هذا الحب هي أيضا صنيعتك. أنا المقصِّر بحق ذاتي، لم أقبل بالخيانة الا لأظل أمينا دائما على عهدك أنت التي جعلت مني وفيا وخائنا في آن واحد، لتعزي ولائي لشخصك الحبيب. وهذه الخيانة، المحسوبة ذنبا في حد ذاته، تسمو هكذا في خدمتك لتصبح فضيلة محمودة.

الاميرة: لقد استلمت رسائلك وهداياك كعربون مودة، وفي مجلسي كعذراء لم أعتبرها الا من باب اللياقة، ودعابة مرضية، وغزلا مستساغا لاستدراك ما فات من الوقت. فلم أهتم كثيرا بها، ولذلك اعتبرت حبك حسب هذه الظواهر كأنه ليس أكثر من لياقة.

دماين: ان رسائلي تعدّت حدود اللياقة.

لنكفيل: وأنظاري أيضا.

روزالي: أنا لم أتطلَّع الى الأمور من هذه الزاوية.

الملك: أرجوكِ، في اللحظة الأخيرة، ان تجودي عليّ بعطفك وحلمك وعفوك.

الاميرة: الوقت قصير جدا، على ما يبدو لي، للبت في القضية نهائيا. كلا، يا صاحب الجلالة، لقد حنثتَ بوعدك وارتكبت خطأ كبيرا لا يُغتفر. أرجوك أن تصغي اليّ. فان كان ذلك بدر منك لأجل حبي، وهذه حجة واهية لا أقتنع بها، لأني لا أثق بعهودك، وان كنت مستعدا حقا لأن تستدرك الأمور، اليك ما أعمله أنا بكل بساطة : انسحب بأسرع وقت ممكن الى إحدى الصوامع النائية، وأمكث فيها حتى تظهر لي العلامات الفلكية الاثنتي عشرة المرتقبة سنويا. وإذا كان شظف العيش القاسي بعيدا عن الناس لم يغير حرفا من العرض الذي بسطته لي بكل مرارته، وإذا كان الصقيع والصيام وحقارة المسكن والملبس لم تذوي جميعها نضارة حبك النزيه، وإذا صمد هيامك في وجه صعوبات هذه التجربة العسيرة، فيمكنك عند انتهاء العالم أن تأتي اليّ، وتطالب بي بموجب استحقاقك الجديد. وهذه اليد النقية الممسكة الان بيدك، ستكون حينئذ حلالا لك. وحتى مجيء ذلك الزمان، سأكتم حزني في أعماق صدري منطوية على أساي، وأمطره وابلا من دموعي السخينة حبا

واجلالا لذكرى وفاة والدي، فان أبيت الامتثال الى هذا الشرط، فلتنفصل يدي عن يدك، ولينسلخ قلبي عن قلبك الى الأبد.

الملك: اذا رفضت هذه التجربة أو أية تجربة أخرى، وغايتي السامية ان أخلص لك الود مدى العمر، فليطفىء الموت فجأة آنئذ نور عينيّ. ومنذ ذلك الوقت يصبح حبك سجينا بين حنايا ضلوعي (يتحدث بصوت خافت الى الأميرة).

دماين (لكاترين) : أنا أيضا يا صديقتي، أنا أيضا.

كاترين: أتمنى لك السعادة والصحة التامة ودوام العز، يا سيدتي. وبالاضافة الى هذه الأماني أرجو لك أيضا حنواً مثلثاً.

دماين: لا يسعني الا أن أشكرك، يا سيدتي الكريمة.

كاترين: كلا، يا مولاي، أفضِّل أن تمضي عليّ سنة دون أن أسمع ما يوجهه اليّ طالبو الزواج من أقوال معسولة. فارجع يوم يعود الملك الى قرب الأميرة. اذ ذاك، ان كان لا يزال لديّ رصيد من الحب منحتك منه ما تشاء.

دماين: وحتى ذلك الحين، سأظل خادمك المخلص الأمين.

كاترين: ولكن، لا تقسم على ذلك خوفا من أن تخلف بوعدك.

لنكفيل: ماذا تقول ماريا ؟

ماريا: في ختام الاثني عشر شهرا، سأخلع ثوبي الأسود وألازم صديقي الوفي.

لنكفيل: اذاً سأنتظر بصبر. غير ان الوقت طويل، طويل جدا.

ماريا: هذا الحل أنسب لك، وان كنت شابة ربما لا أليق بك.

بيرون (لروزالي) : بماذا تتأمل سيدتي ؟ أنظري اليّ يا معلمتي وتطلعي الى عيوني، فهي مرآة قلبي، واشفقي على توسلاتي المتواضعة التي تترقب ردك على أحر من الجمر. اطلبي مني أية خدمة لأبرهن لك على حبي الصادق وتعلقي الجدير بك.

روزالي: لقد سمعت الكثير عنك يا سيدي بيرون، قبل أن أعرفك. فلسان الناس الطويل يصفك بالساخر اللاذع ويقول ان لديك على الدوام مقارنات وتندّرات هازئة، ترمي بها كل ما ومن تجده في متناول هزئك وتنكيتك

الصاخب. ولانتزاع هذه الصفة السيئة من مخيلتك الخصبة، اذا شئت أن تكسب قلبي الذي لا يسعك ان تستميله الا بهذه الوسيلة، ستقضي سنة كاملة يوما بيوم، في زيارة المرضى المتألمين ومحادثة المنازعين المعذبين، فيكون شغلك الشاغل، وتبذل أقصى جهودك لرسم الابتسام على شفاه الموجوعين اليائسين من الشفاء.

بيرون: أي ان أضحك الموتى، وأنتزع القهقهة من أفواه التعساء الباكين. وهذا مستحيل، لأن البهجة لا تستطيع التأثير على النفس البائسة ساعة النزاع الأخير.

روزالي: هذه وسيلة لخنق روح السخرية، توفرها عوامل المسايرة التي يمنحها الضاحكون بصعوبة للمجانين. ان نجاح الكلمة الملائمة كامن في أذن سامعها لا على الشفاه التي تطلقها. فاذا كان المرضى الذين أصمَّت آذانهم حشرجة النزاع الأليم يستسيغون سخرياتك الباطلة، فثابر على التمسك بنقيصتك، وأنا أقبلك على علَّتك، وإلا تخلَّص من هذه الفكاهة المرة. وعندما تتحرر من هذه الشائبة الفظَّة، أكون سعيدة جدا بما تبلغه من الاصطلاح.

بيرون: لا بأس بسنة مهما جرى من أمور. فأنا مستعد لأن أقلع عن دعاباتي طوال عام أقضيه في المستشفى.

الاميرة(تحيي الملك) : حسن، يا مولاي العزيز. وبناء على ذلك أستأذنك بالانصراف.

الملك: كلا، يا سيدتي، أريد أن أرافقك.

بيرون: لا أود أن ينتهي حبنا كالمسرحيات القديمة، بدون أن يحظى الحبيب برضى حبيبته. فاللياقة تقضي بأن لا تختتم حفلتنا بمهزلة حيال هؤلاء السيدات.

الملك: اذاً، يا سادتي، هي سنة واحدة وتنقضي، ثم يأتينا بعدها الفرج.

بيرون: انما، هكذا، تكون المسرحية طويلة جدا وسئيمة مملة.

(يدخل ارمادو)

ارمادو: يا صاحب الجلالة، تنازل و...

الاميرة: أوليس هذا صديقنا هكتور ؟

دماين: هو فارس طروادة الشجاع بعينه.

ارمادو: أود أن أقبِّل أناملكَ الملكية وأستأذنك بالانصراف. لقد بررت بوعدي وأقسمت لجاكينات بأن أتولى الحراثة مدة ثلاثة أعوام حبا بها. ولكن، يا صاحب العظمة الألمعي، هل يرضيك أن تستمع الى الحوار الذي دار بين علمائنا لتمجيد البومة والعصفور، كما يتحتم أن تكون خاتمة التمثيلية ؟

الملك: أدخلوا الممثلين حالا، فأنا موافق.

ارمادو (يصرخ) : اقتربوا، يا جماعة.

(يدخل هلفارن ونتنايل وفالان وبالور وغيرهم)

ارمادو (يشير الى هلفارن) : من هذه الناحية. ها هو فصل الشتاء، ومن الناحية الأخرى، فصل الربيع. الأول تمثله البومة، والثاني العصفور، فابدأ، أيها الربيع.

أناشيد :

الربيع : عندما يبرز المضعف العطر والبنفسج الأزرق .
والنبتة المستمدة رونقها من لمعان الفضة المشرق
وزهرة الربيع النضرة الذهبية اللون تزدهي
وتكسو بروعتها البراري في هذا الفضاء غير المنتهي
يغرد العصفور عندئذ متنقلا فوق الأغصان يلتهي
هازئا بالزوج، وهو ينشد ككو كو كو، ككو كو كو.
ككو كو كو، يا لها من لفظة ساخرة جارحة رتيبة
ترن بأسى في مسمع الزوجة الوحيدة الكئيبة.
عندما ينفخ الراعي في نايه اللحن الحنون
والبلبل يعلن للعاشق المشتاق ساعة المجون
وحينما يتناجى الطوير بزقزقات الفرح
وتغسل الفتيات الثياب تحت الشمس بمرح
تتنقل الطيول على أفنان الشجر وتنشرح
ساخرة من الزوج، وهو ينشد ككو كو كو، ككو كو كو.
ككو كو كو، يا لها من لفظة ساخرة جارحة رتيبة
ترن بأسى في مسمع الزوجة الوحيدة الكئيبة.

الشتاء : عندما يتدلى الماء المجلَّد من الأغصان والحيطان
والراعي شارد الأفكار ينفخ في نايه أعذب الألحان
ويحمل رفيقه الحطب الى الموقدة ليغذي به النيران
يصب الحليب الصافي اللذيذ مثلجا في قدره
ويجمد الدم في عروقه مشدوها واجما من ظلمة داره
وتنعق البومة الهائمة في الليل البهيم تُهو هوهو
تهو هو هو، تبا له من نغم نشاز يقلق الجوار
بينما المرأة البدينة المترهِّلة تضع القدر على النار
والرياح الهوجاء العاتية تعصف خارجا بجنون
والسعال يخنق صوت زوجها العجوز المغبون
وأنف الخادمة الكسلى يحمرّ من قسوة برد كانون
ونعيق البومة الواجمة يعلو في وحشة الليل تهو هو هو
تهو هو هو تبا له من نغم نشاز يقلق الجوار
بينما المرأة البدينة المترهلة تضع القدر على النار.

ارمادو: ما أصدق كلمات مركور الحاسمة بعد غناء أبولون القائل هذا هو طريقي وذاك هو طريقك. (يخرج الجميع).

﴿ تمَّت ﴾

تاجر البندقية

تعريب

خليل مطران

أشخاص المسرحية

دوج البندقية
الأمير المراكشي
أمير أراغون

أنطونيو	:	تاجر البندقية
باسانيو	:	صديقه
سالانيو سالارينو جراتيانو	:	أحباب لأنطونيو ولباسانيو
لورنزو	:	عاشق لجسيكا
شيلوخ	:	يهودي
طوبال	:	يهودي صديق لشيلوخ

لنسلو جوبو مضحك في خدمة شيلوخ

جوبو الهرم	:	والد لنسلو
سالريو	:	رسول من البندقية
ليوناردو	:	خادم باسانيو
بلتزار ستفانو		أجيران لبرسيا
برسيا	:	وارثة مثرية
نريسا	:	تابعة لها

جسيكا : بنت شيلوخ
أعيان من البندقية
ضبّاط دار الحكم
سجّان
خدم... الخ

تجري وقائع هذه الرواية تارة في البندقية وتارة في قصر برسيا بمدينة بلمنت.

الفصل الأول

المشهد الأول

منهج في البندقية

(يدخل أنطونيو وسالارينو وسالانيو)

أنطونيو : حقاً لا أعرف لماذا أنا حزين حزناً يُتعبني، ويشق عليكما فيما أرى. إني لأسائل ضميري من أين جلبت أنا هذه الكآبة، أو كيف وفَدتْ هي عليّ، أو في أي مكان صادفتني، أو من أي غزل نُسجت، أو تحت أية سماء وُلدت، فما أكاد أحير جواباً، بل أشعر ان بي بلاهة، وأوشك أن أتنكّر على نفسي.

سالارينو : لا غرو أن يكون عقلك ضارباً في العباب متعقّباً بين النواهض والعواثر من الأمواج، آثار مراكبك الضخام التي تتخطّر بسواريها البواسق فوق الغمر تخطر الغطاريف[1] الذين لهم السيادة على البحر، أو تحلّق من

(١) الغطريف: الشاب الظريف، الحسن.

عل فوق جماهير الصغار المتضائلات من سوقة السفن وعامة المنشآت فيحيينها بإجلال حين مرورها بهن سابحة، وكأنها طائرة بأجنحتها الكتانية.

سالانيو : أيقن يا سيدي انني لو خاطرت بمالي مثل مخاطرتك لدرجت أهوائي تتعقّب آمالي في تلك الآفاق البعيدة، أو لما وجدني مَن نشدني إلّا عاكفاً على فُريعات الأعشاب أستخبرها عن مهاب الرياح، أو مكبًّا على صور الأرض أبحث عن المرافئ والأرصفة والموانئ، فأيما شيء تبيّنت منه أدنى بأس على أوساقي[٢] مِت له جزعاً.

سالارينو : بل لكان من شأني في مثل هذه المجازفة أنني إذا نفخت في حسائي لتبريده، طفقت أفطن للآفات التي قد تحدثها العواصف في البحر فأرتعد. وإذا نظرت الى تناقض المِزْولة[١] خطرت على بالي الجروف والأغوار الرملية وبدت لوهمي تلك الجارية الكبرى المسماة « بسنت أندري » جانحة وقد انقلبت ساريتها الوسطى إلى ما تحت غاطسها كأنها تقبل رمسها. وإذا يمّمت الكنيسة فلاحت لي مبانيها الحجرية الممرّدة ذكرت من فوري تلك الصخور الصمّاء التي إن مسّت جانباً من جوانب فلكي ارتطم بها، وألقي بما يحمله على وجه المحيط فأنبثت البقول فوق الحباب وانتشر الحرير على مناكب الأمواج الهدّارة، وانتقلت أنا في عقبها من ملابسة الثراء الى ملابسة الثرى. أفي وسع إنسان أن يرى مني تلك الحالة فلا يفهم ان ما يشغل بالي إنما هو هذا الشاغل ؟ قولوا ما تشاؤون، أمّا أنا فلا أحمل همّ أنطونيو إلّا على محمل تفكيره في مشحوناته.

أنطونيو : لا وصدّقاني. ليست لحسن طالعي كل بضائعي في موسق[٢] واحد، ولا هي موجّهة إلى مكان واحد فتكون عرضة للأخطار، بل أزيد

---

(٢) أوساقي: ستون صاغاً، أيضاً حمل البعير.

(١) المزولة: كلمة وضعوها للدلالة على الساعة الشمسية التي يعين فيها الظهر الحقيقي بظل الشاخص الذي يرفع عليها.

(٢) وسق: جمع وحمّل.

كما أنني لم أقامر بكل ثروتي في مضاربات هذه السنة، فكآبتي ليست من جانب مشحوناتي.

سالانيو : إذن أنت عاشق.

أنطونيو : لا ولا.

سالانيو : فإن لم تكن عاشقاً لم يبق لنا أن نقول إلّا أنك ترح لأنك غير فرح، كما أنك بالقياس على هذا لو كنت مبتهجاً لَجاز لك أن تضحك، وترقص، وتجهر بأنك مسرور، لأنك لست بمحزون. حلفت بيانوس ذي الوجهين إن الطبيعة تخلق في بعض ما تخلق أناساً مستغربين، فئة منهم لا تني عيونهم متيقّظة على كونهم كالببغاوات، يضحكون لأول نافخ في مزمار يسمعهم لحناً ما، وفئة آخرون لا يفتأون مقطّبين جباههم. إذا طرقت آذانهم نكتة من المستظرفات التي تضحك الحليم — ولو انه نستور الحكيم — لم تنفتق لها شفاههم المضمومة عن أدنى ابتسام.

(يدخل باسانيو ولورنزو وغراتيانو)

سالانيو : هذا باسانيو قريبك الشريف قادماً يصحبه غراتيانو ولورنزو. نستودعك الله وندعك برفقة أحسن محضراً منا.

سالاريو : لو لم يجيء مَن هو خير ومني، لأقمت حتى أزيل كآبتك.

أنطونيو : ما أشدّ اعتدادي بمودّتك، لكن شؤونك تدعوك وأنت تنتهز الفرصة للانصراف اليها.

سالاريو : نعمتم صباحاً يا سادة.

باسانيو : إيهاً يا سادة متى نستأنف مباسطتنا ؟ قولوا متى ؟ لقد أطلتم هجرنا فإلامَ هذا الجفاء ؟

سالاريو : متى أذنت أشغالكم باللقاء، فنحن ممتثلو أمركم.

(ينصرف سالاريو وسالانيو)

لورنزو : أمّا وقد التقيت بأنطونيو يا سنيور فنحن نتولى عنكما إلى أن يحين العشاء، فعسى أن لا تنسى المكان الذي سنجتمع فيه.

باسانيو : ثقا انني آت.

غراتيانو : ليس في وجهك ما يدلّ على الصحة يا سنيور أنطونيو. لشدّ

ما تشغلك أمور الدنيا، ومخسر مَن اشترى النجاح بثقال الهموم. إنك لعلى غير ما أعهد فيك من العافية.

أنطونيو : غراتيانو، إنما أنظر الى الدنيا كما يجب أن ينظر اليها باعتبار انها ملعب لكل فيه دور، أمّا دوري فكتبت عليه الكآبة.

غراتيانو : وأمّا الذي أؤثره لنفسي فدور الضحكة. لئن علتني غضون الشيخوخة فلا علتني إلّا بين السرور واللهو. وخير لي أن تُرْمِض[1] الخمرة كبدي من أن تبدّد الأشجان أنفاسي تصويباً وتصعيداً. علام يرضى الانسان ــ إذ الدم لا يزال حارًّا في عروقه ــ أن يتشبّه بالمرمر المصنوع منه تمثال جدّه، فلا ينام إلّا مستيقظاً، ولا يستفيد من تدفّق الكآبة الصفراء على قلبه سوى داء اليرقان، أصغ اليّ أنطونيو. أنا أحبك، وعن حبي مصدر الكلام الذي أسوقه اليك. من الناس مَن وجهه كوجه الماء الراكد به انتفاخ ويغشاه ما يغشى المستنقعات من مرّ المراءات، يصمت عن تدبير ليذيع عنه انه لبيب متبصّر متبحّر في الأمور، فإذا فتح فاه فكأنه قائل : « أنا صوت الوحي حذار أن تنبح الكلاب »... اي صفيّي أنطونيو، أعرف غير واحد لم يشتهروا بالعقل إلّا لعدم نطقهم بشيء، مع أنهم لو نبسوا لآذووا أسماع مجالسيهم ولعوملوا معاملة المجانين. سنعود الى هذا البحث فيما بعد. انتصح بنصحي، ولا تحاول أن تتصيّد الشهوة بحبالة حزنك فهي صيد الحمقى ــ تعال أيها العزيز لورنزو ــ (لأنطونيو) وداعاً الى هنيهة، سأتمّ عظتي بعد العشاء.

لورنزو : أجل سندعكم الى ميقات العشاء، ولمّا كان غراتيانو لا يفسح لي في الكلام البتّة فقد رضيت أن أكون واحداً من اولئك الحكماء الصامتين.

غراتيانو : لا جرم انك لو استمررت على معاشرتي سنتين آتيتين لتعذّر عليك بعدهما أن تعرف صوتك.

أنطونيو : في رعاية الله. إذا ظلّت الحال هكذا، لم تلبث أن تحوّلني الى ثرثارة.

---

(١) ترمض: تفسد، تحرق.

غراتيانو : أولى لك ثم أولى، فإن الصمت لا يحمد إلّا في اللسان المدخن وفي فم العذراء التي لا تبيع عرضها.

(يخرج غراتيانو ولورنزو)

أنطونيو : أيوجد شيء من المعنى تحت هذا كله.

باسانيو : أذلقُ أهل البندقية لساناً، بمثل هذه التوافه ــ غراتيانو ــ والأسباب التي يبني عليها أقاويله، أشبه بحبتَي قمح في مكيالين مفعمين بالتبن، فتش سراة النهار حتى تجدهما، فإذا وجدتهما فما أقلّهما من شيء في جانب هذا العناء !

أنطونيو : حسن. حدّثني الآن عن تلك المرأة التي عزمت على حجّ بيتها في الخفاء.

باسانيو : لا تجهل يا أنطونيو ما كان من تبديدي ثروتي بالتوسّع في الانفاق منها على قلّة مواردها، وما جرّني اليه ذلك من الديون الباهظة، فهمّي الآن ــ ولا يداخله شيء من خوف السقوط عن ذلك المقام الرفيع ــ هو أن أوفي تلك الديون كما يقتضي شرفي. ومعظمها لك سمحت به عن وداد. فإلى ودادك اليوم ألجأ لتعينني على تحقيق آمالي، وتمدّني بما يوصلني إلى أداء ما عليّ.

أنطونيو : عرفني آمالك يا صديقي باسانيو، فإذا كانت شريفة كما أعهدك شريفاً، فأنت واثق ان مالي وشخصي وكلّ ما في وسعي رهنُ خدمتك.

باسانيو : عندما كنت طالبَ علم اتفق لي غير مرّة أن أرمي نبلاً فأفقد أثرها، إذا أردت الاهتداء اليها رميت أخرى في ناحيتها، ورقبتها في منطلقها ؟ ثم مضيت في ذلك المتجه فلم أرجع إلّا وقد ظفرت بالنبلين جميعاً. ذلك لمخاطرتي بالثانية بعد الأولى. وقد قصصت عليك هذه السانحة الصبوية، لأن ما سأذكره لك لا يقلّ عنها تفاهة. أنا مدين لك بكثير، ويوشك ما أقرضتني أن يكون مفقوداً لأن نزق[1] الصبي حالَ دون تبصّري في عقبى هذا التفريط، غير انك إذا أسعدتني على إرسال سهم ثان في مرمى السهم

(١) نزق: الخفة في كل امر، العجلة في جهل وحمق.

الأول رقبته بتفطُّن، وفزت يقيناً بوجدان السهمين كليهما، أو عدت على الأقلّ بالأخير منهما. وبقيت لك عن الذي سلف ممتنًّا شكوراً.

أنطونيو : ما كان أغناك ــ على علمك بي ــ عن إضاعة الوقت في الاحتيال للاستعانة بمودّتي. إنك بارتيابك في خلوصي لك لتسوءني أكثر مما لو أضعت عليّ ثروتي بأسرها. قل ما ترجوه مني فيما تعرفني قادراً عليه فقد أجبت. تكلم.

باسانيو : في قصر بلمنت غانية غنية، وارثة لجاه كبير، جمالها فوق ما تصف الكلم، وخصالها لا نظائر لها. راسلتني عيونها في بعض الأوقات، ساكتةً والهوى يتكلم. يسمّونها برسيا ولا تقل شيئاً عن سميّتها برسيا بنت كاتون قرينة بروتس، على أنها ليست بمغمورة الذكر، ولا مبخوسة المهر، فإن نبهاء الخطاب يتوافدون اليها من كل فج وشاطئ. تتساقط ضفائرها على صدغيها كأنها جدلت من ذهب. وما من خاطب مجد، وطالب سعد، إلاّ وقد طرق بابها، والتمس جوابها. فيا صديقي أنطونيو لو تيسّر لي أن أتقدّم بين المتقدمين في هذه المناظرة، فإن وحياً نجيًّا يسر الى قلبي أنني سأدرك قصب السبق.

أنطونيو : تعلم ان ثروتي جميعها تحت رحمة المحيط، وأنه لا يتسنّى لي أن أجمع الآن من مالي مقداراً جديراً بالذكر، فاذهب إلى البندقية واسبرْ ما تقدر على استدانته بضماني، فأيًّا كان الشيء يبلغك مرامك لم يعزّ عليّ بذله. ابحث في كل مظنّة للنقود، وسأبحث أنا كذلك، ولعل ما للناس بي من الثقة أو ما لي عندهم من الكرامة يقضيان أربك.

(يخرجان)

المشهد الثاني

بلمنت ــ قسم من قصر بروسيا

(تدخل برسيا ونريسا)

برسيا : حقاً يا نريسا ان جسمي الصغير لتعب من هذا العالم الكبير.

نريسا : ما كان أحراك بهذا التعب لو ان ما عندك من اليسر أبدل بعسر، غير أنني قد تبيّنت ان الانسان يشقيه فرطُ الغنى كما يشقيه جهد الفقر. وإن السعد عين السعد في الحالة الوسطى، فإن مع الترف وشك المشيب ومع الشظف إمهال الأجل.

برسيا : نعمت الحكمة، وحبذا مجراها على لسانك.

نريسا : لخير أن يُعمل بها من أن تُقال.

برسيا : لو كان العمل بالأصلح سهلاً كالعلم به لأغنت البِيَعُ الصغرى عن الكنائس الكبرى، ولكانت أكنان الفقراء هي القصور الآهلات... أفضل الواعظين هو ذلك الذي يتعظ بنفس أقواله، قد يهون عليّ تعليم عشرين سامعاً أكثر مما يهون عليّ ــ لو كنت أحدهم ــ أن أنتصح بنفس نصائحي. العقل يسنُّ القوانين للحواس، ولكن حرارة الطباع تدوس تلك الروابط الباردة. ما أشبه جنون الشباب بالأرنب الوثاب، وما أشبه العقل بالشرك الضعيف، أفلت منه ذلك الأرنب، فمضى لغير مآب.

على ان هذا القياس لا ينفعني أدنى نفع في اختيار زوج لي، كيف أذكر الاختيار وما بوسعي انتقاء مَن يعجبني، ولا ردُّ مَن لا أحب. جعلت ارادتي ــ وأنا فتاة في اقتبال الحياة ــ رهنَ إرادة تقدّم بها إليّ والد هو الآن

ميت. أليس شاقاً على النفس يا نريسا أن تكون الفتاة غير قادرة على قبول مَن تودّ أو رفض مَن لا تودّ ؟!

نريسا : كان أبوك أمرأ خير، والأبرار يلهمون الخير قبل وفاتهم، فاعتقدي ان الاقتراع الذي ناطه بهذه الصناديق الثلاثة : الذهبي، والفضي، والرصاصي، وجعلك حليلة لمَن يجيء اختياره وفق مراده لن يجيئك منه إلّا بعل جدير بحبك. علي ان الخطّاب الذين تقدّموا الى الآن كثير، أفما تقولين لي أيهم أكبر حظوةً في عينيكِ.

برسيا : أعيدي عليّ إن شئت أسماءهم أصفهم، ومن الوصف تعلمي منازلهم من رأيي.

نريسا : أولهم الأمير النابلي.

برسيا : هذا حيوان لا شك فيه. يتكلم بلا انقطاع عن جواده، ويتباهى بأنه ينعل الدابة بيده، ويتقن. حتى لأخشى أن تكون أمه قد عثرت عثرةً بين يدي أحد البياطرة.

نريسا : يليه الكنت البالاتي.

برسيا : هذا رجل سحنته متشبّعة من حسن ظنه بنفسه، كأنه يخيّرك : « أترتضين بي أم لا ترتضين ؟ أبيني ». يسمع أظرفَ السير بلا تبسّم، وأخاف لشدّة كآبته في شبابه أنه اذا بلغ أخريات أيامه عاش عيشة الفيلسوف الباكي. لأوثر على الواحد من هذين أن أقترن برأس ميت، في فمه قطعة من العظم.

نريسا : كيف تقولين في الشريف الفرنسي المسيو ليبون ؟

برسيا : هكذا خلقه الله، ولا اعتراض لي على وجود مثله بين الرجال. أعرف ان سخرية المرء من أخيه خطيئة، لكن ذلك الرجل أكرم حصاناً من النابلي، وأقبح عبوسةً من الكنت البالاتي هو كل شيء ولكن لا شيء. اذا تغنّى الشحرور ترقّص له، وإذا لقي ظلّه بارزه. فاقتراني به انما هو اقتران بعشرين زوجاً. ولو احتقرني لغفرت له، إذ لو أحبّني الى الجنون لما أصاب مني سوى الاحتقار.

نريسا : إذاً ما فكّرك في فلكيبردج البارون الانجليزي ؟

برسيا : تعلمين أنني لم أخاطبه. انه ناعم الأظافر لا يفهم كلامي، كما أنني

لا أفهم كلامه. هو يجهل اللاتينية، والفرنسية، والايطالية، وأنا أجهل الانجليزية إلّا كلمتين لا تقوم معهما الشهادة لدى القضاء بأنني أحسن هذه اللغة. به جمال ولكنه كجمال الصور، وأنّى لي أن أتمتّع بحديث مع صورة، ملبسه غير مألوف، وأظن انه اشترى صداره من إيطاليا وسراويلاته القصيرة من فرنسا وقبعته من المانيا واتخذ عاداته من مختلف الأقاليم.

نريسا : وما قولك في جاره الاسكتلندي ؟

برسيا : إنه شديد الرغبة في الاحسان الى أخيه الانسان، بدليل انه اقترض صفعة أخيه الانكليزي، ثم أقسم إلّا ما ردّها اليه حين يستطيع، وفي زعمي أن الفرنسي ضمن له المعونة على هذا الردّ، لكنه زوَّر صك الضمان.

نريسا : ما حكمك في اليافع الالماني ابن أخي دوق سكس ؟

برسيا : بغيضٌ قبل الصبوح، وأبغضُ منه بعد الغبوق. يوشك في أحسن أوقاته أن يكون رجلاً، وفي أقبح أوقاته لا يفوق الحيوان الأعجم إلّا بشيء يسير. والخيرة لي مع ترجيح السيّئات على الحسنات أن أستغني عنه.

نرسيا : لو انه اقترع في المقترعين وأصاب الصندوق الرابح، أفتأبينه لك بعلاً فتخالفي إرادة والدك !

برسيا : ضعي كأساً كبيرة من خمر الرين على الصندوق المقابل لذاك يترامَ اليها لا محالة، ويؤخذ بهذه الحيلة، وإلّا آثرت كل مصير أصير اليه في الدنيا على التزوّج من إسفنجة !

نريسا : لا تخشي يا سيدتي أحداً من هؤلاء، فقد علمت بعزمهم على العود إلى ديارهم، وعدولهم عن الطموح اليك، إلّا إذا وجد موفق منهم وسيلة لاكتسابك غير القرعة التي أوصى أبوكِ بها.

برسيا : لو عشت أطعنَ في السن من السيبيل لمتّ أطهر في ملمس عفّتي من ديانا، ولم أتزوج إلّا على الطريقة التي اختارها أبي. أنا مسرورة بما عند هؤلاء الخطاب من سرعة الادراك، ممتنّة لغيابهم جميعاً، داعية ربي لتوفيقهم في السفر.

نريسا : ألا تذكرين يا سيدتي أنك رأيت في حياة أبيك رجلاً متأدباً شجاعاً من أهل البندقية، زاركم مع المركيز دي منفرات.

برسيا : بلى، بلى، وكأني أتفطّن لاسمه... باسانيو... فيما أظن.
نريسا : أجل يا سيدتي، وأحسبه أخلق مَن رأيت بأن تهواه امرأة جميلة.
برسيا : أذكره جيداً، وهو جدير بمدحتك — (يدخل خادم) — إيهاً، ما وراءك ؟!
الخادم : الأجانب الأربعة يلتمسون أن يروك للاستئذان بالرحيل وجاء رسول من أمير مراكش يقول إن سيده سيفد الليلة.
برسيا : إذا قدّر لي أن أتلقّى الخامس بسرور يعادل سروري بوداع الأربعة الآخرين، ابتهجت بقدومه، على انه لو اجتمعت فيه بيضُ شمائل الأولياء إلى سواد وجه الشيطان لحبّذته كاهناً، ونبذته قريناً — هلمي نريسا — (للخادم) أنت تقدّمنا. بينما نحن نقفل الباب في وجه خاطب، إذا خاطب غيره يقرع الباب.

(تخرجان)

المشهد الثالث

البندقية — ساحة عامة

شيلوخ : ثلاثة آلاف دوقي — حسن بسن.
باسانيو : أجل يا سيدي لثلاثة أشهر.
شيلوخ : لثلاثة أشهر. حسن بسن.
باسانيو : بصك على أنطونيو كما أنبأتك.
شيلوخ : بصك على أنطونيو — حسن بسن.
باسانيو : أأعتمد عليك ؟ أتسعفني ؟ ما جوابك ؟
شيلوخ : ثلاثة آلاف دوقي، لثلاثة أشهر، بصك على أنطونيو !
باسانيو : ما قولك في هذا ؟

شيلوخ : أنطونيو كفءٌ لهذا القدر.
باسانيو : أعندك ريب ؟
شيلوخ : لا، لا. إذا قلت انه كفء، فالمعنى انه قادر على الوفاء. سوى ان مملوكاته ليست بثابتة. له سفينة في طريق طرابلس وثاني في طريق الهند، وسمعت عن ثالثة تيمّم المكسيك، ورابعة تنحو نحو إنجلترا، وعن سفين أُخر متوزّعة في آفاق أُخر. غير ان المراكب ليست إلّا خشباً، والملاحين ليسوا إلّا أناساً. دع أخطار الأمواج والأرياح والصخور. إلّا ان الرجل كفء للوفاء. ثلاثة آلاف دوقي. أظن انني أستطيع قبول صكه.
باسانيو : تستطيع ولا شك.
شيلوخ : سأنظر فيما إذا كنت قادراً، وأفكر في الأمر قبل البتّ فيه، أيتسنّى لي أن أكلم أنطونيو ؟
باسانيو : إن أحببت تناول العشاء معنا.
شيلوخ : نعم لتشتمَّ مني ريح الخنزير، وليدخل في جوفي ذلك الحيوان الذي دعا عليه نبيكم الناصري، فأسكن فيه الشيطان، حباً لكم إن تكن بيني وبينكم مبايعة أو مشاراة أو محادثة، أو مماشاة الخ. أمّا المؤاكلة، والمشاربة، والمشاركة في الصلاة فلا. ما أخبار التجارة في المصفق — مَن القادم ؟

(يدخل أنطونيو)

باسانيو : السنيور أنطونيو.
شيلوخ : (منفرداً) ما أظهر الرفض على وجهه المرائي بالتقوى. أبغضه لأنه نصراني، وخصوصاً لأنه جاهل أبله، يقرض المال بلا ربح، ويسقط قيمة النقد في البندقية. لئن أخذت بتلابيبه يوماً لقد شفيت حزازاتي القديمة منه. هو يبغض أمتنا المقدسة ويسخر — حتى في المصفق الذي يجتمع فيه التجّار عادة — مني ومن معاملاتي ومن أرباحي المحلّلة التي ينعتها بالرِّبوية. لعنت عشيرتي إن كنت غافراً له هذه الذنوب.
باسانيو : أسمعت ما أقول ؟
شيلوخ : كنت أحسب ما بين يدي من النقود، ويُخيَّل اليَّ — إن صدقت

ذاكرتي ــ انني لا أستطيع في الحال تجهيز ثلاثة آلاف دوقي كاملة. بل يخطر لي أن طوبال ــ وهو من أغنياء قومي ــ يجيبني إلى ما أطلب. لكن مهلاً، إلى أي أجل؟ (مخاطباً أنطونيو) عم صباحاً يا سيدي، كنا في ذكراك.

أنطونيو : شيلوخ. إنني على كوني لا أقرض ولا أقترض بربح أجدني مضطراً إلى مخالفة مألوفي قضاء لحاجة صديقي (الى باسانيو) أيعلم المقدار الذي تطلبه ؟

شيلوخ : نعم، نعم، ثلاثة آلاف دوقي.

أنطونيو : لثلاثة أشهر.

شيلوخ : كنت قد نسيت. لثلاثة أشهر كما قلت آنفاً. بصكّ منك. حسن بسن. لننظر قليلاً. لكن أما سمعت انك لا تأخذ ولا تعطي بالفائدة.

أنطونيو : بلى، والحق ما سمعت.

شيلوخ : عندما كان يعقوب يرعى سائمة[1] عمه لابان ــ ويعقوب هذا بفضل أمه الحكيمة هو الثالث من نسل سيدنا ابراهيم...

أنطونيو : علام تستشهد به ؟ أفتزعم أنه كان يقرض بالربا ؟

شيلوخ : لا لم يكن مقرضاً بالربا. لم يكن ذلك ما يفعله بحصر المعنى، وإنما كان المتفق عليه بينه وبين لابان ان كل الخراف التي تنتج معلمة بلونين، تجعل أجراً ليعقوب. فلمّا كان آخر الخريف وحالت النعاج، فالتمست ذكورها، خطر لراعيها الفطن أن يقتطع قضباناً يعرّيها من قشورها ويضعها تجاه النعاج وقت ضرابها، فنجم من رؤيتها أن النعاج نتجت حملاناً مخطّطة الجلود بلونين، وهذه الحملان حقّت ليعقوب. فهذه وسيلة من وسائل الكسب بارك الله ليعقوب فيها. وكل ربح ــ ما لم يجيء من السرقة ــ فهو حلال.

أنطونيو : كان يعقوب يخدم على كراء لا يسعه استزادته، ولا الانتقاص منه إلّا ما يشاء الله وما لا يستطيعه أحد سواه. أفتعد هذا مثلاً مبيحاً للربا ؟ وهل ذهبك وفضتك نعاج وكباش ؟

---

(١) سائمة: الماشية والابل والراعية.

شيلوخ : ما أدري، ولكنني أستنتجها بمثل تلك السرعة. تنبّه لهذا يا سيدي !
أنطونيو : وأنت يا باسانيو تفطّن، إن الشيطان يستطيع الاستشهاد بالتوراة لتصويب أعماله ! فما مثل النفس الشرّيرة التي تجيء بتلك الاستشهادات الصالحة إلّا مثلُ المجرم الذي يبتسم، أو الثمرة الناضرة التي لبّها متعفّن. ما أكثرَ الظواهر الخادعة التي تشبه الرذيلة بالفضيلة !
شيلوخ : ثلاثة آلاف دوقي — مقدار جسام. ثلاثة آلاف في اثنَي عشر ؟ لننظر : ما تكون فائدتها ؟
أنطونيو : مهما تكن.. أفتقضي حاجتنا ؟
شيلوخ : يا سنيور أنطونيو طالما صادفتني في مصفق الريالتو فسخرت من أعمالي المالية ومن مراباتي، فلم أقابل ذلك إلّا برفع الكتفين، وجميل الصبر لأن الألم هو إحدى الآفات التي خصّت بها أمتنا. وطالما نعتني بالكافر، أو الكلب الكلِب، وبصقت على عباءتي التي يعرف منها الناس يهوديتي، كأنك تعيبني لاستعمالي ما هو ملكي. أمّا الآن فيظهر انك في حاجة اليّ : « شيلوخ نريد منك نقوداً »، مَن يقول لي هذا ؟ أنت يا مَن ينفث في لحيتي لعابه، ويطردني من حضرته ركلاً، كما يطرد الكلب الأجنبي من عتبة البيت. تطلب مني مالاً ! فيم ينبغي أن أجيب أيحرز الكلب نقوداً ؟ أيُعقل أن كلباً يقرض ثلاثة آلاف دوقي ؟ أم يتعيّن عليّ أن أخرّ الى الذقن، وأن أردّ عليك بصوت خافت، وقلب خاشع : « يا مولاي الجميل ! يوم الأربعاء المنصرم بصقت في وجهي، ويوماً قبله طردتني ضرباً برجليك، ويوماً قبله دعوتني بكلب، فقياماً مني بحق تلك المكارم كلها سأقرضك نقوداً » ؟!
أنطونيو : من المحتمل أنك ستجدني مسمياً لك بتلك الأسماء، أو باصقاً في وجهك، أو طارداً إياك برجلي، فإن كنت راغباً في إقراضنا المال فلست دائناً به أصدقاء، وأنّى للصداقة أن تتولّد من حيث لا رحم ؟ أنت تقرض عدواً، فإذا أبطأ عن الإيفاء في الأجل، كنت في حلّ من تَخْريط القانون عليه بكل قوته.
شيلوخ : أنظر كيف تستشاط. أريد أن أكون صديقاً لك، وأن أحصل على عطفك، وأن أنسى ازدراءك إياي، وأن أقضي حاجتك الراهنة، بلا تقاضي

فائدة ما، وأنت تأبى سماع ما أعرضه عليك من جميل العرض.

أنطونيو : لو فعلت لبالغت في الإجمال.

شيلوخ : سأثبت لك مجاملتي ــ لنذهب إلى محرّر عقود فتخطّ الصك لديه، ومن باب المزاح سأستكتبك إقراراً بأنك إذا لم تدفع زُهاء ذلك الخط في يوم كذا بمكان كذا توجب لي عليك اقتطاع لبرة من لحمك في المكان الذي أختاره من جسمك...

أنطونيو : أوافق بارتياح على هذا الاقتراح، وسأوقع على الصك محّرراً بهذا النص، شاكراً لك هذه المجاملة اليهودية.

باسانيو : لن تخطّ خطًّا كهذا لأجلي أبد الدهر !

أنطونيو : لا تخشَ بأساً يا صفيّي، سأقوم بعهدي، فبعد شهرين، أي قبل الأجل بشهر، تردُني أوْساق[1] بثلاثة أضعاف هذا القدر.

شيلوخ : يا أبانا إبراهام ! هؤلاء النصارى عجب أمرهُم. ساءت فعالهم فقبحت بالناس ظنونهم. أنت مخبري ماذا أكسب من إنفاذ هذا الشرط إذا لم يفِ المدين بما عليه. الرطلُ من لحمِ رجل أقل قيمةً من رطل الضأن أو البقر أو الماعز. إنما أفعل هذا توسلاً به إلى مودّته، فإن رضي فبها ونعمت، وإلّا فأستودعكم الله راجياً ألا تبتغوني بشرّ من حيث أردت لكم الخير !

أنطونيو : أجل شيلوخ، سأوقع على هذا الصك.

شيلوخ : فتفضل وانتظرني لدى محرّر العقود، وقل له : أن يخطّ هذا الشرط المضحك. أمّا أنا فأمضي لجلب الدوقيات وإلقاء نظرة في بيتي الذي يحرسه ماهن[2] مكسال، لا ينبغي لرب البيت أن يستنيم لهمّته، ثم أدرككم.

(يخرج)

---

(١) أوساق: أحمال.

(٢) ماهن: خادم، عبد.

الفصل الثاني

المشهد الأول

بلمنت ــ قسم في قصر برسيا

(يدخل أمير مراكش مع أتباعه وبرسيا مع أتباعها ونريسا)
(معازف)

الأمير : لا تنفري من سمرة أديمي، فإنها مَسحة من جوار الشمس لي في مسقط رأسي. على أنك لو جئتني بأبهى رجل من أهل هذه الأقاليم الشمالية التي لا تكاد أشعة النهار تذيب صَقيعها لواقفته موقف الفِصاد، وأشهدتك مَن منَّا دمه أشد احمراراً ؟ ثم اعلمي يا سيدتي ان رؤيتي طالما أرعدت الشجعان، كما أنها ــ وحبك ــ طالما كانت قيدَ الأوابد من الحسان في أوانس بلادي. ولئن حداني شيء على التبدّل بلون مُشْرِقٍ من لوني القاتم لمَا كان إلّا ابتغائي رضاك يا مليكتي !

برسيا : لن أجعل إيثاري قائماً على ما تشهد به عيناي، وأنا في عهد طفولتي

واغتراري، بل أنا تابعة لحكم القرعة دون اختياري، ولولا أني مقيّدة بهذا القيد إنما جعلت به زوجاً للموفق في فطنته، لما كان بين الخطّاب الذين رأيتهم واحد أولى منك بعطفي.

الأمير : هذا كثير وأشكره لك... ثم أستزيدك جميلاً : ان تدلّيني على موضع تلك الصناديق، فأتبيّن بختي. حلفت بهذا الحسام الذي قتلت به صوفيًّا وصرعت أميراً أعجمياً، وأحرزت النصر العزيز في ثلاث وعكات جرت بيني وبين السلطان سليمان، لو اقتضاني غرامي أن أردّ كل سامي الطرف ناكس البصر، أو أن أكافح كل قرم[1] عنيد قهّار شديد، بل لو سامني انتزاع رضيع الوحش الضاري عن ضرع أمه، أو مناوأة الضيغم الهصور وقد استفزّه القرم، لفعلت طمعاً في الظفر بك، ولكنه — واحربا — أمر منوط بالمقادير، والمقادير ربما سدّدت سهم الضعيف وأطاشت سهم القدير، وربما أدنت حظّ الآجر وأعلت حظ الأجير، فههنا مجال المكره، لا البطل، وإني لأخشى أن أخفق حيث يفوز مَن هو دوني فأموت بشجوني.

برسيا : أمامك اثنان لا ثالث لهما، إمّا أن تعدل وإمّا أن تصيب ما يقضي به لك الصندوق الذي تعيّنه، هذا بعد أن تقسم على انك إن أخفقت لم تتخذ لك زوجاً بقيّة عمرك. تفكر ثم تخير.

الأمير : رضيت بهذين الشرطين. لنمضِ فأعلَم ما يقضي به طالعي.

برسيا : بل نذهب أولاً الى حيث تحلف يمين الموافقة، وبعد العشاء تشرع في الخيرة.

الأميرة : أسأل الله إنجاح قصدي فإني بعد هذا الاقتراع : إما أسعد الخلق، وإما أتعسهم.

---

(١) قرم: سيّد، عظيم.

المشهد الثاني

البندقية ــ جادّة

(يدخل لنسلو جوبو)

لنسلو : ضميري يحتّم عليّ أن أترك خدمة اليهودي مولاي. والشيطان على مقربة مني، يخادعني بقوله : جوبو، لنسلو، يا صديقي لنسلو، أو صديقي جوبو، أو يا صفيّي لنسلو جوبو، أعمل فخذيك، وانجُ بنفسك. ثم يقول لي ضميري : حذار يا لنسلو النزيه، حذار يا جوبو المستقيم، أو كما كنت أقول آنفاً : أيها النزيه لنسلو جوبو لا تبرح، وترفع عن إجهاد فخذيك في الهزيمة. إلّا انه ــ أي الشيطان ــ لا يلبث أن يعيد عليّ نصيحته بالارتحال متشدّداً فيها مهيباً لي : « أقلع. تشجّع. أنجُ بنفسك ». عندئذ يعلق ضميري برقبة فؤادي، ويقول لي عن حكمة : « يا صديقي لنسلو القويم. ابن الرجل المستقيم وابن المرأة المستقيمة » ــ ذلك ان والدي كان يذوق الثمرة التي بين يديه ولا يخلو من سلامة في الذوق. عندئذ يقول ضميري : « البث لنسلو »، فيقول الشيطان : « فراراً » فيقول الضمير : « إياك » فأقول لأحدهما : « يا ضميري حسنت نصيحتك ». ثم أقول للآخر : « أيها الشيطان أين الصواب من مشورتك ». لو جاريت الضمير لأقمت مع اليهودي الذي هو ــ أستغفر الله ــ ضرب من الشيطان، ولو فارقت اليهودي لأصبح زمامي في يد الشيطان الذي هو ــ ولا مؤاخذة ــ الشيطان بعينه، أو هذا اليهودي بشخصه. وبذمّتي إن ذمّتي لتركب الشطط حين تنصح لي بالمكث عند اليهودي. إنما الشيطان هو الذي ينصح لي نصيحة الصداقة. سأفرّ، سأفرّ. أمرك مطاع أيها الشيطان !

(يدخل جوبو العجوز حاملاً سلالاً)

جوبو : يا سيدي الفتى، أين الطريق التي توصل الى بيت اليهودي ؟
لنسلو : (منفرداً) يا لله ! هذا أبي، والدي بالحلال ولم يعرفني لشدّة حَسَره ! سأختبره اختبار مداعبة.
جوبو : يا سيدي الفتى، أين الطريق التي توصل الى بيت اليهودي ؟
لنسلو : عندما تصل الى العطفة الأولى تحيد يميناً، فإذا بلغت العطفة الثانية تحيد شمالاً، ثم تدرك العطفة الثالة، فهناك لا تحيد الى جهة من الجهات وتتجه بانحراف الى بيت اليهودي.
جوبو : يا فيض الله، هذه طريق لا تسهل معرفتها. أأنت مخبري إن كان الفتى مقيم معه ــ واسمه لنسلو ــ مقيماً معه أم لا ؟
لنسلو : أتسأل عن المسيو لنسلو الأصغر (منفرداً) تأملوا فيّ الآن سأستدرّ المياه ــ أتسأل عن المسيو لنسلو الفتى ؟
جوبو : لا يا سيدي، ولكن عن ابن رجل فقير أنا أبوه ــ وإن كنت أنا مدّعي هذه الدعوى، رجل مستقيم معسر، مدقع، لكنه ــ بحمد الله ــ حسن السيرة والأخلاق.
لنسلو : لا يهمّنا أبوه كائناً مَن كان، وإنما نتكلم على لنسلو الأصغر.
جوبو : اجل بإذنك، نتكلم على لنسلو.
لنسلو : لا تتكلم على لنسلو ايها الشيخ بعد الآن، فإن ذلك الشاب قد أذن به الدهر او القدر او اي مسمى آخر بأسماء الصروف الصارمة لحبال الآجال من علمية وغير علمية فمات موتاً، او بعبارة أشيع في العامة ذهب الى السماء.
جوبو : اعفاني الله من هذا المصاب، فالفتى هو سندي، وحيدي عكاز شيخوختي.
لنسلو : أظاهرِ عليّ انني أشبه عصاً او هراوة او دعامة خيمة أتبينتني يا أبي؟
جوبو : لا يا سيدي الفتى، لكن أرجو أن تقول ولدي (رحمه الله) حيّ أو ميت.
لنسلو : ألم تعرفني يا أبتِ؟
جوبو : أسفاً يا سيدي إن نظري ضعيف ولم أتبيّنك.

لنسلو : لو كان بصرك سليماً... ومن هو في الآباء ذلك الفطن الذي يعرف ابنه... ايها الشيخ. سأعلمك بأنباء نجلك. باركني (يجثو) ينبغي ان يبرح الخفاء. القتل لا يخفي دهراً ولكن انتساب الولد لأبيه قد يستسر طويلاً ثم تنجلي الحقيقة.

جوبو : أرجو يا سيدي ان تنهض، فإني موقن انك لست بلنسلو ولدي.

لنسلو : لا تتماد أكثر في هذا المزاح، باركني، أنا لنسلو غلامك سابقاً ونجلك الآن، وابنك إلى الأبد.

جوبو : لا أصدق انك ابني.

لنسلو : لا أدري ما الذي يحسن بي اعتقاده في هذا المعنى، لكنني انا لنسلو الماهن لدى اليهودي، وعلى ثقة لا ريب فيها من ان امرأتك مرغريتا هي أمي.

جوبو : اسمها في الحقيقة مرغريتا، غير اني لم أكن لأقسم انك لنسلو من لحمي ودمي. تبارك الله ما هذه اللحية التي صار الشعر فيها اكثر منه في ذنب « دوبين » حصاننا الجرار.

لنسلو : اذن شعر دوبين ينمو خلافاً، لأنني في آخر ما رأيته كان الشعر في ذنبه أكثر منه في ذقني.

جوبو : لقد تغيَّرتْ. كيف حالك مع مولاك — انا قادم اليك بهدية أعلى وفاق انتما؟

لنسلو : على المرام، على المرام. لكنني انا قد عزمت على الهزيمة إلى أبعد ما أستطيع عن ذلك اليهودي القحّ. أتهاديه؟ أولى لك ان تضع حبلاً في عنقه وتشدّه. أماتني جوعاً، وهذه أضلاعي تقدر ان تعدّها بأصابعك. يا ابت انا مسرور بمجيئك. آثر بهديتك سيدّاً يدعى باسانيو. فإنه يلبس خادمه خلعاً فاخرة نفيسة، فإن لم يتيسر لي ان يستخدمني هذا السيد، لبثت أفرّ ما دام في الأرض طول وعرض. يا لسعد طالعي ! ها هوذا آت بنفسه. كلّمه يا أبي وإلا فإني إذا استمررت تحت أمر اليهودي صرت يهودياً.

(يدخل باسانيو يليه ليوناردو وبعض خدم)

باسانيو : (مخاطباً خادماً) ليكن. قبلت. لكن ينبغي الإسرع ليتسنى تهيؤ

الطعام الساعة الخامسة. احرص على إيصال هذه الرسائل. أوص بالخلع الجديدة. قل لغراتيانو ان يجيئني بعد حين.

لنسلو : كلمه يا أبي.

جوبو : ليبارك الله في سيادتك.

باسانيو : شكراً جزيلاً. أتبغي مخاطبتي في شيء؟

جوبو : هذا غلامي يا سيدي، وهو غلام فقير.

لنسلو : لست فقيراً يا سيدي، ولكنني ماهن لدى اليهودي الغني، وملتمسي هو ما سيعرضه والدي لسيادتك.

جوبو : هو مريض تشوقاً لخدمة...

لنسلو : بلا تطويل ولا تقصير، انا في خدمة اليهودي، وأتمنى ما سيعرضه أبي...

جوبو : ولا يخفى على سيادتكم ان اليهودي وهذا الغلام ليسا بابني عم، بمعنى انه...

لنسلو : بعبارة موجزة: اليهودي أساء التصرف في حقي، وهذا هو السبب في الأمر الذي سيقترحه والدي الذي هو ـــ كما أرجو ـــ طاعن في السن!

جوبو : انا حامل الى سيادتك بضعة أزواج من الحمام، هل لك في قبولها؟ والتماسي هو...

لنسلو : الخلاصة ان هذا الطلب جائز القبول، كما سيذكره لسيادتك هذا الشيخ المستقيم، الذي هو فقيرٌ، وفوق ذلك هو والدي...

باسانيو : ليتكلم أحدكما عن الآخر. ماذا تريدان؟

لنسلو : ألتمس الدخول في خدمتك يا سنيور.

جوبو : هذا كل ملتمسنا.

باسانيو : (إلى لنسلو) أعرفك جيداً وأجيب طلبك. كان شيلوخ يكلمني عنك في هذا اليوم، وسيكون له الفضل في رقيك إن كان من الرقي الانصراف عن خدمة يهودي موسر، إلى خدمة شريف معسر.

لنسلو : صدق المثل القديم، لقد تقاسمتما النعمتين أنت وشيلوخ : له الأولى، ولك الأخرى.

باسانيو : صدقت (إلى جوبو) اتبع غلامك ايها الوالد الصالح (إلى لنسلو) اذهب فاستأذن مولاك السالف، ثم استفهم عن داري (إلى خدمه) ألبسوه خلعة أبهج زينة من خلع رفاقه...

(يناجي ليوناردو)

لنسلو : يا أبي أصبح الخَرْج في الخُرج انا لا أعرف كيف تلتمس الخدمة، ولا كيف يستعمل اللسان (ناظراً يده) أما يدي فأية يد ممتدة للقسم على التوراة في جميع إيطاليا تتشبه بها؟ سأكون سعيد الطالع... لا جرم. هذا الخط يدل على طول البقاء كما أرجو. وهؤلاء، في جانب الزواج، نسوة شائقات، لكنهن لسن بكثيرات، وماذا تكون؟ خمس عشرة امرأة، وإحدى عشرة أيِّماً[1] وتسع بنات. هل هنّ زيادة عن الكِفاء للرجل المستقيم. هذا عدا نجاتي ثلاثَ مرار منَ الغَرق. ومرة من هلكة السقوط عن حافة فراش من الريش. على ان هذه النجاة الأخيرة ليسة بعجيبة. ولكنها نجاة، ولئن كانت السعادة امرأة فلا شك انها أحسنت عجن المادة التي فتلت لي منها هذه الخيوط. تعال يا أبي، سأستأذن اليهودي في طرْفة عين.

(يخرج لنسلو وجوبو)

باسانيو (مخاطباً ليوناردو) : أتضرع اليك أيها العزيز ليوناردو. تنبه لهذا، ومتى اشتريت تلك الأشياء ورتبتها عُدْ وشيكاً، ليتم بك أنسنا الليلة، في مجلس شراب سيشهده عندي أكرم أصدقائي. اذهب. بادر.

ليوناردو : سآتي بأحسن ما أستطيع.

(يدخل غراتيانو)

غراتيانو : (مخاطباً ليوناردو) اين مولاك؟

ليوناردو : ها هو ذا يتمشى هناك (يمضي ليوناردو).

غراتيانو : (جهراً) سنيور باسانيو...

باسانيو : (ملتفتاً) غراتيانو.

---

(١) الأيم: من فقد زوجته أو من فقدت زوجها.

باسانيو : إذا أصررت لم أخالف، لكن سمعاً يا غراتيانو: من مألوفك أن تتكلم بلا احتراس، وتجهر بالصوت. فهذا ليس بعيب فيما بيننا، ولكن ربما لم يحسن حيث تكون مجهولاً ـ فتكرّم ولطِّف حدة طبعك، بأن تضع فيها بعض نقط من الاحتياط، والتواضع، وإلا فربما جلبت خطتك عليّ ما يضر بي في رأي الأناس الذي أقصدهم، بل ربما قوّضت أمالي.

غراتيانو : أنصت يا سنيور باسانيو: إذا لم تجدني ثمة معتدلاً في سيري، متكلماً بوداعة، ممتنعاً عن ألفاظ الهجر إلا أحياناً، ممسكاً بكتب الأدعية والتلاوات الدينية، جاداً في كل مقام، جاعلاً في أوان الصلاة قبعتي نصبَ عينيّ هكذا، فمتنهداً، فقائلاً: آمين، مراقباً كل مصطلحات الأدب على نحو ما يفعل اليافع الذي يحاول إرضاء جدته... إذا لم تجدني فاعلاً كل ما ذكرت فلا كانت لك بي ثقة، ولا كان لك عليّ معوّل.

باسانيو : رضيت، وسأرى المنهج الذي تنهجه.

غراتيانو : لكنني أستثني مجلس الليلة وما سيجري فيه.

باسانيو : خسارة في مثل هذه الليلة ان تفقد طلاقتك، بل ينبغي ان ترتدي أحسن أزياء الابتهاج فيكتملَ بك سرور الإخوان أفضل ما كانوا استعداداً لذلك. سأتولى عنك الآن لقضاء بعض الشؤون.

غراتيانو : وانا أنتظر هنا لورنزو ورفقاءه ثم نجيئك جميعا في ساعة العشاء.

المشهد الثالث

نفس المدينة ـــ مزارة في بيت شيلوخ

(تدخل جسيكا ولنسلو)

جسيكا : انا متكدرة لتركك أبي، وستكون لك وَحشة في هذا البيت الجهنمي، الذي كنت تؤنسه أحياناً. امض مزوّداً، وهذا دوقّي هبة. لنسلو سترى لورنزو بين مدعوي سيدك الجديد للعشاء فأعطه هذه الرسالة، لكن سرًّا. اذهب. لا ينبغي ان يراني أبي أحدثك.

لنسلو : وداعاً، واليك هذه العبرات بدلاً من العبارات. يا لك من وثنية ساحرة، بل يهودية شائقة! لئن لم يكن واحد من هؤلاء النصارى ساعياً مسعاة اللص للفوز بك، إني إذن لغرّ. لكن هذه الدموع قد استغرقت شجاعتي، وأذابت صلابتي. استودعك السلامة.

(يخرج).

جسيكا : (منفردة) اذهب معافى يا لنسلو. ما أظلمني لأبي بخجلي من انتسابي اليه! لكنني مخالفة له في الطبع، وإن كان الدم واحداً. اي لورنزو إذا صدقت بوعدك فررت اليك من هذا المعترك الأليم، فصبأت[1] عن ديني، وبت على مذهب قريني.

(تخرج)

(١) صبأ: خرج من دين إلى دين آخر.

المشهد الرابع

المدينة عينها ــ جادَّة

(يدخل غراتيانو ــ لورنزو ــ سالارينو ــ سالانيو)

لورنزو : أجل سنتسلل في أثناء الوليمة فنغير أزياءنا في داري، وبعد ساعة نعود.

غراتيانو : لم نستوف أهبتنا.

سالارينو : لم نتكلم بعد عن موكب المشاعل.

سالانيو : بئس الاختراع، إلا إذا صفف بإبداع، وعندي ان الاستغناء عنه أفضل.

لورنزو : الساعة إنما هي الرابعة الآن ولدينا فسحةُ ساعتين لإعداد كل شيء.

(يقدم لنسلو بكتاب)

لورنزو : (متمماً) ما أخبارك يا صاحبي لنسلو؟

لنسلو : إن شئت ان تفتح هذا الكتاب علمت.

لورنزو : تبينت الخط، وهو جميل، حررته يد بيضاءُ أنصع من هذا الطرْس.

غراتيانو : ألوكة[1] غرام ولا ريب.

(لنسلو متأخراً للانصراف)

لنسلو : بإذنكم يا مولاي.

لورنزو : إلى أين !

---

(١) ألوكة: بمعنى حديث، رسالة.

لنسلو (معطياً إياه كيساً) : مهلاً، خذ هذا. قل للعزيزة جسيكا إنني سآتي في الميقات. قل لها ذلك سرًّا. انصرف.

(يبتعد لنسلو)

لورنزو : (متمماً) ايها السادة: أتريدون ان نتأهب لمهرجان السخرية في هذا المساء؟ قد تيسر لي حامل مشعل.

سالارينو: سأمضي من فوري.

سالانيو : وأنا أحذو حذوك.

لورنزو : أدركاني وغراتيانو في دار اليهودي بعد ساعة.

سالارينو : لن نتخلف.

(يبتعد سالارينو وسالانيو)

غراتيانو : ألم يكن الكتاب من جسيكا الجميلة؟!

لورنزو : يجب أن أطلعك على كل سر. بعثت تسألني كيف اختطفها من بيت أبيها؟ وكيف تنجو بما ستحمله من الذهب والحجارة الكريمة؟ وتخبرني انها استصنعت خلعة وصيف لتختفي بها على الرقباء. لو تقبل الله أباها يوماً في السماء لتم له ذلك بشفاعة تلك الكريمة الحسناء، ولو استجاز مصاب ان يعترض سبيلها لما ترخّص لذلك إلا من كونها ابنة يهودي بلا إيمان. هلمّ بنا واقرأ هذه في الطريق. ستكون جسيكا حاملة مشعلي.

(يخرجان)

المشهد الخامس

البندقية ــ امام بيت شيلوخ

(شيلوخ ولنسلو)

شيلوخ : سترى عما قليل بعينيك سعة الفرق بين شيلوخ العجوز وباسانيو (يدعو) جسيكا ــ لن تأكل الحلوى بشراهة كما كنت تخْلو لي عندي ــ جسيكا ــ لن تقضي معظم وقتك في النوم والغطيط وتمزيق ثيابك ــ جسيكا أتحضرين؟

لنسلو : (منادياً) جسيكا.

شيلوخ : من كلفك ان تدعوَها؟

لنسلو : طالما وبختني لأنني لا أصنع إلا بأمر.

(تجيء جسيكا)

جسيكا : أتدعوني، ماذا تريد مني؟

شيلوخ : سأتعشى اليوم خارجاً يا جسيكا. هذه مفاتيحي. لكن علام أذهب؟ لم يدعوني عن حب ــ مأربٌ لا حفاوة ــ بل أذهب انتقاماً منهم لآكل من نفقة ذلك النصراني المسرف. بنيّتي جسيكا راقبي الدار. سأتغيب برغمي خائفاًمن كيد يكاد لي، لأنني رأيت أكياس فضة في منامي أمس.

لنسلو : أضرع اليك يا سيدي ان تذهب، فإن مولاي الجديد قد عوَّل عليّ وعدك.

شيلوخ : وانا معَول على وعده كذلك.

لنسلو : ولقد أضمروا شيئاً لهذه الليلة، وأسرّوا النجوى فيما بينهم. لن أبوح بما أخفوه، لكنك إذا رأيت الليلة مهرجان أناس متنكرين لم يكن ذلك إلا مصداقاً لرُعاف أنفي يوم الاثنين المنصرم المعروف في التاريخ باليوم الأسود

في الساعة السادسة صباحاً، على حين ان الرعاف الذي جرى لي قبله إنما كان في يوم أربعاء الرّماد نحو الأصيل.

شيلوخ : سيتنكرون؟ اسمعي يا جسيكا. غلّقي الأبواب بإحكام وإذا سمعت طبلاً وزمراً نزاز النغم فحذار ان تذهبي إلى الكوّة، او ان تطلي بوجهك على الجمهور لترى الوجوه المستعارة التي يطوف بها أولئك النصارى البلهاء. أقفلي آذان داري « النوافذ »، ولا تصل ضوضاء أولئك المجانين إلى بيتي الساكن الأمين. قسماً بعصا يعقوب إنني ذاهبٌ في هذا المساء إلى تلك الوليمة بكرهي وبلا أدنى رغبة مني لكنني سأذهب (إلى لنسلو) اسبقني وقل إنني قادم.

لنسلو : سأسبق يا سيدي (بصوت منخفض جسيكا) لا يمنعك هذا من التطلع فربما جاءك نصراني موعود، خليق بمودة كرائم اليهود.

(ينصرف)

شيلوخ : ماذا يقول هذا الغر من نسل هاجر؟

جسيكا : قال وداعاً يا مخدومتي ولم يزد.

شيلوخ : غلام لا بأس به. لكنه أكول نهم بطيء في العمل، نؤوم كالسنور البريّ، أنا لا أحب الزنابير في خليتي، ولهذا طبت عنه نفساً لغيري، فليعن مولاه الجديد على إنفاق المال الذي أقرضه إياه بسرعة. عودي يا جسيكا، ولعلي لا ألبث أن أرجع. افعلي ما أوصيتك به. غلقي الأبواب. « من احتبس، لم يحترسْ » ! هذا مثل دائم الحضور في ذهن المقتصد.

(يبتعد)

جسيكا : استودعك الله. ولئن تحقق ما نويت لقد فقدت أبي وفقدت انت ابنتك.

(تبتعد)

المشهد السادس

عين المكان

(يدخل غراتيانو وسالارينو متنكرين)

غراتيانو : هذا هو الرواق الذي أوعز الينا لورنزو ان ننتظره في فيئه
سالارينو : مضت الساعة او كادت.
غراتيانو : عجيب ان يتباطأ وما هذا شأن العاشقين؟
سالارينو : من غادة حمائم الزّهرة ان يطرنَ إلى عقد مودات جديدة بأسرع مراراً مما يجشمن للبقاء على مودة قديمة.
غراتيانو : ستكون الحال أبداً هكذا: اي الضيوف وقد فارق المائدة تكون شهوته للطعام كما كانت حين جلوسه اليها ؟ أي جواد إذا رُدَّ في الطريق الوعرة التي جازها من قبل، لا يتباطأ في الرجوع؟ في كل أمور هذه الدنيا نحن أنشط حين نسعى إلى المطلوب منا حين نتمتع به، انظر إلى الفُلك إذ تفارق مرفأها الأصلي فراق الولد الشاطر لبيت أبيه، فتنشر رايتها الزاهية الألوان، يداعبها الهواء دعاب الهوى، ثم انظر اليها تعود عودَ ذلك الولد الشاطر ملويةَ الأضلاع ممزقة الشراع مهدمةَ الجوانب بفعل النسيم الفاسق (يجيء لورنزو) هذا لورنزو سنستأنف الكلام في هذا.
لورنزو : يا أصدقائي الأعزاء، اغفروا لي ابطائي المملّ، فإنما أعمالي التي سببته. وإني لأعدكم، بأن أنتظركم ما شئتم حين يخطر لكم أن تختطفوا عرائس (يتقدم) هذا بيت اليهودي نسيبي هيا، أأحد هنا !
جسيكا : (بملابس الوصيف تنظر من النافذة). من أنت! تسمّ لأزداد طمأنينة، وإن عرفت الصوت.
لورنزو : حبيبك لورنزو.

جسيكا : لورنزو محق، حبيبي بلا ريب. ألي عندك مَن الهوى ما لك عندي؟
لورنزو : السماء وقلبك يشهدان بصدق غرامي.
جسيكا : (ملقية صندوقاً) تناول هذا الصندوق. فيه ما يستحق هذا العناء. انا فرحة بأن الوقت ليل، وأنك لا تستطيع رؤيتي، لأنني خجلة من تنكري بهذا الملبس. إنما الغرام أعمى، وليس للمتحابين ان يروا هم آثار جنونهم، إذ لو قدروا على استجلاء الحقيقة لخجل الغرام نفسه من تشكلي بهذا الشكل.
لورنزو : انزلي فقد جعلتك حاملة مشعلي.
جسيكا : ما تقول؟ أبيدي أحمل النور الذي يكشف فضيحتي، على كونها أجدرَ بالإخفاء لشدة وضوحها. لا بد لي من الاستتار.
لورنزو : حسبك استتاراً يا حبيبتي في ثوب الوصيف، أسرعي لأن الليل يتقدم ونحن منتظرون في وليمة باسانيو.
جسيكا : سأقفل الأبواب وأجلب ما أستطيعه من الدوقيات.

(تتوارى من النافذة)

غراتيانو : حلفت بقبعتي إنها لطيفة وليست يهودية.
لورنزو : أقسم لكم إنني أحبها بكل جوارحي، لأنها حصيفة متبصرة ــ على ما أستخلص، ولأنها جميلة ــ على ما أرى، ولأنها مخلصة ــ على ما تبينت، فبالنظر إلى كونها فتاة عاقلة حسناء طاهرة، قد أقررت منزلتها في قلبي مدى العمر (تحضر جسيكا) سرعان ما حضرت. لننصرف يا سادة. إن اخواتنا المتنكرين ينتظروننا.

(يذهبون إلا غراتيانو ويحضر أنطونيو)

أنطونيو : من الشخص؟
غراتيانو : ألست السنيور أنطونيو.
أنطونيو: أف يا غراتيانو! أين الآخرون. الساعة التاسعة. وأصدقاؤنا في الإنتظار. ستتلف زينة الليلة لأن العواصف هبت وباسانيو مبحر بعد هنيهة، وقد أرسلت عشرين نفساً في طلبكم.
غراتيانو : حبذا ما تبشرني به فلا شيء أحب إليَّ من الإقلاع، ولو في مثل هذا الليل.

(ينصرفان)

المشهد السابع

بلمنت ـ مزارة في قصر برسيا

(صوت معازف ـ تدخل برسيا وأمير مراكش وتبعهما)

برسيا : لترفعْ هذه الستارة، وليدلل هذا الأمير النبيل على الصناديق الثلاثة (يرفع الحجاب وتظهر الصناديق، أحدها ذهب، والثاني فضة، والثالث رصاص) الآن تخيّر.

الأمير : (متأملاً) الأول من ذهب ومكتوب عليه:

مـــن اصطفانـــي فقدمـــاً تمـــنت النـــاس وصلـــي

الثاني من فضة ومكتوب عليه:

مـــن انتقانـــي فإنـــي أهـــل لـــه وهـــو أهلـــي

الثالث من رصاص ومكتوب عليه:

مـــن ابتغانـــي فأعـــززْ بمـــا يهيـــن لأجلـــي

كيف أعلم أنني أحسنت الانتقاء؟

برسيا : أيها الأمير في أحد هذه الصناديق رسمي، فإن اهتديت إلى الصندوق الذي هو فيه فإني لك.

الأمير : لينطقني الله الصواب. سأعيد قراءة الأبيات المنقوشة بادئاً من أخيرها:

مـــن ابتغانـــي فأعـــزز بمـــا يهيـــن لأجلـــي

علامَ المجازفةُ بكل شيء: أللحصول على رصاص؟
هذا الصندوق مشؤوم الطالع. الرجل الذي يخاطر بكلِ شيء جدير بأن يتطلب من وراء ذلك فوائد وافية. النفس العالية لا تتدانى لالتماس مثل هذه المادة المستخسة. ماذا يقول صندوق الفضة؟

مــــن انتقانــــي فإنــــي أهــــل لــــه وهــــو أهلــــي

قف قليلاً يا أمير مراكش. زن قيمتك وزْن إنصاف. لو رجعت في الحكم إلى ما تقوّم به نفسك لأغليت. ولكنك مهما تغالِ، وتكن على حق، فربما لم تكن بالغاً من القدر ما يؤهلك لهذه الغيداء، على أنني لو نظرت من جهة أخرى لما جاز لي الارتياب في قدري، ولا الإزراء على نفسي. ما أستحق؟ انا كفءٌ لهذه الحسناء بمحتدي[1] وبجاهي، وبجمال ملامحي، وأدبي، وخصوصاً بحبي. لعل الهدى في وقوفي ههنا؟ بل لنقرأ ما على صندوق الذهب:

مــــن اصطفانــــي فقدمــــاً بمــــنت النــــاس وصلــــي

معناه ان كل إنسان يتمنى ربة هذا القصر، وان الخطّاب من كل أطراف الدنيا يسعون لتقبيل الوعاء المشتمل على هذه الحوراء الدنيوية. فمن جهة قد تحولت فدَافدُ[2] أركانيا وفيافي بلاد العرب إلى مسالك يسلكها الأمراء قادمين من كل صوب لمشاهدة جمال برسيا، ومن جهة ثانية قد أصبحت مملكة الماء التي تشمخ بأمواجهن إلى السماء غيرَ مانعة من توافد الأجانب يجوزونها كما تجاز الأنهار الصغرى، ليشاهدوا جمالُ برسيا. في أحد هذه الصناديق الثلاثة رسمها المعشوق، أيحتمل كونه في صندوق الرصاص؟ من الإثم هذا الظن. وذلك الجسم لا يليق ان يوضع، حتى بعد الوفاة، في مثل هذا المعدن الحقير. أفيكون الرسم إذاً في الفضة، وقيمة الفضة أقل عشرة أضعاف من قيمة الذهب الخالص. وهل يعقل ان توضع لؤلؤة غالية هذا الغلاء في شيء أدنى من الذهب؟ توجد في انجلترة سكة مصور عليها ملك، ولكن

---

(١) محتدي: أصلي، شرفي.

(٢) فدافد: المكان الغليظ، المرتفع.

الملك على ظاهرها، أما ههنا فالملك في ضمن مهد من الذهب. أعطوني المفتاح قد استخرت الله.

برسيا : هذا مفتاحه يا أمير، فإن كان رسمي فيه فإني جاريتك.

الأمير : (بعد فتح صندوق الذهب) ــ يا للعنة! ماذا أرى؟ هيكل ميت! وفي عينه الفارغة قرطاس؟ لنقرأ ما في القرطاس:

قل كائناً من كنت عن ثقة   ما كلُّ براق من الذهب
عظة هي الكنز النفيس فلا   بدع إذا ثبتت على الحقب
لو كان رأيك غير مختلط   في حين شعرك غير مختضب
ما عدت هذا العود في ندم   وبمثل هذا الرد لم تُجَب

(بعد قراءة الأشعار يقول متمماً).

لقد أضعت وقتي. وداعاً أيها الغرام المحرق! سلام عليك أيها القلب الذي لا يكترث! لقد أثخنت جراحي يا برسيا، ولكن لا أطيل العتاب، بل أصرف كما يليق بمن قامر فخسر.

(يخرج)

برسيا : لقد نجونا منه والحمد لله. أسدلوا الأستار، ولا كان اختيار مشاكليه في اللون إلا كاختياره.

المشهد الثامن

البندقية ــ جادة

(يدخل سالارينو وسالانيو)

سالارينو: أيها الصفيّ سالانيو، رأيت باسانيو مقلعاً، يصحبه غراتيانو، وأنا موقن أن لورنزو لم يكن في سفينتهما.

سالانيو : ذلك اليهودي الفاجر أيقظ الدوج بصخبه وصراخه، فذهب الى سفينة باسانيو وفتش فيها.

سالارينو : جاء بعد أن أقلع المركب، لكنه سمع أن لورنزو وعشيقته جسيكا شوهدا معاً في زورق، ووكد له انطونيو توكيداً لا يحتمل الريب أنهما لم يكونا في سفينة باسانيو.

سالانيو : لم أرَ قط سخطاً أشدّ التباساً وغرابةً وجنوناً من سخط ذلك اليهودي السافل، الذي كان يطوف الأسواق منتحباً صائحاً: بنتي. دوقياتي. وابنيتا. فرت مع مسيحي. وادنانيري المتنصرة! الإنصاف باسم القانون. دوقياتي. بنتي. كيس. بل كيسان من الدوقيات، فرادي ومزدوجات اختلستهما سليلتي واحترست بجانبهما مصوغات جمة وألماستين نادرتين ثمينتين. ذلك سرقته ابنتي وكل ذلك معها الآن.

سالارينو : الأدهى أن صبية البندقية يتعقبونه صائحين: ألماساتي. بنتي. دوقياتي.

سالانيو : أخشى ان يتأخر انطونيو عن الوفاء في الأجل فيغرم قيمَ هذه المسروقات كلها.

سالارينو : ذكرتني ــ حين ينفع التذكير ــ أمراً سمعته أمس من أحد الفرنسيين وهو أن مركباً من مراكب بلدنا مشحوناً شحناً غالياً قد ارتطم في المضيق الذي بين فرنسا وإنجلترة، فلما طرق أذني هذا الخبر فطنت لأنطونيو وتمنيت سرًّا ألا يكون ذلك الموسوقُ من مراكبه.

سالانيو : ما أجدرك ان تبلغ أنطونيو ما سمعته، ولكن مع المراعاة التي تلطف موقعَ الخبر من نفسه

سالارينو : ما من رجل في العالمين أصدق وداداً من أنطونيو. حضرت وداعه لباسانيو وسمعته يقول له: « لا تعجّل عودتك كما تقول، ولا تهمل شؤونك من أجلي، بل امكث ما دعت الحال. أما صكّ اليهودي فلا تخطره على بالك، ولا يشغلك عن غرامك. كن فرحاً واقصر همك على إرضاء من تحب بأجمل ما تستصلح من الأساليب »، وبعد ذلك صافَحَه بقوة ممتنعاً من النظر اليه، لأن عينيه كانتا مغرورقتين بالدموع، ثم تفارقا.

سالانيو : أعتقد انه إنما يعيش لخدمة صديقه. لنذهب اليه فنحاول بما في وسعنا من الوسائل ان نخفف من تلك الكآبة التي لا تفارقه.

سالارينو : هلم، هلم.

(يخرجان)

المشهد التاسع

بلمنت ــ مزارة في قصر برسيا

(تدخل نريسا يتبعها خادم)

نريسا : أرجو ان تسرع بإماطة الحجاب فقد خلف أمير أراغون يمين الموافقة على الشرط وسيحضر عما قليل للتخير.

(صوت أبواق)

(يدخل أمير أراغون وبرسيا وحشمهما).

برسيا : هذه هي الصناديق، أيها الأمير النابه، إذا اخترت منها ما فيه رسمي عقد لك عليّ فوراً، وإن أخطأته كان عليك يا مولاي ان تنصرف من هذه الديار دون ان تنبس ببنت شفة.

الأمير : القسم يقتضي ثلاثة شروط : أولها ألا أخبر أحداً بالصندوق الذي وقع عليه اختياري، وثانيها إذا لم أضع يدي على الصندوق الرابح ان أمتنع من الزواج بتاتاً بعد ذلك، وثالثها إن لم أوفق لما جئت في التماسه ان أعود أدراجي من ساعتي بلا اعتراض.

برسيا : هذه هي الشروط.

الأمير : أنا مستعد لها، فأسعدني أيها البخت، وحقق آمالي منعماً. أمامي الذهب والفضة والرصاص، ماذا يقول الرصاص؟

مـــــن ابتغانـــــي فأعـــــزز بمـــــا يهيـــــن لأجلـــــي

شكللك لا يعد بشيء يخاطر عليه. ماذا يقول صندوق الذهب؟ لنقرأ ما هو ذلك الشيء الذي يتمناه الأكثرون. لا نزاع في أنهم يعنون بالأكثرين جمهور العامة الذين تغرُّهم الظواهر، لاكتفائهم بشهادة النظر عن تبطن السرائر فهم كالخُطاف الذي يبني أعشاشه فيما برز من أعالي الجدران، فيتعرض بذلك للطوارىء والآفات. لن اختار ما يشتهيه السواد كراهةً مني لمماشاة السوقة، والاختلاط بالطغام الجاهلين، فإليك الالتفات أيها الكنز النقي. أعد عليَّ عبارتك المنقوشة:

مـــــن انتقانـــــي فإنـــــي أهـــــل لـــــه وهـــــو أهلـــــي

ما أحسن هذا المقال! لا ينبغي لأحد أن يخادع القدر، ويصيبَ من العز او الجاه او القدر ما ليس به جديراً. حبّذا لو كانت الاموال والألقاب والرتب بالكفايات لا البراطيل، إذن لنزعت أعشاب سوء لا تحصى من محصول الكرامات الصحيحة ولأخرجت غلالٌ قيمات من أكداس التبن الذي لا قيمة له. لنرجع إلى شأننا: أحسبني كفواً لها. اعطوني مفتاح هذا الصندوق فأرى ما فيه.

(يفتح الصندوق)

برسيا : الذي وجدته لم يكن حقيقياً بالزمن الذي أضعته فيه.

الأمير : ماذا أرى؟ رسم أبله يقدم لي قرطاساً. أي شيء في هذا القرطاس؟ ما أقل مشاكلة هذا الرسم لرسم برسيا! وما أبعد جوابه عما التمسته آمالي! ألم أكن جديراً إلا برسم أبله؟ أهذا كل ثوابي؟! أولم يُلق لي غيره؟!

برسيا : الخصومة والحكومة نقيضان لا يجتمعان في واحد.
الأمير : لنقرأ ما في القرطاس.

من راضه ألم الخطوب فإنني — بالنأر قد مُحِّصْت سبع مرار
من عاش لم يأمن على طول المدى — خطلاً يبادره وسوء خيار
في الناس مخدوع يقبل ظله — فينالُ ظل سعادة وفخار
وفتى خلّيُ العقل مثلي بينهم — في مظهر متألّق غرار
أنّى تكن ما أنت إلا مشبهي — فاحمل حمولك وانج من ذي الدار

مهما أطل الإقامة هنا بعد ما كان فلا أزداد إلا ظهوراً بمظهر الحماقة. جئت برأس أبله وأعودُ برأسين. أستودعك الله أيتها الزهراء. سأبر بقسمي لأحسن تملك نفسي وكظم غيظي

(يخرج الأمير مع حاشيته).

برسيا : كذا احتراق الفراشة بالنور. هؤلاء المجانين الذين جفت حواسهم لم يبلغوا من المهارة إلا إتقان الخسارة.
نريسا: صدق من قال إن المشنقة قضاء والزواج نصيب.

(يدخل خادم)

الخادم : أين السيدة؟
برسيا : ها هي ذي. ما تبتغي منها!
الخادم : يا سيدتي بالباب رجل من البندقية جاء مبشراً بقدوم مولاه مهدياً اليك ما زكا من التحيات، وما غلا من الحلى السنيات، حتى لخيّل إليّ ان شهر نيسان، وهو مزدان بزينات الربيع، لا يتقدم الصيف بأجملَ وبأرقّ مما يتقدم هذا الخادم الأديب مولاه الآتي في إثره.
برسيا : كفى، لا تزد، فقد خشيت ان تضيف إلى هذا الإفراط في الثناء انه من أقربائك. تعالي نريسا ننقع غلَة شوقنا برؤية ذلك الرسول الذي جاءنا بهذه المحامد كلها.
نريسا : باسانيو. وفقه أيها الغرام.

(يخرجان)

الفصل الثالث

المشهد الأول

البندقية ــ جادّة

(سالانيو وسالارينو)

سالانيو : ما أخبار الريلتو!

سالارينو : ثبت ما شاع عن غرق مركب لأنطونيو ثمين الأوساق في ذلك المضيق الذي يسمونه على ما أظن جودونس، وهو مكان بعيد الغور، دفن فيه ما لا يحصى من الجواري المنشآت، إن صح ما تزعمه العجائز المنبئات.

سالانيو : معاذ الله ان يكون ما سمعته إلا بهتاناً من أسخف قعيدة أكلت فطير البرطمان، وأوهمت جاراتها انها تبكي ثالث أزواجها. ولكن النبأ الصحيح الذي يبعث الأسى والأسف هو باختصار القول ــ منعاً للاسهاب وأخذاً بالمألوف من الكلام ــ ان أنطونيو النبيل، انطونيو النزيه، انطونيو الجدير بأشرف النعوت التي نعت بها إنسان...

سالارينو : هلم إلى الواقع.

سالانيو : ماذا تقول؟ الواقع... هو أن انطونيو فقدَ مركباً.

سالارينو : عسى ان تقف خسارته عند هذا الحد بإذن الله.

سالانيو : ابادر بالتأمين مخافة ان يعارض الشيطان هذا الدعاء، ولا سيما

وها هو ذا الشيطان بنفسه قادم الينا في زي يهودي.

(يدخل شيلوخ)

سالانيو : (متمماً) شيلوخ! ما أخبار التجارة في مصفق الريلتو؟

شيلوخ : انت أعلم من علم بفرار ابنتي.

سالارينو : لا جرم انها فرّت، وأنا أعرف الخياط الذي صنع لها ما طارت به من الأجنحة.

سالانيو : وشيلوخ يعلم أيضاً أن للطائر ريشاً، وأن العصافير متى راهقت سنّاً معلومة، فارقت وكر أبويها.

شيلوخ : لتهلك بما خطئت.

سالارينو : لا محالة انها هالكة إذا كان الشيطان قاضيها.

شيلوخ : يثور بي دمي ولحمي.

سالارينو : أُف لك من فاسق مزمن. أفي هذه السن تخطر لك الشهوات؟!

شيلوخ : أعني ابنتي، وهي لحمي ودمي.

سالارينو : بين بدنك وبدنها من الفرق ما بين السبج[1] والعاج، وبين دمك ودمها من البونْ مثل ما يختلف النبيذ الأحمر عن النبيذ الأبيض. لكن انت مخبرنا: أعلمت ان انطونيو أُصيب بخسارة في مشحوناته بحراً؟

شيلوخ : وهذه مسألة لم تكن لي رابحة. مفلس مسرف لا يجرؤ ان يتراءى في الريلتو ــ بائس... كان يجيء المصفق متبختراً. حذار ان يتأخر عن الوفاء في صكّه. كان يدعوني مرابياً. إياه ان يغفل ميعاد خطه. كاني يقرض النقود إقراض نصارى على سبيل الإحسان. ليخشَ ان يبطىء عن أداء ما عليه في حينه.

سالارينو : ما أظنك إن تأخر عن أعطائك المال تتقاضى بضعة من لحمه. أتفيدك في شيء؟

شيلوخ : تفيدني في إعداد طعم للسمك : ألا يكفي ان أستخدمها في شفاء غليلي، والانتقام لنفسي. هو الذي جلب عليّ التحقير والازدراء، وحال دون

---

(١) السبج: الخرز الأسود.

اكتسابي نصف مليون. فوق ما اختزنت. سخر من خساراتي، وهزىء من أرباحي، وسبّ قومي، وعارض أعمالي، ونفّر مني أصدقائي، واهتاج أعدائي. ولِمَ كل هذا؟ لأنني يهودي. أليس لليهودي عينان؟ أليس لليهودي يدان وأعضاء وجسم وحواس ومودّات وشهوات؟ أليس غذاؤه مما يتغذى به النصراني؟ أليست الآلة التي تجرح أحدهما تجرح الآخر؟ أليس العلاج الذي يشفي ذاك يشفي هذا؟ أليس الشتاء والصيف واحداً لكليهما؟ ألسنا إذا وخزتمونا ننزفُ دماً، وإذا دغدغتمونا نضحك، وإذا سقيتمونا السم نموت، وإذا آذيتمونا ننتقم؟ فنحن نشبهكم بهذا كما نشبهكم بكل ما سواه. اما جزاء اليهودي الذي يضر بمسيحي أن يثأر منه؟ إذن فلليهودي وقد ائتسى بأسوة النصارى ان يثأر منهم إن أضروا به سأعاملكم بمثل الشدة التي تعاملونني بها أو أزيد.

(يدخل خادم)

الخادم : أيها السيدان! مولاي أنطونيو يبتغي لقاءكما وهو الآن في داره.
سالارينو : نحن في البحث عنه منذ هنيهة.

(يدخل طوبال)

سالانيو : ما أشبه الليلةَ بالبارحة، ومن توخى ثالثاً لهذين اليهودين الأخوين لم يجده إلا ان يتهود الشيطان.

(يخرج سالارينو وسالانيو والخادم)

شيلوخ : ما وراءك يا طوبال؟ أوجدت ابنتي في جنوا؟
طوبال : خوطبت عنها في أماكن جمة، ولكنني لم أتوصل إلى عرفان موضعها.
شيلوخ : يا للخسران! اختلستْ مني ألماسة بيعت عليّ في فرانكفورت بألفي دوقي. الآن قد طفقت اللعنة تحل على أمتنا حلولاً لم أشعر به من قبل. ألفا دوقي فقدتها عدا مصوغات أخر غالية، وايّ غلاء. من لي بابنتي ميتةً عند قدمي والألماستان في أذنيها؟ من لي بها ممدودةً هنا أمامي على وشك ان تحمل في نعش وتحمل معها الدوقيات؟ عجباً اما من نبأ عنها ــ هكذا ــ ويعلم الله كل ما سأنفقه حتى أجد تلك الضالة. خسارة فوق خسارة: كذا للسارق وكذا للباحث عنه. ثم لا ترضية ولا انتقام، كل الرزايا تنصب

على رأسي وحدي، فلا زَفرَةَ إلا ما تصعده أنفاسي وعلا عبرةَ إلا ما تصُوبه عيناي.

طوبال : لست فذًا في تعرضك للنوائب، فقد علمت في جنوا ان انطونيو...

شيلوخ : ما تقول؟ ويل ويل...

طوبال : فقد سفينة من سفنه قادمة من طرابلس.

شيلوخ : حمداً لله، حمداً لله. أيقين؟ أيقين؟

طوبال : كلمت، نوَاتية، نجوا من الغرق.

شيلوخ : وحمداً لك يا صديقي طوبال. نعمت الأخبار، نعمت الأخبار. اين؟ في جنوا؟

طوبال : سمعت ان كريمتك أنفقت ثمانين دوقياً في ليلة واحدة بجنوا.

شيلوخ : تطعنني بخنجر في قلبي. لن يعود إليَّ ذهبي، ثمانون دوقياً صُبرَةً[1] واحدة. ثمانون دوقياً؟

طوبال : في رجوعي إلى البندقية تسقطت من أقوال بعض الذين يدينون أنطونيو انه لا بد له من التفليس.

شيلوخ : يا فرحاً بما قالوا! سأعذبه. سأنكل به. يا للسرور.

طوبال : أراني أحدهم خاتماً نفحته كريمتك به لتحلية قرْد أعجبها.

شيلوخ: ويحها من تاعسة! تقتلني يا طوبال! تلك زبرجدتي التي اشتريتها من ليحا أيام عزوبتي، ولو أعطيت بها فرقة من القردة لما أعطيتها.

طوبال : لكنه ثابت ان أنطونيو قد خرب.

شيلوخ : نعم. هذا يقين كل اليقين. اذهب يا طوبال، أوجد لي سجّاناً تجعله تحت تصرفي، قبل حلول الأجل بأسبوعين. فإن لم يؤدّ ما عليه لم يكن لي بد من تمزيق قلبه، ومتى خلت منه البندقية، ففي وسعي ان أفعل فيها ما أشاء. أذهب. أذهب طوبال. ثم الحق بي في الكنيس. بَدار[1] يا طوبال.

(يخرجان)

---

(١) صبرة: أي جملة وبلا كيل.

(١) بدار: أسرع.

المشهد الثاني

بلمنت ـــ مزارة في قصر برسيا ـــ الصناديق مكشوفة

(يدخل باسانيو وبرسيا وأتباعهما وغراتيانو ونريسا)

برسيا : أبتهل اليك ألا تتعجل. تريث يوماً أو يومين قبل الاقتراع، فإذا ساءت خيرَتُكَ، لم يفتنا أنسك وعشرتك. رويدك رويدك. في قلبي شيء. وهذا الشيء ليس بالغرام ـــ يوحي إليَّ ان أفقدك مساءةٌ لي. على ان مثل هذا الوحي لا يجيء من البغضاء. ولأزيدك مكاشفة بما في ضميري، دع ان الأجدر بالفتاة ألا يكون لها من اللسان إلا فكرها، أقول إنني أتمنى استبقاءك ههنا شهراً او شهرين قبل المخاطرة بمستقبلك من أجلي. وقد يجيش بي ان أعلمك كيف تحسنُ الخيرة، لكنني إذن أكون حانثة، ومعاذ الله ان أكونها أبداً. إلا انني لو لم أرشدك وتعذرَ عليك الفوز بي، لاشتد أسفي، من كوني لم أحنث. ويحي! إن عينيك نظرتاني فقسمتاني إلى شطرين: شطر لك وشطر لك! كان ينبغي ان أقول ـــ لي ـــ في الثانية لكن سبق لساني، لأنني لك وما بقي لي فهو إذن لك. يا للقضاء الجائر أقام حاجزاً بين المالك وملكه فأنا لك، ولكني ربما لا أكون لك. فإذا جرى الحكم على هذا فلا وقعت التبعة إلا على مصدر الحكم لا عليّ. أفرطت في الثرثرة، ولكن لا لإضاعة الوقت بل لإطالته بتأخير اقتراعك.

باسانيو : دعيني أختر فإني في أشد العذاب.

برسيا : في أشد العذاب يا باسانيو، فلا بد من خيانة تحت هواك، والأولى ان تقرّبها.

باسانيو : لا خيانة، ولكن خشيةَ فقدي من أهواه، وقد يكون أيسر ان تأتلف النار والثلج من ان تأتلف الخيانة وحبي.

برسيا : سوى انني أخشى ان يكن كلامك إكراهياً أشبه بما يجريه الألم على الألسنة قسراً.

باسانيو : عديني بالحياة أعترف لك بالحقيقة.

برسيا : اعترف وعش.

باسانيو : كان يجب ان تقولي: أقرْر وأحبْب، لأن إقراري لا يزيد على معنى هاتين اللفظتين. ما أعذب ذلك العذابَ الذي يعلمني مسببه كيف أنجو منه. لكن دعيني أعرف بختي بين هذه الصناديق.

برسيا : اليها، وأعانك الله. إني في أحدها، فإن كنت لي محباً اهتديت إليَّ — (إلى الأتباع) اي نريسا، اي هؤلاء جميعاً، تنحوا قليلاً — لتعزف الموسيقى مدة خيرته، فإن خسر كانت نهاية هوانا في النغم، كنهاية ذلك الطائر العوّام الذي لا يجيد في حياته إلا صوتاً يتغنى به قبيل وفاته. ولإتمام الشبه أجعل عندئذ عيوني الماء الصافي الذي يقضي فيه ذلك الهوى نحبه. أما إذا كسب فكيف يكون النغم إذن؟ ليكن نفخاً في الأصوار بعيدَ الصدى، كما يكون حين تجثو الرعية المخلصة لدى ملكها المتوج حديثاً، او كذلك اللحن الشجي الذي يشدوه السعدُ في أذن الخطيب صباح اليوم الذي تتحقق في أحلامه، ويتأهب لعقد القران على عتبة الهيكل. ها هو ذا يتقدم بأقل جدلاً ولكن بأكثر غراماً من الفتي الشجاع « ألسيد » حين أنقذ البتول التي قربتها قبيلة طروادة باكيةً منتحبةً للوحش البحري. على انني أشبه بتلك الفتاة المقدمة للتضحية. أجد الذين حولي مستعدين كالطرواديين يتوقعون الختام وأقول: أماماً يا هرقل، عش فأعيش — انا شاهدة القتال سوى انني أشد تأثراً منك يا من يقدم عيه.

(تسمع الموسيقى خلال نظر باسانيو في الصناديق وتشاوره)

صوت ينشد:

أيـن مكـــان الهـــوى منبتُـــه في العقل ام في الفؤاد مولده

ومـن مباهٍ بـه الجـلال فقــد دال مـــن المالكيـــن أيّـــده

آخر ينشد:

تــــلك العيــــون السواهـــــي للـــــحب هـــــنّ مهـــــود
إن يسقـــه اللحـــظ نـــاراً قضى وهـــــنّ اللحـــــود

الجمع ينشد:

ليهتــــــف هتــــاف الأسى ويسمـــــع نــــــواح الأسف
يخـــف صريــــع المنــــى ويــــودي سريـــع الشغـــف

باسانيو : نعم يقرب من الاحتمال أن أبهج غلاف بظاهره يحتوي على أشنع شيء. هكذا تخدعنا زينات الناس في الغالب من الأمر أتوجد في القضاء دعوى سيئة لا يتولى الدفاع فيها مِنْطيق مقنعٌ يغطي معايبها بتأثير فصاحته؟ أيوجد في العقائد خطأ مهلك لا يجهد أحد المتنطّسين العابسينَ ان يحلله بنصوص قاطعة، ويخبأ ما به من السم تحت أزهار يزينه بها؟ هل في المثالب واحدة لا تلبس لدى الإبصار بعض ملابسَ المحامد؟ كم من جبان لا تختلف شجاعته عن مدْرَجة من الرمل ولكنه يغشّي ذقنه بمثل لحية هرقل الصنديد[1] او لحية المريخ العنيد. لو استشفت بواطنُ هؤلاء الرعاديد[2] لوجدت أكبادهم بيضاء كاللبن، سوى انهم سرقوا تلك الإمارات المهيبة ليداجوا بالبطش والبأس. انظروا إلى الجمال تجدوا جواذبه مجلوبةً من حانوت التاجر، ومن غريب ما تحدثه الطبيعة في هذا الباب ان أكثر النساء حمولة من المحاسن المستعارة، هن اللواتي لا يطول الزمن بزيناتهن! فإذا رأينا عند بعضهن ذلك الشعر الذهبي الذي تتلوى ضفائره تلوّي الثعابين، وتتجارى بين غدائره لواعبُ النسمات لم يكن إلا زُخرفاً باطلاً ورثه الرأس التباهي به عن رأس أصبح بالياً في القبور. فالتبرج إذن ليس إلا زينة الشاطىء الذي

(١) الصنديد: السيد الشجاع.
(٢) الرعديد: الجبان.

ينزل منه إلى البحر، الزاخر بالأخطار، او هو الشف اللماع، الذي تحتجب وراءه هجنة هندية. او هو ما ترتديه الحيلة من مشابهة الحقيقة لتأخذ الحكيم في أشراكها. لهذا أنبذك ايها الذهبُ البراق طعامُ ميداس، كما انني أنبذك ايتها الفضة فإنما انت ذلك المعدن الشاحب والأداة المبتذلة في التداول بين الناس. اما انت ايها الرصاص المستخس الذي لا يغش العيون، والذي تغريني سذاجته الصامتة اشد من إغراء الفصاحة، فإياك أختار لعلك تكون مخبأ سعدي، ومبعث هنائي.

برسيا : أرى كل العوامل قد تبددت في الهواء من هَم مقلق، وخوف مؤرق ويأس ليس بإحدى الراحتين، وغيرة مخضرة العين حاشاك ايها الغرام الذي استباح قواها، واستبى حماها، فبحقك إلا ما ترفقت بي؟ وتلطفت لي، وخففت من غلوائك، وهدأت من سورة سرائك، فقد خشيت ان ينوء بحملك قلبي، ويقضي بفضلك نحبي.

باسانيو : (فاتحاً صندوق الرصاص) ـــ ماذا أرى؟ أرسم برسيا؟ اي ملك تنزل من سمائه فتجلّى في هذه الصورة الإنسية يا عجباً لهاتين الحدقتين؟ اهما تتحركان ام انا واهم؟ يا عجباً لهذا الثغر! لم تكد شفتاه الرقيقتان تفترقان على ما بينهما من الهوى إلا لتأذنا ارَج الأنفاس بتعطير الهواء. يا عجباً لذلك الشعر! كأن امهر الرسامين عندما نظمه قد حاك من خيوطه الذهبية حبالة تؤخذ بها القلوب، كما تؤخذ دقاق الهَوام بنسج العنكبوت. ولكن البدع كلّ البدع في العينين، كيف استطاع ذلك المصور ان يحدق فيهما ليحسن تمثيلهما؟ اما الكمال فانظروه في الأصل لا في النقل. وما ابعد ربة الجمال عن ان يضارعها الخيال. فلأمتع الآن طرفي بما كتبه الحظ في هذا القرطاس من آيات سعدي:

(يقرأ)

يا من رأى باطلاً فمر به	ولم يزْع في طلائه نظرُه
يهنئك العقل لم يضل به	مغويه والسعد رابحاً خطرُه
لئن تكن قد حظيت بعد جوى	كما يصيب الجزاء منتظرُه
قبّل محيا العروس مغتبطاً	فالعمر قد طاب والمنى ثمره

حبذا هذه الأقوال الشائقة. إذناً ايتها السيدة (يقبلها) أتيت وهذه الورقة في يدي — لأقبل وأتقبل مشبهاً بذلك صاحب الفوز في الصراع المشهود. فهو إذا سمع تصفيق المتعجبين، وتهليلَ المعجبين، جمد مكانه ونظر حواليه مرتاباً فيما إذا كان ذلك التمداحُ موجهاً اليه. وما موقفي هذا إلا كموقفه ذاك، أكاد أرتاب فيما أرى وأرقب لتصديق ما جرى ان تجيبيني إلى ما قدمت وتثبتي وتحققي ما اغتنمت.

برسيا : ايها الهمام باسانيو: ها انا ذي لديك كما انا، ولولا أمر جددته في نفسي لاجتزأت بالنعم التي منحتها ولم استزد. لكنني غدوت متمنية من أجلك لو رجحتُ ستين مرة علي ما أعادل اليوم، ولو كنت ألف مرة أجمل، وعشرة آلاف مرة أوسع جاهاً. فتكبر حظوتي في عينيك، ولو كان لي من الفضائل والمحاسن والأموال والأصحاب عدادٌ لا تنفد. إلا انني ولا فخر غير خالية من شيء يقدر بقدر فإنما أمامك فتاة معصر[1] نقية غرة، تعتد من لطف العناية بها كونها لم تزل لدْنة[2] صالحة للتقويم. ومن سعد طالعها انها ليست من الجهل بحيث تستعصي على التعليم، ومن تمامِ نعمائها ان عقلها طيعٌ يدعوها إلى إلقاء زمامها عن رضىً بين يديك، والإقرار عن خضوع بأنك سيدها، وأميرها، ومليكها. فأنا وكل ما لي قد أصبحنا لك اليوم. كان قبلاً هذا القصر المشيد قصري، وكنت مولاةَ خدمي، وحشمي، وكان بيدي قياد نفسي. اما الآن فالدار والتبع والمتبوعة في تصريف بنانك يا ولي أمري. وهبتك أولئك جميعاً. وأزيدك هذا الخاتم الذي أوصيك بحفظه، وبأن تحرص كلّ الحرص من إضاعته، او فقده، او مفارقته فإن ذلك لينذرني بتحول قلبك عني، ويخولني حقّ الشكاية منك.

باسانيو : لقد أعجزتني يا سيدتي عن التفوّه بلفظة واحدة، فما فيّ من متكلم إلا دمي الذي يجيش في عروقي، وأشعر باضطراب في أفكاري أشبه بغوغاء الجمهور إذا ألقى عليهم أمير كريم كلمات محبته، فاختلطت عواطفهم في

---

(١) معصر: مدرك.

(٢) لدنة: لينة.

إحساس واحد اجتمعت عليه كل تلك النفوس: إحساس الفرح بين صامت، او صائت، فاعلمي ان حياتي تفارقني قبل ان يفارق هذا الخاتم اصبعي، وإذ ذاك لك ان تقولي: « مات باسانيو ».

نرسيا : إن سعدكما هذا لسعد طالما تمنيناه، فأجيزا لنا يا سيدّي رفع تهنئتنا اليكما: صفاءً وهناءً.

غراتيانو : يا سيدي باسانيو ويا سيدتي! أدعو لكما بما تشتهيان من صنوف النعم، واثقاً من ان آمالكما لن تتمادى إلى الإضرار بتحقيق أمانيّ، وعلى هذا أستأذنكما بأن يكون عقد قراني في نفس اليوم الذي ستعينانه لعقد قرانكما.

باسانيو : إذا وجدت الحليلة فإنا لنأذن بارتياح.

غراتيانو : لقد ظفرت، ولك الشكر يا سيدي، بالتي أرغب فيها، فإن عيني لا تقلان فراسة عن عينيك، وقد لمحت التابعة، كلمحك المتبوعة، فأحببت كما أحببت وشببت كما شببت. وكما كان حظك منوطاً بهذه الصناديق كان حظي منوطاً بنجاحك، إذ انني بعد تجشمي عرق القرْبة لاستمالة هذه الغانية، وإبحاحي صوتي في الإقسام لها على صدق غرامي لم أفز منها إلا بوعد: وهو انها تقترن بي إذا انت وفقت للاقتران بمولاتها.

برسيا : أكذا جرى يا نريسا؟

نريسا : نعم يا سيدتي، إن كان فيه رضاك.

باسانيو : أجد ما تقول يا غراتيانو؟

غراتيانو : جد في النهاية يا سنيور.

باسانيو : نعدّ من متممات فرحنا ان يقام عرسنا وعرسكما في آن.

غراتيانو : (لنريسا) لتراهن بعشرة آلاف دوقي على منْ من فريقنا يجيء بأول ولد. أسمع قدوم أناس... هذا لورنزو وكافرته وهذا صديقي القديم سالريو البندقي.

(يدخل لورنزو وجسيكا وسالريو)

باسانيو : لورنزو وسالريو! مرحباً بكما، إن كان يسوغ لي على حداثة عهدي هنا ان أحتفي بمواطنيّ وأصدقائي. أتأذنين لي يا برسيا الجميلة ان أرحب بهم؟

برسيا : لقد لقوا أهلاً، ونزلوا سهلاً.

لورنزو : حمداً لك يا مولاتي. اما انا ياسيدي فلم يكن مقصدي هذا القصر، لكنني صادفت سالريو في الطريق، فلج حتى أوجب مجيئي معه.
سالريو : هذا ما حدث يا سيدي، وكان لذلك عندي سبب. اليك كتاباً من السنيور انطونيو. حملني إياه وأوصاني ان أذكره لديك.

(يعطيه الكتاب)

باسانيو (قبل فض الكتاب) : كيف صديقي الأعزّ!
سالريو : ليس بمريض ولا بمعافى، إلا ان تكون الصحة او العلة في الروح لا في الجسم، ولكنك ستعلم من رسالته حقيقة حالته.
غراتيانو (مشيراً إلى جسيكا) : نريسا، أكرمي وفادة هذه الأجنبية واحتفي بها. يدك يا سالريو. اي جديد في البندقية؟ كيف انطونيو أمير التجار وكيف أعماله؟ انا موقن انه سيفرح لأفراحنا. نحن من آل جازون قد غنمنا الجوازة الذهبية.
سالريو : ليتكم كسبتم ما خسر.
برسيا : لا بد ان تكون في هذا الكتاب أنباء رائعات، فقد امتقع وجه باسانيو، وما يغير وجهَ الرجل الكريم مثل هذا التغيير السريع إلا ان يفقد صديقاً من أصفى أصفيائه تهون في جنب رزئه فوادحُ الأرزاء. عجباً! أرى ازدياداً في أسفه ـــ إيذن يا باسانيو: إني شطر منك الآن، وأطلب بقوة حصتي من مضمون هذه الرسالة كائناً ما كان.
باسانيو : يا حبيبتي برسيا! لم تسود الصحف في يوم من الأيام بمثل ما سودت به هذه الصحيفة من السطور المشؤومة، عندما فاتحتك بغرامي لأول عهدنا، أقررت لك بأن ما بقي من ثروتي لم يكن إلا الدم الجاري في عروقي: دم ماجد شريف. على انني أيتها الصفية الرقيقة، مع صدقي بإبلاغك انني لم أكن شيئاً مذكوراً، قد غاليت فقوّمت نفسي، بما يفوق قيمتها كثيراً، وكان الأجدر بي ان اصارحك بأنني أقل من لا شيء: ذلك لأنني استخدمت ضمان صديق عزيز للحصول على مال أقضي به حاجاتي، فعرّضته بذلك لألدّ أعدائه وأشد مبغضيه. هذا كتاب يا سيدتي دَرْجه جسم صاحبي، وكل كلمة في الدّرْج جرح ثخين في الجسم يتدفق منه الدم وتندفع في أثره

الحياة. ولكن أحق يا سالريو ان كل تلك المواسق نكبت؟ عجباً! ألم ينج واحد منها؟ أوَلم تصل سفينة فذة من تلك السفائن العائدة من « طرابلس » او « المسكيك » او « إنجلترة » او « لشبونة » او « الهند » بلا استثناء؟ أكلها أبادته الصخور، وألقت به في أعماق البحور؟

سالريو : كلها باد بلا استثناء. ومما يزيد الشجن ان اليهودي، فيما ظهر منه وتحقق، يأتي المال لو ردّ اليه الآن. ذاك مخلوق، على كونه في شكل إنسان، ما رأيت في غابر أيامي أشدّ منه تكالباً للتنكيل بخصمه، فهو من الصباح إلى المساء لاحق بالدوج ملحّ أو ملحف يتقاضى شرطه، مجاهر بأنه لا يبقي للعدل في الحكومة معنى إذا لم يفن على استيفاء حقه، وقد خاطبه عشرون من التجار كما خاطبه الدوج نفسه، والملأ الأكرمون من الأعيان ليعتدل في أرَبه، ويعدل عن طلبه فأبى مصرًّا، ولم يتمكنوا من تليين قلبه الجافي المليء بالضغن.

جسيكا : عندما كنت معه سمعته بحضرة طوبال يهمس لمشايعيه في الدين يقول: إنه يؤثر البضعة من لحم انطونيو على عشرين ضعفاً للقدر الذي أقرضه إياه، وانا متحققة من ان انطونيو المسكين إذا لم يؤازره القانون او أولياء الحل والعقد لم يفلت من مخالب الخطر.

برسيا : أذلك الرجل الواقع في هذه الأزمة الشديدة حبيب اليك، عزيز عليك.

باسانيو : هو أصفى إخواني وأوفى أخداني[1]، هو في الرجال الأشهم الأمجد، الأكرم الأعود، هو الإنسان الذي تتراءى فيه الروح الرومانية أصفى ما كانت، وأنقى ما هي كائنة في نفس إنسان من بني إيطاليا.

برسيا : ما الذي عليه لليهودي؟

باسانيو : عليه له ثلاثة آلاف دوقي أخذتها انا.

برسيا : أهذا كل المقدار؟ اردد اليه ستة آلاف، وليمزقْ ذلك الخط. ضاعف له هذا الزهاء، او أعطه ثلاثة أمثاله حرصاً على شعرة من رأس صديق كهذا ان تضيع لأجل باسانيو. اصحبني بعد هنيهة إلى الكنيسة لتتخذني عروساً

---

(١) الخدن: الحبيب والصاحب.

لك، ثم اذهب من فورك إلى البندقية لإسعاف صاحبك، إذ ان برسيا لا ترضى إقامتك بجانبها ونفسك قلقة، وإيما مبلغ من الذهب وجب لإيفاء ذلك الدين الصغير، حتى او أربى على أصله عشرين ضعفاً، حمل اليك بلا إبطاء فإذا قضيت هذا الحق عدت بصاحبك لنأتنس به، وفي خلال هذه المدة سأعيش انا ونريسا عيشة بتولين وأيِّمين. هلم بنا، وإذا كان قد تحتم عليك هذا السفر في يومِ عرسك فلا يصددك ذلك على الهشاشة لإخوانك، ولا يرَوا منك إلا وَجهاً ضحوكاً، سأغلي قدرك بنسبة ما بعد أغليت مهرك، ولكن فاتك ان تسمعنا شيئاً مما كتبه صاحبك.

باسانيو (قارئاً) : صديقي باسانيو. ارتطمت جميع مراكبي، وأصبح الدائنون لي بلا شفقة. شؤون تجارتي في درْك الإنحطاط، ولم يتسنّ لي افتكاك نفسي من حق اليهودي في الأجل المضروب ولما كنت لا أستطيع التحرر مما عليّ إلا ان أفتدي الدين بحياتي، عولت على ذلك مبرئاً ذمتك من كلِ ما تسلفته مني، راجياً ان أراك قبل وفاتي، وما أكلفك المجيء إلا تبعاً للتيسير، وعلى ان يكون باعثه وحيَ الصداقة اليك لا تثقيل هذا الكتاب عليك.

برسيا : اي حبيبي! تجهزْ عاجلاً، وسرْ.

باسانيو : أما وقد أذنتني بالسفر فإني لمبادر، ولن آوي إلى مضجع او ألتمس شيئاً من الراحة فيعوقني أدنى عوْق عن سرعة الرجوع.

(يخرجون جميعاً إلا برسيا ونريسا وبلتزار)

المشهد الثالث

البندقية ــ جادّة

(يدخل شيلوخ، سالانيو، أنطونيو، سجان)

شيلوخ : سجّان، احرص عليه. لا تلتمس مني رحمة ــ هذا هو الأبله الذي كان يقرض النقود احتساباً. سجان، إياك أن يفلت.

أنطونيو : تفضل بالصغو إليَّ أيها السميح شيلوخ.

شيلوخ : أتقاضى حقي ولا اريد أن أسمع كلاماً في هذا المعنى، أقسمت إلا ما تنجزت حقي. لقد كنت تدعوني كلباً بلا ذنب مني، فإن كنت الكلب الذي تصفه فاصبر لنكز أنيابي. سينصفني الدوج. من العجب أيها السجان البليد أنك تلين له هذه الليونة، وتخرجه من معتقله إجابة لملتمسه.

أنطونيو : أتوسل اليك ان ترعيني سمعك.

شيلوخ : أطلب حقي ولا أرعيك سمعي، حسبك ضراعةٌ لا تفيد. لست من أولئك الأغبياء الذين اذا استعطفوا هزوا رؤوسهم، ونفسوا كربهم بتصعيد أنفاسهم، ثم أجابوا النصارى الى رغائبهم. دع متابعتي. لن أستمع لك إنما أتقاضى حقي.

(يخرج)

سالانيو : لم يرزأ الناس في معاملاتهم بأظلم من هذا الضاري.

أنطونيو : عد عنه. حسبي لحاقاً به وتضرّعاً بغير جدوى. يبغي حياتي وأعرف السبب في ذلك: فهو ينتقم لإنقاذي من مخالبه غيرَ واحد من المقترضين الذين استعانوا بي عليه، وهذا سرّ بغضائه.

سالانيو : يقيني ان الدوج لا يأذن بإنفاذ تعهد كهذا.
أنطونيو : لا يستطيع الدوج منع القانون من الجري في مجراه، فإذا أرابت الحكومة في تأويله أساء الأجانب ظنهم بعدلها، وخشوا على الامتيازات المخولة لهم فكان في ذلك خطر على مدينة كالبندقية قوام ثروتها تجارتها مع الأمم الاخرى. لننصرف. إن أحزاني ومصائبي قد شفتني حتى لا أعلم إن كانت قد أبقت لليهودي القدر الذي سيتقاضاه غداً من لحمي. سرْ بي أيها السجان. سرْ بي. عسى الله ان يرسل إليَّ باسانيو فأراه، ويراني وافياً دينه، فأموت عندئذ راضياً.

(يخرجان)

المشهد الرابع

بلمنت ــ مزارة في قصر برسيا

(تدخل برسيا ونريسا ولورنزو وجسيكا وبلتزار)

لورنزو : أجرؤ أن أقول بحضورك إن رأيك في الصداقة الخالصة رأي صادق شريف، وإنك قد أيّدته بتحملك فراق زوجك في مثل هذا اليوم، ولكنك عرفت من الرجل الذي تسدينه هذا المعروف، وما شرفه، وما مودته لقرينك، لكنت أشد افتخاراً بهذه المنة منك بأية منة أوليتها من قبل.
برسيا : لم أندم مرة على الإحسان. فما أبعدني الآن عن الندم، ولا سيما أن الصاحبين إذا طال تعاشرهما، واختلاطهما، تآلف قلباهما وتواثقت نفساهما بعرى الصداقة، فلا بد من تشابه بينهما في الخَلْق، او الخُلُق، ومن ثم اعتقدت ان انطونيو هذا لا بد ان يكون على شاكلة زوجي، بسبب ما بينهما من متين العلاقة، فالثمن الذي اشتريت به من القسوة الجهنمية ذلك الصديقَ

المخلوق على مثال زوجي لا يكون إلا بخساً، لكن أراني استدرجت الى ما يشبه التمدح، فلنتحول عن هذا المعرض الى معرض آخر. يا لورنزو أرغب اليك في تولّي إدارة بيتي الى ان يعودَ بعلي، أما أنا فقد نَذَرْتُ لله سرًّا ان أعيش في النسك، والدعاء، والاعتزال، إلا عن نريسا الى ان يرجع بعلانا، وسنقيم في دير قريب لا يبعد إلا ميلين عن هذا المكان، فرجائي ألّا تمتنع من إجابة هذا الطلب على ما تقتضيه المودَّةُ وأسباب غيرُها أيّدات.

لورنزو : اوافق على ما تريدينه يا سيدتي بكل قلبي، وما أطوعني لأمرك في كل أمر مشروع.

برسيا : سآمر أتباعي ان يكونوا منذ الساعة رَهْن إشارتك كأنك باسانيو، ورهن إشارة جسيكا كأنها أنا. أستودعكما الله في صحة ونعمة الى ان نلتقي.

لورنزو : منحك الله صفاء البال وصفاء الوقت.

جسيكا : أرجو لك يا سيدتي قرّة العين ومسرّة الفؤاد.

برسيا : أدعو لكما بمثل ما دعوتما لي. أراك بخير يا جسيكا.

(تخرج جسيكا ولورنزو)

برسيا (متممة) : اليك خطابيَ الآن يا بلتزار. أودُّ لو وجدتك اليوم على ما عهدته فيكَ من الوفاء والمضاء في الامتثال. فاحمل رسالتي هذه بأسرع ما يستطاع الى مدينة بادوا، الى ابن عمي الدكتور بلاريو، فإذا سلمته إياها يداً بيد، فتسلم منه الأوراق والملابس التي يعطيكها، وجيء بها كلمح الطرْف الى مرسى السفينة التي تجول عادةً بين القارّة والبندقية. لا تُضعْ وقتاً في الكلام، بل سافر وسأسبق الى الموعد.

بلتزار : سيدتي سأبادر جهد المبادرة.

(يخرج)

برسيا : تقدمي يا نريسا، أنا عازمة على امور ما زلت تجهلينها، فاعلمي أننا سنلقي زوجينا قبل الوقت الذي يظنان.

نريسا : وهل يبصراننا؟

برسيا : بلا ريب يا نريسا، ولكن في زيّ يوهم أننا غير منقوصتين ما نقصَتهُ أجسام النساء: بمعنى أننا متى لبسنا لبسَ الفارسين الشارخين راهنتك على

ما تشائين، إنني سأتقلد خنجري بلباقة لا يستطيعها الرجل، وسترين كيف أرقق حينئذ صوتي فأجعله ناعماً كصوت الغلام المراهق، وكيف أحوّل هذه المشية الحيية الى مشية الذكر المتباهي، وكيف أتكلم عم مشاجراتي تكلُّم يافع جميل فخور، وكيف أستدر الأكاذيب من حاضر الذهن فأحسن قصَصها ذاكراً العقائل العفيفات اللائي افتتنّ بحبي، والخرائد المصونات اللائي مرضنَ او متنَ من جفائي إذ لم يكن في وسعي ان أكفيهن جميعاً، مبدياً أسفي على اللواتي قضين نحبهن من أجلي، متفنناً في تفصيل أمثال هذه الغرائب والعجائب، حتى ليحلف الرجال الذين يسمعون مني تلك الأقوال أنني لم افارق المدرسة إلا لعام او بعض عام خلا.

نريسا : على هذا سنقضي حيناً في مخالطة الرجال.

برسيا : أُف منك وبئس السؤال. لو كان هنا أجنبي لأساء الظن بطهارة نيَّتنا. هلمي بنا الى الكنيسة لإتمام العقد، ثم أشرح لك مقصدي في الطريق، وإن أمامنا لمسيرة عشرين ميلاً. البدار.

(تخرجان)

المشهد الخامس

المكان عينه ــ حديقة

(يدخل لنسلو وجسيكا)

لنسلو : نعم، والحق ما أقول: ذلك أن خطايا الوالد تقع علّى الولد، ولهذا اخبرك عن يقين أنني أخاف عليك جدّ الخوف. وقد جرت عادتي ان اصارحك بفكري، كل فكري، فأنت على علم ولا ريب فيه انك هالكة النفس، وليس بباق لك سوى رجاء غير جدير بالذكر، رجاء لقيط.

جسيكا : وأي رجاء هو؟ أتفصح عنه ولك الفضل؟
لنسلو : هو: ان تأملي انك لست من صلب أبيك، اي انك لست ابنة اليهودي.
جسيكا : عندئذ يكون رجائي لقيطاً كما ذكرت، وإذن تعلق بي تبعات خطايا والدتي.
لنسلو : انا ـــ وما أحدثك إلا بالصدق ـــ أخشى ان تكوني هالكة من جهة الأب ومن جهة الأم معاً، فإذا أردت لك النجاة من ناحية الصخر: أبيك، وقعت بك في ناحية الهوة: أمك. فأنت بتمام الراحة... هالكة من هنا ومن هناك.
جسيكا : ولكن يخلصني زوجي الذي جعلني نصرانية.
لنسلو : إنه لجدير باللوم المضاعَف على فعله هذا! لقد كنا نحن النصارى أكثر عدداً مما تقتضي الحال، وكنا بحيث لا يكاد الواحد منا يكفي أخاه. فهذا التهافت على الاستكثار من المسيحيين سيغلي أثمان الخنازير. وإذا أصبح الناس جميعاً أكلة خنازير فلسوف يأتي وقت لا يتسنى لأحد فيه ان يحصل على كربونات.

(يدخل لورنزو)

جسيكا : لنسلو سأبوح لزوجي بكل ما قلت لي وذكرته، وها هو ذا.
لورنزو : أتعرف يا لنسلو أنني قد قاربت ان أغار منك لفرط ما تتوالى محادثاتك لامرأتي على انفراد.
جسيكا : كن آمناً من هذا القبيل يا لورنزو، إن لنسلو لخصيمي اليوم، فقد قال لي بلا مجاملة ان لا رحمة لي في السماء لأنني ابنة يهودي، ويزعم أيضاً انك سيء الوطنية لأنك بتحويلك يهوداً إلى نصارى تغلي ثمن الخنازير.
لورنزو : سيكون أسهل عليَّ ان أبرأ من هذا الذنب لدى مواطنيّ مما يسهل عليك ان تبرأ من إحبالك جاريةً سوداء.
لنسلو : يحتمل ألا تكون الجارية السوداء على الحالة التي ينبغي ان تكون عليها، ولكنها إذا كانت قد نقصت شيئاً عما يجب ان تكون المرأة العفيفة فقد زادت شيئاً على ما كان عهدي بها.
لورنزو : ما أيسر لعبَ الحمقى بالألفاظ! أظن أنه لا يمضي زمن حتى يصير

السكوت هو العقل، والكلام هو ما يليق بالببغاوات. اذهب أيها الهزْأة وقل لحشمنا ان يتأهبوا للعشاء.

لنسلو : المائدة ستهيأ والأطعمة ستوضع، وأما ان تذهب لتناول الطعام فهذه مسألة أدع لك حلها كما ترى.

لورنزو : ما أعجب هذا الإدراك، وما أغرب تصفيف هذه العبارات بهذه البراعة! هذا الأبلة قد جمع في ذهنه جيشاً من النكات، وأعرف غير واحد من علية أهل المناصب محشوين مثل هذا الحشو وينطقون شمالاً ويميناً بمثل هذه المهاترات. دعينا من هذا يا جسيكا وقولي: كيف أنت يا حبيبتي؟ وما رأيك في قرينة باسانيو؟

جسيكا : فوق ما تصف الكلم. على السنيور باسانيو ذمة ان يسير أحسن سير الرجال، لأنه بحصوله على مثل هذه المرأة قد وجد في الأرض نعيم السماء، وإذا لم يعرف قدر سعادته في الدنيا، لم يجدر بأن يفوز بسعادة الاخرى. وَايمُ الحق، إنه لو تراهن إلهان على خطر علوي، وجعلا الرهان امرأتين إحداهما برسيا، لوجب ان يزاد في الخطر على الاخرى شيء كثير، ذلك بأنه ليس في الإمكان ان تلقى امرأة كبرسيا في هذه الأكوان.

لورنزو : هي في الزوجات ما أنا في الأزواج.

جسيكا : هلا سألتني رأيي في هذا الشبه؟

لورنزو : هذا ما سأفعله فيما بعد، فلنبدأ بتناول العشاء.

جسيكا : لا، ودعني أمتدحك حين النفس طالبة.

لورنزو : بل دعي هذا بغير أمر نجعله حديث المائدة. ومهما تقولي عندئذ أهتضمه مع سواه.

جسيكا : حباً وكرامة، وسأتولى الثناءِ عليك.

(يخرجان)

الفصل الرابع

المشهد الأول

البندقية ــ دار عدل

(يدخل الدوج والأعيان وأنطونيو وباسانيو وغراتيانو وسالارينو وسالانيو وآخرون)

الدوج : هل أنطونيو هنا؟
أنطونيو : هأنذا رهين بأمر سموكم.
الدوج : إني مكتئب لما نابك، وإن خصمك رجل فاقد الإنسانية عادم الرحمة شديد المراس ميت الإحساس.
أنطونيو : نمى إليّ أنكم بذلتم كل مجهود لاستعطافه. فما ازداد إلا جفوة. ولما كان مستمراً في عناده، وكان القانون لا ينجيني من مخالب حقده، وطّنت نفسي على الصبر لمحنته، وتهيأت بجلد لما ترميني به نفسه الخبيثة من الرزايا.
الدوج : ليُدعَ اليهودي ويمثل لدى المحكمة.
سالانيو : هو بالباب يا سيدي، هو آتٍ.

(يدخل شيلوخ)

الدوج : افسحوا له فنراه ويرانا مواجهة. شيلوخ، يظن غير واحد ــ وأنا من أصحاب هذا الظن ــ أنك مُصرّ على ما توجيه اليك البغضاء حتى الدقيقة الأخيرة، فإذا حلّت هذه الدقيقة راجعت حلمك، ورجعت الى وحي الشفقة بما لا يدل عليه هذا التظاهر منك بالقسوة المتناهية. ويزيد أصحاب هذا الظن على ما قدمته أنك ستعدل عن النهج الذي نهجته الى الآن من تقاضي بضعة اللحم من جسم هذا التاجر المنكود الطالع الى ما هو أعرق في الانسانية، وأبلغ في السماحة، فتترك له نصف المقدار الأصلي من الدين ناظراً بعين الرحمة الى ما مُنيَ به حديثاً من الخسائر، التي لو مُنيَ بها أعظم التجار ميسرة لأعسر، وهو الخطب الذي تلين له النفوس المتصلبة كالنحاس، وترقّ من جرّائه القلوب المتحجرة كالرخام، بل الرزء الذي يرثي له جفاة الترك، ويبكي منه قساة التتار، أعداء كل رفق وأضداد كل كياسة. إنا نرقب إجابتك أيها اليهودي، وعسى ان تكون موافقة.

شيلوخ : لقد كاشفت سموكم بمقاصدي، وأقسمت بالسبت. وإنه لَقَسمٌ لو تعلمون عظيم. إلا ما تنجزت منطوق الصك بالحرف، فإذا أبيتم عليّ ذلك فلتقع تبعة هذا الإباء على أنظمة حكومتكم، وامتيازات مدينتكم. تسألونني على مَ اوثر بضعة من اللحم الخبيث على استئداء ثلاثة آلاف بندقي. فجوابي: أنه لو قدر كون هذا الطلب إحدى بدوات عقلي لكفى ذلك في إيجابه، فقد يكون في بيتي جرذ ثقيل أطيب للتخلص منه عن ثلاثة آلاف دوقي. أفتبغون مني أسباباً أُخر؟!... من الناس من لا يطيق رؤية خِنَّوص واسع الشدقين، ومنهم من يرتعد لرؤية سِنَّور، ومنهم من إذا سمع غنّة المزمار لم يستطع حقن بوله، ذلك لأن شعورنا هو ذو السلطان المطلق على موداتنا وعلى موجداتنا، وفي يده أزمّة ما نحب، وما لا نحب، فإن أردتم بعد هذا جوابي فإليكم جوابي: كما ان الانسان لا يستطيع بياناً لما بغض اليه الخنَّوص المتثائب وأخافه من السنّور الذي لا يؤذي، ونفره من صوت المزمار، ودفعه بقوة خفية لا مردّ لها الى التكره من رؤية ما لا يسرّه، ولو عرضه ذلك ليكون بغيضاً على الآخرين، كذلك أنا. وحسبي داعياً للتشدد في مقاضاة انطونيو وإيثار احتزاز لحمه، على استعادتي نقودي منه، تأصلُ الحقد

عليه في دمي، وتمكنُ الضغن له من فؤادي. أيرضيكم هذا؟

باسانيو : يا للرجل الذي ليست له أحشاء! ما هذا بالعذر الذي يعتذرُ به عن مثل هذه الخطة.

شيلوخ : ليس من الضروري ان يعجبك اعتذاري.

باسانيو : أكل إنسان يقتل من لا يحب؟

شيلوخ : أيوجد إنسان لا يحب قتل من يبغض؟

باسانيو : ما كل إهانة تتولد منها البغضاء حتماً؟

شيلوخ : أتريد أن ينكزك الثعبان مرتين؟

انطونيو : تذكر ــ رعاك الله ــ انك إنما تحاور اليهودي، وانه أيسر لك من إقناعه ان تقف على الشاطىء وتأمر البحر بالجزر في غير أوانه فيزدجر، او ان تسأل الذئْب لماذا يستبكي النعجة التي افترس صغيرها وتركها تثغو وراءه، او ان تحظر على صنوبر الجبل تحريك أغصانه الوريقة الشائبة، او الجهر بحفيف أعواده حين تصدمه الرياح، او ان تعمل أشقّ ما يرام عمله، من ان تتوصل إلى تليين أقسى شيء في الدنيا وهو قلب اليهودي ــ فقدْكَ توسلا، وحسبك جهداً، وليصدر عليَّ الحكم وشيكاً، ولتكمل مشيئة اليهودي.

باسانيو : هذه ستة آلاف دوقي بدلاً من ثلاثة الآلاف.

شيلوخ : لو قسم كل من هذه الدوقيات إلى ستة أقسام وصار كل قسم. دوقياً لما رضيت بها عوضاً ولا ابتغيت إلا إنفاذ الشرط.

الدوج : أية رحمة يجوز لك ان ترجوها وانت لا ترحم؟

شيلوخ : ماذا أخشى وانا لم أصنع شراً؟ للأكثرين منكم أرقاء شريتموهم بالأموال، وتستخدمونهم استخدامكم لحميركم، وكلابكم، وبغالكم في أعمال حقيرة، سافلة، بعذر أنهم مما ملكت أيمانكم بالشراء. فلو قلت لكم: أعتقوهم وزوجوهم من بنيكم او بناتكم، علام هم موقرون بالأحمال؟ لتكن أفرشتهم وثيرة كأفرشتكم، ولتكن أطعمتهم شهية كأطعمتكم ــ لأجبتموني: هؤلاء الأرقاء، هم ملكنا. وهذا عين ما أجيبكم به، فإن بضعةَ اللحم التي أطلبها من هذا الرجل، قد ابتعتها بثمن غال، وهي لي، وإياها أقتضي، فإن أبيتموها عليّ لم تجدُرْ قوانينكم بعد ذلك إلا بالازدراء ولم ترج طاعةٌ بعد لأوامر

البندقية ونواهيها. إني لأرقب حكمكم، تكلموا، أأظفر بذلك الحكم؟

الدوج : سآمر — وعلى العهدة — بإرجاء الدعوى، إلا إذا وفد اليوم العلامة بلاريو الذي بعثنا في طلبه لنسمع منه الرأي الفصل في هذه المعضلة.

سالارينو : مولاي، بالباب رسول من بادوا يحمل ألوكاً من ذلك الأستاذ.

الدوج : أدخلوا الرسول، وجيئوني بالرسالة.

باسانيو: تجلد يا انطونيو يا صديقي الحميم، ليأخذنّ اليهودي دمي وعظامي وكل شيء مني قبل ان تراق قطرة من دمك لأجلي.

انطونيو : إن انا إلا نعجة جرباء، ولا بد من موتي لنجاة السرح. أعجل الثمار إلى السقوط ضعافها فلأسقط. وانت فاسلم جدير بالبقاء. لا أسألك إلا ان تكتب كلمة ترحُّم على قبري.

(تدخل نريسا في زي كاتب محام)

الدوج : أقادم من بادوا. من قبل الأستاذ بلاريو؟

نريسا : نعم ياسيدي، وهو يقريء سموكم السلام.

باسانيو (مخاطباً شيلوخ الذي يشحذ سكينه على أديم حذائه): — لماذا تشحذ مديتك بهذا النشاط.

شيلوخ : لانتزاع لبرة من لحم هذا المفلس.

غراتيانو : إنما تشحذها على الحجر الذي بين جنبيك، لا على أديم نعلك، ايها اليهودي الغليظ الكبد، وأي حديد لو كان سيف الجلاد يعادل منك هذا الثقل والمضاء في الحنق والبغضاء. ألا تستمع لضراعة.

شيلوخ : لا أستمع، وخصوصاً لضراعة من مثل ما يوحيه اليك فكرك الثاقب.

غراتيانو : ويك! اذهب لعيناً أيها الكلب الجهنمي العقور! ولتكن حياتك شكاية من العدل. تكاد تزعزع إيماني، وتدخل على عقيدتي قول فيثاغور: إن نفوس البهائم تنتقل إلى جسوم الناس، فإن روحك، ولا ريب، كانت في ذئب أماتوه شنقاً لافتراسه إنساناً، فانطلقت تلك الخبيثة هائمة حتى انتهت اليك وأنت في بطن أمك السعلاة[1]. ذلك لأن بك ما بالذئب من النهمة

---

(١) السعلاة: انثى الغول.

إلى اللحم، والظمأة إلى الدم.

شيلوخ : ما دام قذعك وسبابك لا يمحو التوقيع عن الصك فأنت تتعب رئتيك في باطل. أيها الفتى أصلحْ ما اعتور عقلك من التلف، لئلا تقع في خبال عقام. هنا القانون حليفي.

الدوج : إن بلاريو في ألوكه[٢] هذا يوصي المحكمة بأستاذ مقتبل الشباب عليهم. أين هو؟

نريسا : ينتظر على مقربة إذن سموكم بالدخول.

الدوج: آذنه بارتياح. ليبادر ثلاثة أو أربعة منكم إلى ملاقاته، وليصحبوه في المجيء بصنوف الحفاوة، ولتقرأ في هذه المهلة ألوكة بلاريو.

المحضر (قارئاً) : « أرفع إلى علم سموكم أنني كنت معتلاً حين تناولت الكتاب الكريم، إلا أنه اتفق ساعة قدوم رسولكم أن عادني صديق في ريعان الشباب متضلعٌ من الحقوق، سنيّ المنزلة بين علماء رومة يدعى بلتزار، فطرحت عليه مسألة اليهودي، والتاجر انطونيو، وبعد أن راجعنا الكتب مليًّا أقررت رأياً سيطلعكم عليه معززاً بما يضيفه اليه من فيض علمه الواسع، وإدراكه السامي، وقد أجابني بعد إلحاحي عليه، الى النيابة عني في المثول لديكم، فألتمس ألا يحول العدد المنقوصُ من سنه دون ما هو حقيق به من التجلة لعلوّ كعبه في القانون، وما أذكر انني شهدت رأساً أشيخَ من رأسه على جسمه، فهو موكول الى حفاوتكم، وفضل رعايتكم، وفي يقيني ان أعماله ستكون أبلغَ في التوصية به من أقوالي ».

الدوج : سمعتم ما ذكره العلامة بلاريو، وهذا نائبه الفاضل إن صدق تخميني.

(تدخل برسيا في زيّ عالم حقوقي)

الدوج (مستمراً) : هات يدك. أقادم انت من قبل الشيخ بلاريو؟

برسيا : نعم يامولاي.

الدوج : على الرحب والسعة. اجلس. أتدري المسألة التي تهتم بها المحكمة الآن؟

---

(٢) ألوك: حديث، رسالة.

برسيا : أعرف المسألة بتفصيلها. مَن في هؤلاء التاجر؟ ومن فيهم اليهودي؟
الدوج : انطونيو وشيلوخ، تقدما كلاكما.
برسيا : أتُسمى شيلوخ؟
شيلوخ : اسمي شيلوخ.
برسيا : دعواك غريبة في بابها، ولكنها مسوقة سياقاً لا يملك معه قانون البندقية توقيفَ سيرها (مخاطبة أنطونيو) او انت الذي أمرك الآن منوط بأمره؟
أنطونيو : هذا ما يزعمه.
برسيا : أتعترف بالصك.
أنطونيو : أعترف به.
برسيا : على اليهودي إذن ان يكون رحيماً.
شيلوخ : من الذي يضطرني إلى الرحمة؟
برسيا : جمال الرحمة ان تكون خياراً لا اضطراراً. فهي كماء السماء ينهمل بالخير، ويهطل باليمن عفواً ممن وهب، ويتركه لمن كسب. فإذا كانت الرحمة عفواً صادراً عن مقدرة، فهنالك بهاء قدرتها، وازدهاء جلالها. أما تراها إذا تحلى بها الملك القائم كانت لهامته أزينَ من التاج، وفي يده أقوى من صولجان الأمر والنهي، وكان عرشها المنصوص في قلبه أعظم تمكيناً له من عرشه الذي يستوي عليه لأنها من صفات الله عز وجل، ولا يكون السلطان الدنيوي أقربَ شبهاً إلى السلطان العلوي منه، إذ يلطفُ العدل بالرحمة. فيا ايها اليهودي، مهما يكن من استنادك في دعواك إلى العدل، فلا تنس ان الله لو عامل كلاً منا بمحض العدل لما بات إنسان على أدنى رجاء بالمغفرة والنجاة. لهذا نستغفر الله كل يوم في أدعيتنا. وكما نستميحه العفو يجب علينا ان نكون من العافين عن الناس. وإنما خاطبتك لهذا الخطابَ لأنبهك إلى ما في طلبك من التغالي، بل الإغراق في التقاضي، فإن لبثت على إصرارك مع هذا فلا يسع المحكمة إلا الإمتثال لما يوجبه القانون من عقوبة هذا التاجر.
شيلوخ : لتقع تبعة أعمالي على رأسي. أتشبث بالقانون، وألح في إنفاذ شرطي.
برسيا : أليس في طاقته أن يوفي الدّين؟!

باسانيو : بلى في طاقته، وانا مستعد لأدائه في هذه الحضرة، بل لأداء مثليه، فإن لم يكتف تعهدت بعشرة أمثال المطلوب تعهداً أفادي عليه بساعدي، ورأسي، وقلبي. فإن لم يكتف تبين إذن ان العوج يدُول من الإستقامة، او ان الرذيلة ترهق الفضيلة، فإليكم أضرع بإلحاف ان تلطفوا بسلطانكم قدرته على الإساءة، متوسلين بأدنى الضير، للوصول إلى أسنى الخير، كابحينَ بتأييد من الله الرحيم جماح هذا الشيطان الرجيم.

برسيا : هذا ما لا ينبغي كونه. وما من قوة في البندقية تستطيع تشذيب القانون النافذ. فلو فعل ذلك لأعقبه ما لا يحصى من ضروب التجاوز قياساً على هذا التجاوز الأول.

شيلوخ : ليس قاضينا إلا دانيال ذلك النبي الكريم. أجل هو دانيال. ألا أيها القاضي المليء بالحكمة على نضارة عودك، ما أجلّ قَدرك في نفسي!

برسيا : أستميح الاطلاع على الصك.

شيلوخ : ها هو ذا أيها العلامة الموقر، ها هو ذا.

برسيا : شيلوخ قد عرض عليك ثلاثة أمثال المقدار.

شيلوخ : سبق اليمين. سبق اليمين. حلفت بالله، أفأحنث؟ لا، ولو أُعطيت البندقية كلها.

برسيا : انقضى أجل هذا الصك، وبموجب الخط الذي فيه حقّت لليهودي قانوناً لبرة من لحم التاجر تُبضَع مما حول القلب. إيهاً. كن رحيماً. تقبل ثلاثة أمثال نقودك وَأجزْ لي ان امزق هذا الصك.

شيلوخ : ليمزقْ بعد إجراء مقتضاه. بيِّنٌ أنك قاضٍ جليل، عليم بالقانون، فقد شرحت الموضوع شرحاً هو الصحة بعينها، فباسم القانون الذي انت من عمادة الراسخات اكلفك إيقاع الحكم، وأقسم بنفسي إنه ليس في قدرة فصيح من البشر ان يحوّلني عن قصدي، فلا مناص من إنقاذ حكمي

انطونيو : ألتمس من المحكمة بإلحاف إيقاع حكمها.

برسيا : الحكم يوجب تعريض صدرك لمديته.

شيلوخ : يا للقاضي النبيل! يا للفتى اللبيب!

برسيا : ذلك لأن القانون موافق بجلاء وثبوت على الحقوق التي خولّه إياها نص الصك.
شيلوخ : قول لا ريب فيه. أيها القاضي الحكيم العادل. ما أكبر سنك عقلاً وما أقلها اعواماً.
برسيا : اكشف له صدرك.
شيلوخ : نعم صدره. هكذا كتب في الصك. أليس كما أقول أيها القاضي الشريف؟ بجوار القلب؟ هكذا ذُكر بالحرف.
برسيا : لا معارضة. أيوجد هنا ميزان لوزن اللحم؟
شيلوخ : الميزان معي.
برسيا : يجب أيضاً ان يكون هنا جرّاح على نفقتك يا شيلوخ مخافة ان يموت الخصم من شدة انتزاف دمه.
شيلوخ : أهذا وارد في الصك؟
برسيا : لم يرد في الصك، ولكنه عمل إنساني يحسن بك ان تعمله.
شيلوخ : لا أرى ما ترى، وما لذلك ذكر في الصك.
برسيا : إذن أيها التاجر. ألك أقوال.
أنطونيو : شيء غير كثير، انا متأهب وصابر. هات يدك يا باسانيو وتلقّ وداعي. لا يحزنك ان صرت هذا المصير من أجلك، فإن المقادير قد رَفقت بي رفقاً ليس من مألوفها في مثل مصابي. فمن مألوفها ان تبقي من فقد جاهه حياً، غائرَ العينين مثقلَ الجبين بالغضون. يتوقع شيخوخة البؤس والفاقة اما انا فإنها أنقذتني من هذا العذاب الطويل، وغاية ما أرجو ان تذكرني بخير لدى عروسك المشرفة، وتخبرَها كيف كانت نهاية أنطونيو، وتصف مبلغ حبي لك وتبثها بثك، مما ألم بك حين شهدت ميتتي، فإذا فرغت من ذلك ان تسألها: « ألم يكن لي صديق؟ » ثم ألا تعاتب نفسك على وفاة ذلك الصديق، فإنه هو غير آسف على إبرائك من دينك، مع علمه ان مدية اليهودي لو انحرفت، او تمادت قليلاً لذهبت بالقلب كله فداءً لك.
باسانيو : اي أنطونيو، لقد شركت في حياتي امرأة أهواها كهواي، للحياة، غير انني أكاشفك انه لا الحياة، ولا امرأتي، ولا الدنيا كافة بالشيء الذي

يعادل عندي بقاءك، فإني لأرضى بفقد أولئك جميعاً، وتقديم أولئك جميعاً قرباناً لهذا الشيطان في سبيل نجاتك.

برسيا : لو سمعتك زوجتك لما أعجبها هذا العرض الذي تعرضه.

غراتيانو : لي عروس أحبها كل الحب، وتالله لو علمت انها بانتقالها إلى السماء وبشفاعتها يلين قلب هذا اليهودي الوحشي لسخوت بها.

نريسا : الحمد لله ان سماحك هذا إنما ذكر في غيابها، ولو سمعته لما عشتما في رفاء.

شيلوخ (منفرداً) : كذا حال الأزواج من النصارى. لي فتاة وددت لو بنى بها يهودي حتى من نسل باراباس لا مسيحي كائناً من كان (جهراً) نحن نضيع الوقت تفضلوا وانطقوا بالحكم.

برسيا : حقّ لك رطل من لحم هذا التاجر، فخذ ما ثبت لك بموجب القانون وبأمر المحكمة.

شيلوخ : يا لك من قاض عادل!

برسيا : ثم لك ان تقتطع الرطل من صدره بموجب القانون وأمر المحكمة.

شيلوخ : يا للقاضي العالم! كذا الأحكام. تأهب.

برسيا : رويدك. لم نستوف الحكم. الصك لا يجيز لك استنزاف قطرة من الدم، بل نصه بالحرف « من اللحم »، فخذ إذاً ما هو لك. خذ رطل اللحم، ولكن إذا سفكت عند اقتطاعها نقطة واحدة من دم مسيحي قضى عليك قانون البندقية باستصفاء أملاكك وأموالك ومآلها الى الحكومة.

غراتيانو : يا للقاضي المنصف! ما قول اليهودي؟ يا للقاضي العلاّمة!

شيلوخ : أهذا ما يقوله القانون؟

برسيا : سنطلعك على النص، لأنك طالب عدل، فلن نرجع في الحكم إلا الى العدل، أدق ما يكون العدل.

غراتيانو : يا للقاضي العليم! ما قول اليهودي؟ يا للقاضي الفضيل!

شيلوخ : أما والحالة هذه فأنا اقبل ما عرض عليّ. ليدفع إليَّ ثلاثة امثال القدر، ويطلقْ سراح النصراني.

باسانيو : ها النقود

برسيا : مهلاً، سينصف اليهودي كل الإنصاف. مهلاً لا تتعجل. سيعطى حقه.
غراتيانو : يا يهودي أملي ان يكون هذا القاضي عادلاً وعالماً كقولك.
برسيا : تأهب إذاً لانتزاع البضعة بلا إراقة دم، واحرص ان تقتطع الرطل لا زيادة ولا نقصاناً. فإذا وجد فرق، ولو لم يكن إلا عُشر معشار الذرَّة، او لم يكن إلا مثقال شعرة في رجحان كفة من الميزان على الاخرى، قتلت وصودرت أموالك.

غراتيانو : هذا دانيال ثان. هذا دانيال يا يهودي. الآن قد امسكت بتلابيبك.
برسيا : ماذا تنتظر ايها اليهودي؟ خذ حقك.
شيلوخ : أعيدوا إليَّ أصل قرضي وأنصرف.
باسانيو : هو معدّ لك. ها هو ذا.
برسيا : أباه على المحكمة، فلا بد من أخذه الحق الذي تقاضاه دون سواه، كنص القانون بالتدقيق.

غرانيانو : دانيال بعينه. دانيال ثان. اشكر لك تعليمي هذه اللفظة.
شيلوخ : ألا يرد عليَّ اصل مطلوبي؟
برسيا : لن تأخذ يا يهودي إلا ما هو لك، فتناوله وعليك تبعاته.
شيلوخ : إن كان الأمر كذلك فليحتفظ به ولينصرف عني الى جهنم. لن اطيل الإرغاء في هذا المعنى.

برسيا : على رسلك أيها اليهودي، لم ينتهِ الحكم بعد، وإن في القانون لبقية تعنيك. فقد جاء فيه أنه إذا ثبت على اجنبي توسله بوسائل مباشرة، او مداورة للقضاء على حياة واحد من الأهلين، حقٌّ للمشروع في الجناية عليه نصف ما يملكه الشارع في الجريمة، وللحكومة النصف الآخر، وجعلت حياة المأخوذ بالذنب رهن إشارة الدوج بانفراده، فأنا أجهر بأنك تحت طائلة هذا النص، لأنه ظهر جليًّا أنك بوسائل منحرفة ومباشرة، تآمرت على حياة المدعى عليه، وأوجبت على نفسك ذلك العقاب. فاجث والتمس رحمة الدوج.
غراتيانو : استأذن بأن تنصرف فتقضي على نفسك شنقاً. ولما كانت أموالك

قد آلت إلى الحكومة، ولم يبق لديك ثمن الحبل تشتريه فمماتك سيكون على نفقة الجمهورية.

الدوج : إني أمنحك الحياة قبل ان تلتمسها مني، لتعَلم الفرق بيننا وبينك، وإذا أبديت ندماً على ما فات منك لطفت من القصاص الذي يجعل نصف أموالك لأنطونيو والنصف الآخر للحكومة، فحولت الشطر الثاني منه الى غرامة فحسب.

برسيا : فيما يرتبط بالنصف الذي يرجع الى الحكومة، دون النصف الذي يرجع الى انطونيو.

شيلوخ : خذوا حياتي إلحاقاً لها بالباقي، فإنكم اذا أزلتم ركن البيت ذهبتم بالبيت. أفأعيش وأنتم لا تدعون لي ما أعيش به؟

برسيا : بماذا تجود رأفتك عليه يا انطونيو؟

غراتيانو : بحبل لا أكثر وأيم السماء.

أنطونيو : أضرع الى مولاي الدوج، والى المحكمة، ان يترك له نصف أمواله، وحسبي ربع النصف الآخر على عهد مني بتسليم ذلك النصف، حين وفاة اليهودي الى الرجل الذي تزوج ابنته، ولي على تحقيق هذا العهد شرط، هو ان يوقع الآن بحضرة المحكمة، على صك يخرج به عن كل مال في حوْزته يوم وفاته لصهره لورنزو وكريمته.

الدوج : ليفعل او أسترد عفوي.

برسيا : أتقبل أيها اليهودي؟ بمَ تجيب؟

شيلوخ : أقبل.

برسيا : ايها المحضر، حرر صك الهبة من فورك.

شيلوخ : تكرموا وأذنوني بالإنصراف، فقد انهد عزمي، ومتى جاءني الصك أمضيته.

الدوج : لك ان تنصرف، ولكن إياك ألا توقع.

غراتيانو : سيكون لك عرّابان حين تنصيرك، لكنني لو كنت انا قاضيك لكان لك بدلهما عشرة نفر يحملونك الى المشنقة.

(يخرج شيلوخ)

الدوج (مخاطباً برسيا) : أرجو يا سنيور ان تجيب دعوتي الى العشاء الليلة.
برسيا : ألتمس خاشعاً من سموكم إعفائي، فإنني عائد الى بادوا من ساعتي.
الدوج : أنا آسف لهذا الإسراع. اشكر يا انطونيو لهذا العلاّمة صنيعته اليك، فإنها لكبيرة فيما أظن.

(يخرج الدوج والشيوخ بعد مطالعة عقد الهبة صامتين)

باسانيو : أيها السيد المبجل، إني وصاحبي لصنيعتاك منذ اليوم، بما أقررت به أعيننا من آيات حكمتك، وبما أنقذتنا من فادح الخطب، فنبتهل اليك ان تتقبل ثلاثة آلاف الدوقي التي كانت لليهودي، لا أجراً وفاقاً، بل بعضَ الجزاء لما مننت به علينا من حسن مسعاتك.
أنطونيو : هذا مع بقائنا مدينين لك مدى العمر، بما هو فوق المال، ومع إيجابنا على نفسنا كل خدمة وكل وفاء لك الى آخر أيامنا.
برسيا : كفى بالمبرّة مرضاةً للبارّ، إني لمسرور لكوني أنقذتكما فأعتدّ هذا جزاءً وافياً، ولم أكن قط ممن يقيمون للدينار وزناً، ونهاية ما أرغب فيه اليكما هو أن تعرفاني حين نلتقي بعد الآن، وأسأل الله لكما النعمة والهناء، مستأذناً بالانصراف.
باسانيو : اغفر لي يا سنيور إلحاحي عليك بأن تقبل هدية منا، على سبيل الذكرى لجميلك، لا على سبيل المكافأة، وأتشدد في التماس أمرين منك: قبول الهدية، والصفح عن إلحاحي.
برسيا : أراك تلجّ لجاجة لا تُبقي لي مندوحة من القبول (مخاطبة انطونيو) أعطني قفازيك سألبسهما تذكراً (مخاطبة باسانيو) وأنت أقبل منك هذا الخاتم علامة على مودّتك. لا تردّ يدك. لن آخذ منها أكثر من هذا، وإخالك مجيبي الى ما طلبت.
باسانيو : هذا الخاتم يا مولاي — واشقوتا! — أستحيي ان اسديك شيئاً بهذه القيمة الدنيئة.
برسيا : بل هو الشيء الفرد الذي أقبله، والآن قد ازددت رغبة فيه.
باسانيو : لهذا الخاتم ثمن معنوي عندي لا مناسبة بينه وبين ثمنه المالي، فدعه لي على ان أبتاع لك أغلى خاتم في البندقية، خاتم ارسل في التماسه

الدلّالين والمنادين منبثّين في كل جهة. أيكفي ذلك لتعذرني عن السماح بهذا الخاتم؟

برسيا : أجد يا سنيور أنك لا تجود إلا بالوعود، وقد علمتني كيف أقترح، ثم تعلمني الآن كيف أمنع ما يثقل على الطبع من العطاء.

باسانيو : إني يا سيدي متشبث بهذا الخاتم، لأن امرأتي قد وهبتني إياه، واستحلفتني حين وضعته في اصبعي ألا أبيعه، ولا أسمح به، ولا أفقده.

برسيا : هذا اعتذار يعتذر به غير واحد من الرجال عن إهداء ما يطلب منهم، إلا أنني أعتقد ان امرأتك إذا علمت بما فعلته لاستحقاق هذه الهبة لم يغضبها تخليك عن الخاتم، في الحد الذي تتصوره، إلا إذا كان بها مسّ من الجنون. لا بأس. السلام عليكم.

(تهم بالإنصراف)

أنطونيو (مخاطباً باسانيو) : أعطه هذا الخاتم يا سنيور باسانيو، ألا تضع خدمته لي وصداقتي لك في كفة من الميزان، تقابل الكفة التي فيها نهى عروسك؟! عجل واهده اليه.

باسانيو : اليك يا مولاي المبجل هذا الشيء الذي رغبت فيه، قد طابت نفسي عنه لك، وأنت المتفضل الحميد، حياك الله يا مولاي.

أنطونيو : حياك الله أيها السيد الأمثل، ليتك تسمح بزيارتي الآن مع السنيور باسانيو فتزيدني إحساناً.

برسيا : أعتذر اليك على أسف مني، لأنني مضطر إلى السفر عاجلاً.

(يخرج باسانيو وأنطونيو ويدخل خادم فيدفع ورقة الى نريسا)

نريسا : هذا صك اليهودي قد جيء به الآن.

برسيا : لنذهب إلى اليهودي فيوقعْ عليه حالاً، ثم نبحرْ من فورنا لنسبق زوجينا الى القصر.

(يخرجان)

الفصل الخامس

المشهد الأول

بلمنت ــ شارع أمام قصر برسيا

(يدخل لورنزو وجسيكا)

لورنزو : القمر يضيء إضاءة ساطعة. في مثل هذه الليلة كان النسيم الخفيف يداعب الأوراق مداعبة لا يسمع لها حفيف، وكان ترويل على أسوار طروادة، يتنفس الصُّعداء ملتفتاً نحو خيام الإغريق، ذاكراً حبيبته كريسيده.

جسيكا: في هذه الليلة كانت تسباتطأ الندى. فرفع لها طيف أسد قبل ان ترى الأسد ففرّت مروَّعة.

لورنزو : في مثل هذه الليلة كانت ديدون، وبيدها غصن صفصاف واقفة على شاطيء البحر تنادي عشيقها وتشير اليه ان يعود الى قرطاجنة.

جسيكا : في مثل هذه الليلة ذهبت ميده تقطف الأنبتة السحرية التي بها تجدّد شباب إيسون.

لورنزو : في مثل هذه الليلة فرّت جسيكا من بيت اليهودي الغني لاحقةً بعاشقها المخاطر من البندقية الى بلمنت.

جسيكا : وفي هذه الليلة حلف لها محبها اليافع لورنزو ان يهواها إلى آخر نسمة من حياته، وقطع لها على الثبات عهوداً، لن يكون صادقاً في أحدها.

لورنزو : وفي مثل هذه الليلة وشت المعشوقة الماكرة جسيكا بمحبها فغفر لها ما فرَّط من ذنبها.

جسيكا : لولا سماعي خُطى قادم لأطلت هذه المحاورة.

(يدخل ستفانو)

لورنزو : من الساري بهذه السرعة؟

ستفانو : صديق.

لورنزو : اي صديق؟ ما اسمك بحق الوداد ايها الصديق؟

ستفانو : اسمي ستفانو. وقد جئت لأبشركم بأن مولاتي لا تلبث ان تصل الى بلمنت وهي هائمة على وجهها، كلما صادفت أحد الصلبان المقدسة في طريقها جثت وضرَعت إلى الله بأن يبارك في قرانها.

لورنزو : من يصحبها!

ستفانو : لا أحد سوى وصيفتها وناسك. أخبرني متفضلاً: أعاد مولاي؟

لورنزو : لم يَرِدْ نبأ عنه الى الآن. لنعد يا جسيكا الى البيت ونهيء لربَّة القصر لقاءً لائقاً بها.

(يدخل لنسلو)

لنسلو : هيا. هيا. هو هيا.

لورنزو : مَن ينادي؟

لنسلو : هيا. أرأيت المسيو لورنزو؟ أرأيت السيدة قرينة لورنزو؟ هيا. هو.

لورنزو : كفى صخباً. ها هما.

لنسلو : هيا. أين. أين هما؟

لورنزو : هنا.

لنسلو : قل لهما إنه جاء بريد من قبل سيدي مملوء الجيوب أخباراً سارّة، وسيكون سيدي في هذا المكان قبيل الفجر.

(يبتعد)

لورنزو : هلمي ندخل يا روحي العزيزة، وننتظر عودهما. ولكن لا. علامَ

الدخول. قد أبلغ الصديق ستفانو أهل القصر أن مولاتك على وشك القدوم، وقد جاء بالموسيقيين الى هذا الخلاء ليكونوا في الهواء الطلق.

(يستعد ستفانو)

لورنزو (متمماً) : ما أرقّ ضوء القمر في انبساطه هادئاً على وجه هذه المرجة الخضراء. لنجلس ونشنّف آذاننا بأنغام الموسيقى، فإن الظلام والسكوت أفضل مواقع الألحان. اجلسي يا حبيبتي جسيكا وسرّحي الطرْف في هذا الفضاء العلوي الممدد تمديد المستوى الخشبي الصقيل، وقد رصع بما لا يحصى على الصُّحيفات الذهبية اللامعة. ما من جرم في هذه الأجرام التي ترينها إلاّ وهو ضام نغمته السماوية الى خورس الملائكة ذات العيون الملأى صبا، ومثل هذا الشجى الشائق يتردد في النفس الخالدة، ولكن الكساء الضافي علينا من نسج الفساد وحمأة الصلصال يحول دون سماعنا ذلك الإيقاع.

(يدخل الموسيقيون)

لورنزو : تعالوا، ولتستيقظ ديانا على أصواتكم. أطربوا بمحاسن ألحانكم مسامع سيدتكم، وليجتذبها الشوق نحو مستقرها.

جسيكا : لا أستطيع ان أكون فرحة عندما أسمع موسيقى شجية.

لورنزو : ذلك لأن قواك تكون صاغية. انظري الى مقنبة من المهار الوحشية الوثابة، ولما تبلُ ما بالشكيم والحكم من حكم وألم، تجديها مندفعة بحرارة دمها الغالي اندفاع ما لا رادّ له، تقرع الهواء برنّات صهيلها. فإذا حملت الريح اليها بغتة عزفاً موسيقياً وقفت جماعةً من فورها، وغلب فعل النغم الذي سكنت اليه على تلك العزيمة الهمجية التي كانت تتّقد في عينيها، ولهذا ادَّعى الشعراء، وما أخطأوا، أن اورفه كان يجذب اليه الأشجار والصخور واللجج، إذا ما من مخلوق بلغ ما بلغ من البلادة وجمود الحس والهمجية إلا وللموسيقى تأثير في طبيعته. الرجل الذي لا يشعر بالموسيقى ولا يهزّه الطرب إنما هو مفطور على الغدر والاحتيال والاغتيال. حركات نفسه قطوب كقطوب الظلام، وأهواؤه سود كأهواء الريب. وقصارى القول إنه رجل يحذر شرّه ويتقى أمره. نتسمع للموسيقى.

(تظهر برسيا ونريسا من جانب آخر)

برسيا : هذا النور الساطع منبعث من كوّة المزارة الكبرى في قصري، ما أبعد مداه بالإضاءة، وما أشبهه بالعمل الطيب في هذا العالم الخبيث.

نريسا : لم ننظره قبل ان يغشى السحاب القمر.

برسيا : وهكذا المجد الصغير يستغرقه المجد الكبير. يظل رسول الملك متألق المظهر، حتى يجيء مولاه، فيتوارى الرسول في جلال الملك، كما يتلاشى الجدول الضعيف في البحر الواسع. أسمع أنغام موسيقى. لنصغِ اليها.

نريسا : هذه موسيقى القصر.

برسيا : قيمة الأشياء أبداً نسبية، ويخيّل إليَّ أن هذه الألحان أشجى الآن منها في النهار.

نريسا : السكوت يا سيدتي يعيرها هذا الطرب.

برسيا : إنما الغراب والقنبراء واحد في أُذن من لا ينصت اليهما، وعندي أن البلبل لو غرّد نهاراً بين صداح الإوز، لما أنزل من الطرب إلا في منزلة البوبانة. وكم من الأشياء لا يتأتى سناء قدرها، ولا يتسنى لها تمام بهجتها، إلا من ملاءمة آنها او أينها، صه، قد رَقَّ النغم لئلا يستيقظ العاشقان النائمان على وساد واحد.

(ينقطع صوت الموسيقى)

لورنزو (قادماً ومخاطباً أحداً وراءه) : هذا صوت برسيا، او شدّ ما أنا مخطىء.

برسيا : عرفني كما يعرف الأعمى رنّة الواقته، لسوء ما تتشبّه نغماتها بنغمة الطائر.

لورنزو : على الرحب نزولك في دارك يا مولاتي.

برسيا : ضرعنا إلى الله استدراراً للخير على زوجينا، وأملنا ان يكون دعاؤنا قد استجيب. أرجعا؟

لورنزو : تقدم يشير بقرب ورودهما.

برسيا : ادخلي القصر يا نريسا، وأوصي خدمي بألا يبوحوا بغيبتنا. وانت يا لورنزو، حذار ان تفشي السر، وأنت يا جسيكا.

(يسمع معزف)

لورنزو : هذا معزف قرينك، فهو قاب قوسين منا. نحن حفظة للعهد، فلا تخشى ان نكاشف أحداً بما في الضمير.

برسيا : يكاد الليل، وهذا إقماره، يشبّه بالنهار، غشيت السحب شمسه فبدا في حلة من البهار.

(يدخل باسانيو وأنطونيو وغراتيانو وأتباعهم)

باسانيو : لو حلي الليل بطلعتك لكانت الشمس معنا في هذا المكان وفي مقاطره من الأرض.

برسيا : يضيء نوري من غير ان يزدهر، فإلى المرأة البعيدة الإشراق لا يكون زوجها إلا محنقاً غضوباً، وبودي ألا تكون ذلك أبداً. إنما يفعل الله ما يشاء. أهلاً بك يا مولاي في أهلك وسهلاً في سهلك.

باسانيو : حياك الله، وشكر لك عني يا سيدتي تفضلي ورحبي بصديقي، هذا أنطونيو هذا هو الرجل الذي أنا مدين له بكثير.

أنطونيو : غير أنني قد كوفئت أحسن مكافأة عن كل ما كان.

(يحدث حوار بين غراتيانو ونريسا)

برسيا : مرحباً بك في هذا الصرح يا سنيور، سنحاول إثبات وفائنا لك بغير الألفاظ، فدعنا من المجاملة الشفوية غير المفيدة.

غراتيانو (مخاطباً نريسا) : وأيم هذا القمر المنير، لأنت مخطئة بشكواك مني. قسماً بقولي ــ وإنه لصادق ــ لم أهد الخاتم إلا إلى كاتب المحامي، ليت ذلك الكاتب لم يكن ولا السبب الذي أثر فيك هذا التأثير كله.

برسيا : ويكما أبدأتما الشجار؟ علام تختلفان؟

غراتيانو : على خاتم ذهب لا قيمة له، أعطتني إياه، وعليه كلمات منقوشة مما يحفر مثله صناع المدى، وتلك الكلمات هي بلفظها: « أحببني ولا تتركني ».

نريسا : ما دخل القيمة او النقش؟ عندما وهبتك إياه، أقسمت لي أنك تستبقيه الى الممات، بل ستصحبه الى القبر، فكان جديراً بك تحرماً لايمانك المغلظة ان تحتفظ به. لكنك تزعم انك جدت به على كاتب محام. وأنا على يقين من ان ذلك الكاتب لم ينبت الشعر في ذقنه.

غرانيانو : سينبت له عذار إذا أدرك الرجولة؟
نريسا : أجل! على تخمين ان الأنثى تصبح ذات يوم ذكراً.
غراتيانو : أعزم انني أهديته الى غلام مراهق، ربعة لا ينيف عليك طولاً، وهو كاتب القاضي. التمسه مني أجراً لخدمته ولم أجرؤ ان أضنّ به عليه.
برسيا : إذا وجبت المصارحة بما في الضمير فقد أخطأت بأن منحته — من غير أن تصبر — أول هدية أهدتها اليك امرأتك، ولا سيما انها خاتم تقلدته، مقسماً بالحرص عليه، وكان جديراً بأن يستمر لصيقاً بلحمك مدى العمر، لأنه عربون الوفاء الزوجي، على انني قد أهديت إلى قريني خاتماً من قبيله، واستحلفته ألا يطيب عنه نفساً، فاسأله تتيقن كيقيني انه لو بودل عليه بكنوز الخافقين، لما أخرجه من اصبعه. حقاً يا غراتيانو. لقد أحدثت في نفس امرأتك سبباً مثيراً للشجن، ولو أحدث بعلي مثله في قلبي لذهب بلبي.
باسانيو (منفرداً) : يا للداهية. كان خيراً لي ان أقطع يسراي، وأقسم انني لم أفقد الخاتم إلا بعد دفاع مجيد.
غراتيانو : السنيور باسانيو منح خاتمه للقاضي، بعد ان لج في طلبه، وكان القاضي خليقاً بأن يعطى ما يشاء، أما انا فقد رغب إليَّ كاتب سره في الحصول على الخاتم الذي بيدي، فعرفت له قدر ما كتب، وما تعب، وحققت أمله. على انهما كليهما قد عفّا عن كل جزاء منا إلا هذين الخاتمين.
برسيا : اي خاتم وهبت ايها السيد، لعله غير الذي أخذته مني.
باسانيو : لو استطعت ان أضيف أكذوبة الى ذنبي لأنكرت، ولكنك ترين ان الخاتم ليس في اصبعي، وقد فقدته.
برسيا : ويحك من قليل الإيمان حانث بالإيمان؟ آليتُ بالعلي العظيم ألا أدخل سريراً انت فيه ما لم أجد خاتمي.
نريسا : وأحلف مثل حلفتها او أجدَ خاتمي.
باسانيو : يا سيدتي الجميلة! لو كنت تعلمين لمن أعطيته، ومن أجل من أعطيته، وبعد أي تمنع أعطيته، إذ لم يرضه اي شيء سواه، لرفهت عليك، وخففت من كدرك.
برسيا : وانت لو علمت قيمة ذلك الخاتم، او نصف قيمة الإنسان الذي

وهبك إياه، ولو أدركت ان شرفك مرتبط بألا تتخلى عنه، لما طبت عنه نفسه. ولو تشددت بعض التشدد الواجب في الدفاع، لما سمح رجل عنده ما قلّ من الرقة، او الكياسة، او الأدب ان يصر على سلبك شيئاً له عندك مثل تلك الكرامة. لقد أفهمتني نريسا ما يجدر بي ان أظنه. وانا الآن على ثقة من ان الخاتم إنما أهدي الى امرأة.

باسانيو : لا يا سيدتي، أعزم على شرفي، وعلى نجاة نفسي إن الذي تلقى الخاتم ليس امرأة، بل عالم حقوق لم يرضَ ثلاثة آلاف دوقي عرضناها عليه، وانما ابتغى خاتمي، فبعد أن أبيته عليه، وكاد ينصرف مغضَباً، مع أنه منقذ صديقي ــ ماذا أقول لك ايتها الحبيبة برسيا ــ غلبني على أمري عظمُ جميله، واستحييت من ضَنّي عليه تجاه تفضله عليّ فلم أجرؤ ان أدع على شرفي وَصْمة عار كوصمة هذا الجحود للإحسان، فاغفري لي ذنبي يا مليكة لُبّي، وأستشهد كواكب السماء، مصابيح هذه الليلة البيضاء، انك لو كنت حاضرة لأمرتني أمراً بإعطاء الخاتم لذلك الذكي العالم.

برسيا : حذار ان تدنو عالمك من حرمي، فتالله لو جاء بعد أن حصل على الحلية التي كانت عزيزة عليّ، وكنت حالفاً بالحرص عليها من أجل حبي، لو جاء لَما بخلت عليه بشيء يطلبه مما لا ابيحه إلا قريني دون سواه. واعلم انني سأعرفه، فإياك ان تتغيب ليلة واحدة، وألا ترقبني دائباً بعيون الحذر، فإنك إن قصرت في ذلك، او تركتني يوماً منفردة فو إيم شرفي الذي ما زال ملكي، لأبيتنّ وضجيعي ذلك العالم.

نريسا (مخاطبة غراتيانو) : وليكونن ضجيعي كاتبه إن غفلت عني.

غرانيانو : ليفعل إن استطاع، ولكن إياه ان يقع في يدي فأهشم بها قلمه.

أنطونيو : يا أسفي! أنا المسبب لكل هذا الشجار.

برسيا : لا تُبالِ ذلك يا سنيور، مرحباً بك على كل حال.

باسانيو : برسيا! اصفحي لي عن هذه الغلطة التي وقعت برغمي، وأُقسم على مرأى ومسمع من أصحابنا هؤلاء. أُقسم بعينيك اللتين أرى فيهما...

برسيا : يا أيها الرجل الذي هو اثنان في واحد، وكذلك يتراءى في كل من عيني. اقسم بازدواجك هذا اصدّق يمينك.

باسانيو : رحماك! اصغي إليّ. تجاوزي لي عن هذه الغلطة، وأحلف بنفسي انني لن أحنث بايماني لك بعد اليوم.

أنطونيو (مخاطباً برسيا) : قد سلف انني رهنت من أجله حياتي، وهي تلك الحياة التي كدت أسلبها، لولا العالم الذي كوفىء بذلك الخاتم. واليوم أرتهن لك عهدي عنه بأنه لن يحنث عن عمد، او على علم منه، بأي أمر يكون قد عاهدك عليه.

برسيا : رضيت بك ضامناً، فأعطه هذا الخاتم، وأوصه بأن يحرص عليه أكثر مما حرص من قبل.

(يتناول خاتماً ويدنيه إلى باسانيو)

انطونيو : تناول هذا الخاتم يا سنيور باسانيو واحلف بأنك تصونه.

باسانيو : وإيم الله هو نفس الخاتم الذي وهبته للعالم.

برسيا : من يده تلقيته، وغفرانك يا باسانيو!

نريسا (مخاطبة غراتيانو) : كذلك أنا ألتمس عفوك يا حبيبي غراتيانو، فإن ذلك الفتى المتقاصر، كاتب القاضي، قد أعاد إليَّ هذا الخاتم الليلة البارحة.

غراتيانو : غرابة وأي غرابة! أفرخت لنا قرون ولم يحن نباتها! ما أشبه هذه الحالة بإصلاح الطرقات الجميلة صيفاً حيث لا حاجة الى ذلك الإصلاح.

برسيا : لطف من ألفاظك! أجدكم جميعاً دهشين (مخاطبة باسانيو) هذا كتاب تقرؤه — حين فراغ — كتبه بلاريو من بادوا، وفيه أن برسيا هي العالم، ونريسا هي ناموسه. وسيخبركم لورنزو انني سافرت منذ سافرتم، وأنني إنما عدت الآن قبيل عودتكم، فلم أملك ان أدخل قصري. انطونيو مرحباً بك، وإليك نبأً مبهجاً لم يكن في حسبانك: افضض سريعاً هذا الألوك ترَ فيه ان ثلاثة من مراكبك مليئة بأثمن الأوساق قد بلغت الى المرفأ سالمة، بعد اليأس من نجاتها، ولن أذكر لك المصادفة التي أوصلت إليَّ هذا الكتاب قبل انتهائه اليك.

انطونيو : عيّ لساني.

باسانيو: (مخاطبا برسيا): يا عجباً! أأنت التي كانت ذلك القاضي ولم نتبينك؟!

غرانيانو (مخاطباً نريسا) : يا عجباً! آأنت كنت ذلك الناموس الذي انتدب ليستنبت لي قرنين؟!
نريسا : نعم، ولكن ذلك الفتى لن يفعل ما ذكرت حتى يصير رجلاً.
باسانيو (مخاطباً برسيا) : نعم العلاّمة الخلاّبة، ستكون ايها الأستاذ قسيمي في سريري، واذا انا غبت ضجيع امرأتي.
أنطونيو (قد أتم القراءة) : يا سيدتي لقد أفضت عليَّ جميع النعم في إفاضة واحدة: الحياة ومقوّماتها، وان هذا الألوك ليؤيد تأييداً مانعاً للريب رسوّ سفني ناجية في الميناء.
برسيا : ثم اعلم يا لورنزو ان في حقيبة كاتبي أنباء تسرك أيضاً.
نريسا : أجل، وسأعطيكها غير مأجورة، فهذا عقد بموجبه نزل اليهودي الغني لك ولجسيكا نزولاً قانونياً وثيقاً عن جميع أملاكه وأمواله بعد مماته.
لورنزو : أيتها السيدتان الشائقتان لقد أغدقتما المن وأمطرتما السلوى على الجياع والعطاش.
برسيا : أوشك الفجر أن يلوح، وما أجد عند أحد منكم إلا رغبة في الوقوف على تفصيل هذه الحوادث، فهلموا ندخل، فتسألونني وأجيبكم بجلاء عن كل ما تستوضحون.
غراتيانو : حباً وكرامة. لكنني سأسأل نريسا بادىء بدء عما اذا كانت تؤثر التريث على المبيت الى الليلة الآتية او اغتنام الساعتين الباقيتين من السحر. اما انا فلو كان الوقت نهاراً لتمنيت عودة الظلام وقضاء ساعاته في هناءة مع كاتب القاضي، ولن أخشى ما حييت بعد الآن إلا ان أفقد خاتم نريسا.
(يبتعدان ويهبط الستار)

﴿ تمّت ﴾

حُلم ليلة صيف

تعريب

أ. ر. مشاطي

أشخاص المسرحية

تازيوس	: أمير أثينا
ايجيو	: والد هرميا
ليساندر ديمتريوس	عاشقا هرميا
فيلستراط	: معلم ألعاب تازيوس
لكوان بنجون	نجاران
بوبين	: حائك
فلوتيو	: مصلح منافيخ
لوباك	: مبيِّض
كرنكالي	: خياط
هيبولات	: ملكة الأمازون وخطيبة تازيوس
هرميا	: ابنة ايجيو وحبيبة ليساندر
هلينا	: حبيبة ديمتريوس
أوبرون	: ملك الجنّ
تيتانيا	: ملكة الجنّ
بوك	: مهرّج

زهرة الربيع
شبكة العنكبوت
خفَّة الفراشة } جنِّيَّات
حبَّة الخردل

جنِّيَّات أخرى من حاشية الملك والملكة،
خدم تازيوس وهيبولات.
تجري الأحداث في آثينا وفي غابة مجاورة.

الفصل الأول

المشهد الأول

آثينا ــ في قصر تازيوس

(يدخل تازيوس وهيبولات وفيلستراط وخدم)

تازيوس : حبيبتي الجميلة هيبولات، ان ساعة زفافنا تقترب بسرعة ولم يبق سوى أربعة أيام ليطل الهلال الجديد. كم هي بطيئة أواخر أيام هذا القمر العتيق في تضاؤله وإخلائه المكان لسلفه. ان صدري يضيق به كأنه عجوز أشمط أو زوج أمٍّ يستنزف رويدا رويدا واردات وريثها الشاب.

هيبولات : ستغور عاجلا هذه الأيام الأربعة في دياجير الظلام، وستمر لياليها الأربع بسرعة كأنها حلم، والهلال الذي سيبدو عندئذ كقوس جميل من الفضة، مشدود على أديم السماء، سيرنو بإعجاب الى ليلة قراننا.

تازيوس : اذهب اذاً يا فيلستراط ودرِّب شبيبة آثينا على الألعاب، وايقظ فيها روح المرح والسرور واطرد عنها كآبة مواكب الجنازات. فان هذا الشيخ الهرم لن يجد له مكانا في حفلة زفافنا.

(يخرج فيلستراط)

لقد غازلتكِ يا هيبولات، والخنجر في يدي. وملكتُ فؤادك وأنا أعاملك بالعنف. غير اني أود أن أتزوجك بطريقة مختلفة تماما، لأني أريد أن أغدق عليك أروع الهبات والعواطف والمتع.

(يدخل ايجيو وليساندر وديمتريوس)

ايجيو : حالفتك السعادة يا تازيوس، يا أميرنا المفدّى.

تازيوس : أشكرك يا ايجيو الكريم. أية بشرى جئت تزفّ اليَّ في هذه الساعة؟

ايجيو : أتيت يا مولاي والهموم تبلبل أفكاري، لأشكو ابنتي هرميا. اقترب يا ديمتريوس. هذا الرجل، يا أميري النبيل، قد حظي بموافقتي على الاقتران بها. إقترب أنت أيضا يا ليساندر. وهذا الشاب يا أميري الغالي، عرف كيف يأسر قلبها. أجل يا ليساندر، أنت أرسلت الأشعار الزاخرة بشتى العواطف الملتهبة شوقا الى ابنتي. أنت بادلتها وعود الهوى. وفي ضوء القمر أقبلت تنشد لها تحت نافذتها أرقّ قصائد الحب، وبصوت حنون ناجيتها بعبارات الولع الخدَّاع، فوسمت بخبث ودهاء مخيَّلتها الضعيفة بطابعك المحبب، وأغدقت عليها فيضا من الهدايا كالأساور والخواتم والمجوهرات والعطور والزهور والحلويات، وهي وسائل فعالة تؤثر في نفوس الشبيبة الرقيقة المشاعر. لقد حاولت أن تسرق مني بالحيلة قلب ابنتي، وحوّلت الى عناد متشبث، ما يتوجب عليها نحوي من طاعة وخضوع. لذلك، يا أميري العزيز، اذا لم تقبِّل ابنتي أمام سموّك، يدي التي تتجاوزها لإرضاء ديمتريوس، سأطالب حينئذ بتطبيق الامتياز الذي كان قديما أهالي آثينا يتمتعون به، والذي ينص على ان ابنتي تخصني وحدي، واني حر التصرف بها، يحق لي أن أسلمها الى هذا الوجيه أو الى الموت، كما هو مبيَّن بكل وضوح في شرعنا، وأتوقع العمل بموجبه في مثل هذا الحال.

تازيوس : ما هو جوابك يا هرميا ؟ أرجوك أن تفكري مليا يا ابنتي الحبيبة. ان أباك يجب أن يكون بالنسبة اليك إلها، لأنه هو الذي أورثك مفاتنك وأكثر من ذلك أيضا، هو الذي اذ كنتِ كتلة طرية كالشمع، قد وسمك بطابعه، وله وحده حق المحافظة على حياتك أو اهلاكك. مع العلم ان ديمتريوس وجيه يستحق كل تقدير.

هرميا : كذلك ليساندر، لا يقلّ عنه اعتبارا.

تازيوس : هذا الاعتبار يستحقه بفضل نسبه. ولكن في هذه المناسبة، بما انه لا يتمتع برضى والدك، عليك أن تقتنعي بأن العريس الآخر هو الأفضل.

هرميا : أود أن ينظر أبي بعينيّ أنا.

تازيوس : وعلى عينيك أن ترى الأمور بحكمته.

هرميا : بتواضع ألتمس من سموّك السماح لي بالقول اني لست أدري أية قوة تبعث فيَّ الجرأة، ولا الى أي حد يليق ببنوّتي أن أبيِّن أفكاري أمام رحابة صدرك وسعة كرمك. غير إني أتوسل اليك أن تفيدني عما يمكن أن يصيبني اذا لم أقبل بديمتريوس شريكا لحياتي.

تازيوس : إما أن تتحملي عقاب الموت، أو تمتنعي نهائيا عن كل اتصال بالرجال. ولذا يا هرميا الجميلة عليك أن تستجمعي أفكارك وتستوحي شبابك ومستواك. فاذا لم ترعني لما اختاره لك والدك، عليك أن توقني من قدرتك على ارتداء ثوب الرهبنة لتظلي طوال حياتك حبيسة قناطر الدير، وتقضي كل أيامك سجينة عقيمة ترددين باكية بصوت هزيل أناشيد حب مجدب لا خير فيه. اني أبارك مئة مرة سعادة الوردة التي تنشر عبيرها الفوّاح بين أهل هذا العالم، وأفضِّلها على من تذوي بين أشواك عفتها، فتعيش وتنمو وتموت في سكينة وحدتها.

هرميا : أما أنا يا مولاي، فاني أفضِّل أن أحيا وأكبر وأموت منزوية، على أن أقبل بتضحية بتوليتي على مذبح زوج مفروض عليّ فرضا، تأبى نفسي أن تمنحه، وهي تئن تحت نير مشيئته، سلطة التحكم بمصيري.

تازيوس : أمامك الوقت الكافي للتفكير. وعندما يطل الهلال الجديد في ذاك اليوم الجميل حين ينصهر نصيبي ونصيب حبيبي في اتحاد أبدي، في ذاك اليوم بالذات يمكنك أن تستعدي إما للموت عقاب تمردك على مشيئة أبيك، وإما لقبول ديمتريوس زوجا لك حسب ارادتي، وإما أيضا لتنذري عفة بتولية أبدية أمام هيكل الإلهة ديانا.

ديمتريوس : أرجوك يا عزيزتي هرميا أن تمنحي ذاتك فرصة التفكير. وأنت يا ليساندر عليك أن لا تنسى ان وضعك الحرج خاضع حتما لحقي المقدس.

ليساندر : أنا أملك حب هرميا. وأنت تحظى برضى والدها. فما عليك إلاّ أن تتزوج والدها، يا ديمتريوس.
ايجيو : تباً لك يا ليساندر الساخر. في الحقيقة، هو حاصل على مودتي التي تخوّله الحق بما أملكه، وبما اني أملك هرميا، فاني أهب ديمتريوس جميع ما لي عليها من حقوق.

ليساندر : يا مولاي، ان أسرتي توازي أسرتها. ولي أرزاق تساوي أرزاقها، وحبي هو أكبر بكثير من حبها، وحظّي في مستقبل زاهر ليس أقل من حظها، وربما أكثر من حظ مزاحمي ديمتريوس. والأهم من كل هذه المزايا الثانوية، هو اني أنا الذي أحب هرميا الجميلة. فلماذا لا أحاول باصرار أن أحصل على ما يحق لي ؟ ان ديمتريوس، وأنا أصرح بذلك أمامه، قد غازل هيلينا ابنة ندار، واستمالها، فتعلقت هذه الفتاة اللطيفة، حتى الجنون بل حتى العبادة، بهذا الرجل المتقلب الذي لا يقر له قرار.

تازيوس : أنا أعترف بأني سمعت هذا القول، واني وددت أن أكلم عنه ديمتريوس. لكن ذهني المشغول جدا بما لدي من قضايا خاصة لم يسمح بتفرغي لهذا الموضوع. انصتا كلاكما، يا ايجيو ويا ديمتريوس، الى ما أزودكما به من تعليماتي الخاصة. أما أنت يا هرميا الحلوة، فاعتصمي بالشجاعة لتكيُّفي عواطفك حسب رغبة أبيك. وإلا عرّضتك شريعة آثينا التي لا يستطيع أحد تجاهلها، الى الحكم عليك بالموت الزؤام أو بالتبتُّل الى الأبد. وأنت يا هيبولات تعالي وأخبريني كيف حالك ؟ هيا يا ايجيو ويا ديمتريوس، اتبعاني لأني أريد ارسالكما في مهمة تتعلق بزواجي. كما اني أود أن أحدثكما عن أمور تخصكما وهي في غاية الأهمية.
ايجيو : سنتبعك ونقوم بواجبنا نحوك ملبِّين رغبتك.

(يخرج الجميع ما عدا ليساندر وهرميا)

ليساندر : ما هو سبب شحوبك، وذبول ورد خديك بهذه السرعة يا حبيبتي؟
هرميا : من جراء شح المطر، جادت عيناي بالدموع السخية.
ليساندر : واأسفاه! حسب مطالعاتي، وما ترويه الاساطير والتواريخ، ألاحظ ان

طريق الحب لم يكن في يوم من الايام سهلا.. وما اكثر ما اختلفت عليه ميول العشاق!

هرميا : تباً للمعاكسات التي يلقاها مستوانا الرفيع الذي يأبى سقوطنا في وهدة عبودية رجل ليس من مصفنا.

ليساندر : وأحيانا كثيرة يكون في عمر غير ملائم.

هرميا : وما اصعب ان ينزع كهل يرهق عاتقه ثقل الاعوام الى الاقتران بمن هي في سن ابنته.

ليساندر : وفي ظروف حرجة تجعل الاختيار وقفا على رغبة الاصدقاء.

هرميا : وما أمرّ اضطرار المرء الى انتقاء حبيبه من خلال نظرات غيره.

ليساندر : اخيرا ان جاء الاختيار موفقا وعلى ما يرام، فان الحرب او الموت او المرض ينكب هذا الحب الذي يمسي، من جراء ما ينهال عليه من ضربات، عابرا كالضجة، سريعا كالخيال، زائلا كأحلام هذه الدنيا، وجيزا كالبرق في ليلة فاحمة السواد تتكشف بغتة عن عضبة الارض والسماء من خلال عاصفة هوجاء، وقبل ان يتسنى لنا ان نستغيث ونستنجد ونلتمس الرحمة تكون براثن العتمة وثورة الطبيعة قد مزقت آمالنا وبددت احلى أمانينا بلمح البصر.

هرميا : لو عرف المحبون الاصيلون هذه المناقضات المتلاحقة لوجب علينا ان نقنع بحتمية القدر ونرتضي الصبر على مصاعبنا وبلايانا، بما ان شقاءنا بات امرا لا مفر منه تمزجه تباريح الهوى بالهموم والاحلام والآهات والرغبات والدموع التي ترافق موكب اشواقنا وتستدرّ علينا شفقة محيطنا.

ليساندر : هذه فكرة حكيمة. لكن اصغي اليَّ يا هرميا الحلوة. ان لي عمة ارملة، حرمت من انجاب الاولاد، وهي صاحبة ثروة طائلة، وتقطن على بعد سبعة فراسخ من هنا، وقد اعتبرتني دائما كابنها الوحيد. هناك يمكنني يا عزيزتي ان أقترن بك، لان شريعة آثينا الجائرة لا تسري في تلك الجهات. وهكذا، اذا كنت حقا تحبينني، تغادرين مساء الغد منزل ابيك، وتذهبين الى الغابة على مسافة فرسخ من المدينة، حيث صادفتك في الماضي بصحبة هيلينا اثناء الاحتفال بعيد اول ايار حسب طقوسنا، وسأكون هناك بانتظارك.

هرميا : عزيزي ليساندر، في الحقيقة، اقسم لك بأمتن قوس في يد إله الحب

كوبيدون وبأسرع سهم مذهَّب الرأس، وبنقاوة حمائم إلهة الجمال فينوس وبكل ما يربط بين قلبينا من لهفة ويضرم نار الحب في أحشائنا، وبوهج الوجد الذي كوى فؤاد ملكة قرطاجة عندما شاهدت سفينة حبيبها الخائن الطروادي تهرب، وبجميع عهود الرجال الذين تنكروا لها على هذه الارض — وقد تصرف العديد منهم كالنساء المتقلبات — ان في عين ذاك المكان حيث ضربت لي موعدا، سألقاك غدا بكل امانة واخلاص.

ليساندر : ارجوك ان تفي بوعدك يا حبيبتي. والآن انظري، ها هي هيلينا تقترب.

(تدخل هيلينا)

هرميا : حفظك الله يا هيلينا الحلوة. اين انت ذاهبة بمثل هذه العجلة؟

هيلينا : قلتِ، الحلوة؟ اسألك ان تسترجعي هذه الصفة. فأنت الحلوة التي يعشقها ديمتريوس. ما اسعدك؟ ان عيونك، بالنسبة اليه، نجوم متلألئة، ورخامة صوتك الناعم هي على سمعه أعذب الف مرة من تغريد العندليب على سمع الراعي عندما يخضرّ القمح ويتفتح الزعرور. كم أتمنى ان تكون بعض الامور سارية العدوى كالامراض فأتلقى ما يصيبك منها يا هيلينا اللطيفة قبل ان اغادرك. وتكون أذني قد تمتعت بسماع صوتك، وعيني اكتحلت بنور لحظك، وفمي تذوّق عذوبة خدَّيك. لو كان العالم يخصني لوهبتك اياه بأجمعه — ما عدا ديمتريوس طبعا — لكي أكتسب بعض بهائك. ألا علميني ان اكون جميلة نظيرك، واشرحي لي كيف توصلت بمهارة الى التحكم بقلب ديمتريوس.

هرميا : انا أقطِّب حاجبيّ وأعبس، فيزداد هو تعلقا بي وهياما بهواي.

هيلينا : كم أود أن يلقِّن حاجباك المقطَّبان، ابتسامتي أصول هذا الفن.

هرميا : انا أصبّ عليه اللعنة، وهو يتدله بحبي.

هيلينا : آه! كم أود ان تبعث تضرّعاتي في فؤاده مثل هذه العاطفة الرقيقة!

هرميا : كلما تكثَّف بغضي له، كلما تضاعف تشبُّثه بي.

هيلينا : وأنا كلما ضاعفت له تعبدي، كلما زادني كراهية وجفاء.

هرميا : يا هيلينا، اذا كان هو مهووسا، فليس ابدا بسببي انا.

هيلينا : بل بداعي روعة جمالك. ليتني حاصلة على عِشر فتنتك.
هرميا : اطمئني بالاً. فلن يرى لي وجها بعد الان. سأهرب مع ليساندر الى مكان بعيد من هنا. فآثينا كانت لي جنة حتى اليوم الذي التقيت فيه بحبيبي. فما اقوى السحر الكامن في شخصه حتى قلَب السماء في نظري الى جحيم مقيم.
ليساندر : هيلينا، انا أود ان اكشف لك عن نيَّتي: مساء الغد، حين يتأمل البدر صورة محياك المشرق معكوسة على صفحة الماء، ويزين العشب الاخضر بلآلىء الندى، في تلك الفترة التي تجمع العشاق تحت جناحَي سحرها، أود ان أنسلّ خارج ابواب آثينا وأرحل.
هرميا : فالى ذلك الغاب حيث غالبا ما كنا كلانا نتمدد في الماضي على خميلة سندسية من الزهور، تتشاكى ما يفعم قلبينا سرا من اشواق الهوى. سنتلاقى يا عزيزي ليساندر، ثم نشيح بأنظارنا عن آثينا ونمضي في طلب اصدقاء جدد ومجتمع لا يعرفنا. الوداع يا رفيقة صباي، صلي لاجل كلينا، ولينعم عليك حسن طالعك اخيرا بحب ديمتريوس. لا تنسَ وعدك يا ليساندر. علينا ان نحرم شفاهنا ما يرتشفه العشاق الغائصين في هواهم من رحيق وراء ستائر الليل حتى الصباح.
ليساندر : انت تعرفين ان وعدي دَين في عنقي يا عزيزتي هرميا.

(تخرج هرميا)

الوداع يا عزيزتي هيلينا. أتمنى ان يغمر قلب ديمتريوس هيام يعادل تدلُّهك به.
هيلينا : لا شك عندي في ان الدنيا تضم اناسا أسعد من سواهم. ففي آثينا يعتبرني الكل اجمل من هرميا. ولكن عبثا، لان ديمتريوس لا يراني هكذا وهو لا يريد ان يقر بما يعترف به الجميع. ومهما تفانى في استرضاء هرميا لسحر عينيها، أتيه اعجابا بمزاياه الحميدة، وكل ما هو هزيل وسافل وحقير فيه يحوّله الحب في نظري الى عظمة وسمو، لان الحب يرى بروحه لا بعينيه. ولذلك يبرز الرسامون في لوحاتهم كوبيدون كطفل مجنَّح اعمى. ان نزق الهوى لا يملك ذرّة من الحكمة، اذ له اجنحة وليس له عيون. لذا اعتبره الناس رمزا للتصرفات الطائشة. والحب، كما يقال، ولد مغفَّل غالبا ما يخطىء في

الاختيار، وكسائر الاولاد الخبثاء يتلاعب وينقض قواعد اللعب، وهكذا يحتال ملاك الحب الصغير على جميع العشاق مهما كبر شأنهم ويسخرهم لأغراضه الطبيعية. قبل ان ينظر ديمتريوس الى عيني هرميا أقسم لي ايمانا مغلظة بأنه يخصني وحدي. ولكن نظره ما كاد يقع على هرميا حتى اسرته وأنسته جميع عهوده لي. سأذهب وأعلمه بفرار هرميا، وأحرضه على مطاردتها غدا في الغابة. واذا قدر لي تزويده بهذه المعلومات، سأرد له بسخاء عرفانه جميلي هذا. وأثناء مرافقتي اياه الى هناك عند رجوعي بمعيته، سيتسنى لي ان أخفف آلامي بما تفعم به قلبي مشاهدة حبيبي من البهجة والغبطة. (يخرج)

المشهد الثاني

آثينا. في منزل لكوان

(يدخل لكوان وبنجون وبوبين وفلوتيو ولوباك وكرنكالي)

لكوان : جميع أفراد فرقتنا حاضرون هنا.

بوبين : الافضل ان تناديهم واحدا تلو الآخر بدون تمييز، حسب ترتيب اللائحة.

لكوان : ها هي اسماء الذين رأينا فيهم كفاءة بين جميع مواطني آثينا ليمثلوا في الحفلة المنوي احياؤها اكراما للامير والاميرة ليلة زفافهما.

بوبين : اطلعهم اولا، يا عزيزي لكوان، على موضوع الرواية، ثم اقرأ لهم اسماء الممثلين فتصل الى النتيجة المتوخاة.

لكوان : لعمري، سنقوم بتمثيل أرهب مأساة وأفظع ميتة لقيها بيرام وتسْبا البابليّان.

بوبين : أؤكد لك انها مسرحية موفقة السبك، سامية الهدف. والآن، يا عزيزي

لكوان، استدعِ الممثلين حسب اللائحة. اقتربوا، ايها السادة.
لكوان : ليردّ كل واحد منكم عند سماع اسمه: بوبين الحائك.
بوبين : حاضر. قل لي بأي دور سأقوم.
لكوان : يا بوبين، عينّا لك دور بيرام.
بوبين : من هو بيرام هذا؟ هل هو عاشق ام طاغية.
لكوان : عاشق مخلص، يقتل نفسه ببسالة في سبيل الحب.
بوبين : عندما تمثل هذا الدور كما يجب ستستدرّ سيلا من الدموع. فان قمتُ به انا اخشى ان يقرِّح البكاء اجفان المشاهدين، وأن أثير عواصف من التصفيق الحادّ، لأني سأتقمَّص الدور بعنف. هيا انتقل الى الباقين. في الحقيقة انا أميل الى دور الطغاة. وكم اجيد دور هرقل مثلا. انا بارع في تمثيل الادوار التي تذخر بالضجة والحركة:

كالصخور الهاوية
والصدمات المدوّية
وأبواب السجون
ومزالق الجنون
وعربة ابليس
تركبها الديدبيس
في الكرّ والفر
لتزرع بذور الشر.

ألا تجد ان هذا رائع، رائع. نادِ الان باقي الممثلين. هذه هي لهجة هرقل سيد الطغاة. اما دور العاشق فيحتاج الى التفجع والنحيب.
لكوان : فلوتيو، مصلِّح المنافيخ.
فلوتيو: حاضر، يا لكوان.
لكوان : يا فلوتيو، ستمثل دور تسبا.
فلوتيو: ومن هو تسبا؟ هل هو طيف تائه؟
لكوان : كلا، هي الصبية التي يهواها بيرام.

فلوتيو: لا، لا. بربك، لا تكلفني بالقيام بدور امرأة. فاني أحس منذ الان بأن لحيتي قد نبتت.
لكوان : لا حرج عليك. ستمثله بعد ان تضع على وجهك قناعا. ويمكنك ان تتكلم بصوت رفيع كما يحلو لك.
بوبين : اذا كنا نستطيع ان نخبيء وجوهنا، فدعني أمثل ايضا دور تسْبا. وسأتكلم بصوت رفيع جارح هكذا: آه! يا حبيبي بيرام، انا عزيزتك تسْبا، انا حبيبتك المخلصة.
لكوان : كلا ثم كلا. عليك ان تقوم بدور بيرام. وأنت يا فلوتيو، ستقوم بدور تسْبا.

بوبين : حسنا، اكمل.
لكوان : كرنكالي الخياط.
كرنكالي : حاضر، يا لكوان.
لكوان : يا كرنكالي،. ستمثل دور والدة تسْبا. اين لوباك المبيِّض؟
لوباك: حاضر، يا لكوان.
لكوان : انت ستمثل دور والد بيرام. وأنا سأقوم بدور والد تسبا. وأنت يا بنجون النجار ستقوم بدور الاسد. وهكذا يتم توزيع الادوار على أنسب وجه.
بنجون: هل لديك كلام دور الاسد مكتوبا؟ فان كان جوابك: نعم، اعطني اياه من فضلك، لان ذاكرتي بطيئة الحفظ.
لكوان : يمكنك ارتجاله، فليس فيه سوى الزئير.
بوبين : دعني أمثل دور الاسد ايضا. فأنا أزأر بطريقة مرضية تعجب كل المشاهدين. سأزأر جيدا حتى يطلب الامير مني اعادة الكرة مرارا عديدة.
لكوان : اذا تماديت في الزئير بوحشية ستفزع الاميرة وسائر السيدات. فيأخذن في الصراخ هلعا. وهكذا يكفي ليحكم علينا بالموت شنقا.
الجميع: أجل، سنشنق كلنا بدون استثناء.
بوبين : اذاً، أخصُّك بهذا الدور. اما انتم يا اصحاب، فاذا افزعتم هؤلاء السيدات الى حد افقادهن الرشد، فلن يترددن في طلب شنقنا جميعا. اما انا

فأضخِّم صوتي بشكل يساعدني على الزئير بهدوء نظير الحمام الوديع، ويأتي كلامي كأنه غناء بلبل غرّيد.

لكوان : انا لا يمكنني أن أمثل دور بيرام، لأنه شاب وسيم الطلعة، وقلَّ ان يشاهد المرء فتى متناسق الجسم نظيره في يوم صيف. فهو انسان محبوب لطيف كأنه امير. اذاً يتحتم عليك انت ان تقوم بدور بيرام.

بويين : حسنا. انا اقوم بهذا الدور. فما نوع اللحية التي يجمل بي ان اكسو بها ذقني.

لكوان : لعمري، باستطاعتك ان تستعمل اللحية التي تريدها.

بويين : انا أقترح ان أمثل دور بيرام بلحية رمادية اللون، او بلون برتقالي او احمر او أصفر جذّاب.

لكوان : لا وجود لشعر اصفر. فالانسب ان تمثل بدون لحية. هذه هي أدواركم يا سادة. فأرجوكم، بل ألتمس منكم، ان تحفظوها غيبا جيدا لمساء الغد. الحقوا بي الى غابة القصر على بعد فرسخ من هنا. فنراجع أدوارنا في ضوء القمر، لاننا اذا اجتمعنا في المدينة، يضايقنا المتطفلون ويطلّع الكل على أسلوب اخراجنا المسرحية. في هذه الاثناء سأكتب لائحة اللوازم الضرورية للتمثيل. أرجوكم ان لا تتأخروا عن الحضور للمراجعة.

بويين : سنصل في الموعد المضروب. وهناك يمكننا ان نراجع أدوارنا بهمة لا تعرف الكلل على غير المألوف.

لكوان : اذاً الى اللقاء تحت شجرة البلّوط التي تخص الامير.

بويين : سنذهب الى هناك مهما كلفنا الامر من مشقات.

الفصل الثّاني

المشهد الاول

في غابة قرب آثينا

(تدخل جنِّية من جهة، ويدخل بوك من جهة اخرى)

بوك: ايتها الجنية الشاردة، الى اين تسرعين هكذا؟

الجنية: اجوب الوهاد والتلال، وسط العوسج والشجيرات، عبر الجنائن الواسعة والأسيجة، وأجتاز قلب اللهب وطيَّات المياه. أهرع الى المغامرات في كل مكان، اعجل من البدر المستدير المتهادي في كبد السماء. وأنا اخدم ملكة الجن، أرشّ الندى البارد على العشب الاخضر حيث تدور حلقات الرقص، تحوم فوقها الطيور الكبيرة، وتحميها بريشها الذهبي المموَّج المزدان بزمرّدات تهبها الجنِّيات، ناثرة عليها أريج العطر الفوّاح المنبعث من قطرات الندى المتلألئة كالدرر اللامعة. الوداع ايها الماجن اللعوب، اذ يتحتم عليّ ان امضي، فالملكة المبجَّلة وأتباعها آتون الى هذا المكان.

بوك : الى هنا، سيأتي الملك هذا المساء، ليسترسل في ملذاته. فحذار ان

تظهر الملكة امامه. لان اوبرون يستشيط غيظا اذا وجد معها مرافقها الفتى الممتاز المخطوف من حاشية عاهل هندي. لم أبصر في حياتي شابا اجمل منه سرقه الجنّ. فأوبرون الغيور يريد أن يجعله مرافقه في الصيد يجتاز بصحبته الغابات الموحشة. غير انها هي متمسكة بالاحتفاظ بهذا الولد الوسيم الطلعة الذي كلّلته بالزهور، وهي تستمد منه معظم افراحها. وبسببه لم يعد الزوجان يجتمعان في الاحراج والبراري، او بجوار الينابيع المترقرقة بعذوبة تحت القبة الزرقاء المرصعة بالنجوم البرّاقة الا ليتشاجرا نظير مرافقيهما من الجن الذين يحرنون بغتة ويقبعون في تجاويف شجر البلوط.

الجنية: إما ان اكون مخطئة وقد اختلطت عليّ رؤية محياك، وإما ان تكون أنت ذاك الخبيث المحتال الذي يزعج الجميع بتصرّفاته الصبيانية. أوَلست أنت زارع الرعب في قلوب الفلاحات الصبايا، وسارق دسم الحليب، ومحرّك الطاحونة اليدوية، ومفشِّل جهود الحلّابات اثناء خض الحليب لاستخراج الزبدة، ومانع الرغوة عن الجعة، ومضلِّل المسافرين في الليل هازئا بجرأتهم، ومع ذلك انت ايضا معين المجتهدين في انجاز العمل، وجالب الحظ لكل من الصبايا تدعوك الفاتن الظريف بوك؟ أولست حقا من أعنيه بهذه الأوصاف؟

بوك : لقد اعلنت لك الحقيقة. فأنا في الواقع مهرّج أسلّي الملك بفكاهاتي لأرسم الابتسام على شفتيه عندما أداعب حصانه الضخم الذي ملأ بطنه فولاً، وعندما أصهل كالجواذ الاصيل. أحيانا أتحول الى تفاحة ناضجة، فأغطس في كأس عجوز وألمس شفتيها حالما تشرب منه، فتسيل الجعة على ذقنها المجعَّد. وهذه العجوز النبيهة، حين تروي قصتها المضحكة تظنني احيانا كرسيا مثلث الارجل فتحاول الجلوس عليّ. غير اني سرعان ما أنسحب من تحتها فتقع على الارض صارخة: يا محتال. ثم يعتريها السعال من شدة الانفعال. فيأخذ حينئذ جميع أفراد الفرقة، وأيديهم على خصورهم، يقهقهون بسرور صاخب يزيد جمهور المتفرجين فرحا يحدو بهم الى الحلفان بعظماء الآلهة بأنهم لم يمضوا في حياتهم ساعة اروع وأبهج. فأرجوكِ ان تفسحي لي مجال الانسحاب من هنا لان اوبرون قادم.

الجنية: وأنا لا أريده ان يأتي، لان سيدتي هي ايضا مقبلة.

(يدخل اوبرون من جهة مع حاشيته، ومن الجهة الأخرى تدخل تيتانيا مع حاشيتها)

اوبرون : كم يسوؤني أن أصادفك هكذا في ضوء القمر، يا تيتانيا المتعجرفة.

تيتانيا: من الآتي؟ أهو انت اوبرون الغيور؟ هيا يا جنياتي نخلِ هذا المكان لاني انفر من حضوره ومن سريره.

اوبرون : قفي أيتها المتمرّدة الوقحة ! أوَلستُ أنا مولاكِ ؟

تيتانيا: من حقي ان اكون مولاتك. وأنا أعلم جيدا بأنك عندما هربت بجبانة بعيدا عن بلاد الجن، كنت متنكرا بزيّ الرعاة، تنفخ في المزمار انغاما رقيقة، تناجي بها احدى عشيقاتك. فلماذا رجعت من سفوح جبال الهند الى هنا؟ طبعا لان صاحبتك المتشامخة، كانت بالامس القريب تركب فرسك المفضلة، وبالرغم من غطرستها تستعد للاقتران بالامير، وأنت مزمع ان تهبها السعادة والازدهار بمناسبة هذا الزفاف الوشيك.

اوبرون: ويحك يا تيتانيا! كيف يسعك ان تلمِّحي الى خصوصياتي امام هيبولات الجميلة، وأنت تعلمين بأني مطَّلع على وقوعك في هوى تازيوس. أوَلم تتصرّفي حياله كدليلة المحتالة في عتمة الليل المريبة عندما تخلّى عن باريجانيا بعد أن أغواها ؟ أوَلم تراوديه عن نفسه وتحمليه على خيانة ايكلي الرائعة وكذلك انتيوب وأريان؟

تيتانيا: هذه أضغاث احلام افرزتها الغيرة التي تنهش فؤادك. فمنذ منتصف الصيف لم يتسنّ لنا ان نجتمع على المرتفعات وفي الوهاد وفي أعماق الغابات وفي وسط البراري وقرب الينابيع المترقرقة فوق الحصى بين غزّار السواقي الصامتة وعلى رمال الشواطىء كي نرقص في حلقاتنا المرحة على هدير الرياح بدون ان تزعج آذاننا اصواتها الحادة. فتعبت الاهوية من الهبوب سدى في المزامير، وكأنها تريد ان تنتقم، راحت تحرك امواج المحيط وتبخِّر مياهه ضبابا كثيفا يغطي وجه الارض، فأثارت غضب الانهر المتواضعة بعد ان سئمت معانقة السواحل. الجاموس يدفع النير بجهد عقيم، والفلاح يعرق ولا يجني اية غلال، والقمح يجف في اول نموّه، والزرائب تقفر من المواشي، والحقول تغمرها الفياضانات، والغربان السوداء تدل الذئاب الجائعة على

القطعان المريضة كغنيمة باردة، والوحول الكثيفة تكتسح المروج الخضراء التي تشوهها أقدام اللاعبين، وشعاب المتاهات الغامضة المتوارية بين الاعشاب الطويلة لا تظهر بوضوح لان الجماهير لم تعد تطأها بنعالها، والناس المحتاجون الى ثياب الشتاء لاتقاء البرد القارس، لا يسمعون عذوبة الاناشيد فلا تؤنس لياليهم الموحشة. اما القمر المسيطر على جبال الامواج بلونه الشاحب من شدة السخط، فقد نشر في الجو عدوى الامراض التي عمت جميع الاصقاع. ومن جراء فوضى تقلبات المناخ، اختلطت الفصول، فراح الجليد يذوب تحت حرارة الشمس على الاوراق الجافة الملساء وفي قلب الورود العطشى الذابلة، ويتدفق سيولا جارفة على الطبيعة الجامدة المتفجرة كأنها تتهكم مازجة نضارة الربيع واسترخاء الصيف وتصابي الخريف وعجز الشتاء لتتفاعل فيما بينها وتتبادل مظاهرها المألوفة بشكل جعل الكون الواجم لا يقوى، بين فصل وآخر، حتى على تمييز الثمار الموسمية. وكل هذه التناقضات منبثقة من خلافاتنا ومشاحناتنا. فنحن جلبناها ونحن نشرناها ونحن نتحمل عواقبها المشؤومة.

اوبرون: لا بد اذاً من ايجاد دواء لهذا الداء الوبيل. ولا احد سواكِ قادر على معالجة ذلك. فلماذا تشاكسين حبيبك اوبرون؟ ان جل ما اطلبه منك هو ان تتنازلي لي عن فتى صغير مخطوف أريد ان اجعله مرافقي.

تيتانيا: هدىء روعك واطمئن الى اني لن أتخلى لك عنه حتى ولا لقاء مملكة الجن بكاملها. ان والدته التقية كانت متمسكة به كممارسة دينها. وكم جاءت اثناء الليل في جو الهند الهادىء تسامرني وتسلّيني. كنت أجالسها على الرمال الذهبية، لمشاهدة المراكب التجارية تمخر عباب اليمّ فنضحك لدى رؤيتنا بطون الاشرعة تملأها وتدفعها الرياح الهوجاء. واذ ودّت ان تقلد سيرها الرشيق، مع انها تحمل في أحشائها كنزا ثمينا هو مرافقي الشاب الجميل، راحت تتهادى في مشيتها المتزنة، باحثة عن هدايا قيِّمة تتحفني بها، ثم تعود مثقلة بالسلع الغالية كأنها قادمة من سفر بعيد، وبما ان أمه اللطيفة ماتت على اثر ولادة ابنها عمدت الى تربيته بحنان، وأصبح من نصيبي، وأنا لا ازال ارعاه وأتشبث به باصرار.

اوبرون: الى متى تريدين ان تمكثي في هذا الغاب؟
تيتانيا: بدون شك الى ما بعد زواج تازيوس. فاذا سرّكَ الانضمام الى حلقاتنا والاشتراك في احاديثنا بضوء القمر، فأنا ادعوك الى مرافقتي. وإلا تجنبني، وأنا من جهتي لن ادنو من خلوتك.
اوبرون: تنازلي لي عن هذا الفتى فأصحبك.
تيتانيا: حتى ولو وهبتني مملكتك برمتها. هيا بنا يا جنّياتي. ان بقائي في هذا المكان سيفضي حتما الى الشجار.

(تخرج تيتانيا مع حاشيتها)

اوبرون: حسنا. امضي في سبيلك. فلن تخرجي من هذا الحرج قبل ان انزل بكِ عذابات مريرة تعويضا عما ألحقته بي من اهانات. يا عزيزي بوك اقترب مني قليلا. هل تذكر انك سمعت يوما من مرتفع عالٍ صوت عروس البحر جاثمة على ظهر دلفين تنشد اغنية مرحة جعلت امواج المحيط تهتز ابتهاجا ونجوم السماء ترقص طربا خارج دائرتها لتنتشي بأنغام ابنة هذه البحار؟
بوك : أجل يا مولاي، أتذكّر.
اوبرون: في هذا النهار شاهدت منظرا لم تبصره عيناك: كوبيدون يدخل مسلحا وهو يطير بين القمر العنيف وأرضنا المتحرقة اشتيقاقا. فحدق بعينيه في كاهنة جميلة كانت ملكة على الغرب، وأصاب فؤادها بسهمه الجبّار كأنه اخترق ألف قلب في آن واحد. لكني رأيت هذا السهم الملتهب ينطفىء في رطوبة الندى تحت ضوء القمر. واذ تحررت الكاهنة الملكية من الشهوة واصلت طريقها وهي مسترسلة في احلامها العذرية. على كل حال لمحت مكان سقوط سهم كوبدون وقد اصاب زهرة صغيرة من بلاد الغرب كانت سابقا بيضاء كالثلج، وأضحت الان أرجوانية من نزف جرح أثخنها به إله طفل تدعوه الفتيات « دلال الحب ». اذهب وأتني بهذه الزهرة التي اريتك اياها ذات يوم، لان نسغها اذا عصر على الجفون المغمضة اثناء النوم يجعل الرجل او المرأة يحب كل منهما بجنون اول مخلوق حي يقع عليه نظره. اذهب وجئني بها على جناح سرعة البرق.
بوك : سأجوب الارض طولا وعرضا كلمح البصر.

اوبرون: وحالما تسلمني هذا الرحيق سأبحث عن تيتانيا النائمة وأسكبه برفق على جفنيها. وأول من تراه عندما تستيقظ أكان دباً او اسداً او ثوراً او ذئباً او قرداً مسخاً او صبياً صاخباً ستتدله بحبه. وقبل ان تستفيق من ذهول هذا التحول السحري، مع العلم اني استطيع ان أحققه بواسطة نبتة اخرى، سأعرف كيف اجبرها على اهدائي مرافقها الفتى. ولكن، من القادم الى هنا؟ سأظل مختبئا، لاني أريد ان أسترق السمع الى ما يدور من حديث.

(يدخل ديمتريوس وتتبعه هيلينا)

ديمتريوس : كلا، انا لا احبك ابدا، وعليك ان تظلي بعيدة عني. اين ليساندر؟ اين الحلوة هرميا؟ سأقتل الاول، بينما تقتلني الثانية. لقد اخبرتني بأنهما سيهربان ويأتيان الى هذا الغاب، حيث اجدني الان وقد طاش صوابي، وحيث التقيت حديثا بحبيبتي هرميا. فكفي عن اللحاق بي. هيا اذهبي وابتعدي عني.

هيلينا : لهذا السبب بالذات انا احبك اكثر فأكثر. في الحقيقة يخيل اليّ اني كالكلب الامين كلما اسأتَ معاملتي كلما تمسحتُ بقدميك صاغرة. فعاملني كأني كلبك. ازجرني، اضربني، ادعسني برجلك، انما دعني على الاقل اتبعك. وان كنت لا أستحق تقديرك، أفلا تتيح لي التماس زاوية وضيعة في فيء حبك، أنعم فيها بأروع اوقات السعادة؟ أتوسل اليك ان ترأف بحالي.

ديمتريوس : لا تحاولي أن تستفذّيني لأكرهك. فان قلبي يرتعش ارتباكاً عندما أشاهدك.

هيلينا : اما انا فقلبي يطير هلعا عندما لا أشاهدك.

ديمتريوس : اراكِ تحمِّلين إباءك عبئا ثقيلا من المذلة بمغادرتك مدينتنا. وباتكالك على رجل لا يكنّ لك ذرَّة من الود، تتخذين من ظلمة الليل العاتي ووحشة المكان المقفر ملاذا لعفتكِ.

هيلينا : يكفيني ان احتمي بفضيلتك، فيزول عني كل قلق عندما ابصر محياك، وأن تحتضنني اجنحة الطمأنينة في هذه الغابة الآهلة بأُناس آمنين، فهي بالنسبة اليّ عالم مؤنس يبدد وحشتي. وهل يسعني ان اعتبر نفسي وحيدة عندما اجد الدنيا بأسرها تحيطني برعايتها؟

ديمتريوس : انا مصمم على الهرب منك والاختفاء في هذه الغابة الكثيفة

لأدعك تتعرضين لاذى الوحوش الضارية.

هيلينا : ان أشرس حيوان، في صدره من الشفقة اكثر مما في قلبك المتحجِّر. إذهب متى شئت، فتنعكس الاسطورة، اذ يهرب ابولو وتلاحقه دفنه، والحمامة تطارد الصقر، وتنقضّ النعجة الوديعة على النمر. ما اصعب هجوم الجبان وهزيمة الشجاع!

ديمتريوس : انا لا أريد ان أطيل معك المناقشة. فدعيني اذاً اذهب. لكن اذا تبعتني مجددا، فكوني على يقين بأنك تعرضين نفسك للهلاك في هذا الغاب بالذات.

هيلينا : لقد تحملت بسببك مذلات عديدة في الهيكل وفي المدينة وفي الحقول. فتباً لك يا ديمتريوس، تباً لك. ان مجابهتك قد ألبست تودّدي العار والهوان. انا لا أظن اننا نتشاجر في سبيل الحب، كما يحق للأنس وحدهم ان يفعلوا. اذ يتحتم علينا ان نقبل الغزل من سوانا لا ان نتغزل بذواتنا.

(يخرج ديمتريوس)

سأتبعك، وسأحوّل جحيمي الى جنة، ولو تسببت بهلاكي اليد التي أعبدها.

(تخرج)

اوبرون: اذهبي، بسلام، يا عروس البحر. فقبل ان يغادر حبيبك هذا الغاب، ستهربين انت منه، ويبحث هو عن سواك.

(يعود بوك الى المسرح)

اهلا وسهلا، ايها المسافر الكريم. هل جئتني بالزهرة؟

بوك : أجل، ها هي.

اوبرون: ارجوك ان تناولني اياها. انا أعرف ان هناك وهدة ينبت فيها المرج الاخضر ويزهر السعتر البري وشقائق النعمان والبنفسج المتواضع، ويفوح بجواره عبير زهر العسل والورد الجوري. بين تلك الازهار العطرة ذهبت تيتانيا لتنام هجيعا من الليل بعد ان أنهك الرقص قواها. وهناك تخلع الحية ثوبها العتيق الفضفاض الذي يصلح لإلباس جنية. سأمسح انا عيني تيتانيا برحيق هذه الزهرة، وأفعم قلبها ضغينة وحقدا. وأنت خذ قليلا منه واسرع عبر اشجار هذا الغاب الى حيث ترى صبية من آثينا قد عشقت فتى مهووسا لا يضمر لها

سوى الاحتقار مضطجع ليس بعيدا عنها. فبلل أجفان هذا المتجبر. انما تصرّف بطريقة فعالة تجعل اول من يقع عليه نظره عندما سيفتح عينيه، هذه الصبية ذاتها التي ستعرفها من زيِّها الآثيني. تدبر الامر بعناية فائقة لكي يعشق حتما هذه الفتاة اكثر مما هي تهواه. ثم عدْ وقابلني هناك باكرا قبل صياح الديك.

بوك : اطمئن يا مولاي، سأنفذ اوامرك حرفيا.

(يخرجان)

المشهد الثاني

في بقعة اخرى من الغابة

(تيتانيا وحاشيتها)

تيتانيا: اولا، أريد حلقة رقص ثم أنشودة مرحة. وبعد هنيهة يمضي بعضكم لقتل الديدان التي تأكل أكمام الورد العاطر، والبعض الآخر يذهب لمحاربة الوطاويط وأخذ جلود اجنحتها لكي تصنع منها جنِّياتنا ثيابا، وتذهب فئة غيرها لاصطياد البوم الذي يملأ الليل بنعيبه الكئيب ولا يروق له ان يرى ألعاب رفاقنا الصغار. والآن أود سماع اغنية حلوة قبل المباشرة في العمل، ثم أرقد بعض الوقت.

(تنشد الجنيات)

جنية: ايتها الحيَّات المرقَّطة ذات اللسان المشوق.
ايتها القنافذ الشائكة اختفي قبل الشروق
وأنتِ ايتها الحرباء كفِّي عن تلوّناتك الدائمة
واحذري ان تقتربي فان ملكتنا العزيزة نائمة.

المجموعة: ها هي المنشدة بصوتها الرخيم
تغرّد وتؤنس الليل البهيم
ولا تدع مجالا للوحشة ان تهيمن
وتحرم الملكة الجليلة رقادها المزمن.
جنية أخرى: ايها العنكبوت الحيَّاك عني ابتعد
بأرجلك الطويلة المزعجة وارتعد
وأنتِ يا خنافس ويا صراصير الفلا
ويا ديدان الارض كفي عني البلا.
المجموعة: ايتها المطربة، بصوتك الشجي غني
واطردي الهموم والاحزان عني
والمليكة المعبودة نجيها من كل شر
فهي أحق بجنان الخلد كأهنأ مقر.
الجنية الاولى: لنذهب، لان كل شيء على ما يرام
ولا حاجة للسهر على مولاتنا وهي تنام

(تخرج الجنيات، ويدخل اوبرون الذي يعصر الرحيق على أجفان تيتانيا)

اوبرون: ان من تبصرينه عند يقظتك
ستعشقينه وتقفين عليه حبك
ولا تقوين ان تحجبي عنه الهيام
حتى ان كان دبًّا لا يستحق الغرام
او نمرا او خنزيرا او قنفدا
ستخالينه من عذاب الصب منقذا
وعند استيقاظك تعبدينه كالإله
ولو غولا مريعا لن تصرخي: آه.

(يخرج، ويدخل ليساندر مع هرميا)

ليساندر : انت تنوئين تحت وقر التعب يا حبيبتي، من عناء السير الطويل في هذا الغاب. ولا أنكر اني انا ايضا حدتُ عن الطريق السوي. فيا هرميا، ان

كنت ترين معي الفرصة مناسبة سنرتاح هنا قليلا، بانتظار نجدة انبلاج نور الصباح.

هرميا: لعمري، أنا أيضاً أتوق الى الراحة، فهل ترى مكاناً للنوم ؟ أنا مزمعة أن ألقي رأسي على هذا المتكأ.

ليساندر : المرج وحده يصلح لان يكون وسادة لك. أما القلب والنهدان والسرير، فلا تهفو الا الى أمنية واحدة.

هرميا : عزيزي ليساندر، حبا بي، اسألك ان لا تتمدد بقربي. فأرجوك ان تبتعد عني.

ليساندر : لا تأوّلي براءة كلامي خطأ يا عزيزتي. فلا بد للحبيب من ان يفهم معنى ما يفوه به حبيبه على جليته. أريد ان اقول ان قلبي مرتبط بقلبك ارتباطا وثيقا حتى اصبحا قلبا واحدا، وباتت افكارنا ملتحمة بعهودنا وآمالنا وأحلامنا المشتركة. أتوسل اليك ان لا ترفضي تمددي الى جانبك. وان التمست هذه المنّة منك فأنا لا اقصد انتهاز اية سانحة ولا التمادي معك بحرية قيد أنملة.

هرميا : انا اعرفك يا ليساندر بارعا في التلاعب بالكلام. غير اني اكون كاذبة ملعونة، اذا فكرت بأنك من أصحاب المجون. مع ذلك يا صديقي العزيز من قبيل اللياقة واكراما لحبي، اسألك ان تذهب وتتمدد بعيدا من هنا، كي يظل بيننا المدى الذي، حسب الاعراف البشرية، وضمن نطاق الحياء، يجب ان يفرق بين الصبية العذراء والشاب الفضيل العفيف. فابتعد اذاً، وأنا أتمنى لك مساء سعيدا يا صديقي الكريم، راجية ان لا تتبدل شهامتك المعهودة حتى آخر ايام عمرك الغالي المديد.

ليساندر : لذا أنا أختتم صلاتك الخاشعة بكلمة آمين، وأتمنى أن تزدان حياتي بالوفاء والاخلاص على الدوام. هذا سريري أتخلى عنه لك، فارقدي فيه براحة كاملة ارجوها لك طوال العمر.

هرميا : وأنا آمل ان تتمتع انت يا صاحب هذه الامنية بأضعاف أضعافها.

(يناما. ثم يدخل بوك)

بوك ينشد : ها قد اجتزت الغابة سدى

ولم أصادف في آثينا رجل هدى

أستشفّ في عينيه دليلا قاطعا
على ان حب هذه الزهرة ليس ضائعا.
كل ما في الكون سكون وظلام
وفتى من آثينا جفاه الهيام
على قول سيدي، يحاول ان ينام
بعيدا عن حبيبته فلا يتمكن
لان عذاب الصدّ عليه هيمن

(يبلّل جفني ليساندر)

ايها المشعوذ الخدّاع اكحل عينيك
بما اسرقه من سحر وجنتيك
آملا ان يقوى الحب عند يقظتك
على ازالة القطيعة بينك وبين حبيبتك

(يخرج، ويدخل ديمتريوس وهيلينا راكضين)

هيلينا : قف، يا ديمتريوس، حتى ان كنت تنوي هجري.
ديمتريوس : آمركِ بأن تبتعدي عن دربي وتكفّي عن ملاحقتي.
هيلينا : ارأف بحالي ولا تتركني في ظلام حيرتي وأساي.
ديمتريوس : مكانكِ، وإلا حل بك الويل والثبور، لاني مصمم على الذهاب وحدي.

(يخرج)

هيلينا : لقد تقطعت أنفاسي وأنا اركض كالهائمة. اذ كلما أمعنت في استعطافه كلما زادني جفاء. فحينما تستقر هرميا تغمر السعادة قلبها لان السماء ترعاها بعين الرأفة والعناية. ترى، كيف اكتسبت ألحاظها مثل هذه الجاذبية؟ هذا حتما ليس بفضل الدموع السخينة التي تزرف مقلتاي غالبا أحر منها. كلا، ثم كلا. انا اقبح من قردة، والوحوش تهرب مني مذعورة عندما تراني. فليس غريبا ان ينفر ديمتريوس مني كأني بوم بغيض. اية مرآة خداعة حملتني على الاقتناع بأن في عيني هرميا حلاوة ملائكية؟ من عساي ارى هنا؟ أهو ليساندر

ممدد على الارض؟ هل هو نائم ام ميت؟ لكني لا اجد دما ولا جرحا. اذا كنت حيا، عليك ان تستيقظ يا حبيبي.

ليساندر (**يستيقظ**) : انا مستعد لان ألقي بنفسي في النار لأجلك يا حبيبتي الجميلة هيلينا. ان الطبيعة بقدرتها الفائقة جعلتني أستشفّ طيبة قلبك من خلال عينيك. اين ديمتريوس الخائن الغدّار الذي لا يستحق سوى القتل بسيفي انا؟

هيلينا : لا تقل هذا، يا ليساندر. في الحقيقة ما ضرّك ان عشق هرميا؟ وما همّك، ما دامت هرميا تحبك؟ تعقل وكن راضيا بقسمتك.

ليساندر : انا ارضى بهرميا؟ لا، لا. اني آسف على الساعات المملة التي قضيتها بقربها. كلا، ثم كلا. انا لا احب هرميا، بل اهواك انت يا عزيزتي هيلينا. ومن ذا الذي يستبدل حمامة ناصعة البياض بغراب فاحم السواد؟ لا بد لارادة الرجل من الخضوع لعقله، وعقلي يؤكد لي انك أفضل منها بما لا يقاس. كل فاكهة تنضج في فصلها. فبالأمس لاحظت ان ذهني المفتقر الى الخبرة لم يكن موفقا في اختياره. اما اليوم وقد بلغت ذروة التبصُّر والحكمة، فأنا أخضع ارادتي لعقلي الذي يقودني الى عينيك اللتين اقرأ فيهما اسمى قصة حب مسطَّرة في اروع كتب الهوى.

هيلينا : لماذا جئت انا الى هذا العالم المضني؟ ألكي أذوق مرارة سخريتك؟ علام أستحق منك كل هذا الازدراء والامتهان؟ أولا يكفي، يا فتى، اني لا احصل على نظرة عطف من حبيبي ديمتريوس، حتى تجيء انت وتضيف تبجحك الى خيبة املي وانكسار فؤادي؟ في الحقيقة، تغزّلك بي يضيِّق الخناق عليَّ كثيرا بما تبديه نحوي من تهكُّم واستخفاف. فالوداع يا ليساندر. عليّ ان أقر بأني حسبتك اكثر ظرفا وكياسة. فهل من العدل ان أتلقى النفور من رجل أحبه، وأن أتحمل الاهانة من سواه يدّعي محبتي.

(تخرج)

ليساندر : هي لم تبصر الرجل الآخر. اما انت فظلي نائمة هنا يا هرميا. وكل أملي ان لا تقتربي مني بعد الان. فما دام ازدراد اطيب المآكل فوق الشبع يسبب للمعدة التخمة والتقزز والالم، وكما ان الخروج على الدين هو في نظر المؤمن أبغض الزندقات، هكذا انا في انكار حبها اكون في نظر الجميع، وفي

نظري أنا أيضاً، بالغاً منتهى الغباء والانحطاط. فما عليك يا قلبي إلّا أن تستجمع أشواق حبك لتكرم هيلينا كما يفعل اوفى العشاق.

(يخرج)

هرميا (تستيقظ) : النجدة يا ليساندر، النجدة ! حاول المستحيل لتطرد هذه الافعى الجاثمة على صدري. ارحمني يا الهي! ما أفظع هذا الحلم! انظر يا ليساندر كيف جعلني الخوف أرتجف. لقد أحسست بأن ثعبانا ينهش قلبي، وأنت تنظر بابتسام الى وليمته الشرسة المريعة. اين انت يا ليساندر، اين ذهبت؟ ليساندر، مولاي الحبيب ليساندر، ألا تسمع ندائي؟ كيف اختفيت بدون ضجة ولا كلمة؟ واحسرتاه، اين انت الان؟ ان سمعتني، ارجوك ان تجيبني، أتوسل اليك ان تكلمني. يا الهي، انا على وشك الانهيار. ما هذا السكوت؟ ارى جيدا انك تخليت عني. ولكني سأجدّ في طلبك حتى ألقاك، او اموت كمدا في البعد عنك.

(تخرج)

الفصل الثالث

المشهد الاول

في الغابة ــ تيتانيا متكئة تنام

(يدخل لكوان وبتجون وبوبين وفلوتيو ولوباك وكرنكالي)

بوبين : هل نحن جميعا هنا؟
لكوان : أجل، وهذا المكان يناسب مراجعاتنا. فالمرج الاخضر يؤلف المسرح، وأكوام العوسج نستخدمها لخلوات يتأهب فيها الممثلون. وسنقدم الان المسرحية كاملة، تماما كما لو كان الامير حاضرا.
بوبين : يا لكوان.
لكوان : ماذا تريد ان تقول يا عزيزي بوبين؟
بوبين : ان تمثيلية بيرام وتسبا هذه، تشتمل على بعض أمور غير ملائمة بتاتا. اولا، امتشاق بيرام الحسام ليقتل نفسه، تصرّف لا تطيق السيدات احتمال مشاهدته. فما رأيك؟
لوباك : بحق السماء سيكون ذعرهن وبالا علينا.
كرنكالي : بعد التفكر، ارى ان الافضل الغاء هذا الانتحار.

بوبين : ابدا. انا لديّ فكرة لمعالجة هذا الموقف الحرج. اكتبوا لي مقدمة تبين اننا لا نقصد بسيوفنا شرا، ولا ننوي مطلقا قتل بيرام. ولزيادة التطمين أؤكد للمشاهدين اني انا لست بيرام الاصيل، بل بوبين الحائك. وهكذا نزيح عنهم كابوس الفزع.

لكوان : هذا حسن، بشرط ان تكون المقدمة طلية.

بوبين : سيكون أسلوبها شيقا بسيطا.

لوباك : ثم، ألا تخاف السيدات من الاسد؟

كرنكالي : انا لا اخفي عنكم، اني شخصيا اخشاه كثيرا.

بوبين : ايها السادة، عليكم ان لا تسهوا عن امر خطير، ألا وهو ان وجود الاسد، وقانا الله شرّه، امام السيدات مشكلة فظيعة مريعة، اذ ليس من وحش ضارٍ في الدنيا أشرس من الأسد الحقيقي. فيتحتّم علينا أن نتروّى ونتبصّر في العواقب مرتين قبل الاقدام على ابرازه.

لوباك : اذاً، نحن بحاجة الى مقدمة اخرى نشرح فيها ان الاسد ليس حقيقيا.

بوبين : كلا، هناك حل افضل: علينا ان ننادي الممثل باسمه، وندع نصف وجهه يظهر من خلال عنق الأسد، فيتكلم عبر الثغرة ويقول ما معناه : « سيداتي، او بالحري، سيداتي الجميلات، أود ان أعبِّر لكنَّ عن رغبة، بل عن رجاء والتماس ان لا تخفن ولا ترتجفن. فحياتي خير ضمان لحياتكن. ولو اتيت الى هنا كأسد حقيقي فلا احتياط يؤمِّن سلامتي. لا، لا، انا لست اسدا على الاطلاق، بل أنا رجل طبيعي » وهنا يعلن اسمه ويصرّح بأنه بنجون النجار.

لكوان : حسنا. اتفقنا على ذلك. انما هناك صعوبتان: الاولى احضار القمر الى القاعة، لان بيرام وتسبا، كما تعلمون، يلتقيان في ضوء القمر.

لوباك : وهل سيضيء القمر مساء الحفلة؟

بوبين : اليّ برزنامة، من فضلكم، اعطوني رزنامة. انظروا في التقويم، وابحثوا جيدا عن طلوع القمر، وأفيدوني ان كان سيضيء في تلك الليلة.

لكوان : أجل، سيسطع في تلك الامسية.

بوبين : في هذه الحالة، ما عليكم الا فتح النافذة على مصراعيها في القاعة

الكبيرة حيث نمثل، فيضيء القمر من خلالها.

لكوان : أجل، وإلا اقتضى الامر دخول احد يحمل قنديلا وحزمة حطب، ويعلن انه قادم للتمويه، أي لتمثيل شخصية ضوء القمر. ثم ان هناك صعوبة ثانية. اذ اننا بحاجة الى حائط في القاعة الكبيرة، لان بيرام وتسبا، كما ورد في التاريخ القديم، كانا يتحادثان من خلال شق في الحائط.

لوباك : لا سبيل الى الاتيان بحائط. فما العمل يا بوبين؟

بوبين : على احدنا ان يمثل شخصية الحائط. فيكتسي بالجص او بالآجر او بالطين دلالة على انه حائط حقيقي، ويبقي اصابعه متفرقة هكذا ليتسنى لبيرام وتسبا ان يتهامسا من خلال هذا الشق.

لكوان : لو امكن تحقيق ذلك لتم الامر على ما يرام. هيا اجلسوا كما انتم وراجعوا أدواركم. يا بيرام عليك ان تكون البادىء. وحينما تنتهي من القاء مقفعك، تختفي وراء هذه الشجيرات، وكل من يأتي بعدك يفعل نظيرك، بعد ان يؤدي دوره طبعا.

(يدخل بوك من الخلف)

بوك : من هم هؤلاء الاجلاف الذين يرتدون ثيابا كأكياس القنّب، وكالرعاع المشردين يقتربون من سرير ملكة الجن متسللين؟ هل يستعدون لتمثيل مسرحية؟ لعمري، أريد ان اكون احد المشاهدين، بل احد الممثلين اذا سنحت لي الفرصة.

لكوان : تكلم يا بيرام. تقدمي يا تسبا.

بوبين : يا عزيزتي تسبا، هذه الازهار اللطيفة ذات العطر السافر...

لكوان : العطر الساحر، الساحر.

بوبين : ذات العطر الساحر، لا تضاهي أريج أنفاسك الزكية الرائحة يا حبيبتي. لكني أسمع صوتا. ابقي هنا لحظة، فلن ألبث ان اعود اليك بعد هنيهة.

(يخرج)

بوبين : هكذا ستكون أفضل بيرام مثّل في هذا المكان.

فلوتيو: هل جاء دوري انا لأتكلم؟

لكوان : طبعا جاء دورك. لا تنسَ انه خرج فقط ليرى ما هو مصدر الضجة التي سمعها وأنه سيعود حالاً.

فلوتيو: يا بيرام اللامع كبياض الزنبق النقي، ايها الفتى الظريف الوسيم، انت كنزي الغالي، ثق بأني أعادي الجميع للاحتفاظ بودّك، ولا أبالي...

لكوان : لا أبالي، يا فهيم. لكن هذا القول ليس في محله هنا الان. هذا جوابك على بيرام. وأنت تتلو دورك على وتيرة واحدة وتخلط بين المقاطع وردودها. يا بيرام، حان لك ان تدخل، وفات أوان مقطعك، اذ كان عليك ان تتوقف عند : « أنت كنزي الغالي ».

فلوتيو: فهمت الان. وها انا أكرر قولي: ايها الفتى الظريف الوسيم، انت كنزي الغالي.

(يدخل بوك، يرافقه بوبين مرتديا رأس حمار)

بوبين : لو كنتُ حصانا يا تسبا الحلوة، « لحملتك على ظهري ».

لكوان : ما هذه البلاغة « الخنفشارية » التي سلبت عقولنا. فلنهرب يا سادة. النجدة.

(يخرج لكوان وبنجون وفلوتيو ولوباك وكرنكالي)

بوك : سأتبعك راضيا الى أقاصي الارض، وأجتاز المستنقعات الشاسعة الهائلة ولو تعثرت بأكوام الشوك والشجيرات كجواد مسرع او كلب صيد يجري وراء غزال زائغ او ثور خائر او خنزير جريح او كطلق ناري، فأصهل وأعوي وأزمجر وأختفي كمجرم هارب من وجه العدالة.

(يخرج)

بوبين : لماذا الهرب؟ أهي حيلة خسيسة لترويعي؟

(يدخل لوباك)

لوباك : كم تغيرت يا بوبين! ماذا ارى عليك؟

بوبين : ماذا ترى؟ أولا يكون ذلك رأس حمار يخصّك؟

(يخرج لوباك ويعود لكوان)

لكوان : بارك الله فيك يا بوبين، بارك الله فيك. كم تغيرت هيئتك!

(يخرج)

بوبين : الآن ادركت سماجة مزاجكم، أردتم تحويلي الى حمار لترويعي، ان امكنكم. ولكن كيفما تصرّفتم لن أتزحزح من هنا. سأذرع المكان طولا وعرضا وأتنزه وأغني لأبرهن لكم انني لست بخائف:

العندليب يزهو بريشه الاسمر
ويغرد عند انبلاج الفجر الاحمر
والحسُّون بروعة صوته يزدهي
والقبَّرة الصغيرة، كبر الحجم تشتهي

تيتانيا: أي ملاك يوقظني، وأنا راقدة على سريري المفروش بالازهار؟

بوبين (يغني) : البلبل والكنار وأبو الحن
كلها تغرد بحزن وتئن
وعلى الزوج المخدوع تشفق وتحن.

اذ ليس من رجل يود ان يناقش عصفورا غبيا كهذا، يريد ان يكذّبه حتى حين يبحُّ صوته من الهتاف: ككو كوكو.

تيتانيا: ارجوك ان تنشد ايضا يا صاح. فان أذني تتوق الى سماع صوتك المؤنس، كما ان نظري مشتاق الى رؤية محياك البشوش، وسحر بهائك وحده يدعوني منذ البدء الى التصريح لك والحلفان بأني أحبك.

بوبين : سيدتي الكريمة، أعتقد بأنك لست على حق في ما تقولين. وفي الواقع، ارى العقل والحب لا يتفقان ابدا في هذه الايام. ومن المؤسف ان لا يوجد متطوع شجاع ليصالحهما. ليت شعري، هل سيتسنى لي ان افرح في المناسبات؟

تيتانيا: اذا كانت حكمتك توازي وسامتك.

بوبين : كلا، ليس الامر هكذا تماما. لكني لو كنت أملك الحنكة الكافية لمغادرة هذه الغابة في الوقت المناسب، لعرفت حتما ما يتوجب عليّ عمله.

تيتانيا: لا تأمل بمغادرة هذا الغاب. فستمكث فيه شئت أم أبيت. فأنا روح من الاعالي، وفي مملكتي يدوم الصيف الى الابد. أنا أحبك، فعليك ان تبقى الى جانبي. وسأمنحك جنّيات لتخدمك. فتذهب لتنتشل لك الجواهر من البحر، وتنشد لك لتنعم بنوم هنيء عندما تستلقي على فراش من الورد. سأطهِّر

جسمك من الشوائب حتى يمكنك ان تطير كالروح في الهواء. هلمي اليّ يا زهرة الربيع، ويا شبكة العنكبوت، ويا خفة الفراشة، ويا حبة الخردل.

(تدخل الجنيات الأربع)

زهرة الربيع : انا هنا.

شبكة العنكبوت : انا ايضا هنا.

خفة الفراشة : انا ايضا هنا.

حبة الخردل : انا ايضا هنا.

جميعهن (بصوت واحد) : اين علينا ان نذهب؟

تيتانيا: من فضلكن، إصحبن هذا الشخص الكريم الحاضر امامنا. رافقته في روحاته وفي غدواته، والعبن معه. أطعمنه المشمش والخوخ والعنب والتين والتوت. اختلسن من النحل شهد العسل واشعلن بنار الحباحب أفخاذها المثقلة بالشمع الاصفر لتضيء كالمشاعل اثناء نوم حبيبي وقيامه، والجأن الى اجنحة الفراشات الملونة لحماية عيونه الناعسة من أشعة القمر. هيا يا جنّياتي قدمن له فروض الاجلال والاحترام.

زهرة الربيع : أحييك يا سيدي الكريم.

شبكة العنكبوت : وأنا ايضا أحيِّيك.

خفة الفراشة : وأنا أيضا أحيِّيك.

حبة الخردل : وأنا ايضا أحيِّيك.

بوبين : أشكر لطفكن من أعماق قلبي، وألتمس من سيادتكِ انت ان تقولي لي ما اسمك؟

شبكة العنكبوت : شبكة العنكبوت.

بوبين : سيدتي شبكة العنكبوت، انا أنوي ان اعرفك معرفة أوفى، حتى اذا جرحت اصبعي، ألجأ الى طلب الاسعاف منك. وأنتِ يا حلوة، ما اسمك؟

زهرة الربيع : زهرة الربيع:

بوبين : ارجوكِ ان تبلغي والديك أحر سلاماتي. يا سيدتي زهرة الربيع، أنا أنوي ان اعرفك انت ايضا معرفة أوفى. وأنت ايتها الحلوة، أرجوك ان تقولي لي ما اسمك؟

حبة الخردل : حبة الخردل.

بوبين : يا سيدتي حبة الخردل، انا اعرف كم تحملتِ من الصعاب راضية. ان هذا الجبان الشره قد افترس بعض وجهاء قومك. وأؤكد لك ان والديك قد سبَّبا لي دموعا غزيرة. لذا انا أنوي ان اعرفك انت ايضا معرفة اوفى، يا سيدتي اللطيفة حبة الخردل.

تيتانيا : هيا رافقيه حتى خلوته، فالقمر على ما أرى، يسيل دمعه على خدّيه. وعندما يبكي هكذا، فان اصغر زهرة تزرف الدمع على العفافِ المغتصب في كل بقعة من العالم. صوني لسان حبيبي ورافقيه بصمت.

المشهد الثاني

بقعة أخرى من الغابة

(يدخل اوبرون)

اوبرون: أود أن أعلم اذا كانت تيتانيا قد استيقظت، وماذا شاهدت حين فتحت عينيها كي تهيم بمعشوقها حتى الجنون.

(يدخل بوك)

هاهوذا رسولي. فيا أيها الروح المرح، أعلمني بدون امهال، ما هذه الحفلة الليلية التي تقام في هذا الغاب السحري ؟

بوك : مولاتي الملكة متدلهة بحب غول. وحول خلوتها السرية المقدسة يتهافت رهط من الحمقى والمتزلفين الأفظاظ الذين، في سبيل كسب قوتهم يكدحون في دكاكين مدينة آثينا ويجتمعون لمراجعة مسرحية يودّون تمثيلها بمناسبة عرس تازيوس. وها هو ابلدهم يقوم بدور بيرام، ويغادر المسرح في

منتصف حديثه لينسحب الى أجمة مجاورة... فاغتنمت الفرصة حالا وألبسته رأس حمار. وبما انه سيردّ على مقطع تازيوس، تقدم ثانية، وما كاد المشاهدون يرونه نظير أوزة برية اكتشفت البطة الصغيرة التي تتمايل مقبلة نحوها، أو كبوم رمادي العنق يطير مع سربه بصخب عند سماع طلق ناري، ثم يغيب في الفضاء الواسع، حتى هرب رفاقه على غير هدى لدى رؤيته يختفي. فأسقط احدهم الشمعدان الطويل وقفذ حول نفسه وصرخ : « يا للقاتل »، مستجيرا بأهالي آثينا. وكلما ازداد فزعهم كلما قلّ وعيهم، حتى طاش صوابهم أخيرا فبدت لهم الأشياء الجامدة كأنها أعداء ألدّاء، فتشبث الشوك والعلّيق بملابسهم وأضاع أحدهم قبعته، وآخر كمّه، وأجبنهم كاد يفقد عقله. فعدت بهم مضعضعين وتركت هنا بيرام الواجم. واذا بتيتانيا في تلك اللحظة بالذات تستيقظ وتعشق الحمار الذي وقع نظرها عليه.

اوبرون : بالحقيقة جرى هذا بصورة أفضل مما كنت أتصور. ولكن هل بلّلت جيدا حسب تعليماتي، عيني الشاب الآثيني برحيق الحب الذي سلمتك اياه ؟

بوك : أجل، يا مولاي، قمت بهذه المهمة، وفاجأته عندما كان يستريح بقرب الصبية الآثينية بشكل يحتم عليه حين يستيقظ أن لا يرى سواها.

(تدخل هرميا ويتبعها ديمتريوس)

اوبرون: لا تتحرك. ها هما قادمان.

بوك : المرأة هي بعينها. انما الرجل ليس هو المقصود.

ديمتريوس : يا الهي ! لماذا نرفض ونتحاشى من نحبه حتى العبادة ؟ علينا أن نخصّ بكلامنا القاسي مَن مِن أعدائنا يريد لنا المآسي.

هرميا : لقد اكتفيت حتى الآنَ بالعتاب. غير ان الأولى بي أن ألجأ الى ما هو أعنف. وأخشى أن أضطر الى صب اللعنة عليه. فاذا قتلت ليساندر أثناء نومه، ولطّخت يديك بدمه، ما عليك الا أن ترمي بنفسك الى قعر الهاوية، وأنا أحرّضك على هذه البادرة. الشمس لم تكن ساطعة نظير اليوم الذي قال فيه ليساندر لهرميا : لماذا هرب كاللص حين كانت حبيبته غارقة في النوم ؟ لقد اعتقدتُ بأن سهما اخترق الكرة الأرضية من طرف الى آخر، وان القمر الذي يسطع ليلا في كبد السماء، يمكنه أن يضيء الكون في وضح النهار ويكسف

نور زميلته الشمس. أظنك قتلته، وليس في الامكان أن يجري الأمر على شكل آخر، ولا بد لوجهك الكئيب المشؤوم الا أن يخصّ قاتلا مجرما شريرا.

ديمتريوس : كلا، بل هذا وجهي أنا القتيل، وقد اخترقت قلبي سهام عنفك وشراستك، وأنت قاتلتي صاحبة هذا الوجه الطاهر الجذّاب الذي يحاكي محيا فينوس الصبوح في أوج تألّقه.

هرميا : ما هي العلاقة بين هذا وليساندر ؟ أين هو حبيبي الغالي ؟ هل تريد أن ترده لي يا ديمتريوس الكريم ؟

ديمتريوس : أود بالحري أن أطرح عظامك الى كلابي.

هرميا : أغرب عني أيها الصعلوك، فقد أخرجتني عن صبري. أهكذا قتلته أيها المجرم ؟ لقد فقدت الان مكانتك بين البشر وبتَّ تنتمي الى زمرة وحوش الأدغال. أرجوك، حبًّا بي، أن تعترف بالحقيقة وتصرح لي : لو كنت مستيقظا هل تجرأت على رفع نظرك الى من قتلته وهو نائم ؟ قبحاً لجبانتك المنقطعة النظير. الأفعى وحدها تقدم على ما قمت أنت به، وفي الواقع لا يتصرف على هذا النحو الا الثعبان الغادر، لا بل أنا لم أسمع أبدا ان أفعى لدغت ونفثت سمَّها الناقع بطريقة أبشع وأحط من التي لجأت أنت اليها.

ديمتريوس : انك تغضبين حين لا داعي الى ذلك. أؤكد لك ان يدي بريئة من دم ليساندر وهو على ما أعلم لا يزال على قيد الحياة.

هرميا : أتوسل اليك أن تطمئنني بأنه سليم معافى.

ديمتريوس : وماذا ينوبني منك اذا أثبت لك ذلك ؟

هرميا : ستغنم غيابي وبعدي عنك، ما دمت سأهرب من شخصك البغيض. سواء أكان حيا أو ميتا، أسألك أن لا تريني وجهك بعد الآن.

(تخرج)

ديمتريوس : لا جدوى من اللحاق بها وهي على هذا الحال من الغضب. سأمكث بعض الوقت في هذا المكان لأن أثقالا من الغم والحزن تجثم على صدري كأنها ديون تطوّق عنقي، وأنا أفتقر الى النوم والراحة. مع ذلك ربما أديت دفعة على الحساب بانتظاري ها هنا.

(يتمدد وينام)

اوبرون: ماذا فعلت يا غبي ؟ لقد تصرفت تماما بعكس ما طلبت منك. فسكبت رحيق الحب في عيني عاشق متيَّم مخلص، وجررت بغلطتك الجسيمة الهم والأسى على القلب الرقيق، بدلاً من أن تنزل بالقلب المتحجِّر عذاب الصد والجفاء.

بوك : لا تنسَ ان القدر سلطان مستبد وهو الذي قضى بوجود رجل أمين متمسك بعهوده مقابل مليون من المتنكرين لها لا يترددون لحظة في نقضها.

اوبرون: هيا أسرع عبر الغابة كهبوب الريح وابحث عن هيلينا الآثينية. فان أشواقها المبرّحة قد خطفت لون محياها لأن التنهدات العقيمة تهدر دم الحيوية. اجلبها الى هنا بأية خدعة، وأنا قبل وصولها سأسحر عيني هذا النائم الغافل.

بوك : ها أنا منطلق كالسهم بسرعة البرق.

(يخرج)

اوبرون (ينحني فوق ديمتريوس) : يا رحيق الزهر الذي يحاكي لون الأرجوان، تسلَّل من خلال جفون هذا الراقد واجعل حبيبته تتألّق في نظره مثل الإلهة فينوس، وتتجلى بجاذبية حسنها البهي.

(يدخل بوك)

بوك : يا ملك الأبالسة، أيها الخبيث اللعين، يا مَن تنعّم بالقرب من هيلينا والشاب النضير. أنا أخطأت بحقه، ولذا ألتمس عفوه ورضاه. هلّا ساعدتني على تخفيف أساه لأن القائمين بالتمثيل أناس جهلة غير جديرين بأي تقدير.

اوبرون: دعنا بعيدين عنهم لأن ضجتهم ستوقظ ديمتريوس من نومه وهو يتولى أمر زجرهم.

بوك : لتلك الفتاة عشيقان في آن واحد، وهذا يسليني ويكدرني معا. لأني شخصيا أفضِّل من الأمور على الدوام كل عجيب غير مألوف.

(يدخل ليساندر ومعه هيلينا)

ليساندر : لماذا تعتقدين بأني أغازلك مرغما ؟ ألأن القسر والمحاباة لا يستدرّان الشفقة والدموع ؟ أنظري اليَّ كيف أبكي وأنا أؤكد لك حبي الذي منذ نشأته كان ولا يزال أمينا على عهدك. فلماذا تتهمينني اذاً بخسَّة وعودي

التي تتسم بحسن النية ؟ وإخلاصي أصدق برهان على ما أمتاز به من الأصالة ورعاية الزمم.

هيلينا : انك حقا داهية لا يشق لك غبار في الاحتيال والنفاق، اذ تذهب بعيدا هكذا في مكرك وخداعك. عندما يجابه الحق الباطل تكون المعركة طاحنة بينهما. أنا واثقة بأن وعودك مقصورة حتما على هرميا، ولا أفهم لماذا تفكر بهجرانها. ألا أعلم ان من يسعى الى كسب حبين لا يفوز في الواقع بأي غنم، وان وعودك التي تغدقها عليّ وعليها في نفس الوقت، ان وُضعت في كفتي ميزان الوفاء تظل متعادلة في الاهمال والنسيان كأنها حكاية لا فكاهة لها ولا مغزى.

ليساندر : حقا كنتُ مغفَّلا حين أقسمت لها بأني أهواها.

هيلينا : وأنت لا تقلّ عني غباء لأنك تهجرها.

ليساندر : ديمتريوس متيَّم في هواها، ولا يحبك أنت.

ديمتريوس (يستيقظ) : هيلينا، حبيبتي ومعبودتي هيلينا، أنت حورية خالية من كل عيب. بماذا أشبِّه عينيك، يا ملاكي ؟ أنقى بلُّور بالنسبة اليهما ليس سوى زجاج قذر، وشفتاك المغريتان أشهى من كرزتين ورديتي اللون تضمهما قبلة الشوق والهيام. عندما ترفعين يدك تبدو ناصعة البياض كالثلج على قمم جبال طوروس التي تلفحها رياح الشرق وتحولها قتاما فاحما كالغراب الأسود. بربكِ دعي شفتيّ تطبع على بشرتك الناعمة قبلة طاهرة تكون عربون هنائي وسعادتي.

هيلينا : يا للعار، يا للشقاء ! ها أنا ألمس لمس اليد انكما صممتما معا على التلذذ بقهري واذلالي. لو عرفتما معنى اللياقة لما وجهتما اليّ هذه الاهانة. أولا يسعكما، وأنا على يقين بأنكما لا تكنَّان لي أية مودة، ان تضمرا لي الكره فقط بدون أن تتحالفا على جعلي هدفا لسخريتكما ؟ لو كنتما رجلين كما تتظاهران، لما تصرفتما هكذا حيال فتاة عريقة النسب مثلي، ولما اجزلتما لي وعود الحب ولما تغنيتما هكذا ببهاء طلعتي، بينما أنتما تمعنان في الحقد عليّ والازدراء بي. أنتما تتزاحمان على عبادة هرميا، فما أحط خداعكما ! وما أقبح خساستكما، بحمل فتاة بريئة على النحيب يهزئكما منها. ليس من شيم الشهم

في الحقيقة أن يقدم على اهانة صبية عذراء ويتسلى باذلالها.

ليساندر : أرجوك أن تمنحني هدنة يا ديمتريوس. لأنك تحب هرميا، ولا تجهل اني عالم بذلك. فأنا بكل طيبة خاطر أتنازل لك عن حصتي من حبها. ولكن، من طرفك، عليك أن تهبني نصيبك من حب هيلينا، لأني أهواها، وأنا مصمم على البقاء أمينا لها حتى الممات.

هيلينا : في الواقع لم يتوصل عابث أبدا الى نيل وطره.

ديمتريوس : ان ليساندر يستأثر بحبيبتك هرميا. وأنا لم يعد لي من رغبة فيها. فان كنت أنا أحببتها في الماضي، فان حبي هذا قد زال واضمحل لأن قلبي لم يكن لديها سوى زائر عابر ليعود ويستقر في فؤاد هيلينا الى الأبد.

ليساندر : هيلينا ! كلا، هذا مستحيل.

ديمتريوس : من فضلك، لا تسيء الظن بحسن نيتي التي تعرفها جيدا. فان ذلك سيشقيك الى الأبد. أنظر، ها هي حبيبتك قادمة.

(تدخل هرميا)

هرميا : ان ظلام الليل الذي يحرم العين قدرتها على الرؤية يجعل الأذن المرهفة تعوض عن تقصيرها في تأدية مهمتها على أكمل وجه. فبينما يضعف نظرنا نرى سمعنا يتضاعف من قبيل الترغيب والمكافأة. فان عيني ليست هي التي اهتدت اليك يا ليساندر، بل أذني، والأذن تعشق قبل العين أحيانا، وأنا أشكرها لأنها قادتني اليك عبر صوتك. ولكن لماذا تركتني أنت بهذه الطريقة المخجلة ؟

ليساندر : ولماذا البقاء عندما يدفعني حب جارف الى الذهاب ؟

هرميا : وأي حب يمكنه أن يحمل ليساندر على الابتعاد عني ؟

ليساندر : طبعا، هيامي بهيلينا يمنعني من البقاء هنا. لأن بهاءها المتألق يبدد بوهجه حلك الليل أكثر من جميع الكواكب وكل النجوم الساطعة في كبد السماء. لماذا تبحثين عني ؟ ألم تدركي بعد ان حقدي عليك هو الذي دفعني الى هجرك على هذا النحو.

هرميا : أملي أن لا ينطبق تفكيرك وتصرفك على أقوالك.

هيلينا : لا مجال للشك بأنك اشتركت في المؤامرة بصورة واضحة أكيدة لا

تحتاج الى برهان، وانك اتفقت مع كلا المتزاحمين على تدبير هذه المهزلة لازعاجي واغاظتي. فتباً لك يا هرميا من امرأة وضيعة وتباً لسفالتك وجحودك. هل حالفتِ الرجلين وتواطأت معهما على تحطيمي بألاعيبكم اللئيمة، أنتم الثلاثة ؟ فاذا بجميع الأسرار المشتركة بيني وبينك والعهود الودية والساعات الحميمة التي قضيناها سوية تفشى وتذاع حين كنا أنا وأنت نتحسر على الوقت المسرع الذي فصل بيننا مرغمتين. هل نسيت كل المجاملات الطيبة التي دارت بيننا ؟ هل غابت عن ذهنك براءة الطفولة وصداقة الدراسة التي جمعت بيننا زمنا طويلا ؟ لقد زركشنا نظير إلهتين ماهرتين بابرتنا ازهارا رائعة على القماش لصنع وسادة واحدة نلقي عليها رأسينا ونحن ننشد معا بصوت واحد كأنه خارج من حنجرة مشتركة، أغنية واحدة. كما لو كان روحانا وقلبانا وصوتانا وأيدينا تخصّ جسدا واحدا. لقد نشأنا وترعرعنا سوية كما تكبر أشجار الكرز التوائم، وكنا منفصلتين وموحدتين في آن واحد، كبرعمين متشابهين على غصن واحد، جسمانا مستقلان ظاهرا ومندمجان في قلب واحد، كأننا وجها مدالية واحدة تتلألأ على صدر مولى مبجّل، وها أنت تعمدين الى هدم هذه المودة القديمة وتتحيزين لهذين الشريرين لتضايقي صديقتك المسكينة المظلومة. أجل هذا حقا غير لائق بفتاة ذكية أعتبرها كأختي. فأنا وبنات جنسنا نلومك على تصرفك المشين بالرغم من كوني أنا وحدي أشعر بألم الجرح يكوي مهجتي.

هرميا : ان لهجتك الغاضبة تدهشني. فأنا لا أسخر منك، بل أنت التي تتهكمين عليّ.

هيلينا : أوَلم تدفعي ليساندر نكاية بي، الى البحث عني للتغزل بوجهي وعينيّ ؟ أوَلم تحرِّضي حبيبك الآخر ديمتريوس الذي كاد منذ برهة أن يدوسني بأقدامه، على تسميتي معبودته الغالية وحوريته الخالية من العيوب وملاكه الحارس الجميل ؟ لماذا يعدد لي هذه الصفات وهو يمقتني ؟ لماذا ينكر ليساندر حبه لك، وفؤاده مولع بهواك، ويغدق عليّ لطفه وحنوّه، ان لم يحصل على رضاك سلفا ؟ فان كنت أقل حظا منك ولا أحظى مثلك بعطف

المحبين ولا أملك السعادة التي ترتعين بها فاني حتما أذوق مرارة الشقاء في امعانك في احتقاري وقهري.

هرميا : أنا لا يسعني أن أوافق على ما ترددينه على مسمعي.

هيلينا : استمري في اصطناع الرصانة والوفاء، ثم عندما أدير ظهري، لا ترددي عن ابداء مظاهر الازدراء بي وطعني بالغمزات المتكررة في هذه المهزلة فيسجل لك التاريخ بادرة مراوغتك البارعة، ولكن لو كان لديك قليل من الحياء والمروءة والأدب لما سخرت مني. فالوداع اذاً. أنا المخطئة في هذه القضية الخاسرة، ولا أجل ان غيابي أو موتي سيكون خير حل تتمنينه.

ليساندر : ابقي يا هيلينا الحلوة، يا حياتي، يا روحي، واسمعي دفاعي عن نفسي.

هيلينا : ما أعذب هذا الكلام !

هرميا : لا تتهكم عليها هكذا، يا عزيزي ليساندر.

ديمتريوس : اذا لم تتوصلي الى اقناعه، فأنا أعرف كيف اضطره الى الاذعان.

ليساندر : انت لا تستطيع اجباري كما انها لا تقوى هي على اقناعي. فتهديداتك باطلة نظير توسلاتها الهزيلة. أنا أحبك يا هيلينا. نعم أحبك، وأقسم لك بحياتي اني مستعد لمواجهة الفشل والخسارة كي أثبت لك كذب من يدّعي اني لا أحبك.

ديمتريوس : أنا أؤكد لك اني أهواكِ أكثر منه.

ليساندر : اذا كنت تؤمن بما تقول فاتبعني وبرهن لي عن حبك لها.

ديمتريوس : هيا بنا، وإلا تأخرنا.

ليساندر : ابتعد عني، أيها الخداع.

ديمتريوس (لليساندر) : انت تتصرف كمن يود الانسحاب. تقيم الدنيا وتقعدها كأنك تريد أن تتبعني. لكني أعرف جيدا انك لن تأتي، لأنك لست سوى متزلف جبان.

ليساندر : اتركني وشأني اذاً أيها القرد الخبيث، يا ذكر النحل الطائش. كف عن مضايقتي أيها المنافق الحقير، وإلا سحقتك كالحية الرقطاء.

هرميا : لماذا هذه المشاكسة يا ليساندر ؟ ما سبب تبدلك يا حبيبي ؟

ليساندر : أأنا حبيبك ؟ ويحك أيتها المحتالة الخسيسة، الدكناء البشرة كالدخان الأسود، الكريهة الرائحة كالدواء المر.
هرميا : أظنك تمزح.
هيلينا : طبعا، وأنت أيضا.
ليساندر : سأنفذ وعيدي، يا ديمتريوس.
ديمتريوس : أنا أفضِّل أن تتعهد لي بذلك بموجب عقد تكتبه بخط يدك. لأني أعتقد بأن ارتباطك شفهيا ليس ثابتا ولا قيمة له. لذا تراني لا أصدّق ما تتبجح به.
ليساندر : هل عليَّ اذاً أن أضربها وأجرحها وأقتلها لتصدقني ؟ لا شك في اني أمقتها. لكني لا أريد لها الأذى.
هرميا : وهل باستطاعتك أن تلحق بي ضررا أعنف من حقدك ؟ لماذا تكرهني يا حبيبي ؟ وا أسفاه ! يا الهي ماذا جرى ؟ أوَلست أنا هرميا، وأنت ألستَ ليساندر ؟ أوَلا أزال أجمل مما كنت عليه منذ عهد ليس ببعيد ؟ مساء الأمس أكنت تحبني حتى العبادة، ومع ذلك مساء الأمس بالذات تخلّيت عني. وان هجرتني الى الأبد، فالآلهة ترعاني ولا تنساني. كن مطمئنا من هذا القبيل.
ليساندر : أجل، أقسم لك بحياتي اني لا أرغب مطلقا في مشاهدتك بعد الان. فكفِّي عن الأمل بعودتي، اذ ليس لك مني سوى الشك والاهمال. ثقي بأن ما أؤكده لك هو كبد الحقيقة. صدقيني، أنا لا أمزح حين أصرح لك بأني أكرهك ولا أميل اليك.
هرميا : وا أسفاه ! ما أتعس حظي ! (لهيلينا) : تباً لك من مشعوذة لئيمة. تباً لك من دودة حقيرة تنخر حلم أشواقي. يا سارقة القلوب جئت ليلا تختلسين مني حبيبي ليساندر.
هيلينا : لعمري، أنت دجَّالة بارعة. وليس من طبعك العطف ولا الحياء العذري ولا الشعور بأية مسؤولية. هل تريدين أن تنتزعي من فمي الفاظ السخط والغضب ؟ بئس خداعك يا مرائية.
هرميا : أأنا مخادعة، ولماذا ؟ ألأني أرى بوضوح كيده وسفالته، وهو يدرك الان حقيقة مبتغاك ؟ لقد شئت أن توازني بين دهائك وجاذبيتي، وأنت تظنين

انك أقوى مني. لذا تشامختِ عليّ وتوصلت فعلا الى استمالته. فهل ازداد تقديره اياك لأن قامتي قصيرة غير متناسقة. ألا اصرخي بصوتٍ عالٍ اني من الأقزام. تجرإي على اعلان ذلك يا غبية. فأنا لست قصيرة كما تتوهمين، وأصابعي طويلة تصل الى فقر عينيك.

هيلينا : أرجوك يا سيدي، بالرغم من تهكمك عليّ، أن تمنعها من ايذائي، فأنا لست شريرة ولا يبدر مني ما يدل على اني امرأة شرسة. أنا بالأحرى فتاة متحفظة، فلا تدعها تتطاول عليّ. لا تتصور اني قادرة على معاندتها لأنها أصغر مني.

هرميا : أأنا أصغر منك ؟ هل تسمعانها ؟

هيلينا : لا تكوني هكذا قاسية عليّ. أنا أحبك يا عزيزتي هرميا. ولقد كتمت دوما أسرارك ولم أسبب لك أي ازعاج اكراما لديمتريوس، الا عندما أعلمته بهربك الى هذه الغابة. حينئذ تبع خطواتك، وحبًّا بك لازمك كظلك حتى في هذا المكان، بعد أن اضطرني الى الذهاب، وهو يعنفني بشدة ويهددني بالضرب والرفس بقدمه والطرد والقتل. فاذا تركتني الان امضي بسلام، سألملم خيبتي وأتوجه الى آثينا، ولن أسأل عنكِ بعد اليوم. أجل، دعيني أرحل. أترين الى أي حد أنا حمقاء ومتساهلة ؟

هرميا : هيا اذهبي. ماذا يبقيك هنا ؟

هيلينا : قلبي المهووس الذي أتركه ورائي.

هرميا : بصحبة ليساندر ؟

هيلينا : بل بمعية ديمتريوس.

ليساندر : ان هيلينا غير معرضة لأي شر، ولن تلحق بك أي ضرر.

ديمتريوس : أعرف ذلك. ولقد مددت لها يد العون.

هيلينا : انما هي متصلبة جدا وشرسة للغاية لا سيما عندما تنتابها ثورة الغضب. فمنذ أيام الدراسة كانت هرة وحشية، وبالرغم من قصر قامتها كانت شرسة للغاية.

هرميا : دائما تقول عني اني قصيرة وغير متناسقة بل مشوهة القامة. لماذا

تتركها يا ليساندر تمعن في ذمّي وتعذيبي ؟ دعني أمسك بخناقها وأمزقها اربا اربا.

ليساندر : ابتعدي عنها يا خبيثة، يا محتالة، يا مجرمة !

ديمتريوس : أراك تظهر كثيرا من العطف على هذه الفتاة التي تأبى خدمتك. دع اذاً حبيبتي هيلينا وشأنها، ولا تحاول أن تدافع عنها. واذا أبديت أي ميل نحوها، لا تلُم الا نفسك، لأنك ستدفع ثمن تطفّلك باهظا جدا.

ليساندر : هيلينا لم تعد تشغلني عنك. فاتبعني اذا كان لديك شيء من الجرأة. وسنرى من منا له حقوق أكثر عليها.

ديمتريوس : أأنا أتبعك ؟ كلا، ثم كلا. سأسير معك جنبا الى جنب.

(يخرج ليساندر وديمتريوس)

هرميا : أنت يا سيدتي تحرضين على هذا التصعيد بينهما. لا، لا تهربي.

هيلينا : هل تظنين اني أثق بك ؟ أنا لا يسعني أن أمكث بصحبتك لحظة. فان كانت يدك أطول من يدي للضرب، فان ساقي أطول من ساقك للهرب.

(تخرج)

هرميا : لقد ضقت ذرعا بك، ولم أعرف ما أقول. (تخرج ويقترب اوبرون).

اوبرون: هذه هي عاقِبة طيشك. هل يتسنى لي خداعك الا اذا كنت تضمرين لي شرا مستطيرا ؟

بوك : في الحقيقة، يا ملك الأرواح، أقسم لك بأني ارتكبت خطأً غير مقصود. ألم تقل لي اني سأعرف الرجل من ملابسه الآثينية. فان ما صنعته لا يستحق اللوم، اذ بلّلت عيني آثيني. وأنا سعيد بأن تنتهي القضية هكذا، لأني وجدت في مشاجرتهما تسلية كبيرة.

اوبرون: ولكن، ألا تلاحظ ان هذين الغريمين يبحثان عن مكان ليتبارزا فيه ؟ عجِّل اذاً بإسدال ستائر الليل، وبادر الى حجب السماء المرصعة بالنجوم خلف ضباب أسود كثيف، ثم اجعل كل واحد من هذين الخصمين يتيه في درب لا يلتقي بمزاحمه. قلّد تارة صوت ليساندر، وارشق ديمتريوس باهانات مقذعة. وطورا اقذف ليساندر بكلام جاف مرّ كما لو كنت ديمتريوس، ووجّه كلا

من هذين العاشقين الى ناحية معاكسة للأخرى حتى ينهكهما التعب. ويستولي عليهما نوم عميق كالموت ثقيل كالرصاص. ثم أعصر في عيني ليساندر رحيق هذه النبتة العجيبة لكي يعود اليهما النور الطبيعي، فيشاهد الأشياء كما هي حقيقة. وحالما يستيقظان سيخيل اليهما ان هذا الواقع المضحك ليس سوى حلم مذهل ورؤيا خيالية، ويعود العاشقان الى آثينا مرتبطين بوثاق صداقة ومودّة لا تحله الا المنيَّة وحدها. وفيما أنت تقوم بهذه المهمة الخطيرة، أمضي أنا لمشاهدة ملكتي وأستحصل منها على مرافقها الفتى الهندي، وأخلِّص عينيها المسحورتين من رؤية هذا الغول البشع، فيستتب السلام في جميع هذه الربوع.

بوك : يا سيد الجن، علينا أن نستعجل الأمور، لأن تنين الليل قد شق السحاب بصفقة من جناحه المشؤوم، وقد أخذت طلائع الفجر تبزغ من وراء الظلام. فلدى اقترابه تجتمع كل الأشباح النائحة لتعود الى أماكنها في المدافن النائية. وها هي الأرواح المعذّبة، الراقدة في قعر المياه أو في مفارق الطرق قد رجعت الى أوكار الدود العجّاج لأنها، خوفا من أن يكشف ضوء النهار عورتها، تبادر الى الابتعاد عن الأنوار وقد اعتادت على الاختفاء في طيات العتمة الفاحمة.

اوبرون: أجل، انما نحن أرواح من صنف آخر. فلقد ذهبت مرارا الى الصيد ونظير حراس الغابات أنا أستطيع اجتياز الأحراج الى حين انفتاح أبواب المشرق على الأضواء الساطعة، وبتدفق الأشعة الباهرة يتحول الملح المستخرج من مياه البحر الى ذهب وهّاج. مع ذلك، عجِّل ولا تتأخر، فربما انحلت هذه المشكلة المعقدة قبل السحر.

(يخرج)

بوك : من هنا وهناك تحت جنح الدجى، وسيأتي الفريقان اللذان لا البراري ولا المدن تحويهما. فلا بد اذاً من العودة بهما الى ديارهما. ها هوذا أحدهما قادم.

(يدخل ليساندر ضائعا في الضباب)

ليساندر : أين أنت يا ديمتريوس المتشامخ ؟ أسمعني صوتك لأهتدي اليك.

بوك : أنا هنا أيها اللص المحتال على أتم الاستعداد والسيف في يدي لأقتلك. فأين أنت يا جبان ؟

ليساندر : سألقاك في الحال.

بوك : اتبعني اذاً الى السهول الجرداء.

(يخرج ليساندر متجها نحو مصدر صوت بوك. يدخل ديمتريوس)

ديمتريوس : ليساندر لا يزال يتكلم. أيها الفارّ الجبان، ما لي أراك قد أحجمت عن اللحاق بي ؟ تكلم. أين اختفيت ؟ هل اختبأت بين هذه الشجيرات ؟

بوك : أنت كالذئب الغدّار تعوي عن بعد وتتبجح بأنك تتوق الى القتال، بينما تحاذر التقدم خطوة واحدة نحوي. اقترب اذاً يا جبان، اقترب يا رعديد. سأجلدك بالقضبان ألف جلدة لأن اشهاري السيف عليك لا يشرفني.

ديمتريوس : أهذا أنت ؟

بوك : اتبع صوتي لأني أنوي أن أختبر رجولتك في غير هذا المكان.

(يخرجان، ويدخل ليساندر)

ليساندر : هو يسبقني على الدوام، يتحداني بدون انقطاع ويدعوني الى اللحاق به. غير اني حالما أبلغ الموقع الذي يقبع فيه أجده قد ولّى الادبار. ان خطوات هذا اللص الخبيث أعجل من مشيتي، ومهما أسرعت الخطى أراه دوما يسبقني. ها أنا الان أسير في طريق مظلم وعر، فما عليّ الا أن أستريح قليلا هاهنا. (يتمدد). هيا، أقبل بسرعة أيها الصباح المشرق لأني حالما تطلّ بنورك الوضّاء، سأجابه ديمتريوس وأتخلص من العار الذي ألحقه بي إذ تحدّاني.

(ينام، ويدخل بوك وديمتريوس)

بوك : هه، ها ! يا جبان، لماذا لم تأت قبل الآن ؟

ديمتريوس : انتظرني، ان كنت شجاعا، لأني أعرف جيدا انك تهرب أمامي وتبدّل مخبأك في كل لحظة بدون أن يجرؤ على مواجهتي، ولا حتى على النظر اليّ. أين أنت، بالله عليك ؟

بوك : أنا هنا، تعال.

ديمتريوس : هل تهزأ بي ؟ حالما ألمح محياك في وضح النهار ستدفع لي ثمن

احتيالك غاليا. أكمل الآن طريقك. ان عناء السير يضطرني الى التمدد لأستريح على هذا السرير المجلّد. وعند بلوغ النهار سأبادر الى مقابلتك.

(يتمدد وينام، ثم تدخل هيلينا)

هيلينا : يا ليل، ما أطولك وما أكرهك ! ألا انقضِ بسرعة ودع أضواء الشرق تسطع. فان نور الشمس يشجعني ويشدد من عزيمتي لأصل الى آثينا عند انبلاج الفجر، بعيدا عن جميع من يهربون من حجتي الواهية. وأنت أيها النوم أرح القلوب المعذبة وتعال انتشلني من دوّامة همومي ولو لحظة وجيزة.

بوك : ثلاثة تكفي وعلى الرابعة أن تخرج، فيكون لديّ اثنتان من كل فئة. ها هي المسكينة المنكودة الحظ التي قرّح الحزن فؤادها. أما كوبدون فهو ماجن عابث يرمي النساء الضعيفات بالهوس والجنون.

هرميا : ليس في الكون أتعس وأشقى مني. فرطوبة الندى انهكت جسمي، والأشواك أدمت قدميّ ولم يعد يسعني، يا للأسف، أن أمشي خطوة واحدة. وساقاي لا تحملانني الى حيث أشاء، فما عليّ الا أن أتمدد وأنتظر بروز ضوء النهار. واذا كان لا بد من المجابهة فصوني أيتها الآلهة ليساندر ونجِّه من كل أذى.

بوك : نم هانئا على هذه الأرض المضيافة يا صاح، فأنا مستعد لمساعدتك بسكب هذا العلاج على أجفانك يا صديقي اللطيف ليساندر.

(يعصر لسغ النبتة على عيني ليساندر)

وعندما تستيقظ ستشعر بلذة فائقة في تأمل نجلاء العيون التي تجذبك وتنعش مهجتك، فتنعم بحب حسنائك ؟ وكما يقول المثل السائر لكل مجتهد نصيب، ستجني ما زرعت يداك. ان يقظتك تأتي برهانا دامغا على هنائك، فتحظى بلقاء حبيبتك، ولا يبقى هناك من مشكلة. حقق الله أماني كل مشتاق.

(يخرج)

الفصل الرابع

المشهد الأول

في نفس المكان. ليساندر وديمتريوس وهيلينا وهرميا

(يتامون مستلقين على الأرض)

(تدخل تيتانيا ويليها بوبين مع زهرة الربيع وشبكة العنكبوت وخفة الفراشة وحبة الخردل وغيرها من الجنيات، وفي المؤخرة يدخل اوبرون متخفيا)

تيتانيا: تعال اجلس على هذا الفراش المكسو بالأزهار، ودعني ألامس خدك الوردي النضير وشعرك اللامع، وأقبِّل أذنيك الجميلتين الطويلتين، يا حبيبي ومصدر بهجتي وسروري.

بوبين : أين زهرة الربيع ؟

زهرة الربيع : أنا هنا.

بوبين : حكِّي رأسك، يا زهرة الربيع. أين شبكة العنكبوت ؟

شبكة العنكبوت : أنا هنا.

بوبين : سيدتي شبكة العنكبوت، أشهري سلاحك ثم اذهبي واقتلي ذكر النحل، أحمر الساقين الواقف على رأس شوكة غليظة. واجلبي لي جراب

عسله... لا تدعي العراك يحتدم بينكما واحرصي على أن لا تثقبي جراب العسل هذا كي لا يندلق ويلوثك، اذ يشق عليّ كثيرا أن أراكِ غارقة في هذه المادة اللزجة يا مولاتي. أين سيدتي حبة الخردل ؟

حبة الخردل : أنا هنا.

بوبين : أرجوكِ أن تعيريني نعومتك يا سيدتي حبة الخردل، فتساعدني على فرض احترام شخصك الجليل، يا حبة الخردل.

حبة الخردل : ماذا تريد مني ؟

بوبين : لا شيء يا مولاتي، سوى أن أسهِّل على سيدتي شبكة العنكبوت أن تحكّ جلدي. سأضطر الى الذهاب الى المزين لأن شعري طويل على ما يبدو، وأنا حمار حساس فأقل نثرات شعر تدغدغ جلدي وتحملني على حكه.

تيتانيا: هل تريد أن تشنِّف أذنيك بأنغام موسيقية، يا عزيزي ؟

بوبين : لعمري ان سمعي ليس مرهفا لتذوق الألحان. مع ذلك أرجو أن تضربوا على الدف والصنوج.

تيتانيا: وماذا تريد أن تأكل يا عزيزي ؟

بوبين : لحسن طالعي هذا مكيال من العلف، وأنا متلهف الى مضغ بعض الشعير ومعه حفنة من التبن الشهي.

تيتانيا: ان بين جنِّياتي واحدة مغامرة تعرف كيف تهتدي الى اهراء السنجاب لتجلب لك بعض الجوز الجديد.

بوبين : أنا أفضّل عليه قبضة أو اثنتين من الحمص الجافّ. ولكن أرجوكِ أن لا تدعي أحدا من جماعتك يزعجني، لأني أشعر بالتعب وبحاجة ماسة الى الرقاد.

تيتانيا: نم هانئا يا حبيبي، فأغطيك بذراعيّ. اذهبن أيتها الجنِّيات وتفرَّقن.

(تخرج الجنيات)

وهكذا يعانق اللبلاب زهر العسل العاطر بحنان، وتتشابك الأفنان المتسلقة الخضراء بأغصان الدردار الخشنة قائلة : أنا أحبك، أنا أهيم بهواك، أنا أعشقك حتى الجنون.

(ينام كلاهما، ثم يدخل بوك)

اوبرون (يتقدم) : أرحِّب بقدومك يا عزيزي بوك. أرأيت هذا المشهد الرائع ؟ لقد بدأت أشفق عليها وأخشى أن ينتابها الهوس. عندما صادفتها منذ هنيهة وراء الأجمة مرتبكة تبحث عن هدية لهذا البليد البغيض عنَّفتها وزجرتها لأنها وضعت على رأسه اكليلا من الزهور الفوّاحة، وقطرات الندى منشورة كاللآلىء على براعمها كأنها دموع على خدود الورد استدرَّها ما لحق بها من أسى ومذلة. عندما قسوت عليها توسلت اليّ بمنتهى اللطف لأعاملها بتؤدة، فطالبتها بفتاها المخطوف، وما كان منها الا أن تنازلت لي عنه فورا، وأرسلت إحدى جنِّياتها لتوصله الى مقرّي بين الأشجار في قلب مملكة الجن. والآن بعد أن حصلتُ على هذا الغلام، أود أن أشفي عينيها من علتهما الشنيعة. فارفع يا عزيزي بوك هذه القبعة التي تموّه بوبرها الكثيف رأس هذا العلج الآثيني. وهكذا حالما يستفيق مع رفاقه الأربعة يتمكنون جميعهم من الرجوع الى آثينا دون أن يشهدوا أحداث هذه الليلة أو يتعرضوا لعذاب كابوسها المروّع. لكنني أريد أن أطلق سراح الملكة أولاً. (ينشد) :

عودي الى ما كنت في الماضي عليه
وانظري الى ما تعودتِ أن تريه
فالزهرة الزاهية بشذاها تبارك
ما جرّه كوبيدون عليكِ من معارك.

هيا، يا تيتانيا، يا مليكتي اللطيفة الحلوة، هيا استيقظي.

تيتانيا: حبيبي اوبرون، ما هذه الرؤيا التي تجلت لعينيّ ؟ يخيل اليَّ اني عشقت حمارا.

اوبرون: أنظري، هذا حبيبك ممدد على الأرض.

تيتانيا: آه ! كيف تم ذلك ؟ وكم ينفر من قباحة وجهه نظري الذي لم يألف سوى روائع الجمال ؟

اوبرون: اخلع عنك يا بوك رأسك المستعار. وأنتِ يا تيتانيا هدّئي روعك، ومُري باسماعنا بعض الألحان الساحرة التي تغرق هؤلاء النيام في رقاد أعمق مما تعودوه.

تيتانيا: هيا، أسمعونا من الأنغام ما يثقل أجفان الجميع بسبات عويص.

(تسمع أنغام لطيفة)

بوك (لبوبين) : عندما تستفيق، أنظر الى ما حولك أيها الأحمق.

اوبرون: علّوا صوت الموسيقى. وأنت أيتها الملكة اشبكي أصابعك بيدي ولنهدهد برقصاتنا الأرض التي يرقد عليها هؤلاء النيام. ها نحن قد عدنا أنا وأنت أصدقاء، وغدا عند منتصف الليل سنرقص بأبهة ومرح في قصر الأمير تازيوس وسنضفي عليه البهجة والفرح. وسيحتفل هذان الزوجان بزفافهما، تظللهما أجنحة الهوى والنشوة والهناء.

بوك : يا مليك الجن، علينا أن نتهيأ في هذا النهار للاحتفال لأني أسمع تغريد البلبل والحسون والهزار.

اوبرون: وأنت يا مليكتي تعالي نتبع بهدوء فارس الليل ونسرح معه في الأحلام لأننا نستطيع أن ندور حول الأرض بسرعة تفوق جري الخيل.

تيتانيا: لنذهب يا مولاي، وأثناء اجتيازنا الطريق تروي لي ما حدث لك من غرائب الأمور وكيف نمتَ على الأرض طوال الليل نظير سائر الناس.

(يخرجان، ويسمع صوت النفير. يدخل تازيوس وهيبولات وحاشيتهما)

تازيوس : ليمضِ أحدكم وينادِ حارس الغابة لأننا انتهينا من اقامة شعائرنا. وبما ان النهار أوشك أن يطلع علينا أود أن تُسمع حبيبتي عواء كلاب الصيد التي ترافقنا. فاطلقوا كلابنا في غرب الوادي، وهيا أسرعوا وأجلبوا الحارس الأمين.

(يخرج أحد الخدم)

سنمضي يا مليكتي الحلوة الى أعالي الجبال لنسمع عواء الكلاب يختلط بالأصداء التي تتجاوب في تلك البطاح.

هيبولات : كنت يوما بمعية هرقل وقدموس عندما كانا يصطادان دباً في إحدى غابات جزيرة كريت، ومعنا كلاب من اسبرطا فلم أسمع في حياتي ضجة أروع منها لأن الاحراج والقمم والسماوات وجميع الجهات كانت منسجمة في تصعيد صوت واحد مهيب.

تازيوس : كلابي هي أيضا من أصل اسبرطي، بجلودها ورؤوسها وأحناكها

وآذانها الطويلة المتدلية التي تلامس ندى الصباح يلمع كاللآلىء على الأعشاب، وقوائمها المفتولة كأنها قوائم ثيران منطقة تسّاليا اليونانية، هي بطيئة السير، انما أصواتها تشبه رنين الأجراس الجهورية. أجل، لم أسمع في حياتي أصوات كلاب منسجمة كهذه مع نبرات أبواق الصيد، ان في كريت أو في اسبرطا أو في تساليا، وستحكم على صحة قولي حالما يستسيغها سمعك. لكن مهلاً، من هي عرائس الماء هذه التي تتراءى لي ؟

ايجيو : مولاي، هذه ابنتي تنام هنا. وهذا ليساندر، وهذا ديمتريوس، وهذه هيلينا الحسناء ابنة ندار العجوز.

تازيوس : لا بد من أن يكونوا قد استيقظوا باكرا للاحتفال بشهر ايار. واذا علموا بما ننوي القيام به، قدموا الى هنا للاشتراك في حفلاتنا. لكن، قل لي يا ايجيو، أوَليس فيَ هذا اليوم ستعلن لنا هرميا اختيارها ؟

ايجيو : أجل، يا مولاي.

تازيوس : اصدر اذاً أمر الى صيادينا لايقاظهم على صوت الأبواق.

(يسمع صوت أبواق وصيحات. يستيقظ ليساندر وديمتريوس وهيلينا وهرميا مذعورين)

صباح الخير يا أصحاب. لقد انقضى عيد الربيع وآن اليوم لعصافير الغاب هذه أن تتجامع.

ليساندر : أمرك، يا مولاي.

(يجثو أمام تازيوس)

تازيوس : أرجوك أن تنهض يا صديقي (لليساندر وديمتريوس) : أنا أعلم بأنكما خصمان متزاحمان، فمن أين لكما هذا الاتفاق والانسجام الذي أبعد الحقد عن الشك، وأقنع حذرك بأن ينام الى جانب ريبه دون أن يخشى أحدكما ضربة قاضية ؟

ليساندر : جوابي على تساؤلك يا مولاي، والدهشة تسيطر عليّ قبل غيري، كرجل نصف نائم ونصف مستيقظ، هو اني أقسم لك بأني أنا نفسي لا أدري حقيقة كيف جئت الى هذا المكان. غير اني أعتقد، وأنا لا أبغي الا أن أقول الصدق، بعد التفكير الطويل بما جرى بالضبط، بأني قدمت بصحبة هرميا،

وكنا كلانا ننوي الهرب من آثينا لنلجأ الى مكان آمن يساعدنا على التملص من الشرائع الآثينية.

ايجيو : كفى يا مولاي. انك تعرف من أمره ما يلزم. فأنا أتمنى أن تطاله العدالة. كان يحاول الهرب، فيهضم ديمتريوس حقنا نحن الاثنين : أنت بالنسبة الى المرأة التي وعدك بها، وأنا بالنسبة الى وعدي بأن أهبك امرأة.

ديمتريوس : مولاي، لقد أعطتني هيلينا بهربها وبعزمها على المجيء الى هذا الغاب درساً قاسياً لن أنساه ما حييت. فدفعني الغيظ الى اللحاق بهما، كما دفع الحب هيلينا الى اللحاق بي. انما يا مولاي، أنا أجهل تحت تأثير أي سحر، اذ لا سبيل الى نكران وجود السحر، ذاب حبي لهرميا مثل الثلج. والآن يخيل اليّ ان هذه الذكرى باطلة كوهم كان عزيزا على قلبي أيام حداثتي. لأن فضيلتي وإيماني بالحب وأغلى أمانيّ تنحصر كلها في شخص هيلينا الملائكية. فقد كانت خطيبتي قبل أن أعرف هرميا. ولما أعياني المرض مدة من الزمن فترة هيامي بها. لكني الان بعد أن عادت صحتي الى سابق عهدها سرعان ما رجعت أنا الى ما كنت عليه. اني أحب هيلينا وأتمنى وصلها وأنشد قربها وأنوي أن أظل وفيا لها مدى العمر.

تازيوس : ما أحلى اللقاء أيها العشاق الظرفاء ! سأستمع فيما بعد الى نهاية هذه القصة. (لإيجيو) : اعذرني ان لم ألبّ رغبتك. ففي المعبد عما قليل سيربط كلا من هؤلاء الأربعة بحبيبه وثاق أبدي، وفي ذات الوقت، أرتبط أنا بشريكة حياتي. وبما ان الساعة قاربت الضحى، علينا أن نؤجل مشروع الصيد. فتعالوا معنا الى آثينا لنحتفل نحن الثلاثة مع عرائسنا بهذه المناسبة السعيدة. هيا اتبعيني يا عزيزتي هيبولات.

(يخرج تازيوس وهيبولات وايجيو وحاشيتهم)

ديمتريوس : كل هذه الأحداث تبدو لي ثانوية ومبهمة كأنها جبال بعيدة تحجبها المسافة بين الغيوم.

هرميا : وأنا أجدني أنظر اليها بعين الارتياب لأني أبصر الأشياء متشابكة بدون وضوح.

هيلينا : وأنا أرى الأمور كذلك. فقد تبين لي أن ديمتريوس كجوهرة تخصني ولست واثقة من امتلاكها.

ديمتريوس : هل أنت على يقين بأنكِ مستيقظة ؟ يخيل اليّ اننا لا نزال نغطّ في النوم واننا نحلم. مع ذلك لا سبيل الى نكران وجود الأمير الذي كان هنا ورجانا أن نتبعه.

هرميا : أجل، ووالدي كان أيضا هنا.

هيلينا : وكذلك هيبولِات.

ليساندر : ولقد طلب منا فعلا أن نلحق به الى المعبد.

ديمتريوس : فاذاً نحن في يقظة لا في منام. فلنتبعه، وأثناء الطريق نسرد أحلام بعضنا للبعض الآخر.

بوبين (مستيقظا) : عندما يأتي دوري، نادوني لأتكلم، والرد التالي يكون : « بيرام العظيم... » لكن، يا لكوان النجار، يا فلوتيو مصلح المنافيخ، يا لوباك المبيِّض، يا كرنكالي، أين أنتم ؟ لعمري جميعهم هرولوا وتركوني نائما هنا وحدي. لقد أبصرت رؤيا بديعة، ورأيت حلما غريبا جدا يفوق ادراك البشر، ولا أستطيع أن أجد له تفسيرا. ما أغبى الرجل الذي يحاول فك رموز مثل هذا الحلم ! أظنني كنت... لا، ليس من رجل قادر على تفسيره. يُخيَّل اليّ اني كنت... حقا هو مهرج سخيف ذاك الذي يود أن يقول كيف كنت. ان أذن الانسان لم تسمع، وعينه لم تبصر، ويده لم تلمس، ولسانه لم يذق، وقلبه لم يتوقع ما شاهدت في حلمي. سأسأل لكوان أن ينظم قصيدة في وصف هذا الحلم الذي سأدعوه حلم بوبين، لأنه يدور بأجمعه حول شخصي أنا بوبين المستعد لانشاد هذه القصيدة في سياق المسرحية أمام الأمير، ولكي أزيدها روعة وجمالا، ربما أنشدتها عند موت تازيوس.

المشهد الثاني

آثينا في منزل لكوان

(يدخل لكوان وفلوتيو وكرنكالي)

لكوان : هل ارسلتم أحدا في طلب بوبين ؟ وهل أتى هذا الأخير ؟

كرنكالي : لا سبيل الى تقصِّي أخباره. فلا بد من أن يكون قد ذهب مع الجنيات.

فلوتيو: اذا لم يعد، فعلى تمثيليتنا السلام. اذ لا يسعنا أن نقدم الحفلة بدونه، أليس كذلك ؟

لكوان : كلا، لا يسعنا، ما دام في جميع أنحاء مدينة آثينا ليس من رجل جدير سواه للقيام بدور بيرام.

فلوتيو: من المؤكد، لا. فبين جميع حرفيي آثينا، هو أقدر شخص لإدائه.

لكوان : لا شك في ذلك مطلقا. ثم ان تكوين جسمه هو الأنسب لهذه الشخصية. أما صوته فله نبذات بعيدة المدى، وفيه رخامة فائقة.

فلوتيو: تريد أن تقول نبرات لأن النبذات هنا، سامحك الله، لا معنى لها بتاتا.

(يدخل بنجون)

بنجون : سادتي، لقد خرج الأمير من المعبد، ومعه اثنان أو ثلاثة. فاذا نجحنا في حفلتنا غنمنا ثروة طائلة.

فلوتيو: يا لبوبين الباسل من رجل عظيم ! هكذا يخسر ستة دراهم يوميا، وهو لا يسعه أن يخسر أكثر من ذلك طوال أيام حياته المديدة. اني مستعد لأن أشنق نفسي اذا لم يستحق أن يمنحه الأمير ستة دراهم كل يوم لقاء براعته في

تمثيل دور بيرام. وأنا على يقين بأنه يستحق فعلا هذا المبلغ.

(يدخل بوبين) .

بوبين : أين هؤلاء الشجعان ؟ أين الأصحاب الأوفياء ؟

لكوان : أبشِّرك يا بوبين بحلول يوم المجد، وأنبئك بدنو امتلاكنا الثروة التي تتوق اليها.

بوبين : لديّ أخبار عجيبة أود أن أتحفكم بها، يا سادة. انما لا تطلبوا مني الان أن أفصح لكم عنها. لأني ان فعلت أكون أكبر منافق في كل آثينا. سأروي لكم القصة بكاملها كما جرت حرفيا، انما فيما بعد.

لكوان : كلنا آذان صاغية، يا عزيزنا بوبين.

بوبين : لا، لن أنبس ببنت شفة. فكل ما أستطيع أن أخبركم به هو ان الأمير قد تناول عشاءه. فاجمعوا ألبستكم وشدوا لحاكم المستعارة بخيوط متينة الى ذقونكم، وزوّدوا أحذيتكم بسيور جديدة، فملتقانا بعد فترة سيكون في القصر. ليراجع كل واحد منكم دوره جيدا، لأن تمثيليتنا، بكلمة وجيزة تساوي مئة، مدرجة في البرنامج. أؤكد على تسبا أن ترتدي ملابس داخلية نظيفة، وعلى من يمثل الأسد أن لا يقضم أظفاره لأنها ستكون ظاهرة عند ابراز براثن الأسد. أخيرا، يا أعزائي الممثلين، لا تأكلوا بصلا ولا ثوما لأن أفواهنا يجب أن لا تنفث الا أنفاسا عاطرة ولا تتلفظ الا بطليّ العبارات. حتى يعترف الجميع بدون تردّد بروعة هذه المسرحية المؤثرة. كفانا أن نتحدّث عنها الآن، ولنعجل في الذهاب.

(يخرجون)

الفصل الخامس

المشهد الأول

آثينا، في قصر تازيوس

(يدخل تازيوس وهيبولات وفيلستراط ووجهاء وخدم)

هيبولات : ان ما يرويه هؤلاء العشاق لغريب حقا.

تازيوس : أجل، هو غريب أكثر مما هو حقيقي. أنا لا أصدّق أبدا هذه القصص السمجة ولا هذه الروايات المبهمة. فالعشاق كالمجانين دماغهم يتعطل عن العمل، وخيالهم يسرح ويمرح على هواه، فيتخيلون أحيانا أمورا شاذة يمجها الذوق السليم. فالمجنون والعاشق والشاعر كلهم يعيشون في عالم غير واقعي. المجنون تسكنه أبالسة أكثر مما في الجحيم، والعاشق لا يقلّ ضياعا عنه فيكتشف ان جمال هيلينا مثلا يخفي وراءه محتالة غامضة. أما عين الشاعر فتتيه في غيبوبة النشوة، تصعد تارة من الأرض الى أعالي السماء، وطورا من السماء تنزل الى أعماق الأرض. ومهما ابتدعت مخيلته من شخصيات مجهولة، فان قلمه يكيفها ويغدق عليها مزايا غير معقولة ويحبسها في مقر معين ويخلع عليها شتى الأسماء والصفات. واذ يتسع مجال خياله الخصيب، تراه يبتكر لها ظروفا غريبة مبهمة ويبتدع عالما خاصا بها، حتى انه

حين يهيمن الوجل عليه في الليل لا يحجم عن أن يحسب الشجيرة دباً ضخما.

هيبولات : غير ان القصة التي سردوها عن ليلهم، وعن تبدل العواطف فجأة في قلوبهم الواجفة، تبدو كأنها مستمدة من صور وهمية اعتبروها حقيقة أكيدة مع انها لا تعدو كونها تخيلات غريبة عجيبة.

(يدخل ليساندر وديمتريوس ثم تدخل هرميا وهيلينا)

تازيوس : أرحب بعشاقنا الأعزاء. يبدو لي ان عيونكم تشعّ غبطة وسرورا. فأرجو أن يحالف السعد حبكم المتجدد في قلوبكم يا أصدقائي الأوفياء.

ليساندر : وأنا أرجو أن يواكب الهناء أيامكم ويؤنس نزهاتكم الملكية، ويفيض البهجة على موائدكم الفخمة وأسرّتكم الوثيرة.

تازيوس : أخبرني، أي غناء وأي رقص يمكن أن يملأ هذه الفترات التي تدوم ثلاث ساعات بين تناولنا الحلوى بعد العشاء وموعد النوم ؟ أين سيد اللهو والطرب ؟ ما هي التسليات التي يعدّها لنا ؟ أوَلم يهيىء لنا تمثيلية شيّقة لتخفف عنا أوقات السأم والضجر ؟ نادوا فليستراط.

فليستراط : ها أناذا يا مولاي.

تازيوس : ما هي حفلتنا هذا المساء ؟ أية تمثيلية ايمائية أو وصلة موسيقية أعددت لنا ؟ كيف سنقضي الساعات البطيئة، ان لم تتحفنا بتذوّق أحلى المسرات ؟

فليستراط : المنوّعات جاهزة وها هي لائحتها فما على سموك الا أن تختار ما تحب أن تشاهد منها أولا.

(يناوله ورقة)

تازيوس (يقرأ) : « منازلة السنطور، المخلوق العجيب بنصف انسان ونصف حصان، هذه المنازلة التي يتغنى بها الآثيني عازفا على القانون ». أنا لا أريدها. فلقد رُويت لي ولحبيبتي بغية تمجيد نسيبي هرقل. أمّا حفلات السكر والعربدة التي تحييها كاهنات الهيكل بنشوة وسط الفوضى والتشويش على أناشيد تراقيا فهي ليست جديدة بالنسبة الي، اذ شاهدت اداءها أثر عودتي من انتصاراتي في طيبة، وهي تدور حول إلاهات الشعر التسع أثناء ندبهن العاشق المخلص الذي

مات حديثا في أسوأ حالات البؤس والشقاء. هذه ملهاة ممضّة وبذيئة لا تلائم حفلات الزفاف لأنها تقوم على مشهد قصير ممل بين بيرام وحبيبته تسبا وهي مأساة أليمة للغاية، قصيرة وسئيمة، ذريَّة وحزينة وهي بالحري كالجليد الملتهب المحرق والثلج الأسود كالابنوس، فكيف السبيل الى التوفيق بين هذه المتناقضات ؟

فليستراط : الرواية يا مولاي طولها عشر كلمات، ولا أعرف غيرها أقصر منها. انما هي أطول من اللازم بعشر كلمات أيضا، وهذا ما يجعلها في الواقع تبعث على الضجر. اذ من أولها الى آخرها ليس فيها تعبير واحد صادق، ولا ممثل جدير بدور ملائم. انها رواية كئيبة حتما يا مولاي بما ان بيرام ينتحر فيها. لقد استمعت الى مراجعات المشهد المذكور، ولا أنكر انه حملني على سكب العبرات السخينة، لكنه لا يوازي قهقهات الهزليات التي تستدرّ دموع السرور والانشراح.

تازيوس : ومن هم الممثلون ؟

فليستراط : حرفيُّون من آثينا، خشان الأيدي، لم يستغلوا أبدا دماغهم وهم الان يجهدون ذاكرتهم لإنجاح هذه التمثيلية على شرف قرانكم الميمون.

تازيوس : اذاً سنشاهدهم ونصغي اليهم.

فليستراط : كلا يا مولاي الكريم، المسرحية ليست بمستواكم. فقد سمعتها من فاتحتها الى خاتمتها، ولقيتها في الحقيقة تافهة، الا اذا وجدتم لذة في تقدير ما بذله القائمون بها من جهد جبار هو أضخم من مقدرتهم، وما عانوه من مشقة في حفظ أدوارهم اكراما لشخصكم المبجَّل.

تازيوس : أريد أن أشاهد هذه المسرحية. اذ لا يمكن تصنيفها كفاشلة عندما تقدم ببساطة واحترام. أيتها السيدات تفضَّلن بالجلوس.

(يخرج فيلستراط)

هيبولات : يحزنني أن أرى الفقر المدقع وحسن النية والاجتهاد المضني ترزح كلها تحت وقر الرغبة التي تفوق طاقة من يحاول أن يتحلى بها.

تازيوس : لن تري يا عزيزتي شبيها لهذه التمثيلية.

هيبولات : لقد قيل لي اننا لن نحضر مسرحية مرضية كما تظنها.

تازيوس : ونحن لن نجود الا بالشكر لقاء ما يقدم لنا من تافه التسلية. يسرني شخصيا أن آخذ بعين الاعتبار ما يعرض عليّ من أمور ولو غير موفقة لأن ما لا يتقنه هزال الشخصية يساوي في نظر النفس السمحة بفضل الجهد المبذول، مقدار ما يحرزه الناجحون من فوز واستحقاق. ففي سياق أسفاري كثيرا ما حيَّاني موظفون من أنصاري بخطب مدروسة، وغالبا ما أبصرتهم يشحبون ويرتعشون ويتلعثمون في منتصف عباراتهم، ثم بصوت يخنقه الوجل، وبالرغم من تدربهم يطغى عليهم الارتباك فيلوذون بالصمت المفاجىء ويحرمونني لذة الاستماع الى تقاريظهم المفرحة. على كل حال، صدقيني يا عزيزتي، اني لقيت استقبالا حارا وحفاوة بالغة حتى في سكوتهم، وفي تحفُّظهم واحترامهم المرتعش اذ تسنى لي أن أتبين عواطف أمينة أوفى من فصاحة الكلام المنمَّق العابق بجسارة البلاغة المريبة. أجل، ان المودة والبراءة التي تصون زلة اللسان لهي برهان قاطع على الجدارة والولاء أسطع مما تتدفق به طلاقة التعبير وطلاوة البيان.

(يعود فيلستراط)

فليستراط : ان أمرتم بالمباشرة، فالمقدمة جاهزة، يا مولاي.
تازيوس : دعهم يبدأون.

(تسمع أنغام أبواق، ويدخل لكوان ليلقي المقدمة)

لكوان : ان لم يعجبكم تمثيلنا، فأملنا وطيد بأن يشفع لديكم فينا حسن نيتنا واقتناعكم بأننا لا نتوخى سوى تسليتكم ونيل رضاكم. ان جل ما يصبو اليه طموحنا هو أن نعرض عليكم فننا البسيط المتواضع، راجين أن لا يغرب عن بالكم أننا وصلنا الى هنا بالرغم من كل ما اعترضنا من صعوبات وغايتنا لا أن نحظى باعجابكم فقط، بل أن نمارس التمثيل. ولا تظنوا اننا هنا لنؤمِّن لكم ما يسركم بل ما يجنبنا استياءكم. والمسرحية التي سترونها الان تطلعكم على ما تودون معرفته.
تازيوس : هذا المراوغ ليس بعيدا عن التنكيت والفكاهة.
ليساندر : لقد جعل مقدمته تجري كمهر أسيء تدريبه ولم يتعلم الوقوف عند

اللزوم. فهذا درس قاسٍ يا مولاي، اذ ليس المهم تدفق لغو الكلام بل التعبير عن المغزى المفيد في محله.

هيبولات : في الحقيقة، لقد ألقى مقدمته كما ينفخ الولد في مزماره أنغاما عفوية ليس فيها أي فن وانسجام.

تازيوس : في الواقع، يشبه خطابه سلسلة متشابكة لا تشويه في حلقاتها، انما لا يعرف أولها من آخرها. من يا ترى سيأتي بعده ؟

(يدخل بيرام وتسبا ومن يمثلون الحائط وضوء القمر والأسد)

لكوان : مولاي، ربما استغربت هذا المشهد، لكن الحقيقة لا تلبث أن تتضح لك جلية. فأرجوك أن تعلم بأن هذا هو بيرام والسيدة الجميلة هي تسبا، ومن يكسوه الجصّ والآجر يمثل الحائط المقيت الذي يفصل بفظاظة بين هذين الحبيبين، فلا يتسنى لهما أن يتخاطبا همسا الا من خلال شق صغير فيه. وذلك المسكين حامل حزمة الحطب وبيده مصباحه ووراءه كلبه، هو ضوء القمر. مع العلم ان هذين العاشقين لا يستنكفان من الذهاب الى قبر نينوس ليتلاقيا ويتناجيا في ضياء القمر. أما هذا الحيوان الهائل الذي يشبه الأسد، ففي ليلة ظلماء حين جاءت تسبا لأول مرة، فاجأها وحملها على الهرب من شدة الفزع. وفي أثناء فرارها سقط معطفها عن كتفيها، فلوّثه الأسد، اذ عضه بأنيابه الدامية. فأقبل الشاب الوسيم بيرام وحالما أبصر على معطف حبيبته تسبا اللطخ الحمراء، غلى الدم في عروقه، ومن شدة اليأس انتضى خنجره الحادّ وغرزه في صدره المنقبض. ولما وقع نظر تسبا على هذا المشهد الأليم، التقطت الخنجر ولجأت الى ظل شجرة توت وقتلت نفسها. أما باقي القصة فيرويها الأسد والحائط وضوء القمر والعاشقان كل بدوره عندما يظهرون تباعا على المسرح.

(يخرج لكوان وتسبا والأسد وضوء القمر)

تازيوس : اني أتساءل : هل سيتكلم الأسد ؟

ديمتريوس : لا تدهش يا مولاي، اذا رأيت الأسد قادرا على النطق ما دام عدد كبير من الحمير لا ينقطعون عن القاء الخطب.

(يتقدم الحائط)

في هذا المقطع، يتفق لي، أنا المدعو لوباك، أن أمثِّل حائطا. وهذا الحائط، صدقوني، فيه ثقب أو شق يتناجى همسا من خلاله العاشقان بيرام وتسبا ويتسامران. وهذه المواد أعني الجصّ والآجر والحجر، التي تكسوني تدل بدون شك على اني هذا الحائط. وها هي الفجوة عن اليمين وعن الشمال ليتخاطب من خلالها هذان الحبيبان الواجفان.

(يفتح أصابع يده)

تازيوس : من منا لا يتمنى أن يسمع حلاوة الهمسات التي تجتاز هذا الخليط من مواد البناء كالقنب والكلس ؟

ديمتريوس : أي وأبي، هذا أروع حائط أبصرته في حياتي وسمعته يتكلم.

(يدخل بيرام)

تازيوس : ها هوذا بيرام يقترب من الحائط. فلنصغِ اليه جميعا صامتين.

بيرام : يا ليل، يا قاسي القلب، يا ليل، يا فاحم السواد، يا ليل، أراك تحضر عندما يغيب النهار. يا ليل، كن شاهدا على أساي ولهفتي وعلى خشيتي من أن تنسى حبيبتي تسبا وعودها. وأنت يا حائط، يا صديقي الحميم، يا منِ تقوم حاجزاً بين مسكني وبيت أبيها، أرجوك أن توسع فجوتك كي أسترقّ منها ولو نظرة واحدة.

(يفتح الحائط أصابع يده)

شكرا لك أيها العطوف. لتحفظك الآلهة بعنايتها. ولكن ماذا أرى ؟ اني ألاحظ غياب تسبا. فتباً لك أيها الحائط الغليظ لأنك تحجب عني سعادتي. ولتحلّ جميع لعنات الأرض والسماء، عليك وعلى أحجارك المخيِّبة.

تازيوس : يخيل اليَّ ان الحائط الذي لا يخلو من مروءة سيصبّ بدوره على بيرام سيلا من الشتائم.

بيرام : كلا يا مولاي. يترتب عليه أن لا يفعل ذلك لأن عبارة « على أحجارك المخيِّبة » هي اشارة بدء تسبا في القاء مقطعها. عليها أن تدخل الآن، وعليّ أنا أن أتطلَّع اليها من خلال الحائط. سترون كيف ستجري الأمور تماما كما أسلفت لكم. هيا انظروا اليها، ها هي قادمة.

(تدخل تسبا)

تسبا : أيها الحائط، لقد سمعتني مرارا أنتحب، وأنت تقف حائلا بيني وبين بيرام، وتعلم ان شفتيَّ اللتين تشبهان كرزتين قد قبَّلتا مرارا لا تحصى حجارتك وكلسك وقنَّبك.

بيرام : اني أسمع صوتا. سأقترب من الشق، وأحاول أن أرى محياك، يا حبيبتي تسبا.

تسبا : حبيبي بيرام، أنا أعتقد بأنك حاضر بشحمك ولحمك...

بيرام : اعتقدي بما يحلو لك، فأنا حبيبك الوفي، ونظير ليساندر سأظل أمينا على عهدك.

تسبا : وأنا سيكون حالي مثل هيلينا، قبل أن يجور عليها القدر.

بيرام : ان دليلة لم تكن أوفى منها لشمشون.

تسبا : وشمشون لم يكن أوفى منه لدليلة.

بيرام : ألا قبِّلي شفتيّ من خلال هذه الفجوة.

تسبا : اني أقبِّل الفجوة ولا أصل الى شفتيك.

بيرام : هل تريدين أن توافيني الى قبر نيني ؟

تسبا : حيّة أو ميتة سألقاك هناك بدون تأخير.

(يخرج بيرام وتخرج تسبا)

الحائط : ها أناذا الحائط قد قمت بدوري. وهكذا أنا الحائط أغادر هذا المكان.

(يخرج)

تازيوس : أنظروا كيف تهدم الحائط بين هذين الجارين.

ديمتريوس : هذا قدر محتوم يا مولاي، عندما تكون الأسوار مشتاقة هكذا الى الانصات بدون سابق إشعار.

هيبولات : لم أسمع في عمري مثل هذه الحماقات.

تازيوس : ان أحلى المشاهد العاطفية هي من نسج الخيال، والأسوأ منها ليس الا الواقع المرير الذي يعجز الخيال عن وصفه.

هيبولات : طبعا، مخيلتك أنت لا مخيلة الممثلين.

تازيوس : اذا لم تتصورها أسوأ مما يرسمونها لبرعوا وبلغوا ذروة التفوق. ها

اني أرى شخصين مرموقين قادمين نحونا هما ضوء القمر والأسد.

(يدخل الأسد وضوء القمر)

الأسد : يا سيداتي، يا من ترتعش مهُجَكنّ لمجرد رؤية فأرة صغيرة تجري على الأرض اذ تحسبنها غولا مخيفا، لا بد من أن ترتعد فرائصكن لدى سماع زئير الأسد. اعلمن اذاً اني أنا بنجون النجار ولست أسدا ولا لبوءة. ولو حاولت أن أهاجم كأسد حقيقي لخانتني شجاعتي حتما.

تازيوس : يا لك من حيوان شهم، حي الضمير.

ديمتريوس : لم أبصر أبدا يا مولاي، انسانا يمثل بحذق هكذا دور سيد الوحوش.

ليساندر : ان هذا الأسد لثعلب ماكر بما يظهره من مسكنة.

تازيوس : أجل، لكنه من ناحية الحكمة، ليس سوى أوزة غبية.

ديمتريوس : كلا يا مولاي. ان بسالته تفوق فطنته، ما دام الثعلب يحتال على الأوزة المغفلة ويغدر بها.

تازيوس : لا أنكر ان حنكته لا توازي شجاعته، كما ان الأوزة لا يسعها أن تحتال على الثعلب. فيكفينا أن نثق بمروءة الأسد. ولنستمع الان الى القمر.

ضوء القمر : كيف يمثل هذا البهلول قمراً ذا قرنين ؟

ديمتريوس : يتحتم عليه أن يضع القرنين على رأسه بشكل هلال.

تازيوس : لكن هذا ليس هلالا بل هو بدر تمام، وقرناه غير واضحين لأنهما في داخل دائرته.

ضوء القمر : هذا الغبي يمثل القمر ذا القرنين. أما أنا فلست سوى الرجل الذي ترونه ضمن القمر.

تازيوس : هذا أفدح الأخطاء طرّاً، اذ كان عليه أن يضع الرجل في المصباح وإلا كيف يتسع القمر ليقبع فيه الرجل.

ديمتريوس : هو لا يجرؤ على ولوجه بسبب الشمعة المضاءة التي يحملها، خوفا بدون شك من أن تنطفىء.

هيبولات : ويح قلبي، علامَ أرثي لحال هذا الانسان ؟

بيرام : أيتها الطبيعة، لماذا أنجبت الأسود ؟ ان واحدا منها افترس حبيبتي، يا

للأسف، وهي، بل بالحري كانت، أعذب امرأة وُجدت على وجه الأرض، وأحبتني باخلاص لا مزيد عليه. سيلي يا دموعي، واغرز يا خنجري في أعماق صدري، من جهة الشمال حيث يخفق قلبي المعذب أنا بيرام التعيس.

(يطعن نفسه)

هكذا تخمد شعلة حياتي وأغادر هذه الدنيا غير آسف، وتطير نفسي الى العلاء. فاخرس يا لساني، وبأجنحتك الكبيرة صفّق وطر أيها القمر.

(يخرج ضوء القمر)

مُت اذاً، مت يا بيرام مت.

(يموت)

ديمتريوس : هكذا أشاهد ميتا واحدا قضى نحبه أربع مرات.
ليساندر : لماذا لم يردع أحد هذا المخبول عن الانتحار ؟
تازيوس : قد يتسنى للجرّاح أن يتولى أمره ويعيد اليه الحياة، لأن بيرام الميت سيتقمص حمارا حيا.
هيبولات : كيف غاب ضوء القمر قبل أن ترجع تسبا وتلاقي حبيبها على نوره ؟
تازيوس : ستجده على ضياء النجوم. ها هي تختتم التمثيلية بمقطعها.

(تعود تسبا)

هيبولات : يغلب ظني انها لن تجد مجالا لاطالة الحديث عن بيرام كهذا الثقيل الظل، وآمل أن يكون كلامها وجيزا.
ديمتريوس : من سيكون الفائز، بيرام أم تسبا ؟ ان قشة خفيفة، ترجّح كفة الميزان. هو كرجل وقانا الله منه، وهي كامرأة بارك الله فضائلها.
ليساندر : غير ان عينيها النجلاوين قد أبصرتا الجثة.
ديمتريوس : ها قد شرعت في النحيب.
تسبا : يا حبيبي، هل أنت نائم، أم أنت ميت يا ملاكي ؟ انهض يا كنزي الغالي، تكلم يا روحي. لماذا لا تنبس ببنت شفة ؟ هل حقا فارقت الحياة، وسيضم القبر حدقتيك البراقتين كالنجوم وشفتيك النقيتين كالزنبق، وأنفك الدقيق ووجنتيك الورديتين ؟ هل حقا زالت جميعها من الوجود ؟ ابكوا معي أيها العشاق واندبوا عينيه الزرقاوين. وأنت أيها الموت الظالم تعال، وبيديك

الصلبتين الشاحبتين انتزع ما تبقى من حيتي، أنت الذي بفأسك الجاني قطعت وريد شبابه. أصمت يا لساني، ويا خنجر اخترق صدري بحدك الجارح واقطع نياط قلبي المسحوق.

(تطعن نفسها)

وداعا يا أصحابي، فقد قضت تسبا نحبها، وداعا أيتها الحياة البائسة الشقية.

(تموت)

تازيوس : لم يبق سوى ضوء القمر والأسد لدفن هاتين الجثتين الهامدتين.
ديمتريوس : أجل، هناك الحائط أيضا.
بوبين (ينهض بغتة) : لا، لا. ان الحائط الذي كان يفصل بينهما قد تداعى. فهل يروق لكم أن تشاهدوا الخاتمة أم تفضلون أن تروا رقصة يقوم بها اثنان من الممثلين ؟
تازيوس : كلا، كلا. لا أريد الخاتمة، من فضلك. لأن المسرحية لا تحتاج الى مغزى. لاحقا، لا حاجة الى المغزى عندما يموت جميع الممثلين ولا يبقى من أحد لتقع عليه الملامة. وحق السماء، لو قام مؤلف المسرحية نفسه بدور بيرام وشنق ذاته بحمَّالة جورب تسبا لكانت المأساة أروع. لكنها كما هي الان، رواية كئيبة، وان مثلت بطريقة غير مألوفة. هيا أرونا رقصتكم، وضعوا خاتمتكم جانبا.

(يبدأ الرقص)

دقت الساعة الثانية عشرة مشيرة الى منتصف الليل. فتعالوا يا عشاق السمر ننسحب، اذ حان وقت تجمُّع الجنِّيات. وأخشى أن لا يتسنى لنا تخصيص فترة للنوم تعادل ما استنفده منا السهر هذه الليلة. في الواقع، هذه التمثيلية، بالرغم من سخفها، جعلت الساعات البطيئة تمرّ هذا المساء بسرعة. فالى النوم يا أعزائي. ان أفراح أصحابنا ستدوم مدة أسبوعين نقضيهما معا في حفلات ليلية ومتعات طريفة متجددة.

(يخرجون ويدخل بوك في يده مكنسة)

حان أوان تجوّل الأسد الجائع، وعواء الذئب في ضياء القمر. بينما الفلاح ينام وقد أرهقه التعب من الفجر الى الغروب. آن وقت انطفاء قرص الشمس كالجمرة المشتعلة، ودقت ساعة نعيب البوم الذي يذكّر التنبل النائم بالأكفان الجاهزة لمماته. وفي أحلك ساعات الليل هذه، تنكشف أحجار القبور لتخرج منها الأرواح السجينة وتجوب المدافن الموحشة. ونحن الجنيات المتحررات نلاحق الأحياء بدون كلل بعيداً عن أشعّة الشمس المتوارية لائذات بالعتمة كأننا في حلم، ونتجوّل ببهجة وسرور، لأن ليس ما يروّع هذه المساكن المباركة التي تدعونا بكل طمأنينة الى كنس ما بين جدرانها ووراء أبوابها من أوساخ.

(بغتة يدخل أوبرون ومعه تيتانيا وحاشيتهما الى القاعة الواسعة حاملين مشاعل يضيئونها من الموقدة أثناء مرورهم أمامها)

اوبرون: يا خدام، أنيروا بلهب هذه المشاعل جميع الأماكن. وأنتن أيتها الجنّيات رفرفن بأجنحتكن فرحات كالعصافير فوق الأوراق المرتعشة وردِّدن بعدي هذه اللازمة، وارقصن بطرب ومرح.

تيتانيا (لأوبرون) : أنشد أولا هذه الترنيمة المفرحة لأن في كل لفظة من كلماتها نبرة عذبة. ثم سر على رأس موكب زاه، ورتِّل مع الآخرين استدرارا للخير والبركة.

(يدمدم اوبرون لحن أغنية الجنيات ويرددنا معه ويرقصن بشكل دائرات في القاعة الفسيحة)

اوبرون: والآن امرحوا جميعا حتى مطلع الفجر وتجولوا في أجمل القاعات لمباركة أسرّة المتزوجين، وجعل الأولاد المنبثقين من ليالي الحب ينعمون بالسعادة والهناء. سيظل هؤلاء العرائس والعرسان تحت رعايتنا، أمناء على عهودهم مدى الحياة. وفي ذرّياتهم لن تتفشى العاهات، ولن يوصم أي من أطفالهم بعلّة خبيثة، بل كل نسلهم سيصان من الأذى. فباركي أيتها الجنيات كل بيت، وكذلك كل قصر. استمطري عليه السلام والوئام، ولا سيما على

سيده النبيل، واشمليه برعايتك الكريمة. ودعينا دوما نلتقي في هذا المقر الهادىء الامين عند طلوع النهار.

(خاتمة يلقيها بول) :

اذا لم نعرف كيف نرضيكم، قولوا لأنفسكم تلافيا للندم، انكم عفوتم عن تقصيرنا بينما نحن نقدم لكم هذه التمثيلية، بل الرواية القصيرة التي تبدو لكم خيالية كالحلم. لا تنتقدونا يا سادتي، بل اعذرونا اذا لم يحالفنا الحظ والنجاح، ولا ترشقونا بالتنديد والتحقير، لأننا سنعوض عليكم قريبا. وإلا لا يكون بوك سوى منافق خداع. نتمنى لكم ليلة سعيدة، ونسألكم أن تحافظوا على الصداقة بيننا، وأن تولونا ثقتكم الغالية لأنكم اذا صفقتم لنا استحسانا تؤاذروننا بتجنُّب الأخطاء في المستقبل وتحمِّسوننا للاجتهاد في تحسين انتاجنا والسلام.

﴿ تمَّت ﴾

كمَا تشاء

تعــريب

ج. يُـونس

أشخاص المسرحية

الدوق المسن المنفي		
فريدريك	:	شقيقه، دوق مغتصب
جاك اميان		سيدان لحقا بالدوق المنفي
لوبو	:	صديق فريدريك
شارل	:	مقاتل
اوليفير جاك اورلاندو		أبناء السيد رولانان دي بوا
بيار دي توش	:	مهرج
ادم دنيس		خادما اوليفر
اوليفر جاش تكست	:	وكيل
كوران سيلفيوس		راعيان

وليم : فلاح، مغرم باودري
روزالند : ابنة الدوق المنفي
سيليا : ابنة فريدريك
فيبير : راعية
اودري : فلاحة

أسياد، صيادون، خدم

الزفاف

المشاهد أحياناً في الولايات التي اغتصبها فريدريك وأحياناً أخرى في غابة الاردين.

الفصل الأول

المشهد الأول

حديقة أمام منزل اوليفر

(يدخل اورلاندو وآدم)

اورلاندو : مخاطباً آدم ــ لقد أوصي لـي أبي بحفنة من المال؛ كما أوعز إلى شقيقي بتربيتي تربية حسنة تحت طائلة اللعنة الأبوية؛ وقد كان هذا كله مصدراً لأحزاني. فشقيقي ينفق على أخي جاك في المدرسة ويهتم به لدرجة أن شهرته أصبحت تجوب الآفاق ــ أما أنا فإنه يعاملني بخشونة في المنزل، أو قلْ انه يحتجزني في البيت بدون أية عناية. ان معاملته لي لا تختلف في شيء عن معاملته للثيران في زريبتها؛ وهذا لا يليق بشخصٍ نبيلٍ مثلي. ان أحصنته تلقى اعتناءً أفضل مني، إذ ان لديها من العلف ما يفيض عنها، كما انها تروَّضُ من قبل خيالة يتقاضون مبالغ طائلة مقابل عملهم هذا.

أما أنا شقيقه، فإن مكسبي الوحيد تحت رعايته هو النمو : ومن هذا القبيل فإني أخضع له خضوع الحيوانات في مربضها. مقابل هذا اللاشيء الذي يغدقه

عليَّ بسخاء، فإنه يتصنع جميع الوسائل لسلبي القليل الذي أعطتنيه الطبيعة : فهو يطعمني مع زمرة خدمه، ويحرمني من منصب الشقيق، ويقوّض أصلي النبيل بتربيته لي وذلك بقدر مستطاعه. هذا ما يحزُّ في قلبي يا آدم. إلا أن روح أبي، التي أعتقد بأنها تستعر فيّ، بدأت تتمرد على هذا الاستعباد : لا أريد أن أتحمل ذلك زمنا طويلاً، رغم انـي أجهل الوسيلة الناجعة التي ستعتقني منه.

(يدخل اوليفر)

آدم : هو ذا شقيقك قد أتى.

اورلاندو : ابقَ بعيداً، يا آدم، وستسمع كيف سيوبخني.

اوليفير مخاطباً اورلاندو) والآن، ماذا تفعل هنا ؟

اورلاندو : لا شيء — لم يعلمني أحدٌ أن أفعل شيئاً.

اوليفير : من قدر من تحطُّ بكلامك هذا ؟

اورلاندو : في الواقع ان خمولي يساعدك على أن تحطُّ من قدر أخٍ لك بائسٍ وغير جدير بك، خلقه الله.

اوليفير : عليك أن تشغل نفسك بغير هذا وتذهب إلى الجحيم.

اورلاندو : هل أنا مخلوقٌ لأحرس خنازيرك وآكل البلوط معها ؟ ميراث أي ابن شاطر بدّدتُ حتى أتخبط في هذا البؤس ؟

اوليفير : أتعلم أين أنت ؟

اورلاندو : حسناً، اني أعلم بأني هنا في حديقتك.

اوليفير : أتدري أمام من تقف أنت ؟

اورلاندو : انّ من أقف أمامه، أعلم من هو، في حين هو لا يعلم من أنا — أعلم انك أخي البكر، ومن هنا فإن عليك أن تدرك بحكم روابط الدم من أنا. ان أدب الأمم يعطيك حق التقدم علي بحكم كونك المولود البكر، ولكن هذا التقليد لا يسلبني أصلي، ولو وُجِدَ عشرون أخٍ بيننا. في كياني من أبي بمقدار ما فيك، برغم اني أعترف بأنك بحكم مجيئك إلى العالم قبلي مؤهل أكثر مني لتصبح مثله جليلاً.

اوليفير : ماذا تعني أيها الوقح ؟

اورلاندو (ممسكاً بعنق شقيقه) : لنمضِ، لنمضِ، أخي البكر، فإنك لا تزال حديث السن في هذا.

اوليفير : أتريد أن تعتقلني أيها الفظّ ؟

اورلاندو : لست فظاً. أنا الابن الأصغر للسيد رولان دي بوا : لقد كان أباً لي، والذي ينعته بأنه أنجب أولاداً « سمجاء يكون هو سمجاً » لو لم تكن أخي لما أفلتت يدي هذه عنقك قبل أن تكون الأخرى قد انتزعت لسانك لأنه تكلم هكذا؛ لقد أهنت نفسك بنفسك.

آدم : مهلاً أيها الأسياد الأعزاء؛ بحق ذكرى أبيكم اتفقوا.

اوليفير : دعني، قلت لك.

اورلاندو : ليس قبل أن أريد ذلك. أتفهمني... لقد أوعز اليك أبي في وصيته بتربيتي تربية حسنة؛ فربيتني تربية فلاح؛ وخنقت فيّ خصال الرجل النبيل، ولكنَّ روح أبي استيقظت فيَّ، ولن أتحمل هذا طويلا. خصص لي اذن التمارين التي تليق برجل نبيل، وإلّا فهبني الوفر الحقير الذي تركه لي أبي في وصيته، وبذلك أمضي باحثاً عن مصيري.

اوليفير : وماذا ستفعل ؟ ستتسول بدون شك بعد أن تكون قد أنفقت كل شيء ؟ حسناً، أدخل. لن أتبرم بك بعد اليوم ــ سيكون لك جزءٌ مما ترغب. دعني أرجوك.

اورلاندو (ساحباً يده) : لن أنكِّل بك أكثر مما يتطلبه حقي.

اوليفير (مخاطباً آدم) : أدخل معه أيها الحقير ؟

آدم : حقير ! هذا أذن جزائي ؟ لقد شختُ في خدمتك... رحم الله السيد القديم ! لم يكن ليقول مثل هذا القول.

(اورلاندو وآدم يخرجان)

اوليفير : هكذا ! لقد بدأت تتعدى عليّ. حسناً سأتدبر أمرك بدون عناء... دُني.

(يدخل دُني)

دُني : تدعوني يا سيدي ؟

اوليفير : هل حضر شارل، مقاتل الدوق، ليكلمني ؟

دُني : انه يقف في الباب ويطلب مقابلتك.
اوليفير : دعه يدخل (يخرج دني) سيكون وسيلتي الفضلى... غداً القتال.
(يدخل شارل)

شارل : السلام عليك يا سيدي.
اوليفير : شارل، ما الأنباء في القصر الجديد؟
شارل : ليس هناك من أنباء فيه سوى الأنباء القديمة : أي ان الدوق المسِن منفيّ من قبل أخيه الشاب، الدوق الجديد، ومعه ثلاثة أو أربعة أسياد، كلهم مخلصين له، وقد نفوا أنفسهم نفياً طوعياً. ان أراضيهم ومحصولها ستغني الدوق الجديد، الذي مقابل هذا سمح لهم بالتشرد.
اوليفير : هل بإمكانك أن تفيدني ما اذا كانت روزالند، ابنة الدوق، منفية مع أبيها ؟
شارل : كلا ! انها باقية، لأن ابنة الدوق الجديد، تحبها كثيراً لأنها نشأت معها منذ الصغر، حتى انها تفضل اللحاق بها في المنفى أو الموت اذا ما انفصلت عنها. هي في القصر حيث يحبها عمها كما يحب ابنته، ولم يحدث بعد ان امرأتين تحابتا مثلهما.
اوليفير : أين سيعيش الدوق المُسِن ؟
شارل : يقال بأنه أصبح في غابة الأردين، مع العديد من أصحابه السعداء، وإنهم يحيون هناك نظير روبير هُود الانكليزي المسن. ويقال بأن العديد من النبلاء الشباب يتوافدون يومياً عليه، ويمضون الوقت بلا هم ولا غم، تماماً كما كان يحصل في العصر الذهبي.
اوليفير : ويحك، هل ستقاتل غداً أمام الدوق الجديد ؟
شارل : نعم، بدون شك، وقد أتيتُ لأعلمك بأمر. لقد تناهى إليَّ سراً، بأن أخاك الأصغر اورلاندو، يتهيأ للقدوم متستراً بغية الانقضاض عليك. غداً سأقاتل من أجل شهرتي، ومن سيفلت مني بدون أن يكسر أحدُ أعضائه، سينجو لحسن حظه. ان أخاك جدُّ شاب وجدٌّ لطيف، ومراعاة لك سأكون مكرهاً على صرعه؛ كما سأكون مرغماً على ذلك بحُكُم شرفي، إذا ما مثل أمامي. ونظراً لمحبتي لك جئتُ أحذرك، علّك تستطيع أن تثنيه عن عزمه، أو

تتأهب للشر الذي يثيره ضدك : انه هو الذي يسعى اليه رغماً عني.

اوليفير : شارل، اني شاكر لك مودتك لي، وتأكد من عرفاني لجميلك. لقد علمت شخصياً بمقاصد أخي، وبذلت قصار جهدي لأثنيه عنها؛ ولكنه مصرٌّ عليها. ماذا أقول لك يا شارل ! انه أعند فتىً في فرنسا، ومن الأقران الذين يحسدون في الآخرين خصالهم، انه ثعلب وجبان، يتآمرعليّ أنا أخيه بالولادة.

هكذا، تصرف كما يحلو لك. أُحب لو انك تدق عنقه بدل أن تكسر اصبعه... وحسناً تفعل إذا حذرته؛ لأنك إذا لم تُعدّ له هزيمة نهائية، أو إذ لم يحرز عليك انتصاراً كاسحاً، فإنه سيدس لك السمُّ، وسيوقعك في مكيدة غدّارة، ولن يدعك قبل أن يجهز عليك بطريقة أو بأخرى. لأني أجزم لك، وأكلمك والدموع في عينيَّ، انه لا يوجد اليوم مثله فتىً مجرم بهذا المقدار. حتى الآن ما زلت أكلمك عنه بصفتي أخاً له، لأني إذا ما كشفت لك نفسيته بصورة كاملة، فسأرغم نفسي على البكاء والخجل وسيعلو وجهك الاصفرار من الدهشة.

شارل : إني مرتاح جداً لقدومي إلى هنا والالتقاء بك. إذا قَدم غداً سأوليه ما يستحق. وإذا استطاع بعد ذلك أن يتجول بمفرده، فسأعدلُ عن القتال لقاء أجر ما... وعليه حفظك الله !

اوليفير : إلى اللقاء أيها المخلص شارل !

(يخرج شارل)

الآن سأحث هذا الرجل المقدام. اني آمل بأن أرى نهايته، فإن نفسي لا تكره شيئاً أكثر منه، بيد انه لطيف وعليم رغم انه لم يتثقف، مشبعٌ بالأفكار النبيلة، محبوب من جانب كل الطبقات، ومستحوذ في الواقع على قلوب الجميع وبخاصة قلوب رجالي الذين يعرفونه جيداً حتى انهم أصبحوا يحتقرونني بسببه. ولكنَّ هذا لن يطول. ان هذا البطل سينهي كل شيء. بقي علي أن الهب حمية هذا الفتى للقتال، وسأمضي في هذا الطريق. (يخرج).

المشهد الثاني

مرجة أمام قصر الدوق

(تدخل سيليا وروزالند)

سيليا : أرجوكِ روزالند، يا ابنة عمي الحبيبة، افرحي.

روزالند : عزيزتي سيليا، إني أبدي من الفرح أكثر مما أملك، وتريدينني أيضاً أن أكون أكثر سعادة ! إذا كنت لا تستطيعين أن تنسيني أباً منفياً، فلن يكون في مقدورك أن تعيدي إلى ذاكرتي أية فكرة فائقة المتعة.

سيليا : أرى من خلال ذلك أنك لا تحبينني بالقدر الذي أحبك فيه : لو أن عمي، أباك المنفي، نفى عمك، أبي الدوق، وكنت أنتِ لازمتني دائماً، لكنت روضت محبتي على أن تحب أباك أباً لي، وهذا ما ستفعلينه إذا كانت محبتك لي تعادل في قوتها محبتي لكِ.

روزالند : فليكن ! سأنسى حالتي لأنعم بحالتكِ.

سيليا : أنتِ تعلمين بأنه ليس لأبي من أبناء سواي؛ وليس من المحتمل أن يكون له أولادٌ آخرين، وبكل تأكيد فإنكِ سترثينه بعد مماته؛ فإن ما أخذه من أبيكِ بالقوة سأرده إليكِ بالمحبة، أقسمُ بشرفي بأني سأفعل ذلك، وإذا حنثتُ في يميني فلأكن متوحشة !.

هكذا يا حلوتي ويا حبيبتي روزالند، كوني سعيدةً.

روزالند : سأكون سعيدة من الآن فصاعداً، يا ابنة عمي العزيزة وسأتفنن في اللهو... ما رأيكِ؟ هلاَّ نستسلمُ للحب !

سيليا : في الواقع، عليك أن لا ترددي، اجعلي من الحب إلهاءً لكِ؛ ولكن

حذارِ أن تحبي رجلاً بطريقة جدية، ولا تسترسلي في اللهو بحيث يتعذر عليكِ بعد ذلك الحفاظ على شرفكِ وعلى طهارةٍ غير منقوصة مع ما يصحبها من الخفر.

روزالند : إذن بماذا سنلهو؟

سيليا : لنجلس، ومن ثم فلنحرج الحظّ، تحت وطأة تهكمنا : ليتعلم كيف يوزع من الآن فصاعداً عطاياه بانصاف.

روزالند : آملُ أن يكون هذا ممكناً، لأنّ نِعَمَهُ مرتبةٌ بشكل مريع ويختلط عليه الأمر خاصةً في عطاياه للنساء.

سيليا : هذا أكيد : فاللواتي يجعلهن جميلات قلما يكنَّ فاضلات، واللواتي يجعلهنّ فاضلات قلما يكنَّ فاتنات.

روزالند : ألا ترين بأنكِ انتقلت من ميدان الحظ إلى ميدان الطبيعة ؟؟. فالحظ يرتّبُ عطايا هذا العالم وليس الخصال الطبيعية.

(يدخل بيار دي توش)

سيليا : لا أعتقد ذلك ــ فعندما تصنع الطبيعة كائناً جميلاً أفلا يستطيع الحظ تحطيمه ؟ (مشيرة إلى بيار دي توش). لو أنّ الطبيعة وهبتنا روح الاستخفاف بالحظ؛ أليس أن الحظ قد أرسل الينا هذا المهرج ليقطع علينا حديثنا !.

روزالند : في الحقيقة، إن الحظ جدّ قاس بحق الطبيعة عندما يستخدم الغباوة الطبيعية ليقطع الحديث على الفكر المبدع.

سيليا : قد لا يكون هذا من عمل الحظ ولكن من صنع الطبيعة، التي إذ لحظت بأن نفوسنا لا تزال جدُّ بليدة لتفكر بأهلية تامة بمثل هؤلاء الآلهة قد بعثت بهذا الأبله ليشحذها، لأن الغباوة تُستخدمُ دائماً لشحذ أفكارنا. (مشيرةً الى بيار دي توش)، إلى أين تجنح بفكرك الآن ؟

بيار دي توش : سيدتي، عليكِ أن تذهبي إلى أبيك.

سيليا : هل أنت رسوله !

بيار دي توش : كلا، أقسم بشرفي ! ولكن قيل لي بأن آتي لاحضارك.

روزالند : أين تعلمتَ هذا اليمين أيها المهرّج ؟

بيار دي توش : من أحد الفرسان الذي كان يقسم بشرفه بأن الفطائر المحلاة هي ممتازة، وأن الخردل لا يوازي شيئاً. أما أنا فإني أجزم بأن الفطائر المحلاة لا تساوي شيئاً، وأن الخردل هو ممتاز، ومع ذلك فإن الفارس لم يحلف زوراً.

سيليا : وكيف لك أن تثبت ذلك بكل ما أوتيت من علم ؟

روزالند : انزع القناع عن حكمتك.

بيار دي توش: حسناً، تقدما كلاكما، داعبا ذقنيكما، وأقسما بلحيتيكما بأني وغدٌ.

سيليا : أجدت ! هذا تعبير حسن الإخراج.

بيار دي توش : وإذا زَنُخَت في يوم من الأيام قريحتي ؟

روزالند : تتوقف على أن تكون ذات رائحة ذكية

لوبو : إنكنَّ تحيرنني. كنت أود أن أحدثكم عن قتال شديد فاتتكم مشاهدته.

روزالند : اذكر لنا دائماً تفاصيل هذا القتال.

لوبو : سأصف لكما البداية؛ فإذا أعجبتكما فبإمكانكما رؤية النهاية؛ لأن ما هو أروع لم يتم بعد، ولكن سيتم تنفيذه هنا بالذات حيث تقيمان.

سيليا : حسناً لنرى هذه البداية التي انتهت.

لوبو : هوذا آتٍ شيخٌ وأولاده الثلاثة.

سيليا : بإمكاني أن أطابق بين هذه البداية وحكاية قديمة.

لوبو : ثلاثة شبان لهم قامة مديدة ومظهر رائع.

روزالند : انهم يحملون في أعناقهم لافتات تقول : إلى كل من سيرى هذه اللافتات سلام !

لوبو : بكرُ هؤلاء الثلاثة، قاتَل شارل، مقاتل الدوق، الذي رماه أرضاً في لحظة واحدة، وكسر له ثلاثة أضلع، لدرجة أن لا أمل في معافاته. والثاني والثالث لقيا نفس المصير — انهم هناك مطروحون أرضاً؛ والشيخ المسكين، والدهم، يتفجع بحزن عليهم، حتى أن جميع المشاهدين لزموا جانبه باكين معه.

بيار دي توش : ولكن أية سلوى فاتت السيدتان؟

لوبو : حسناً ! السلوى التي تحدثتُ عنها.

بيار دي توش : هكذا يزداد الناس علماً يوماً بعد يوم ! هذه هي المرة الأولى التي أسمع فيها بأن رؤية تكسير الأضلع هي تسلية للنساء.

سيليا : وأنا أيضاً أشاطرك الرأي.

روزالند : ولكن هل يوجد أيضاً شخص يرغب في سماع هذا الكسر الموسيقي في أضلعه ؟ هل هناك من محبٍّ للأضلع المحطمة ؟ هل سنرى هذا القتال يا ابنة عمتي ؟

لوبو : يجب ذلك، إذا بقيتِ هنا؛ لأن هذا هو المكان المعد للقتال، وهم مستعدون الآن لمباشرته.

سيليا : بكل تأكيد، ها هم قد أتوا. لنبقَ إذن ولنرَ ما سيحدث.

(جوقة ـــ يدخل الدوق فريديريك اورلاندو، شارل، أسياد وخدم)

الدوق فريديريك : إلى الأمام ! بما أن هذا الشاب لا يريد الإذعان، فليمض في تهوره !

روزالند (مشيرة إلى اورلاندو) : أهذا هو الرجل ؟

لوبو : انه هو يا سيدتي.

سيليا : انه أمرٌ مؤسف، فهو لا يزال شاباً، ولكن تبدو على وجهه ملامح الانتصار.

الدوق فريديريك : وأنتِ يا ابنتي، وأنتِ يا ابنة أخي، ما بالكما هنا، أتريدان رؤية القتال ؟

روزالند : بالطبع يا سيدي، إذا كنت تتنازل وتأذن لنا بذلك.

الدوق فريديريك : أستطيع أن أقول لكما بأنكما لن تسرّا البتة بذلك : فهناك تفاوتٌ كبيرٌ بين الناس ـــ اني رحمة بشباب هذا المحرّض سأكون جدَّ مرتاح إذا استطعت أن أثنيه عن عزمه، ولكنه لا يريد الانصياع. كلّماه، علّكما تستطيعان التأثير عليه.

سيليا : اذهب في طلبه أيها العزيز لوبو.

الدوق فريديريك : افعلا ذلك، سأبتعد.

(يبتعد الدوق)

لوبو (متوجهاً إلى اورلاندو) : سيدي المحرض، الأميرات يدعونك.

اورلاندو : اني أذعن لأوامرهن بكل احترام وإكبار ـــ (يقترب من الأميرات).

روزالند : أيها الشاب، هل أنت الذي تحدّى المقاتل شارل ؟

اورلاندو : كلا أيتها الأميرة الجميلة : لقد أطلق هو تحدياً عاماً. وقد أتيت أنا مثل الآخرين لأجرِّب عنفوان شبابي ضده.

سيليا : أيها الشاب النبيل، ان طبيعتك متهورة جداً بالنظر لعمرك. لقد سبق لك واقتنعت ببأس هذا الرجل ـــ فإذا كنت تستطيع أن تعرف نفسك بنفسك، وأن تحكم على ذاتك بعقلك، فإن الخوف من الخطر الذي تتعرض له سيشير عليك بتجنبه ـــ اننا نتوسل اليك، خوفاً عليك، من ان تستدرك سلامتك الخاصة، وتقلع عن هذه المحاولة.

روزالند : افعل ذلك يا سيدي : فإنه لن يحطّ البتة من سمعتك؛ نحن نتكفل بأن نحصل من الدوق على أمر بإيقاف القتال عند هذا الحد.

اورلاندو : أتوسل اليكما بأن لا تحكما عليَّ بما هو ليس فيَّ، رغم أني أعترف بأني مخطىء في رفض أي طلب لسيدتين كاملتين وجميلتين مثلكما. ولكن لترافقني عيونكما الجميلة وأمانيكما الرقيقة في هذا القتال !

إذا هزمت فلن يكون هناك من حقير سوى مخلوق كان لغاية الآن سيء الطالع؛ وإذا قتلت فلن يكون هناك من ميت سوى كائن راغب في الموت، لن ألحق أي أذى بأصحابي لأني لا أملك واحداً منهم ليبكيني؛ ولن ألحق أي ضرر بالعالم لأني لا أملك فيه شيئاً ـــ أنا لا أشغل في العالم سوى مكان سيصبح أكثر امتلاءً عندما سأتركه فارغاً.

روزالند : كان بودي أن أضيف إلى بأسك القليل من القوة التي أملكها.

سيليا : كان بودي أيضاً أن أضيف إلى شجاعتك القليل من القوة التي أملك.

روزالند : أتمنى لك حظاً سعيداً.

سيليا : لتصحبك أماني قلبك.

شارل : هيا ! أين هو هذا الشاب الظريف الذي يتضايق ليرقد مع أمه الأرض !

اورلاندو : متقدماً، ها أنذا ! ولكنه في قرارة نفسه لم يكن راغباً في هذا القتال.

الدوق فريديريك : ستتوقفان عند أول سقطة لأحدكما.

شارل : كن مطمئناً، لن تحتاج إلى تشجيعه على سقطة ثانية، بعد أن جنبته ببراعة السقطة الأولى.

اورلاندو : أنت تأمل في أن تسخر مني بعد القتال، ولكن ليس لك أن تحتقرني قبله ــ هيا ! تقدم.

روزالند : ليكن هرقل في عونك أيها الشاب.

سيليا : كنت أتمنى لو أصبح كائناً غير منظور لأمسك بساق هذا الرفيق القوي !

(شارل واورلاندو يتصارعان)

روزالند : يا له من شاب رائع !

سيليا : اني أعلم من سيطرح أرضاً.

(شارل يسقط ــ تصفيق)

الدوق فريديريك : كفى ! كفى.

اورلاندو : لنتابع القتال ! اني أستحلفك. سعادتك.

الدوق فريديريك : كيف حالك يا شارل ؟

لوبو : انه لا يستطيع الكلام يا سيدي.

الدوق فريديريك : لأعوانه احملوه ــ (يحمل شارل). (مخاطباً اورلاندو) : ما إسمك أيها الشاب ؟

اورلاندو : اورلاندو يا سيدي، الإبن الأصغر للسيد رولان دي بوا.

الدوق فريديريك: ليتك كنت ابن رجل آخر! كان الناس يعتبرون أباك رجلاً نبيلاً، ولكني وجدت فيه على الدوام عدواً لي؛ لو كنت تتحدر من عائلة أخرى لأعجبتني بطولتك أكثر. وداعاً ! أنت فتىً مقدام؛ كنت أتمنى لو انك ذكرت لي أباً آخر. (يخرج تتبعه حاشيته ولوبو).

سيليا : لو كنت مكان أبي لما تصرفت هكذا، يا إبنة عمي.

اورلاندو: إني فخورٌ بكوني الإبن الأصغر للسيد رولان... آه! لن أبدِّل هذا

اللقب مقابل لقب الوريث المتبني من قبل فريديريك.

روزالند : كان والدي يحب السيد رولان حبه لنفسه، والكل كان من رأي والدي ــ لو كنت أعلم مسبقاً أن هذا الشاب كان ابناً له لتوسلت اليه بالدموع بدل أن أدعه يجازف هكذا.

سيليا : هيا نشكره ونشجعه : ان مزاج والدي الجاف والحسود حز في نفسي ــ (مشيرة إلى اورلاندو) سيدي : لقد استحقيت الكثير ــ إذا كنت تستطيع أن تفي بوعودك في الحب كما استطعت الآن أن تتجاوز كل وعد، فإن خليلتك ستكون سعيدة.

روزالند : تعطي اورلاندو عقداً انتزعته من عنقها ــ أيها النبيل، علّق هذا كتذكار مني، من مخلوقة لفظها الحظ، والتي كانت ستعطي أكثر لو توافرت لها الوسائل اللازمة لذلك... هيا نمضي يا ابنة عمي ؟

سيليا : وداعاً أيها النبيل الجميل (تبتعدان) !

اورلاندو : ألا أستطيع أن أشكركما ؟ ان قواي قد انهارت، وما تبقى هنا فلا يعدو كونه دمية، أو كتلة جامدة.

روزالند : تتجه نحو اورلاندو ــ انه يدعونا... إن كبريائي سقط بسقوط حظي : سأسأله ماذا يريد... هل دعوتنا يا سيدي ؟ لقد قاتلت ببسالة وتجاوز نصرك أعداءك.

سيليا : ألا تأتين يا ابنة عمي ؟

روزالند : اني بتصرفك... وداعا (تخرج سيليا وروزالند).

اورلاندو : أي إحساس إذن يعقد لساني ؟ لم أستطع أن أكلمها، ومع ذلك فقد بعثت هي الحديث (يدخل لوبو). مسكين أورلاندو ! لقد هُزِمت : إذا لم يكن شارل هو الذي هزمك، فإن مخلوقة ضعيفة هي التي قهرتك.

لوبو : سيدي، إني أنصحك كصديق بأن تترك هذا المكان ــ فرغم أنك حُزت على إعجاب الجميع وتقديرهم ومحبتهم، فإن مزاج الدوق جعله يفسّر سلبياً جميع ما قمت به ــ الدوق غريب الأطوار : ما هو عليه في الحقيقة، عليك أنت أن تدركه، وليس عليَّ أنا أن أقوله.

اورلاندو : إني أشكرك يا سيدي... قل لي، أرجوك، انه من السيدتين اللتين شاهدتا المبارزة هي ابنة الدوق !.

لوبو : لا هذه ولا تلك إذا أردنا أن نحكم على ذلك بموجب طبع كل منهما؛ ومع ذلك فإن الصغرى هي ابنته. والأخرى هي ابنة الدوق المنفي، عمها المغتصب يحتفظ بها هنا لتبقى في صحبة ابنته : إن حبهما المتبادل لهو أعربُ من التعلّق الطبيعي الذي يكون عادة بين شقيقتين. ولكني أستطيع أن أقول لك، أنه منذ فترة وجيزة، والدوق هذا يسعى لتكدير عيش ابنة أخيه لسبب واحد وهو أن الشعب يمتدحها لطيب خصالها ويشفق عليها لحبها لأبيها. أقسم بحياتي بأن غضبه حيالها سيتفجر فجأة... وداعاً سيدي ! غداً وفي عالم أفضل من هذا سأطلب منك أن تكون صداقتك لي ومعرفتك بي أمتن وأعمق.

اورلاندو : إني مدينٌ لك ـــ وداعاً ! (لوبو يخرج). والآن أصبح عليَّ أن أنتقل من وطأة دوق طاغية إلى وطأة أخٍ طاغية ... آه ... يا روزالند ما أعزبك ! (يخرج).

المشهد الثالث

في قصر الدوق

(تدخل سيليا وروزالند)

سيليا : حسناً يا ابنة عمي؟ حسناً يا روزالند!.. اشفقي على نفسك! ولا تنبثي بكلمة!.

روزالند : ولا كلمة ولو مبتذلة!

سيليا : إن كلامك أثمن من أن يكون مبتذلاً، هيا لنقرع الحجة بالحجة.

روزالند: بقي أمامنا إذن أن يحجر علينا نحن الاثنتين: الواحدة لأن أفكارها غير مجنحة والثانية لأنها مجنونة (تتنهد).

سيليا : كلُّ هذا الغم بسبب أبيك!
روزالند : وبسبب والد ابني أيضاً. آه.. كما هي مزروعة بالأشواك أيام عملنا!
سيليا : ما هذا كله سوى أشواك علقت بك في غمرة أحد الأعياد، فإذا لم نسلك في حياتنا الطرق المألوفة علقت بأذيالنا.
روزالند : لو أن هذه الأشواك علقت بأذيالي لنفضتها عنها ولكنها في قلبي.
سيليا : اقتلعيها.
روزالند : سأحاول ذلك إذا كانت النتيجة الحصول عليه هو!
سيليا : هيا، هيا قاومي مشاعركِ.
روزالند : لقد انحازت مشاعري نحو مناضل هو أقوى مني.
سيليا : إني أتمنى لك التوفيق. ستأتي ساعة تحاولين فيها الوقوف بوجه مشاعرك، ولو أدّى ذلك إلى الفشل.. ولكن لنعدل عن المزاح ونتكلم بجدية: أيعقل أن الابن الأصغر للسيد رولان استمال قلبك بهذه السرعة!
روزالند : إن أبي كان يحب أباه بعمق.
سيليا : وهل ينتج عن ذلك أنَّ عليكِ أن تحبي ابنه بعمق! بموجب هذا المنطق يتحتم عليَّ أن أكرهه لأن والدي كان يكره والده بعمق ومع هذا فإني لا أكره أورلاندو.
روزالند : لا تكنِّي له الكره حباً بي؟
سيليا : ولماذا أكرهه! أليست له جدارة فائقة!
روزالند : دعيني أحبه لهذا السبب، وأنتِ حباً بي أحبيه.. انتبهي الدوق آتٍ.
سيليا : أرى الغضب في عينيه.

(يدخل الدوق فريديريك مع حاشيته)

الدوق فريديريك (مخاطباً روزالند) : استدركي سلامتك واتركي هذا القصر أيتها الفاجرة.
روزالند : أنا يا عمي!
الدوق فريديريك : أنتِ يا ابنة أخي.. ستموتين إذا لم تتجاوزي خلال عشر أيام، العشرين ميلاً من قصري.
روزالند : أرجوك، دعني أعلم ما هو ذنبي ــ فإذا كنت في الحقيقة أملك

كامل وعيي، فلا أهذي ولا أحلم وأدرك مشاعري، فإني على قناعة بأني لم أتعرض لك البتة.

الدوق فريديريك: هكذا يتصرف جميع الخونة: فلو كانت تبرئتهم منوطة بكلامهم، لكانوا أكثر الناس براءةً ــ إني لا أثق بكِ؛ فاكتفي بهذا!

روزالند: إن عدم ثقتك بي غير كافٍ لتخويني. قل لي ما الشبهات التي تحوم حولي؟

الدوق فريديريك: أنت ابنة أبيك، وهذا كافٍ.

روزالند: كنت ابنته أيضاً عندما سلبته دوقيته، وعندما نفيته. الخيانة ليست وراثية يا سيدي؛ وحتى لو كانت وراثية فإنها لا تعنيني؟ لم يكن أبي في يوم من الأيام بخائن. فلا تحكم عليَّ زوراً، وترى حتى في بؤسي خيانةً.

سيليا: سيدي، أرجوك ان تسمعني.

الدوق فريديريك : نعم سيليا ــ لقد أبقيناها هنا بسببك وإلا لكانت منذ زمن طويلة متشردة مع أبيها.

سيليا : لم أتوسل إليك يومها بأن تبقيها: فقط إرادتك المطلقة ورحمتك قاما بذلك كنتُ يومها صغيرة بعد لا أقدّر ابنة عمي، ولكني الآن أعرفها، إذا كانت خائنة، فأنا خائنة أيضاً: كنا دائماً ننام معاً ونغادر السرير معاً، نتعلم ونلعب ونأكل معاً؛ وحتى كنا لا نفترق بل نسير كما يسير الأوز أزواجاً أزواجاً.

الدوق فريديريك : انها ثاقبة البصيرة حيالك: دماثة خلقها، سكوتها وصبرهاتخاطب الشعب الذي يشفق عليها ــ انتِ مجنونة؛ انها تسلبك سمعتك ــ .ستتألقين أكثر وستبدين أكثر كمالاً عندما تبتعد هي من هنا ــ فلا تتكلمي ــ ان الحكم الذي أصدرته بحقها مطلق وغير قابل للرجوع عنه؛ انها منفية.

سيليا : أصدر هذا الحكم بحقي أيضاً؛ لا أستطيع العيش بدونها.

الدوق فريديريك : أنتِ مجنونة... وأنت يا ابنة أخي استعدي للسفر؛ إذا تجاوز بقاؤك هنا الوقت المحدد، فإني أقسم بشرفي وبعظمة كلامي بأنكِ ستموتين !

(يخرج مع حاشيته)

سيليا : أين ستذهبين، يا روزالند المسكينة؟ أتبغين استبدال أبيك؟ سأعطيك أبي ـــ آه ـــ! سأنتصر لكِ لا تكوني أكثر حزناً مني.
روزالند : ان لديَّ من الأسباب ما يجعلني أكثر حزناً منك.
سيليا : بتاتاً يا ابنة عمي ـــ تشجعي أرجوك! أتجهلين أن أَبـي قد نفاني أنا ابنته؟
روزالند : لا أعلم هذا.
سيليا : لم ينفني؟ ألا تشعرين إذن، يا روزالند، بالمودة التي تجعل منا نحن الاثنين شخصاً واحداً؟ ماذا! سننفصل الواحدة عن الأخرى ونبتعد عن بعضنا؟ كلا ـــ ليبحث أبي عن وريثة أخرى! هكذا لنصمم معاً كيف سنهرب وأين سنذهب وماذا سنحمل معنا. آه، لن يكون ألمك ملكك لوحدك ولن تتحملين أحزانك بمفردك، سأشاطرك كل هذا؛ فبحق هذه السماء التي تشاركنا مآسينا بشحوبها سأذهب معك إلى حيث تذهبين.
روزالند : حسناً، أين سنذهب؟
سيليا : سنلحق بعمي في غابة الأردين.
روزالند : يا للأسف! ما أشد الخطر الذي سيحيق بإبنتين مثلنا في ترحال بعيد كهذا! فالجمال يثير اللصوص أكثر من الذهب.
سيليا : سأرتدي زياً مضحكاً وحقيراً، وسأطلي وجهي بالتراب ـــ وستفعلين مثلي. وسنسلك طريقنا متجنبين المهاجمين.
روزالند : ألا يكون من الأفضل أن أرتدي زيَّ رجل لأن قامتي أطول من المعتاد؟ فيكون لي سكين يزين جنبي، وحربة في يدي، ومظهرٌ متبجح وعسكري نظير العديد من الجبناء الذين يخفون جبانتهم بوجوهٍ مقنعة ـــ كل هذا رغم أنّ قلبي سيتفطر جزعاً.
سيليا : وماذا سأدعوك في مثل هذه الحالة؟
روزالند : سأحمل اسم خادم الإله جُوبان فسمني إذن جانيماد ـــ وأنت ماذا سأدعوك؟
سيليا : سمني باسم يليق بحالتي: ان سيليا لم تعد موجودة، لقد أصبحت تدعى آليانا.

روزالند : قولي لي اذن هل نحاول أن نخطف مهرِّج أبيك علَّه يكون لنا عوناً في ترحالنا؟

سيليا : انه يذهب معي إلى آخر الدنيا، دعيني أُغريه لوحدي ــ هيا بسرعة لنجمع ثروتنا ومجوهراتنا ــ وبعد ذلك سننتهز الفرصة المناسبة وسنسلك الطريق الأكثر أماناً لنتفادى الملاحقات التي ستحصل بعد هروبنا ــ لننطلق بفرح ليس نحو المنفى ولكن نحو الحرية (تخرجان)

الفصل الثاني

المشهد الأول

مغارة في غابة الأردين

(يدخل الدوق المسن أميان، وبقية الأسياد بلباس الصيد)

الدوق المسن : حسناً، يا رفاقي في المنفى، ألا تدرون بأن حياتنا هنا هي أرق وأعزب من حياة القصور؟ أليس أن الحياة في هذه الغابة تجعلنا في مأمن من الأخطار أكثر من الحياة في فلك مستهدف! إننا هنا لا نلقى من عقاب سوى عقاب آدم ولا نتحمل من مشقة سوى تلك التي تنتج عن تعاقب الفصول. فإذا ما لفح البرد القارس جلد جسدي حتى لتصطك أسناني فإني لن أنفك عن البقاء مسروراً وعن أن أردد: هنا لا أثر للتملق، بل إذا كان هناك من مرشد يقف إلى جانبي فانه يشعرني بما أنا عليه. كم هي سَلِسَة أساليب العداوة: فهي كمثل ضفدع بغيضٍ ومُسِّم تعلو رأسه جوهرةٌ ثمينة. إنّ حياةً كهذه في منأى عن غوغاء الجمهور، لتجعلنا نكتشف أن للأشجار أصواتاً، وأن في الجداول

المنسابة كتباً، وأن في الحجارة عبراً، وأن الخير كل الخير قد تجده في كل شيء.
اميان : لم أكن أرغب في تغيير نمط حياتي. كم أنتَ سعيدٌ يا سيدي لأنك استطعت أن تترجم عداوة القدر لك بأسلوب هادىء وعذب.
الدوق المسن : هلّا نذهب إلى الصيد؟.. ولكنني أربأ بنفسي أن أرى هذه المخلوقات البائسة، التي تقطن هذه الناحية المقفرة، تصابُ في عقر دارها، بسهامنا المتشعبة فتتخضب بالدم أوراكها المستديرة.
السيد الأول : ان هذا يؤلم أيضاً جاك صاحب المزاج السوداوي؛ إنه يقسم بأنك من هذه الناحية مغتصبٌ أكثر من أخيك الذي قام بنفيك. لقد تسللتُ اليوم، يرافقني اميان، خلفه إلى حيث كان مستلقياً تحت سنديانة ترمي بجذورها فوق جدول ينساب مدندناً عبر هذه الغابة، كان هناك أيل ضلّ طريقه بعد أن جرحته سهام الصيادين؛ لقد كان يحشرج؛ كان الحيوان المسكين يرسل زفرات كادت وطأتها أن تمزق جلده؛ دموعُ كبيرة كانت تتساقط على أنفه البريء بعد أن أفلت من قبضة الصيادين التي تسببت له بهذا الشقاء، وهكذا كان جاك صاحب المزاج السوداوي، يتأمل بعطف هذا الحيوان المغطى بالوبر والواقف على الضفة الأخرى للجدول المتسارع في جريانه ليزيد من تدفقه بدموعه المدرارة.
الدوق المسن : وماذا قال جاك؟ ما هي العبر التي استخلصها من هذا المشهد؟
السيد الأول : لقد طَلَعَ بألف مقارنةٍ ومقارنة، فعندما رأى دموع الأيل المتساقطة في الجدول قال: مسكين أنتَ، انك مثلنا نحن أبناء هذه الدنيا، توصي الآن بما عندك إلى من يملك من قبلُ الكثير الكثير. وعندما رآه وحيداً متروكاً من قبل أصدقائه الغارقين في التنعم. ان المصيبة تباعد بين الأصدقاء. وفجأة وصل سرب من الأيائل وراحوا يقفزون بالقرب من الأيل الجريح غير مبالين به. وهنا راح جاك يخاطبهم قائلاً: ابتعدوا عنه أيها الأصدقاء الذين جعلكم اعتناؤه بكم من أصحاب السمنة؛ ولكنه الآن بات مفلساً فماذا ينفع ان تلقوا عليه ولو نظرة عابرة. ان هذا هو شأن أصدقاء هذا الزمان وهكذا فإن سهام شتائمه أصابت عمق الحياة في الريف والمدينة والقصور وحتى حياتنا

نحن: فهو يقسم بأننا محض مغتصبين وطغاة وما هو أسوأ من ذلك كله، لأننا نخيف هكذا الحيوانات ونسحقها في عقر دارها.
الدوق المسن : وهل تركته مسترسلاً في تأمله هذا؟
السيد الثاني : نعم لقد تركته يتأمل ويبكي هذا الأيل المنازع.
الدوق المسن : ارشدني إلى مكان وجوده، فإني أحب رؤيته وهو على ما هو عليه من الحزن والكآبة، فإنه في مثل هذه الحالة يذخر بكل ما هو عميق من افكار.
السيد الثاني : سأقودك اليه توّاً. (يخرجان)

المشهد الثاني

في قصر الدوق

(يدخل الدوق فريديريك ومعه حاشيته وبعض الأسياد)

الدوق فريديريك : هل يعقل بأن أحداً لم يَرَهما؟ لا بد أن بعض الخونة في قصري هم متواطئون معهما.
السيد الأول : لا أعلم بأن أحداً قد رآهما، ان النسوة اللواتي يخدمنها قد رأينها ذاهبة لتنام؛ ولكنهن عند الصباح وجدن السرير وقد نزع عنه ما كان يزينه من ذخائر ثمينة.
السيد الثاني : سيدي، ان المهرج النذل الذي كان يضحك من وقت إلى آخر قد اختفى أيضاً. إن ايسبيري، المؤتمنة على حُلي الأميرة، قد سمعت سراً ابنتك وابنة أخيك يمتدحان بإطراء صفات ومحاسن المقاتل الذي صرع مؤخراً شارل القوي؛ وهي تعتقد بأنه سيكون بصحبتهما في أي مكان يكونان قد لجأ اليه.

الدوق فريديريك : ارسل بطلبه من عند أخيه؛ وإذا كان غائباً فأتني بأخيه فسأجعله يتكفل بإيجاده. أسرع ولا تدخر وفراً في خطاك وتحرياتك للإمساك بهاتين المجنونتين الشريدتين. (يخرجون).

المشهد الثالث

أمام منزل أوليفير

(أورلاندو وآدم يلتقيان)

اورلاندو : من هناك!

آدم : ماذا يا أحب وأطيب سيد عرفته، يا صورة السيد رولان المُسِن! ماذا تفعل هنا! لماذا أنت فاضل هكذا؟ لماذا يحبك الناس؟ ولماذا أنت لطيف وقويٌ ومقدام! لماذا أيها المغفَّل صرعت بطل الدوق الغريب الأطوار؟ ان انتصارك قد سبقك بسرعة فائقة إلى هنا. أتعلم يا سيدي، بأن هناك أناساً تكون خصالهم أعداءً لهم؟ أنت منهم: ان صفاتك بالنسبة اليك تشكل حفنة من الخونة. أي عالم هذا هو الذي تفسد فيه كل مأثرة صاحبها!

اورلاندو : ماذا تعني؟

آدم : لا تدخلن من هذا الباب أيها الفتى المسكين! فإن تحت هذا السقف يقيم عدوك. أخوك أصبح على علم بانتصارك: انه عازم هذه الليلة على حرق المكان الذي ترقد فيه عادة فتحترق أنت في داخله. وإذا فشل في ذلك فإنه سيلجأ إلى شتى الوسائل للقضاء عليك. لقد فاجأته في مكائده. ان هذا المنزل لم يعد ملائماً لك انه مقصلة. فاحذره ولا تدخل اليه.

اورلاندو : ولكن إلى أين أذهب؟

آدم : إلى أي مكان ولكن لا تبق هنا.

اورلاندو : أتريدني أن أذهب مستعطياً قوتي اليومي، أو طالباً إياه بحد السيف كما يفعل قطاع الطرق؟ هذا ما سأفعله حتماً في مثل هذه الحالة، ولكني لن أقدم عليه مهما كانت الأسباب. اني أفضل عوضاً عن ذلك أن أكون معرَّضاً لشراسة أخٍ دموي تنكر لأصله.

آدم : لا تفعل ذلك. ان لديَّ خمسماية درهم ادخرتها يوم كنت في خدمة ابيك، وقد احتفظت بها لتكون عوناً لي في شيخوختي عندما ستجف الحيوية في أعضائي البالية. خذها! أما أنا فإني أترك أمر شيخوختي إلى العناية الإلهية التي تطعم الغربان وتوفر القوت للعصافير !... اني أعطيك كل ما أملك من الذهب. دعني فقط أخدمك. اني ما زلت قوياً ونشيطاً رغم شيخوختي. فإني في ريعان شبابي لم أهدر طاقتي في تناول الكحول ولم أتلف قواي في ارتكاب المحرمات. وهكذا فإن شيخوختي هي أشبه بشتاء قارس ولكنه سليم. دعني أذهب معك: فإني سأخدمك في كل أمورك وفي كل حاجاتك كما لو كنت في ريعان شبابي.

اورلاندو : انك شيخٌ فاضل! إنك تجدُّ بدافع الواجب وليس بدافع المنفعة، تماماً كما كان يفعل الخادم الجلود في غابر الأيام. أنت لست من أبناء هذا الزمان الذي يجدُّون في سبيل منفعتهم، فإذا حصلوا عليها خنقوا حميتهم بأنانيتهم: أما أنت فلست كذلك. أيها العجوز المسكين، انك لتعتني بشجرة فاسدة لا تستطيع أن تعطيك مقابل أتعابك وعنايتك بها حتى ولو زهرة واحدة، ولكن تعالَ واصحبني، فقبل أن ننفق ما ادخرته أنت في شبابك من المال فإننا لا شك واجدون مصيراً نرتاح اليه.

آدم : إلى الأمام يا سيدي! سأتبعك حتى آخر نفسٍ لي بثبات واستقامة. منذ أن كنتُ في السابعة عشرة من عمري وإلى أن بلغتُ الثمانين عشتُ هنا، ولكمني الآن لا أرغب البتة في العيش هنا. في السابعة عشرة من العمر، يسعى الكثيرون في طلب الثروة ولكن من كان في الثمانين يدرك بأن القطار قد فاته ـــ هذا لا يهم! ان القدر لا يستطيع أن يكافئني بأكثر من أن يميتني شريفاً وغير مدين لسيدي بشيء. (يخرجان)

المشهد الرابع

على حدود غابة الاردين

(تدخل روزالند بثياب فلاح، سيليا متخفية بزي راعية. وبيار دي توش)

روزالند : كم أن روحي متعبة!

بيار دي توش : أما أنا فإني لا أعاني من التعب في روحي بقدر ما أعاني منه في رجليَّ.

روزالند : اني على استعداد كلي لأن ألحق العار بلباس الرجل الذي أتخفى به وأن أبكي كامرأة؛ عليَّ أن ألزم جانب الفريق الأضعف. أليس الرجال هم مدينون في شجاعتهم للنساء: تشجعي إذن يا نفسي!

سيليا : أرجوك أن تتحمَّلي قوايَ المنهارة: لا أستطيع الذهاب أبعد من ذلك.

بيار دي توش : من ناحيتي، أفضل أن أتحمل قواكِ المنهارة على أن أحملك؛ ولكن إذا اقتضى الأمر وحملتك، فإن حملي سيكون خفيفاً، لأنه على ما أعتقد، لا يوجد درهم واحد في محفظتك.

روزالند : هوذا غابة الاردين!

بيار دي توش : ها انني في غابة الآردين؛ ان هذا ليزيد من جنوني. عندما كنت في البيت كنت أفضل من الآن؛ ولكن على المسافرين أن يُسرُّوا بكل شيء.

روزالند : كن مسروراً. ولكن أنظر ها ان شاباً وشيخاً قادمان الينا وهما يتحدثان.

(يدخل كوران وسيلفيوس)

كوران : ان هذه الطريقة تجعلها دائماً تحتقرك.
سيلفيوس : آه يا كوران، لو كنت تعلم كم أحبها!
كوران : إن هذا الأمر ليس بغريب عني، فقد سبق لي وأحببت فيما مضى.
سيلفيوس : انك وقد أصبحت الآن شيخاً. لم تشعر في صباك بلفحة الحب المحرقة التي تقضُّ علي مضجعي. وهب ان حبك كان يشبه حبي فهلا ذكرت لي بعضاً من الأعمال المثيرة للسخرية التي عرَّضك لها حبك هذا؟
كوران : لقد جرني حبي إلى ألف عمل وعمل من هذا النوع، ولكن نسيتها جميعاً.
سيلفيوس : انك لم تحب البتة كما أحب أنا الآن. فإذا كنت لا تذكر ولو حماقةً واحدةً من تلك التي جرَّك اليها هواك فإنك لم تحب. وإذا كنت لم تجلس كما أفعل أنا الآن وترهق من يستمع اليك بمديح حبيبتك فإنك لم تحب أيضاً. وإذا كنت لم تغادر صحبك فجأة ودونما استئذان، تحت وطأة الحب، كما أفعل أنا الآن فإنك لم تحب أيضاً...

(يخرج منادياً فيبي! فيبي! فيبي)!
روزالند : انك إذ كنت تسبر جرحَك، أيها الراعي المسكين، إذا بي أرى جرحي ينفتح، يا لها من مصادفة محزنة.
بيار دي توش : وأنا أشعر بأن جرحي قد انفتح. اني أذكر كيف اني عندما كنتُ عاشقاً أقدمت على تحطيم سيفي فوق أحد الصخور قائلاً له : هذا جزاء من يقصد ليلاً حبيبته. وإني أذكر كيف قبلت المخباط الذي كانت تحمله، وضرع البقرة التي كانت تحلبه أناملها الجميلة المغطاة بالشقوق. وفي أحد الأيام رحتُ أداعب قرن البقرة بدلاً من مداعبة حبيبتي، وبعد أن أمسكت به قدمته اليها والدموع في عيني وقلت لها: احمليه بحق حبك لي. نحن العشاق الحقيقيون سنستسلم لنذوات غريبة. وكما ان كل كائن هو ميت فإن كل عاشق هو مصاب بالجنون.
روزالند : انك تتكلم بمثالية تامة دون أن تنتبه لذلك.
بيار دي توش : اني لا أهتم لهذا الأمر.
روزالند : ان حبَّ هذا الراعي يشبه كثيراً حبي.

بيار دي توش : ولكن حبي بدأ يعتريه الفساد.
سيليا (مشيرة إلى كوران) : أرجوكما فليطلب أحدكما إلى هذا الرجل بأن يأتينا بالطعام مهما غلا ثمنه فإني أتضور جوعاً.
بيار دي توش (منادياً): تعالَ أيها الوغد؟
روزالند : اخرس أيها المجنون فإنه ليس بقريبك.
كوران : من ينادي؟
بيار دي توش : يناديك من هو محظوظٌ أكثر منك.
كوران : ولو لم يكن كذلك لكان من أشقى الناس.
روزالند : اسكت قلتُ لك!.. مساء الخير يا صديقي!
كوران : مساء الخير يا سيدتي لكِ ولجميع الحاضرين!
روزالند : أرجوك أيها الراعي، بأن تؤمن لنا في ناحية ما من هذه الصحراء مأوىً نلجأ اليه حيث نجد الراحة والطعام. فإن سيليا مرهقة من التعب وتتضور من الجوع.
كوران : اني أرثي لحالها، وأتمنى لو يحالفني الحظ لنجدتها. ولكني لست سوى راعٍ لرجل آخر ولا أستطيع حتى أن أجز الخراف التي أرعاها. ان سيدي هو صاحب طبع متوحش ولا يهتم بالضيافة فيعتبرها طريقاً يفتح له باب السماء. وبالإضافة إلى ذلك فإن كوخه ومواشيه ومراعيه هي كلها الآن معروضة للبيع؛ وبسبب غيابه فإنه لا يوجد في الحظيرة ما يؤكل. ولكن هلموا وانظروا فأنا لست مسؤولاً إذا أسيء استقبالكم.
روزالند : من تقدم لشراء مواشيه ومراعيه؟
كوران : هذا الراعي الشاب الذي ترينه، والذي لا يهمه الآن شراء أي شيء.
روزالند : إذا كانت الإهانة لا تقف حائلاً دون ذلك، فإني أطلب اليك بأن تشتري الكوخ والمرعى والقطيع، وإننا سنتكفل بدفع الثمن.
سيليا : ونحن سنزيد من ضماناتك. اني أحبُّ هذا المكان، وسأمضي بقية أيامي فيه.
كوران : اني متأكد بأن هذا كله معد للبيع. تعاليا معي. وبعد أن تستعلما تماماً عن موضوع البيع، فإذا أحببتما الأرض ومدخولها وهذا النوع من الحياة،

فإني سأكون راعيكما الأمين وسأشتري كل هذا مباشرة بما تملكان من ذهب. (يخرجون)

المشهد الخامس

(في الغابة)

(يدخل اميان، جاك وآخرون)

اميان : مغنياً ــ

ليت الذي يحب الاستلقاء معي
تحت الشجرة الخضراء
وينغم أغنيته المرحة
فتبدو منسجمة مع صوت العصفور الشجي،
ليته يأتي إلى هنا
حيث لا عدو سوى الشتاء والطقس الرديء!

جاك : أرجوك أن تسترسل في الغناء!

اميان : ان هذا يجعلك كئيباً يا سيد جاك!

جاك : أرجوك أن تسترسل في الغناء، لأن لي قدرة على امتصاص الكآبة التي تذخر بها أغنية ما، تضارع قدرة ابن عرس على امتصاص البيضة.

اميان : لقد بُحَّ صوتي، لذلك لن أستطيع أن أجعلك مسروراً.

جاك : اني لا أسألك بأن تجعلني مسروراً، ما أطلبه اليك هو أن تغنّي فقط ــ هيا! قدِّم لنا مقطعاً آخر ــ ألا تسمّي مقاطع هذا الذي تردده على مسمعي؟

اميان : سمّه ما شئت يا سيدي.

جاك : لا تهمني التسمية ــ ألا تريد أن تغنِّي؟
اميان : فليكن! سأغني بناءً على طلبك وليس لأن ذلك يسرني.
جاك : إذا كان عليَّ أن أشكر أحداً فهو أنت ــ ان ما يسميه الناس ثناءً يشبه لقاء اثنين من القِرَدة؛ اني أشبِّه الشخص الذي يشكرني عن مودَّة، بمتسوِّل يبدي نحوي عرفانه بالجميل لقاء مبلغ زهيد من المال وهبته إياه. هيا، غنِّي... أما أنتم الذين لا تغنون فاحبسوا ألسنتكم.
اميان : حسناً، سأنهي الأغنية... ضعوا الغِطاء، فإن الدوق يريد أن يشرب تحت هذه الشجرة. (مشيراً الى جاك) لقد بحث عنك النهار كله.
جاك : أما أنا، فقد تجنبته النهار كله. انه يماحكني كثيراً. اني أفكر بمقدار ما يفكر هو، ولكني أشكر السماء على أن هذا لا يحملني على الكبرياء. هيا غنِّي.
اميان: (يغني والجميع يرافقونه):

أغنيته

ليت الذي يبتعدُ عن الطمع
ويحبُّ العيش في الشمس
باحثاً عن قوته
مكتفياً بما يحصل عليه
ليته يأتي إلى هنا

حيث لا عدو سوى الشتاء والطقس الرديء.

جاك : سأقدم لك مقطعاً نظمته البارحة رغماً عن خيالي، بإمكانك ان تغنِّيه على نفس النغم.
اميان : سأغنيه.
جاك : هذا هو:

اذا حصل صدفةً
وتحول إنسان ما إلى حمار
إرضاءً لنزوة عنيدة،

فليات إليّ! (يتكلم باليونانية)
فسيرى انه يوجد هنا مجانين مثله

اميان : ما معنى هذا التعبير اليوناني الذي تلفظتَ به؟

جاك : هذا دعاءٌ يوناني يستعمل لجعل الحمقى ينتظمون في حلقة واحدة... سأنام اذا استطعت.

اميان : وأنا سأبحث عن الدوق؛ ان مأدبته جاهزة. (يتفرقون).

المشهد السادس

(على حدود الغابة)

(اورلاندو وآدم يدخلان)

آدم : سيدي، لا أستطيع الذهاب أبعد من ذلك... اني أموت جوعاً! سأستلقي هنا كمن ينام في حفرته الأخيرة ــ وداعاً يا سيدي!

(ينهارُ على الارض).

اورلاندو : ما بالك! هل فقدت كل شجاعتك! عليك أن تحيا ولو قليلاً لتساعدني! اذا كان في هذه الغابة من حيوان غير أليف، فإما أن آتيك به لتأكله، وإما انه سيفترسني. ان الموت يعشعش في مخيلتك أكثر منه في قواك. تشجع، وأبعد عنك شبح الموت، بحق محبتك لي. سأعود اليك فوراً، وإذا لم آتيك بما تأكله فإني سأسمح لك بأن تموت؛ ولكنك إذا متَّ قبل عودتي فمعناه انك تسخر من شقائي... الحمد لله انك تستعيد نشاطك ! سأعود اليك فوراً... ولكنك هنا مستلق في الهواء الصَّقِع. تعالَ سأحملك الى أحد الملاجىء، ولن أدعك تموت من قلة الطعام حتى ولو لم يكن في هذه الصحراء سوى كائنٌ حيٍّ واحد... تشجع!

(يخرج حاملاً معه آدم)

المشهد السابع

(في الغابة ــ مائدة تحت الأشجار)

(يدخل كلّ من الدوق المسن، اميان وبعض الأسياد)

الدوق المسن : إني أعتقد بأنه تحول إلى حيوان، فإني لن أجده في أي مكان بشكل إنسان.

السيد الأول : لقد كان هنا الآن مسروراً لسماعه أحد الأغاني.

الدوق المسن : إذا أصبح موسيقاراً، وهو على ما هو عليه من التناقضات فإن خلافاً سيقع بين الأفلاك. اذهب وابحث عنه؛ قل له اني أريد أن أتكلم اليه.

(يدخل جاك)

السيد الأول : انه قادمٌ، لقد وفَّر عليَّ عناء البحث عنه.

الدوق المسن : أهكذا تكون الحياة بين الأصدقاء! هل هو مفروض على أصحابك أن يستجدوا صحبتك؟ ولكن ماذا؟ انك تبدو لي فرحاً.

جاك : مجنون! مجنون! لقد التقيت بمجنون في الغابة، مجنون يرتدي بدلة مزركشة... مسكين هذا العالم! لقد صادفتُ مجنوناً مستلقياً على الأرض، يطلب الدفء في الشمس، ويسخر من القدر بتعابير منتقاة، ومع ذلك فإنه مجنون يرتدي بدلة خادم بادرته قائلاً: صباح الخير أيها المجنون، فأجابني: لا تسمني مجنوناً طالما ان السماء لم تجعلني محظوظاً. ثم تناول من جيبه ساعة وحدَّق فيها بعينٍ كامدة قائلاً بتعقل: انها الساعة العاشرة!... وأكمَل قائلا: هكذا يمكننا أن نرى كيف يكافح العالم؛ منذ ساعة كانت الساعة تشير الى التاسعة؛ وبعد ساعة ستشير إلى الحادية عشر؛ وهكذا من ساعة إلى أخرى،

ننضج نحن ويعترينا الفساد وينتهي التاريخ. عندما سمعت هذا المجنون يتأمل الزمان وهو يرتدي بدلة خادم، رُحتُ أغنِّي كالديك؛ ورحت أضحك سحابة ساعة بدون انقطاع... كم أنتَ نبيل أيها المجنون! وحدها بدلة الخادم هي الهندام الأنيق.

الدوق المسن : من هو إذن هذا المجنون؟

جاك : لقد كان في القصر. يقول طالما ان النساء ما زلن شابات وجميلات فإنهنَّ يتعرفن اليه؛ في دماغه الجاف بعض الملاحظات يبديها مقاطعاً بالضحك — آه لو كنت مجنوناً وكان لي بدلة خادم مزركشة!

الدوق المسن : ستكون لك بدلة خادم مزركشة.

جاك : انها الوحيدة التي تليق بي ولكن عليك أولاً أن تستأصل من حكمك الصائب هذا الرأي المتأصِّل فيه والقائل بأني إنسان عاقل — أريد أن تكون لي صراحة تامة، وأن أكون طليقاً كالهواء، فإن المجانين يتمتعون بهذه الميزة — والذين سيسخرون مني أكثر، هم أولئك الذين سينال منهم جنوني أكثر من سواهم ولماذا كل هذا يا سيدي؟ لأن اشراقة الذهن الجريئة التي يتمتع بها مجنون ما تعرِّي الجنون الهاجع في الرجل العاقل. ألبسني ثوبي المزركش، واسمح لي بأن أعبِّر عن أفكاري، فإني أتعهد بأن أطهِّر هذا العالم الغارق في الفساد، شريطة أن تدعوا علاجي هذا يفعل فعله بأناة.

الدوق المسن : اني أعلم ماذا ستفعل.

جاك : ماذا سأفعل في النهاية سوى الخير؟

الدوق المسن : انك سترتكب أشنع خطيئة عندما ستوبِّخ أحدهم على خطيئته. لأنك أنت سبق لك وكنت شهوانياً فاسقاً، وكل الشرور المتأصلة فيك التي جمعتها أيام فجورك ستنقلها إلى العالم أجمع.

جاك : سأتكلم بشكل عام — لن أوجّه كلامي إلى شخص بحد ذاته. فإذا صدف وامتعض أحد السامعين فهذا يعني بأن الرذيلة التي أدعوا الناس الى التخلص منها هي متأصلة فيه. أما إذا كان المستمع إليَّ بغير لوم فإن حديثي لن يطاله بسوء.

(يدخل اورلاندو ممتشقاً حسامه)

اورلاندو : توقفوا عن الطعام!
جاك : لم آكل بعد.
اورلاندو : ولن تأكل قبل أن أقضي حاجتي.
جاك : أي نوع من الرجال أنت؟
الدوق المسن : هل ان مصابك هو الذي يجعلك تتطاول إلى هذا الحد؟ أو هل أن احتقارك الفظ للآداب الحميدة هو الذي يجعلك فاقداً كل تهذيب؟
اورلاندو : لقد أصبت فيما يتعلق بالشق الأول من كلامك ــ لقد عضّني الجوع وأفقدني كل مظاهر التهذيب؛ ومع ذلك فإني أنتمي إلى بلد متحضّر وأعرف كيف أحسن العيش ــ توقفوا، قلت لكم! سيموت كل من ستلمس يداه هذه الفاكهة، قبل أن أقضي حاجتي!
جاك : فليقضَ عليَّ إذا كانت كل الحجج غير كافية لإقناعك!
الدوق المسن : ماذا تريد؟ لقد كان الأجدر بك أن تستميلنا بلطفك وليس بقوتك.
اورلاندو : اني أموت جوعاً، أعطني فآكل.
الدوق المسن : إجلس وكل، أهلاً بك الى مائدتنا.
اورلاندو : انك تتكلم بلطف! عذراً أرجوك! كنت أعتقد بأن كل شيء هنا هو متوحش، لذلك تكلمت اليكم بصيغة الأمر. ولكن لا يهمني من أنتم؛ ما يهمني هو أن أعرف اذا كنتم، وأنتم الآن تضيعون وقتكم سدى مستظلين هذه الأغصان الحزينة في هذه الصحراء البعيدة، اذا كنتم قد عرفتم في يوم من الأيام حياة أفضل من هذه، وإذا كنتم قد عشتم هناك حيث تنادي الأجراس المتعبدين الى الكنيسة، وإذا كنتم قد جلستم الى مائدة أحد الرجال الشجعان، وإذا كنتم كفكفتم دموعكم مدركين بذلك ما هي الشفقة؟ في مثل هذه الحالة فليتحول العنف الذي فيَّ الى لطف! وعلى هذا الرجاء فإني أغمد سيفي وأخجل من نفسي.

(يغمد سيفه)

الدوق المسن : لقد كانت لنا حياة أفضل، وسبق لنا وسمعنا الجرس المقدس ينادينا إلى الكنيسة، كما سبق لنا وجلسنا الى مائدة رجال شجعان وكفكفنا

دموعنا التي سببتها الشفقة المقدسة؛ وهكذا فما عليك إلا أن تجلس إلى مائدتنا بكل لطف وتتناول بكامل حريتك ما يسد حاجتك من الموارد المتوافرة بين أيدينا.

اورلاندو : حسناً، تأخروا قليلاً لتناول طعامكم، ريثما أسرع في احضار مرافقي ليأكل معنا ــ انه شيخٌ مسكين حمله وفاؤه لي على أن يتبعني بخطى متثاقلة، فإلى أن يستعيد قواه المنهارة بسبب تقدمه في العمر وبسبب ما يعانيه من الجوع، لن تلمس يداي شيئاً.

الدوق المسن : هيا، أحضره، فإننا لن نتناول شيئاً قبل عودتك.

اورلاندو : اني أشكرك على ما تكرمت به عليَّ من مساعدة. (يخرج).

الدوق المسن : مخاطباً جاك ــ أنت تدري الآن بأننا لسنا وحدنا تعساء، ان مسرح الكون الواسع يحفل بمشاهد أشد ايلاماً من المشهد الذي نظهر نحن من خلاله.

جاك : ان العالم مسرح والناس فيه ممثلون ــ كل واحد فيه، يدخل اليه ويخرج منه، ويلعب فيه الأدوار المختلفة لدراما مقسمة الى سبعة أعمار ــ الدور الأول يقوم به الطفل الوليد وهو يصرخ ويبصق لعابه بين ذراعي مرضعته ــ يليه الدور الثاني عندما يغدو التلميذ إلى المدرسة رغماً عنه، والبكاء يعلو وجهه المنوَّر، حاملاً محفظته ــ يليه أيضاً العاشق المتيم والمحترق بأتون الحب الذي يضمره لعشيقته ــ ومن ثم يأتي دور الجندي المتحرق الى القتال واقتناص الشرف والشهرة التي سرعان ما تتبخر بعد أن تكون قد رمت به في فوهة المدفع ــ ويلي هذا الدور دور القاضي صاحب النظرات القاسية، واللحية المشذبة، والبطن المستدير، والأحكام المبتذلة ــ بعد كل هذه الأدوار يأتي دور الرجل المسن، النحيل الجسم، تعلو أنفه نظارتان، وقد غار صوته الأجش ــ أما المشهد النهائي الذي ينهي هذه الدراما التاريخية، الغريبة والمليء بالأحداث فإنه عبارة عن طفولة ثانية، انها حالة من النسيان التام، يصبح فيها الإنسان فاقد الأسنان والعينين، والذوق، انه فاقد لكل شيء.

(يعدو اورلاندو حاملاً آدم)

الدوق السمن : أهلاً بك! انزل عنك مرافقك ودعه يأكل.

اورلاندو : اني أشكرك من صميم قلبي من أجله.
آدم : حسناً فعلت... لأني لا أستطيع الكلام حتى أشكره من أجلي.
الدوق المسن : أهلاً بك الى مائدتنا!.. لا أريد أن أزعجك باستفساري عن مغامراتك.. استمع إلى الموسيقى! وأنت يا ابن عمي غني.
اميان: (مغنياً):

انفخ انفخ يا هواء الشتاء
فإنك لست بأسوإ من
نكران الجميل عند الإنسان
ان نابك ليس بقاطعٍ
لأنك غير منظورٍ
ونَفسَكَ أيضاً ليس بقاسٍ
لنغنِّي تحت هذه الشجرة الخضراء

في أغلب الأحيان تكون الصداقة كاذبة والحب مجرد جنون لذلك فإن حياتنا هذه هي الأكثر حبوراً.

صقّعي، صقّعي أيتها السماء القاسية
فإن لسعتك ليست بأقسى
من معروف منسي
فمهما جَلَدت المياه بقسوة
فإن سوطك لا يجرح أكثر
مما يجرح نسيان صديق لأصدقائه.
لنغني تحت هذه الشجرة الخضراء

في أغلب الأحيان، تكون الصداقة كاذبة والحب مجرد جنون لذلك فإن حياتنا هذه هي الأكثر حبوراً.

(فيما كان اميان يغني، كان الدوق المسن يتحدث بصوت منخفض مع اوزلاندو)

الدوق المسن : إذا كنت في الحقيقة ابن السيد رولان الشجاع، كما قلته لي وكما تثبته لي نظرتي اليك التي ترى في محيَّاك صورة صادقة وحيَّة لوجه أبيك، فإنه لا يسعني إلا أن أرحِّب بك أشد الترحيب.. أما بالنسبة للبقية الباقية

من مغامراتك فستقصها عليَّ في كهفي ـــ مخاطباً آدم ـــ اني أرحب بك أيضاً أشد الترحيب أيها العجوز الطيِّب ـــ مخاطباً أحد أفراد حاشيته ـــ امسك بذراعه ـــ مخاطباً اورلاندو ـــ هات يدك وأطلعني على جميع مغامراتك.

الفصل الثالث

المشهد الأول

(في قصر الدوق)

(يدخل كل من الدوق فريديريك. اوليفير وبعض الأسياد والخدم)

الدوق فريديريك (مخاطباً اوليفير): لم تَرَه منذ ذلك الحين؟ هذا ليس بمعقول. لو لم أكن رحوماً لكنت أنتَ موضوع انتقامي، ولكن انتبه، عليك أن تجد أخاك حيثما يكون؛ فتش عنه على ضوء المشاعل عُد به حياً أو ميتاً، وذلك قبل سنة؛ وإلاّ فلن تكون لك حياة فوق أرضنا. سأستولي على أرضك وجميع ممتلكاتك إلى أن تبرِّىء نفسك بفم أخيك من جميع الشكوك الموجهة ضدك.

اوليفير : آه! لو كنت تعرف أعماق قلبي؟ لم أحب أخي طوال حياتي.

الدوق فريديريك : هذا لا يزيدك إلا خساسة... هيا، أخرجوه من هنا، ولتجمد أملاكه ومنزله! اطردوه من هنا وافعلوا ما أُمرتم به بسرعة.

(يخرجون)

المشهد الثاني

(في الغابة)

(يدخل اورلاندو ويعلق ورقة على الشجرة)

اورلاندو: منشداً ــ

تسمَّري هناك، أشعاري، شهادة لي على حبي
وأنتَ يا مليك الليل المتوج ارسل من علياء فلكك
الشاحب، نظراتك الطاهرة
إلى التي ملكت عليَّ حياتي
روزالند! سأجعل من هذه الأشجار دفاتري
وسأحفر في قشورها أفكاري
لترى جميع العيون المبصرة في هذه الغابة
فضيلتك المشهود لها في كل مكان.
أسرع، أسرع، اورلاندو، دوِّن فوق كل شجرة
ذكرى تلك الجميلة، الطاهرة، والفائقة الوصف! (يخرج)

(يدخل كوران وبيار دي توش).

كوران : وكيف تجد حياة الرعاة هذه؟

بيار دي توش : اني أقدرها حق قدرها لأنها حياة منعزلة في الريف، ولكنها مملة لبعدها عن القصور. انها تلائم طبعي لكونها حياة بساطة وتقشف، ولكن ذوقي يمجُّها لكونها خالية من الرخاء ــ وأنت أيها الراعي هل لك من فَلسفة خاصة بك؟

كوران : ان فحوى فلسفتي هو ان المريض لا يشعر بالسعادة، وإن فاقد المال والمورد والقناعة هو فاقدٌ لثلاثة أصدقاء؛ وإن من خواص النار أن تحرق والمطر أن يبلّل والمرعى الخصب أن يربِّي قطيعاً مسمَّناً، وإن علة الليل غياب الشمس، وإن الذي حرمته الطبيعة أو العلم من الذكاء عليه أن يندبَ سوء تربيته أو كونه ولد من أبوين بليدين.

بيار دي توش : هذه فلسفة طبيعية... هل سبق لك وعشت في القصر أيها الراعي؟

كوران : كلا.

بيار دي توش : اذن أنت هالك.

كوران : آمل أن لا يكون نصيبي الهلاك.

بيار دي توش : بل أنت هالك ومحكوم عليك بالهلاك بكل تأكيد.

كوران : كل هذا لأني لم أعش في القصر! كيف هذا!

بيار دي توش : حسناً إذا كنت لم تعش في القصر فهذا يعني انك تجهل السلوك الحسن وإن سلوكك هو حتماً سيء، ولك ما هو سيء هو خطيئة وكل ما هو خطيئة حصيلته الهلاك. انك في وضع خطر أيها الراعي.

كوران : ليس الأمر كذلك البتة. لأن ما تعتبرونه سلوكاً حسناً في القصر هو موضوع سخرية في الريف كما أن ما يحسب سلوكاً حسناً في الريف هو موضوع سخرية في القصر ــ لقد قلت لي بأنكم تحبون بعضكم البعض في القصر عن طريق تقبيل الأيادي: إن هذا يعتبر أمراً مستهجناً لدينا نحن الرعاة.

بيار دي توش : هات برهانك على ذلك، أسرع!

كوران : حسناً، نحن نلمس باستمرار خرافنا وأنت تعلم بأن ضعفها مدهن.

بيار دي توش : حسناً، وهل أن أيدي أفراد الحاشية لا تنضح بالعرق؟ أليس هذا العرق هو سليم مثل الدهن السائل من صوف الشاة ! إن الحجة التي تقدمت بها هي إذن فارغة. هيا هات حجة أفضل منها...

كوران : بالاضافة إلى ما ذكرت فإن أيدينا هي خشنة.

بيار دي توش : هذه الخشونة تجعل شفاهكم تشعر أفضل عندما تلامسها. هذه حجة فارغة أيضاً! هات حجة أقوى منها!

كوران : ومن ثم فإن أيدينا غالباً ما تكون مغطاة بالقطران، عندما نعتني بقطيعنا... أتريد منا إذن أن نقبل القطران، في حين أن أيديكم أنتم أبناء القصور تفوحُ منها رائحة المسك؟

بيار دي توش : إنك إنسان محدود، استمع إلى من أوتيَ الحكمة وفكّر. أن استخراج المسك هو أقل كلفة من استخراج القطران. هيا اعطني حجة أفضل أيها الراعي!

كوران : إنك بالنسبة إليَّ صاحب عقل راجح، لذلك سأكتفي بما أدليت به من حجج.

بيار دي توش : أتريد أن تبقى هالكاً؟ ليكن الله في عونك أيها الإنسان المحدود. ليفتح الله عقلك! كم أنت ساذج.

كوران : سيدي، إني لست سوى عامل يومي متواضع، أكسب ما يسد حاجتي من الطعام واللباس، إني لا أضمر الحقد لأحد؛ لا أحسد أحداً على سعادته بل أفرح لفرحه وأصبر على كل شدة تحل بي، وأشد ما أكون فخوراً عندما أرى نعاجي ترعى وحملاني ترضع منها.

بيار دي توش : هذه أيضاً بساطة تلام عليها. أنت تجمع النعاج والكباش، وتقوم بدور الوسيط لتحقيق المجامعة بينهم، كل ذلك على حساب تقدمك العقلي. فإذا كان كل هذا غير كافٍ لجعلك هالكاً، فلأن الشيطان لا يريد رعيانا في عداد الهالكين معه، وإلا فإني لا أدري كيف يمكنك أن تنجو من الهلاك.

كوران : إن السيد غانيماد (قادم، هو الأخ الأصغر لعشيقتي الجديدة).

(تدخل روزالند وهي تقرأ مطبوعة)

روزالند :

من الشرق حتى الهند الغربية.
لا توجد جوهرة تضارعك، روزالند!
إن مجدك الذي يمتطي الهواء
يحملك عُبرَ الكون يا روزالند.
إن الوجوه الأكثر إشراقاً

تبدو مظلمة حيالك يا روزالند.
ليكن منسياً كل جمالٍ
خارج عن جمالكَ يا روزالند!

بيار دي توش : إن باستطاعتي أن أنظم لكِ شعراً كهذا مدة ثماني سنوات متواصلة باستثناء ساعات الطعام والنوم. إني أفعل ذلك بنشاط يضاهي نشاط بائعة السمن وهي ذاهبة إلى السوق.

روزالند : اهدأ أيها المجنون.

بيار دي توش :

إذا طلب أيلٌ غزالة.
فليذهب في طلب روزالند
وإذا نشدت هرَة بعلها.
فهكذا تفعل روزالند.
إن لباس الشتاء يجب أن يكون مزدوجاً.
وهكذا يجب أن تكون روزالند النحيلة.
في الحصاد يجب أن نضم باقات القمح.
ونربطها وننقلها مع روزالند.
إن الجوزة الأكثر عذوبة هي التي تغلفها قشرة صلبة.
هذه الجوزة هي روزالند.
من ابتغى الحصول على أحلى وردة.
فإنه وجد شوكة الحب وروزالند معاً.

لماذا تجعلين نفسك تنضحين بالرائحة الكريهة المتفشية من هذه الأبيات وذلك بتردادك لها.

روزالند : اخرس أيها الأحمق! لقد وجدتها معلقة على الشجرة.

بيار دي توش : في الواقع، ان تلك الشجرة تعطي ثماراً رديئة.

روزالند : سأطعمك بهذه الشجرة ومن ثم سأطعمك بشجرة زعرور، وعندئذ ستصبح الشجرة الأكثر كمالاً في هذه الناحية، وستعطي ثماراً فاسدة قبل نضوجها، هذا ما تفعله شجرة الزعرور.

بيار دي توش : لقد تكلمتِ، بقي على هذه الغابة أن تقرر ما إذا كان كلا منا مصيباً أم لا.

(تدخل سيليا وهي تقرأ مطبوعة)

روزالند : اخرس إن شقيقتي قادمة وهي تقرأ، لننظم أنفسنا.

سيليا: (منشدة):

لماذا هذه الغابة مقفرة.
هل لأنها غير مأهولة؟ كلا.
سألصق بكل شجرة ألسنةً.
لتعلن حقائق عظيمة.
ستقول كيف أن حياة الإنسان
تعبر مسرعة، غير مستقرة في هذا العالم.
وكيف أن سنيّ حياته هي في قبضة يد مشدودة
وكم من مرةٍ حنث صديقان في يمين
كانا قد أقسماها.
وسأكتب فوق أجمل الغصون.
وفي نهاية كل جملة... اسم روزالند.
لكي يعلم كل من يقرأ تلك السطور
أن السماء أودعتها خلاصة الجمال.
وهكذا فإن السماء ستكلف الطبيعة.
بأن تودع في جسد واحدٍ
جميع المفاتن المتناثرة في العالم.
وعندها فإن الطبيعة ستمحص جمال « إيلات » بدون قلبها،
وعظمة « كليوباترا » وجمال « أتلانت » الفائق،
وعفة « لوكريس » العارمة.
وهكذا يكون المجمع السماوي قد كوُن
روزالند من صفات متعددة؛
حتى أن العديد من الوجوه والنظرات والقلوب

تتنازل لها عن أثمن ما تملك من مفاتن.
لقد قرَّ رأي السماء بأن تكون لها جميع هذه المواهب، وبأن أحيا
أنا وأموت عبداً لها.

روزالند : أيها الرحيم جوبتر! أية أنشودة حبٍ هذه هي التي جئت تضني بها عبادك، دون أن تصرخ بهم أن تمالكوا أنفسكم أيها القوم الطيبون!

سيليا : ماذا! هل كنتما هناك تحرساننا؟ (مشيرة إلى كوران) أيها الراعي ابتعد قليلاً (مشيرة إلى بيار دي توش) وأنت اذهب معه...

بيار دي توش(مخاطباً كوران): لنذهب أيها الراعي ونقيم في خلوة مشرّفة، ولنأخذ معنا بدل الأمتعة والسلاح، قبعة وسيفاً.

(بيار دي توتش وكوران يخرجان).

سيليا : هل سمعت هذه الأبيات!

روزالند : لقد سمعتها أكثر مما ينبغي.

سيليا : ألم تأخذك الدهشة عندما رأيت اسمك معظماً ومحفوراً فوق هذه الأشجار.

روزالند : لقد أذهلني ذلك جداً، فإنه لم يسبق لي ان كنت موضع تغزّل هكذا!.

سيليا : هل علمتِ من قام بذلك؟

روزالند : هل هو رجلٌ!.

سيليا : انه يحمل في عنقه عقداً كنت أنتِ فيما مضى تحملينه. ما بك تغير لونك؟

روزالند : من هو أرجوك!

سيليا : يا إلهي! إن لقاء الأحبة لأمر عسير؛ ولكن قد يحدث أن جبالاً تنتقل من مكانها بفعل الزلازل وهكذا تلتقي.

روزالند : ولكن من هو؟

سيليا : هل هذا معقول؟

روزالند : إني استحلفك بكل قواي أن تقولي لي من هو.

سيليا : انه لأمر خارق وخارق جداً!

روزالند : بحق أنوثتي قولي لي من هو؟ أتعتقدين بأني إذا كنت متشحة بثوب رجل، أنه أصبح لي طبع رجل؟ لقد نفذ صبري. أرجوكِ أسرعي وتكلمي، ليتك كنت متأنئة في كلامك، عل هذا السر يفارق شفتيك!

سيليا : أتستطيعين اذن أن تحضني رجلاً في بطنك!

روزالند : ومن يكون هذا الرجل؟ هل هو صاحب لحية؟

سيليا : إن لحيته قصيرة.

روزالند : ليعطه الله لحية طويلة إذا كان عارفاً للجميل. إني انتظر أن تنبت له لحية إذا كنت لا تتأخرين في وصف ذقنه لي.

سيليا : انه أورلاندو الشاب الذي هزمَ في الوقت نفسه المناضل شارل وقلبك معه.

روزالند : هيا! دعيني من هذا المزاح وتكلمي برصانة كعذراء حكيمة.

سيليا : في الحقيقة انه هو.

روزالند : أورلاندو!

سيليا : أورلاندو.

روزالند : ماذا أصنع الآن بلباسي هذا؟. ماذا كان يعمل عندما شاهدته؟ ماذا قال؟ كيف كان يبدو محياه؟ ماذا كان يرتدي؟ ماذا جاء يفعل هنا؟ هل استخبر عني؟ أين بقي؟ كيف افترق عنك؟ ومتى ستلتقين به من جديد؟ أجيبيني بكلمة واحدة.

سيليا : عليك أولاً أن توفري لي فماً يتسع لمثل هذه الكلمة الضخمة. كان من السهل علي أن أجيب على أسئلة التعليم المسيحي من أن أجيب على أسئلتك هذه.

روزالند : وهل يعلم بأني موجودة في هذه الغابة وبلباس رجل ؟ هل أنه ما زال بهي الطلعة كما كان يوم المبارزة ؟

سيليا : انه من الأسهل علينا أن نحصي الذرات من أن نبت في مقترحات العشيقة. ولكن تذوقي تفاصيل هذا الاكتشاف وأنتِ في وحدة تامة... لقد وجدته تحت شجرة... وقد انهارت قواه كبلوطة ساقطة !

روزالند : يمكن أن نطلق على هذه الشجرة اسم شجرة جوبيتير لأنه يتساقط منها ثمر كهذا !

سيليا : استمعي إليَّ يا سيدتي.

روزالند : أكملي.

سيليا : لقد كان هناك ملقى على الأرض مثل فارس جريح.

روزالند : مهما كان هذا المشهد مثيراً للشفقة، فمما لا شك فيه أنه أحدث تأثيراً كبيراً في المنظر الطبيعي الذي كان أورلاندو مقيما فيه.

سيليا : أخرسي أرجوك ! لقد كان يرتدي ثياب الصيد.

روزالند : يا له من شؤم ! انه قادم ليحزنني.

سيليا : كنت أود أن أنشد أغنيتي بدون لازمة؛ إنك تجعلينني أخرج دوماً على اللحن.

روزالند : ألا تعلمين أنني امرأة عندما أفكر يجب علي أن أتكلم. اكملي يا عزيزتي.

(يدخل أورلاندو وجاك)

سيليا : إنك تجعلينني أضل ! أليس هو الذي يتقدم إلى هنا.

روزالند : إنه هو.. لنكمن له هنا ونراقبه (سيليا وروزالند يبتعدان).

جاك : إني أشكرك على صحبتك لي؛ ولكن كان بودي أن أبقى وحيداً.

اورلاندو : وأنا أيضاً؛ ومع ذلك فإني أشكرك على صحبتك لي.

جاك : ليرافقك الله ! لنقلل من لقاءاتنا ما أمكن.

اورلاندو : إني أتمنى أن نصبح تدريجياً غريبين الواحد عن الآخر.

جاك : أرجوك لا تشوه بعد الآن الأشجار بما تكتبه على قشورها من أناشيد الحب.

اورلاندو : أرجوك لا تشوه أبياتي بقراءتك لها وأنت على ما أنت عليه من مزاج سيء.

جاك : روزالند هو اسم عشيقتك ؟

اورلاندو : بالضبط.

جاك : لا أحب اسمها.

اورلاندو : لم يفكر أحدٌ باسعادك يوم عمادها وتسميتها بهذا الاسم.

جاك : كم تبلغ قامتها ؟

اورلاندو : انها بعلو قلبي.

جاك : انك تذخر بالأجوبة الرائعة. ألم تكن لك علاقة مع نساء أحد الصائغين ؟ ألم تقم على اختلاس ما كن يحملنه من خواتم.

اورلاندو : كلا. إني أجيبك بأسلوب يليق بالأسئلة التي طرحتها.

جاك : إنك صاحب روح يقظة. أتريد أن تبقى بقربي فننتقد بعنف ونعترض على الخليقة وجميع مآسينا ؟

اورلاندو : إني لا ألوم في هذا العالم سوى شخص واحد هو أنا، لأني مليء بالعيوب.

جاك : إن عيبك الأكبر هو أنك عاشق.

اورلاندو : هذا عيب لن أستبدله بأعظم ما تتمتع به من خصال. لقد سئمت منك.

جاك : أقسم لك بأني كنت أبحث عن مجنون عندما وجدتك.

اورلاندو : لقد غرق في الجدول، حدِّق فيه فسترى وجهه.

جاك : إني سأرى فيه وجهي.

اورلاندو : انه وجهك الذي أعتبره وجه مجنون أو وجه شخص معدوم.

جاك : لن أقيم معك أكثر من ذلك، إلى اللقاء أيها العاشق المتيم !

اورلاندو : إني مسرور لذهابك، إلى اللقاء أيها البائس التعس.

(يخرج جاك) (روزالند وسيليا تتقدمان)

روزالند : سأكلمه بزي خادم وقح، أيها الصياد أتسمعني ؟

اورلاندو : حسناً، ماذا تريد.

روزالند : كم هي الساعة الآن، أرجوك.

اورلاندو : ليس هناك من ساعة في الغابة.

روزالند : لأنه ليس في الغابة من محب حقيقي، فإن تأوه المحبين كافٍ لتحديد مرور الزمن البطيء، تماماً كما تفعل الساعة.

اورلاندو : بل قل المرور المتسارع للوقت.

روزالند : إن للزمان مظاهر عدة تبعاً لتعدد الأشخاص. سأقول لك مع من يتثاقل الزمن في خطاه، ومع من يسرع، ومن ثم مع من يقف في مساره.

اورلاندو : قل لي مع من يتثاقل الزمن في خطاه ؟

روزالند : انه يتثاقل في خطاه مع الفتاة خلال الفترة التي تفصل بين عقد الزواج والاحتفال به، فعندما تكون هذه الفترة سبعة أيام، فإنها تبدو للفتاة وكأنها سبعة أعوام.

اورلاندو : ومع من يتثاقل أيضاً في خطاه ؟

روزالند : مع كاهن لا يتقن اللغة اللاتينية، ومع غني غير مصاب بمرض النقرس. لأن الأول ينام بخمول لعدم قدرته على التحصيل العلمي، والثاني يحيا سعيداً لأنه لا يشعر بأي ألم. الأول يجهل العبء الثقيل الذي يسببه علمٌ جافٌ وهدام، والثاني يجهل العبء الثقيل الذي تسببه مصيبة مرهقة وقاتمة، هؤلاء هم الذين يتثاقل معهم الزمان في خطاه.

اورلاندو : ومع من يتسارع ؟

روزالند : مع اللص وقد أقتيد إلى المشنقة، فمهما تباطأ في خطاه فإنه يعتقد بأنه سيصل عاجلاً.

اورلاندو : ومع من يتوقف الزمان ؟

اورلاندو : مع رجال القانون خلال العطلة القضائية؛ انهم ينامون الليل كله دون أن يفطنوا لمرور الزمان.

اورلاندو : أين تقيم ؟

روزالند : إني أقيم مع هذه الراعية شقيقتي، على حدود الغابة.

اورلاندو : هل أنت من مواليد هذه البلاد ؟

روزالند : أنا مثل أرنب يقيم حيث يجد من يشاركه في حياته.

اورلاندو : إن في نبرتك من الصفاء ما يستحيل عليك أن تكون قد اكتسبته في هذا المكان المعزول.

روزالند : لقد قاله لي الكثيرون؛ ولكن في الحقيقة لقد تلقنت الكلام من عمي التقي الذي سبق له وكان من سكان المدينة أيام شبابه؛ وقد كان عاشقاً متيماً. وكثيراً ما سمعته يسهب في تقريع الحب وإني أشكر الله على أنه لم يخلقني

امرأة فأكون عرضة لكل تلك العيوب التي كان يأخذها على الجنس بشكل عام.

اورلاندو : هل تذكر بعض تلك العيوب الأساسية التي كان عمك يأخذها على النساء ؟

روزالند : لم تكن هناك من عيوب أساسية بالنسبة اليه، لأنها جميعها كانت في نظره هائلة وفظيعة.

اورلاندو : أرجوك، عدد لي بعضاً منها.

روزالند : كلا. لا أريد أن أستعمل طاقتي على الشفاء إلا لمعالجة المرضى؛ هناك شخص يتردد على الغابة ويسيء إلى أشجارها الفتية بحفره على قشورها اسم روزالند. إنه يعلق أناشيده على أشجار الزعرور ومراثيه على العوسج؛ وكلها تتنافس على تأليه اسم روزالند. لو كان لي أن ألتقي بهذا الواهم لأصف له دواء ناجعاً، لأنه مصاب بحمى الحب اليومية.

اورلاندو : إني هذا المرتعش من الحب، أرجوك صف لي دواءك.

روزالند : لا يظهر عليك أي عارض من العوارض التي عددها عمي.. لقد علمني كيف أتعرف إلى الرجل الواقع في شرك الحب؛ وإني متأكد بأنك لم تقع في شرك الحب هذا.

اورلاندو : ما هي هذه العوارض ؟

روزالند : خدٍ هزيل، وعين يعلوها الازرقاق ومجوفة، وكل هذا لا يبدو عليك؛ لحية مهملة وهو ما لا تملكه، ولكن أعذرك من هذه الناحية لأنك الابن الأصغر بين اخوتك. ومن ثم أن يكون جوربك بدون ربطة، وقبعتك مهملة، وكم قميصك وقد فكت أزراره، وحذاءك وقد حُلّت عقدته، وأن ينم كل شيء فيك عن كآبة غير مبالية بشيء. ولكنك لست البتة هكذا.. إنك تبدو بالأحرى مرهفاً في لباسك المضحك هذا، ومحباً لذاتك وليس لآخر.

اورلاندو : أيها الفتى، كان بودي لو أجعلك تصدق بأني أحب.

روزالند : أنا أصدق هذا ! عليك بالأحرى أن تجعل من تحبها تصدقه، إني أؤكد لك بأنها تصدقك ولكن دون أن تعلن لك ذلك ! هذه حالة من الأحوال التي تخدع فيها النساء ضمائرهن، ولكن لنتكلم بشكل جاد، هل أنت من علق

على هذه الأشجار كل هذه الأبيات التي تمتدح فيها روزالند ؟

اورلاندو : أقسم لك بحق يد روزالند البيضاء، أيها الفتى، بأني هو ذلك الشخص السيء الطالع الذي قام بذلك.

روزالند : ولكن هل أنت عاشق بمقدار ما تثبته أبياتك ؟

اورلاندو : إن الشعر والفكر غير قادرين على التعبير عن حبي.

روزالند : إن الحب هو مجرد اختلال عقلي : إني أعلن لك بأنه يستحق الجلد كالجنون؛ وإذا لم يعامل هكذا ويقمع بهذه الطريقة، فلأن الحب هو شعور طبيعي الى درجة أن الجلادين أنفسهم مصابون به ولكني ألتزم بشفائك من هذا المرض بوصفي لك الدواء الناجع.

اورلاندو : هل سبق لك وشفيت أحد العشاق بطريقتك هذه !

روزالند : لقد شفيت أحدهم، واليك كيف تم ذلك، كان عليه أن يتخيل بأني عشيقته وكنت أجبره على أن يغازلني كل يوم. وهكذا بصفتي فتاة لها أحلامها، كنت أتظاهر أمامه بأني حزينة، ومتطلبة ووقحة وخيالية ومتقلبة، أبتسم حينا وأبكي حيناً آخر. أحيانا كنت أحبه وأحيانا كنت أرذله؛ وكنت تارة أداعبه وتارة ألعنه، تارة أندبه وتارة أبصق عليه وهكذا انتقل من جنون الحب الى جنون مزمن؛ وانتهى به الأمر إلى مغادرة العالم والتزام الحياة الرهبانية. إن بإمكاني أن أشفيك بهذه الطريقة وأنقي قلبك من جميع أدران الحب.

اورلاندو : لن أشفى أيها الفتى.

روزالند : سأشفيك إذا قررت أن تدعوني روزالند وأن تأتي كل يوم إلى كوخي لتغازلني.

اورلاندو : بحق العاشقين إني موافق على ذلك. قل لي أين يقع كوخك.

روزالند : تعالى معي وسأريك إياه؛ وفي الطريق ستقول لي أين تقيم أنت في هذه الغابة. أتريد أن تأتي معي !

اورلاندو : من كل قلبي أيها الفتى ألبي دعوتك.

روزالند : ولكن عليك أن تناديني باسم روزالند (مخاطبة سيليا) هيا يا شقيقتي لنذهب.

(يخرج الجميع)

المشهد الثالث

(في ذات المكان)

(يدخل بيار دي توش وأودري ثم جاك الذي يراقبه عن بعد)

بيار دي توش : هيا بسرعة أيتها العزيزة أودري ـــ سأحضر لكِ ما تملكين من ماعز ـــ هل ان ملامح وجهي تلائمكِ ؟
اودري : عن أية ملامح تتحدث ؟
بيار دي توش : اني أصطحبك وماعزتك وسط هذه المناظر، كما كان يفعل الشاعر أوفيلا وسط مناظر مماثلة.
جاك (على حِدة) : يا للعلم الموضوع في غير موضعه.
بيار دي توش : عندما يلاحظ المرء بأن أبياته باتت غير مفهومة أو ان روحه لا يسعفها العقل، فإن هذا كله يسدِّد له ضربة قاضية. كنت أتمنى لو ان الالهة جعلت منك شاعراً.
اودري : لا أعلم ماذا يعني أن يكون المرء شاعراً. هل يعني ذلك أن يكون شريفاً في القول والفعل ؟ هل الشعر هو الحقيقة ؟
بيار دي توش : ليس الأمر كذلك. لأن الشعر الحقيقي هو مجرد تخيّل، والعشاق هم الذين يستسلمون إلى الشعر.
اودري : وتتمنى أيضاً لو ان الآلهة جعلت مني شاعرة.
بيار دي توش : نعم، لأنكِ أقسمت لي بأنك فاضلة؛ لذلك فلو كنتِ شاعرة لاستطعت أنا أن أعتبر ذلكَ تخيُّلاً.
اودري : انك تتمنى اذن بأن لا أكون فاضلة ؟

بيار دي توش : كنت أتمنى ذلك لو لم تكوني قبيحة ــ لأن الفضيلة مقرونة بالجمال تشبه العسل المعد لأن يكون صلصة للسكر.

جاك (على حدة) : يا للمجنون.

اودري : حسناً، لست جميلة، وبالتالي فإني أضرع إلى الآلهة بأن تجعلني فاضلة.

بيار دي توش : ولكن أن تعطى الفضيلة لمخلوق قبيح لهو أمرٌ شبيه بوضع طعام فاخر في صحن وسخ.

اودري : لست غير نقية، رغم اني بشعة؛ اني أشكر الله على ذلك.

بيار دي توش : حسناً ! شكراً للآلهة على قباحتك، أما عدم النقاوة فإن لديه دائماً الوقت الكافي ليحدث... ومهما يكن الأمر، فإني عازم على الزواج منك، وقد قابلت لهذه الغاية السيد اوليفير شماس ــ تكست، وكيل القرية المجاورة، الذي وعدني بأن يلحق بي الى هذا المكان في الغابة ليزوجنا.

جاك (على حدة) : سأكون سعيداً لمشاهدة هذا القران.

اودري : هيا، لتجعلنا الآلهة سعداء.

بيار دي توش : آمين... ان انساناً بليداً لا يسعه إلا أن يتردد أمام مشروع كهذا؛ لأننا هنا لا نملك من هيكل سوى الغابة، ومن شهود سوى الحيوانات ذات القرون ــ ولكن تشجعي. فإذا كانت القرون مزعجة فإنها ضرورية. يقال بأن العديد من الناس يملكون قروناً قوية، ولكنهم يجهلون الغاية المعدة لها. هل ان الرجل المتوحد هو سعيد ؟ لا أظن ذلك؛ لأن المدينة تبدو مهيبة أكثر من القرية، وكذلك الرجل المتزوج بالنسبة إلى العازب.

(يدخل السيد اوليفير شماس تكست)

هوذا السيد اوليفير ــ شماس تكست، أهلاً بك، هل نلحق بك إلى كنيستك ؟

السيد اوليفير : ألا يوجد أحدٌ هنا ليقدم المرأة ؟

بيار دي توش : لا أريد تسلمها من أحد.

السيد اوليفير : يجب أن يقدمها أحد الناس وإلّا اعتبر الزواج باطلاً.

جاك (يتقدم) : باشر، باشر، سأتولى أنا تقديمها.

بيار دي توش : أسعدت مساءً أيها السيد، مَن تريد ؟ كيف حالك ؟ أهلاً بك. ليباركك الله على هذه الزيارة الأخيرة... مشيراً الى القبعة التي يحملها جاك بيده، ما هذه التحفة التي في يدك يا سيدي ؟ هيا أرجوك، ضعها على رأسك.

جاك : أتريد أن تتزوج أيها المجنون ؟

بيار دي توش : ان للإنسان رغباته شأنه في ذلك شأن جميع المخلوقات، وكما ان الحمام ينقر بعضه البعض الآخر، كذلك الأزواج.

جاك : ماذا ! كيف يرضى انسان مثقف مثلك الزواج كالمتسول تحت هذه الشجيرات ؟ اذهب الى الكنيسة، واختر لك كاهناً ممتازاً يستطيع افهامك ما هو الزواج ـــ أما هذا الخبيث فإنه سيلحق بكما.

بيار دي توش (على حدة) : اني أفضل أن أتزوج على يد هذا الخبيث الذي لا يجيد اتمام مراسيم الزواج، لأن هذا سيفسح لي في المجال بأن أترك امرأتي فيما بعد.

جاك : تعالَ معي واتخذني مشيراً لك.

بيار دي توش : تعالي أودري... أمامنا إما الزواج أو العيش في حالة الزنى... وداعاً أيها السيد اوليفير. (مدندناً).

كلا... أيها الباسل اوليفير،
أيها الباسل اوليفير،
لا تدعني وراءك.
ولكن أمخر عباب البحر،
ارحل بسرعة، قلت لك.
لا أريدك بعد الآن من أجل زفافي.

(يخرج جاك، وبيار دي توش وأودري)

السيد اوليفير : سيّان عندي كل هذا... لن يستطيع أحد من هؤلاء الرجال الظرفاء أن ينال من مهنتي.

(يخرج)

المشهد الرابع

(كوخ على حدود الغابة)

(تدخل روزالند وسيليا)

روزالند : لا تلوميني بعد الآن، اني أريد البكاء.
سيليا : كما تريدين أرجوك. ولكن لا تنسي بأن الدموع لا تليق بالرجل.
روزالند : ولكن أليس لدي من سبب يحملني على البكاء ؟
سيليا : ان لديك سبباً كافياً، فاسترسلي في البكاء.
روزالند : ان شعره بالذات له لون الخيانة.
سيليا : انه أشد اسمراراً من شعر يهوذا؛ وفي الواقع فإن قبلاته هي قبلات يهوذا.
روزالند : في الواقع ان شعره يتمتع بلون رائع.
سيليا : رائعة، ان اللون الكستنائي هو دائماً لونك المحبب.
روزالند : وقبلاته تشبه في عذوبتها ملامسة الخبز المبارك.
سيليا : ان له شفاهاً من نوع ممتاز ــ لا تستطيع راهبة أن تقدم قبلات أطهر من قبلاته؛ إنها ملئى بكل صقيع العفة.
روزالند : ولكنه لماذا أقسم لي بأنه سيأتي هذا الصباح ولم يأتِ.
سيليا : بكل تأكيد، لقد فقد شرفه.
روزالند : أتعتقدين ذلك ؟
سيليا : اني أعتقد بأنه ليس سلّاب أموال أو سارق أحصنة، أما بالنسبة لأمانته في الحب، فإني على يقين بأنه نظير كأس فارغ أو جوزة أكلها الدود.
روزالند : ليس بصادق في حبه ؟

سيليا : انه صادق إذا أحب، ولكنني لا أعتقد بأنه يحب.
روزالند : لقد سمعته يقسم غالباً بأنه كان يحب.
سيليا : كونه كان يحب لا يعني بأنه يحب الان ـــ من جهة أخرى فإن يمين العاشق لا تفوق قيمتها كلام صاحب ملهى... انه هنا في الغابة خلف أبيك.
روزالند : لقد التقيت الدوق البارحة، وكان لي معه حديثاً مطولاً. لقد سألني إلى أية عائلة أنتمي؛ ولما قلت له بأني أتحدر من عائلة تضاهي عائلته، ضحك وتركني أذهب في سبيلي. ولكن لماذا الكلام عن الآباء، عندما يوجد شخص مثل اورلاندو.
سيليا : هوذا رجل ظريف. انه ينظم أبياتاً غزلية، ويتكلم بأسلوب غزلي، ويكثر من حلفان اليمين بطريقة غزلية، ولكنه سرعان ما يحطم يمينه على قلب عشيقته، تماماً كما يفعل فارس مبتدىء عندما يهمز حصانه من جهة ثم يحطم رمحه ـــ هذا لا يهم. فكل ما تمتطيه الشبيبة وكل ما يقوده الجنون يبقى دائماً ظريفاً... من القادم إلى هنا ؟

(يدخل كوران)

كوران : سيدتي، سيدي، لقد كنتما دوماً تتقصيان أخبار هذا الراعي الذي كان يشكو من الحب والذي رأيتماه جالساً بقربي على العشب، يمتدح عشيقته الراعية.
سيليا : وماذا بعد ؟
كوران : اذا شئتما رؤية مشهد طبيعي من مشاهد الحب، فتعاليا معي أقودكن الى حيث تشاهدان ذلك.
روزالند : هيا، لنذهب، ان رؤية العشاق تعضد المحبين... امضِ بنا الى هذا المشهد، وسترى بأني سأقوم بدور فاعل في المسرحية.

(يخرجون).

المشهد الخامس

(في الغابة)

(يدخل سيلفيوس وفيبي)

سيلفيوس : لا، لا ترذليني يا حبيبتي، أيتها الجميلة ــ قولي بأنك لا تحبينني، ولكن لا تقولي ذلك بخشونة ــ ان الجلاد وقد حجَّر قلبه مشهد الموت الدائم لا يجهز على ضحيته قبل أن يطلب السماح ــ أتريدين أن تكوني أشد قساوة من ذاك الذي يحيا من الدم المهدور طوال حياته.

(تدخل روزالند، سيليا، وكوران، ويقفون بعيداً)

فيبي: لا أريد أن أكون جلادك؛ اني أبتعد عنك لكي لا أعذبك. تقول لي ان قاتلك هو في عيني؛ كيف تجرؤ وتطلق على العيون لقب القاتل والجزار والمستبد وهي في الحقيقة من أضعف المخلوقات وأكثرها نعومة. ان قلبي بدأ يشمئز منك، إذا كانت لعيني القدرة على أن تجرح فلتقتلك. هيا تظاهر بالإغماء، هيا انطرح أرضاً، وإلا فليحملك حياؤك على الكف عن الكذب بقولك ان العيون قاتلة، هيا دعني أرى الجرح الذي سببته لك نظرتي... إذا كان لك أن تخدش جلدك بدبوس، أو أن تتوكأ على قصبة، فإن ذلك يترك أثراً ما، علامة ما على جلدك أو يدك، في حين أن النظرات التي أرسلتها اليك لم تجرحك البتة، لأني على يقين بأن العيون لا تملك القدرة على الإيذاء.

سيلفيوس : أيتها العزيزة فيبي، إذا أعجبتِ في يوم من الأيام بوجه وسيم الطلعة، فإنك ستعرفين الجراح غير المرئية التي تحدثها سهام الحب الحادة.

فيبي : فليكن، وإلى أن تأتي تلك اللحظة، لا تقترب مني، وعندما تحين تلك اللحظة فاسخر مني بدون شفقة تماماً كما فعلت أنا بالنسبة اليك لغاية الآن.

روزالند (تتقدم) : ولماذا عليَّ أن أتوسل اليك، من أي أصل تتحدرين حتى تلعني وترهقي المعذبين، حتى لو كنتِ جميلة، فإن هذا لن يكون.

سيليا : سبباً كافياً يحملك على أن تكوني متعالية وخالية من الشفقة. لماذا تنظرين إليَّ هكذا ؟ اني لا أرى فيك شيئاً خارقاً للطبيعة. لا تأملي بأن يحملني جفناك وهما بلون الحبر. وشعرك الحريري الأسود، وعيناك السوداويتان، وخداك وهما بلون القشدة، على الخضوع لكِ ! ــ مخاطبة سيلفيوس ــ وأنت أيها الراعي الأبله، لماذا تلاحقها كمن يرقص وراء السراب ؟ انك كرجل أفضل منها بكثير كامرأة ــ ان البلهاء أمثالك هم الذين يغرقون العالم بالأولاد التعساء ــ ليست مرآتها هي التي تظهرها جميلة في عينيها، ولكنك أنت الذي تفعل ذلك ــ بفضلك أنت، ترى نفسها أكثر جمالاً مما هي عليه في الحقيقة ــ مخاطبة فيبي ــ هيا اعرفي نفسك، اركعي، صومي، اشكري السماء لأن رجلاً شريفاً يحبك ــ اني أحضّك على الاستسلام له فإنه لن يرذلك. توسلي اليه، أظهري له حبك واقبلي ما يقدمه لك ــ ان السفاهة تزيد القبح ــ وهكذا أيها الراعي اتخذها امرأة لك... وداعاً.

فيبي : أتوسل اليك أيتها السيدة بأن تسترسلي في توبيخك لي؛ اني أفضل سماع توبيخك على مداعبات هذا الرجل.

روزالند : لقد أحبت بشاعتها، وها هي الآن تحب غضبي ! مخاطبة سيلفيوس ــ إذا كان الأمر كذلك، فما عليك إلا أن تشبعها كلاماً لاذعاً، كلما حدجتك بنظرات عبوسة ــ مخاطبة فيبي ــ لماذا تنظرين إليّ هكذا ؟

فيبي : اني لا أنظر اليك بقصد الأذى.

روزالند : أرجوكِ، لا تُغرمي بي لأني لا أحبك. اذا كنت تودين معرفة المكان الذي أنزل فيه، فما عليك إلا أن تقصدي واحة الزيتون القريبة من هنا ــ هيا يا شقيقتي ــ وأنتَ ضمّها اليك... وأنت ابتسمي له ولا تتكبري؛ لن يُغرم بك أحد في العالم كما يفعل هذا الرجل ــ هيا لنرحل ! (تخرج روزالند وسيليا وكوران).

فيبي : أيها الراعي لقد أدركت الآن قوة كلامك القائل؛ ان من يحب يحب لأول نظرة.

سيلفيوس : حبيبتي فيبي.

فيبي : ماذا تقول يا سيلفيوس ؟

سيلفيوس : فيبي، اشفقي عليّ.

فيبي : اني أرثي لحالك يا سيلفيوس.

سيلفيوس : حيث توجد الشفقة، يوجد العزاء؛ وإذا كنت تشفقين على حبّي المعذب، فما عليك إلا أن تعطيني حبِّك، وبذلك يزول عذابي وتزول شفقتك في آن معاً.

فيبي : أنت تملك محبتي، أليس كذلك ؟

سيلفيوس : أريدك أنتِ .

فيبي : ان ما تقوله هو من قبيل الشهوة يا سيلفيوس ـــ لقد كرهتك في الماضي... ولكن هذا لا يعني بأني أصبحت أحبك؛ ولكن بما انك تجيد لغة الحب، فمهما كانت صحبتك لي مزعجة، فإني أتحملها وأرضى أن تكون في خدمتي؛ ولكن لا تنتظر مني مكافأة سوى السعادة التي تلقاها في خدمتي.

سيلفيوس : طاهرٌ هو وعفيف الحب الذي أكنه لك. كل ما أطلبه اليك هو أن تبتسمي لي من وقت الى آخر، فإن هذا كاف ليحملني على الاستمرار في البقاء.

فيبي : أتعرف من هو الشاب الذي كان يخاطبني منذ لحظة ؟

سيلفيوس : لا أعرفه تماماً ولكن سبق لي والتقيته مراراً. انه هو الذي اشترى الكوخ والبستان اللذان كان يملكهما كارلو.

فيبي : لا تعتقد بأني أحبه لأني أستعلم عنه ـــ ليس سوى فتى مضجر... ومع ذلك يحسن الثرثرة. ولكن ما همي من الكلام ومع ذلك فإن الكلام له وقع حسن إذا كان قائله محبّبٌ إلى سامعه. انه فتىً جميل... ولكن ليس فائق الجمال، انه فخور بذاته وهذا يليق به ـــ سيكون شاباً رائعاً ـــ ان أجمل ما يملك هو محيَّاه؛ وبالسرعة التي كان لسانه يجرح بها، كانت نظراته تشفي خلالها... لا يبدو عليه الكبر ولكنه كبير بالنسبة لعمره... ان ساقه هي بين بين... ومع ذلك فإنها حسنة ـــ كما يعلو شفتاه احمرار فاتن، له لون غامق بالنسبة للاحمرار الذي كان يميِّز خدّه. هناك من النساء من يقعن في غرامه قبل

أن يستجمعن كل هذه التفاصيل عنه... أما بالنسبة إليَّ، فإني لا أحبه ولا أكرهه؛ ومع ذلك فإني ميّالة إلى كرهه أكثر مني الى حبه. ولكن بأي حق عمد الى توبيخي هكذا ؟ لقد قال بأن عينيَّ سوداويتان وبأن شعري كذلك ! وإني أتذكر الآن بأنه احتقرني وإني أعجب لنفسي كيف لم أرد عليه ــ ولكن هذا سيّان عندي. سأخطُّ له رسالة بذيئة وستحملها أنت اليه؛ هل تفعل ذلك يا سيلفيوس ؟

سيلفيوس : من كل قلبي، يا حبيبتي.

فيبي : سأخطّها فوراً. ان مضمونها هو في قلبي وفي رأسي؛ سأكون لاذعة معه ــ تعال معي، سيلفيوس.

(يخرجان)

الفصل الرابع

المشهد الأول

(على حدود الغابة ــ واحة من أشجار الزيتون أمام كوخ)

(تدخل روزالند وسيليا وجاك)

جاك : من فضلك أيها الشاب الجميل، دعنا نتعارف في العمق.

روزالند : يقال عنك بأنك رجل حزين.

جاك : هذا صحيح، اني أفضل أن أكون حزيناً على أن أكون ضاحكاً.

روزالند : ان الذين يغالون في الكآبة أو في الضحك، هم أناسا مرزولون، يعرِّضون أنفسهم كالسكارى لانتقاد عابري السبيل.

جاك : يجدر بنا أن نكون راضين ولا نقول شيئاً.

روزالند : اذن من الأفضل لنا أن نكون كالأعمدة.

جاك : لست أملك كآبة الطالب التي ليست سوى منافسة، ولا كآبة الموسيقار التي ليست سوى تخيلاً، ولا كآبة رجل البلاط التي لا تعدو كونها حبّاً للظهور؛ ولا كآبة الجندي التي لا تعدو كونها طموحاً؛ ولا كآبة رجل القانون التي لا تعدو كونها لباقة؛ ولا كآبة المرأة التي لا تعدد كونها تصنعاً؛ ولا كآبة العاشق التي هي مزيج من كل هذا؛ ولكن لي كآبتي الخاصة بي

وهي خليط من أشياء كثيرة؛ إنها خلاصة تأملي لرحلاتي المتعددة؛ وهو تأمل غالباً ما أجدني غارقاً فيه.
روزالند : مسافر ! أقسم بأنك على حق في أن تكون كئيباً، إني أخشى من أن تكون قد بعت أرضك لترى أرض الآخرين. وفي مثل هذه الحالة، فإن كونك قد رأيت كثيراً ولم تعد تملك شيئاً يعني أن لك عيوناً ملآنة وأيدي فارغة.
جاك : لقد أحسنت اكتساب خبرتي.

(يدخل اورلاندو)

روزالند : وخبرتك جعلتك كئيباً ! إني أفضل جنوناً يجعلني فرحاً على خبرة تجعلني كئيباً.
اورلاندو : أسعدت صباحاً أيتها العزيزة روزالند !
جاك (ناظراً إلى أورلاندو) : إنك تنطق بالشعر ! ليرعاك الله (يخرج).
روزالند : متجهة نحو جاك الذي بدأ يبتعد. وداعاً أيها المسافر ! ارتدي ملابس أجنبية؛ احتقر جميع حسنات موطنك؛ ليخب أملك من مجيئك الى العالم؛ ووبخ الله على المظهر الذي وهبك إياه.. وإلا فاني لن أصدق بسهولة أنك أبحرت في زورق بندقي !.. حسناً، أين كنت كل هذا الوقت يا أورلاندو ؟ أنت، عاشق ! اذا كنت ستخدعني، فلا تدعني أراك بعد الآن.
اورلاندو : عزيزتي روزالند، لقد تأخرت ساعة عن موعدي لك.
روزالند : إن هذا وقت طويل بالنسبة للمحبين.
اورلاندو : سامحيني أيتها العزيزة روزالند.
روزالند : إذا كنت الى هذا الحد متأخراً عن مواعيدك؛ فإني أفضل أن أكون محبوبة من حلزون.
اورلاندو : من حلزون !
روزالند : نعم من حلزون، لأنه اذا كان يأتي اليّ ببطء، فانه يحمل بيته على ظهره؛ وكذلك فإنه يحمل مصيره معه !
اورلاندو : ماذا ؟
روزالند : انه يحمل ثروته معه، وهذا ما يجنب زوجته النميمة.
اورلاندو : ان روزالند التي أحبها هي امرأة فاضلة.

روزالند : أنا هي روزالند التي تحب.

سيليا : يحلو له أن يخاطبك هكذا؛ ولكنه يحب روزالند أخرى أفضل منك.

روزالند : هيا، غازلني فإني اليوم مستعدة للموافقة على ذلك، ماذا كنت ستقول لي الآن لو كنت روزالند الحقيقية التي تحب !

اورلاندو : كنت قبلتك قبل أن أخاطبك.

روزالند : من الأفضل لك أن تتكلم أولاً؛ ومن ثم عندما نصبح في مأزق لانعدام الموضوع، تقبلني. هناك من الخطباء من يبصق عندما يُعْقَل لسانه. أما بالنسبة للعشاق، فإنهم يلجؤون إلى التقبيل عندما ينعدم لديهم موضوع الكلام.

اورلاندو : ولكن إذا رفضتِ أن أقبلكِ ؟

روزالند : عندها تروح تتوسل إليَّ، وهكذا يبدأ حديث جديد بيننا.

اورلاندو : من يستطيع أن يحافظ على مكانته أمام سيدة محبوبة مثلك ؟

روزالند : إنك تستطيع ذلك لو كنت أنا من تحب؛ وإلا لاعتبرت فضيلتك تافهة كروحي.

اورلاندو : ماذا، سأهزم بالكلية ؟

روزالند : إن أمانيك هي التي ستهزم... ألست أنا روزالند التي تحب ؟

اورلاندو : يطيب لي أن أعتبرك كذلك، لأني أرغب في التحدث عنها.

روزالند : حسناً، إن روزالند تقول لك في شخصي ! لا أريدك.

اورلاندو : اذن بقي عليَّ أن أموت.

روزالند : ان عمر العالم هو تقريباً ستة آلاف سنة، وخلال هذه المدة كلها لم يحدث أن مات شخص بسبب الحب. لقد مات الناس في كل زمان وأكلهم الدود؛ ولكن لم يكن ذلك في يوم من الأيام بسبب الحب.

اورلاندو : لم أكن أتمنى أن تكون روزالند التي أحب أسيرة مثل هذه الأفكار؛ إني أربأ بنفسي أن أكون ضحية تقطيب حاجبيها.

روزالند : أقسم بأن هذا التقطيب غير قادر على قتل ذبابة. ولكن دعنا من هذا، سأكون في تصرفك، اطلب ما تشاء وسأقدمه لك.

اورلاندو : حسناً، اعطني حبك يا روزالند.

روزالند : إني أرغب في حبك كل الأيام.

اورلاندو : ولكن أتريدنني رفيقاً لك.
روزالند : وكيف لا. هيا يا شقيقتي استعدي للقيام بدور الكاهن لعقد زواجنا. أعطني يدك يا اورلاندو (أورلاندو وروزالند يمسكان بأيدي بعضهما البعض) ماذا تقولين يا شقيقتي ؟
روزالند : مخاطباً سيليا. أرجوك باشري بعقد زواجنا.
سيليا : لا أعرف الكلام الواجب قوله.
روزالند : عليك أن تبدئي هكذا. هل توافق، أورلاندو...
سيليا : إني مستعدة... هل توافق، أورلاندو، على اتخاذ روزالند زوجة لك ؟
اورلاندو : إني موافق.
روزالند : نعم، ولكن متى ؟
اورلاندو : في الحال، وبالسرعة التي تستطيع خلالها أن تعقد زواجنا...
روزالند: (مخاطبة أورلاندو): في هذه الحالة عليك أن تقول! إني اتخذك زوجة لي يا روزالند.
اورلاندو : إني اتخذك زوجة لي يا روزالند.
روزالند: (مخاطبة سيليا): كان من حقي أن استوضحك عن صلاحياتك، ولكن هذا أمر لا يهمني. أورلاندو، إني أتخذك زوجاً لي. اني مثل خطيبة تستبق الكاهن. من الثابت أن فكر المرأة يسبق دوماً أعمالها.
اورلاندو : ان هذا ينطبق على جميع الأفكار ! جميعها تملك أجنحة.
روزالند : قل لي الآن ؟ كم من الوقت ستقيم معها عندما ستصبح لك.
اورلاندو : سأقيم معها الأبدية زائد يوم واحد.
روزالند : قل لي بالأحرى يوماً واحد بدون الأبدية. كلا، أورلاندو، إن الرجال أشبه ما يكونون بشهر شباط عندما يغازلون، وبشهر كانون الأول عندما يتزوجن. أما الفتيات فهن أشبه ما يكن بشهر آيار قبل الزواج؛ ولكن الأمر يختلف بعده. إني أدعي الغيرة عليك؛ والهيام بك والبكاء من أجلك، كل هذا عندما تكون فرحاً؛ إني أتصنع الضجر عندما تكون مستعداً للنوم.
اورلاندو : ولكن هل أن روزالند التي أحب تفعل كل هذا ؟
روزالند : أقسم أنها ستفعل كل ما سأفعله أنا.

اورلاندو : ولكنها حكيمة !

روزالند : هذا صحيح، وإلا لما كانت لها الحكمة الكافية للقيام بكل هذا؛ بمقدار ما ستكون حكيمة، بمقدار ذلك ستكون ماكرة. إذا أقفلت جميع الأبواب أمام روح المرأة، فإنها تفلت من الشباك؛ وإن أقفل الشباك فانها تفلت من ثقب القفل واذا سُدَّ ثقب القفل فانها تطير مع الدخان المتصاعد من المدخنة.

اورلاندو : ان رجلاً ستكون له مثل هذه المرأة الخارقة، لا بد أنه سيصرخ قائلاً : أين تهيم أيها الروح ؟

روزالند : بإمكانك الاحتفاظ بهذه الصرخة لليوم الذي سترى فيه روح زوجتك هائمة فوق سرير جارك.

اورلاندو : وما هو العذر الذي ستجده لتبرير عملها هذا ؟

روزالند : طبعاً سيكفيها أن تقول لك انها هناك تبحث عنك ــ سوف لن تعدم الجواب ما لم تفقد لسانها ــ زد على ذلك، أن جميع الناس يحمّلون الزوج أخطاء زوجته ! لا تدعها تطعم ابنها، لأنها ستجعل منه معتوهاً.

اورلاندو : سأدعك لوحدك مدة ساعتين.

روزالند : اني لا أستطيع أن أقضي ساعتين بدونك.

اورلاندو : عليّ أن أحضر لتناول الغداء إلى مائدة الدوق؛ وحوالي الساعة الثانية بعد الظهر سأعود اليك.

روزالند : اذهب، اذهب... كنت أعلم كيف انك ستتحول عني... لقد تنبّأ لي بذلك أصدقائي، وكنت أنتظر أنا ذلك... لقد غرّر بي لسانك المتملق... اني فقيرة مرذولة !... ليأخذني الموت... في الثانية بعد الظهر، أليس كذلك ؟

اورلاندو : نعم أيتها الرائعة روزالند.

روزالند : أقسم بأنك إذا تأخرت ولو لحظة واحدة عن موعدك، بأني سأعتبرك عاشقاً ماكراً وسأضعك في مصاف الخونة. لذلك أنصحك بأن تخشى انتقادي لك وتفي بوعدك.

اورلاندو : سأفي بوعدي بكل صدق كما لو كنتِ روزالند التي أحب. وعليه، وداعاً !

روزالند : نعم، ان الزمن هو القاضي القديم الذي يتفحص كل هذه الجرائم، لندع الزمن يحكم على ذلك ــ وداعاً ! (يخرج اورلاندو).

سيليا : لقد تصرفت بقساوة بحق جنسنا في ثرثرتك؛ انك تستحقين لقاء ذلك أن يُكشف أمرك بنزع اللباس الذي تتسترين به، وأن يعلن على الملأ الخطأ الذي يرتكبه العصفور بتخريب عشه.

روزالند : آه، لو كنتِ تستطيعين أن تسبري غور الحب الذي عشته، ولكنك لا تستطيعين سبره، ان حبِّي يمتد إلى عمق مجهول.

سيليا : أو بالحري ليس له أي عمق، إذ ما ان تكشفي عنه حتى يتبدد.

روزالند : اني أترك للحب أن يحكم على عمق حبي !... لا أستطيع أن أعيش بعيدة عن اورلاندو ــ سأبحث عن مكان ظليل حيث سأتلهف عليه إلى أن يعود.

سيليا : وأنا سأمضي إلى النوم. (تخرجان).

المشهد الثاني

(في الغابة)

(يدخل جاك وبعض الأسياد بلباس الصيد)

جاك : من هو الذي قتل الأيل ؟

السيد الأول : أنا هو.

جاك : لنقدمه إلى الدوق كفاتح روماني؛ ومن الأفضل أيضاً أن نكلّل رأسه بقرون الأيل... أيها الصياد، هل عندك أغنية تليق بالمناسبة ؟

السيد الأول : نعم يا سيدي.

جاك : أنشدها ولو لم تكن على ائتلاف تام، المهم أن تحدث ضجة ما.

أغنية

الصياد الأول

ما الذي سيحصل عليه من قتل الأيل ؟

الصياد الثاني

فليأخذ جلده وقرونه !

الصياد الأول

ومن ثم نمضي به ونحن نغني.

جميع الصيادين

لا تفتخر بأنك تحمل قرناً.
لقد كان قبل مولدك يستعمل تاجاً للخونة.

الصياد الأول

لقد سبق أن حمله جدّك.

الصياد الثاني

وأبوك أيضاً حمله.

جميع الصيادين

القرن، القرن، القرن العظيم،
ليس بشيء مزدرى ومحتقر !

المشهد الثالث

(في الغابة ــ هضبة مشرفة على وادي في أسفله كوخ يكاد أن لا يرى)

(تدخل روزالند وسيليا)

روزالند : ماذا تقولين الآن ؟ لقد مرت الساعة الثانية ولم يحضر اورلاندو.
سيليا : اني أجزم لك بأنه أخذ قوسه وسهامه وذهب... لينام... ماذا ؟ من هو القادم إلى هنا ؟

(يدخل سيلفيوس)

سيلفيوس (مخاطباً روزالند) : اني أحمل رسالة اليك أيها الفتى الجميل. لقد قالت لي فيبي بأن أعطيك هذا. (يسلمها رسالة فتقرأها). اني أجهل ما تحمله هذه الرسالة؛ ولكن إذا كان لي أن أحكم بشأنها من خلال مظهر فيبي الغاضب عندما كانت تكتبها، فإني أجزم بأن محتواها صاخبٌ ــ اعذرني، فأنا لست سوى رسول بريء.

روزالند : ان الصبر نفسه يعجز عن تحمل هذا ــ تقول بأني لست جميلاً، وإني أفتقر الى قواعد الأدب، وإني متكبر، وإنها لا تستطيع أن تحبني ولو أصبح الرجل نادر الوجود كالعنقاء... شكراً لله لأني لا أبغي حبها ــ لماذا تكتب إلي هكذا ؟ خذ أيها الراعي، خذ هذه الرسالة، انها من تدبيجك أنت.

سيلفيوس : اني أحتج على ذلك؛ ان فيبي هي التي كتبتها، وأنا أجهل محتواها.

روزالند : هيا، هيا انك مجنون؛ ان الحب جعلك تهذي ــ اني أعرف يدها

ـــ ان لها يد مدبرة منزل؛ ولكن هذا لا يهمني ـــ لقد قلت بأنها لم تدبج هذه الرسالة؛ ان هذه الكتابة تمّت على يد رجل.

سيلفيوس : انها يدها.

روزالند : ولكن أسلوبها هذا أسلوب متوحش ـــ ان عقل المرأة الضعيف لا يستطيع أن يستنبط تعابير بهذه القساوة، حتى لأن سواد معانيها يغلب على سواد حروفها... هل تريد أن تسمع الرسالة ؟

سيلفيوس : نعم، لأني أجهل محتواها، رغم اني أعلم قساوة فيبي.

روزالند : اسمع ما تقوله هذه المرأة الطاغية ـــ (تقرأ).

هل أنتَ إله تحوَّل الى راعٍ،
أنت الذي أشعل قلب عذراء ؟

هل تستطيع امرأة أن تتمادى في الإهانة إلى هذا الحد ؟

سيلفيوس : هل تسمين هذا اهانة ؟

روزالند : لماذا تتخلى عن ألوهيتك
وتحارب قلب امرأة !
هل سمعت في حياتك إهانة مثل هذه ؟
ان ملاحقة الرجل لي بنظراته
لم تستطع أن تلحق بي الأذى
انها تعتبرني حيواناً ـــ
اذا كان الاحتقار الذي في عينيك المتألقتين
قد أوحى إليَّ بهذا الحب،
فإن حنانها كان سيحدث
فيَّ أثراً أعجز عن وصفه !
اذا كنتُ قد أحببتك وأنت توبخني،
فكيف بي لا أحبك وأنت تتوسل إليَّ !
ان من يحملُ اليك حبي،
يشك قليلا بهذا الحب
أعلمني بواسطته، برسالة منك

ما اذا كان قلبك الفتي
يقبل بأن أقدم له بكل صدق
شخصي وكل ما أملك؛
وإذا كنت ترفض حبي
فلن يبقى أمامي سوى الموت.

سيلفيوس : هل تسمي هذا ذمّاً ؟

سيليا : مسكين أيها الراعي !

روزالند (مخاطبة سيليا) : تتحسرين عليه ؟ انه لا يستحق الشفقة (مخاطبة سيلفيوس) هل بإمكانك أن تحب امرأة كهذه ؟ ماذا ! انها تتلاعب بعواطفك ! هذا أمرٌ لا يطاق. عُد اليها وقل لها : إذا كانت تحبني، فإني أفرض عليها أن تحبّك، وإذا كانت ترفض ذلك، فإني سأكرهها إلى اليوم الذي ستتوسط أنت من أجلها... ان كنت تحب بصدق، فما عليك إلا أن تذهب وتكف عن الكلام ! لأنه هوذا رفاقٌ لنا قد وصلوا. (يخرج سيلفيوس).

(يدخل اوليفير وبيده قماش أبيض ملطخ بالدم)

اوليفير : صباح الخير ! هل لك أن ترشدينني إلى حظيرة محاطة بأشجار الزيتون، قيل لي بأنها توجد في هذه الغابة ؟

سيليا : انها توجد في الناحية الشرقية من هذا المكان، في أسفل الوادي القريب، هل ترى هذا الصف من أشجار الصفصاف الممتدة بمحاذاة الجدول ؟ انها عن يمينه ــ ولكن في مثل هذا الوقت لا يوجد أحدٌ في الحظيرة.

اوليفير : هل أنتما من يملك الحظيرة التي أبحث عنها.

سيليا : أنت قلت ؟

اوليفير : ان اورلاندو بعث معي الى الفتى الذي يسميه روزالند هذا المنديل الملطخ بالدم. هل هو أنت ؟

روزالند : أنا هو... ماذا يعني هذا ؟

اوليفير : إني أخجل أن أعلن من أنا، ولماذا هذا المنديل قد تلطخ بالدم.

سيليا : أرجوك، تكلم !

اوليفير : لقد وعدكما الشاب اورلاندو، عندما ترككما مؤخراً أنه سيعود ويلتقيكما خلال ساعتين. كان يمشي في الغابة وهو يحلم، واذا به يرى فجأة رجلاً بائساً يرقد في ظل شجرة عاتية وقد طوقت عنقه أفعى مزركشة راحت تحاول ادخال رأسها من فمه المفتوح. ولما فوجئت برؤية اورلاندو تركته وانسابت خلف فراخ من الأشجار كانت تختبيء خلفها لبؤة. كانت هذه الأخيرة تنتظر أن يستفيق الرجل لتجهز عليه، لأنها تأبه أن تكون فريستها ممن تبدو عليهم علامة الموت. ولما رآه اورلاندو، عرف فيه شقيقه الأكبر.

سيليا : لقد سمعته يتحدث عن شقيقه هذا... كان يصوره رجلاً فاسداً.

اوليفير : لقد كان على حق؛ لأني أعلم أنا كم كان فاسداً.

روزالند : ولكن هل تركه اورلاندو تحت رحمة اللبؤة الجائعة والمنهارة القوى ؟

اوليفير : لقد حاول الانكفاء، ولكن التسامح يبقى أمضى من الحقد؛ وهذا ما دفعه الى مغالبة اللبؤة والانتصار عليها. أما أنا فقد أفقت من نومي الرهيب على الضوضاء التي أحدثها صراعهما.

سيليا : أنت اذن شقيقه ؟

روزالند : أنت اذن من خلصه ؟

سيليا : أنت اذن من تآمر عليه غالباً لقتله ؟

اوليفير : أنا هو، ولكني لست بعد الذي حصل، هو ــ لن أخجل أن أعلن لكما مَن أنا، بعد أن جعلني اهتدائي الى الحقيقة سعيداً في الكشف عن حقيقة أخرى.

روزالند : ولكن ما حكاية هذا المنديل الملطخ بالدم ؟

اوليفير : سأقصها لكما في الحال ؟ بعد أن انهمر الدمع من عيوننا نحن الاثنين نتيجة ما حصل، وبعد أن رويتُ لشقيقي كيف وصلتُ الى هذه الصحراء، اقتادني بسرعة الى الدوق الذي قدَّم إليَّ لباساً جديداً ووجبة خفيفة من الطعام، وترك لشقيقي أمر الاعتناء بي ــ بعد ذلك اقتادني مباشرة الى مغارته، حيث نزع ملابسه، وإذا بذراعه مصابة بجرح ما برح ينزف دماً؛ وفي الحال أُغمي عليه عندما تلفظ باسم روزالند ــ ولما استعاد وعيه وضمدت له

جرحه، أرسلني الى هنا، أنا الغريب، لأقص عليكما ما حصل له ومنعه من الوفاء بوعوده علّكما تعذراه، وقد أوصاني أن أحمل هذا المنديل الملطخ بالدم الى الراعي الذي يسميه روزالند.

سيليا (ساندة روزالند المغمى عليها) : ما بك ؟

اوليفير : ان العديد من الناس يغمى عليهم لدى رؤيتهم الدم.

سيليا : آمل أن يكون الأمر هكذا !

اوليفير : انه يستعيد وعيه.

روزالند : أريد العودة الى المنزل.

سيليا : سنقودك اليه. (مشيرة الى اوليفيير) أرجوك أمسك بذراعه.

اوليفير (مصطحباً روزالند) : عُد الى نفسك أيها الفتى ! يبدو أنك لا تملك قلب رجل.

روزالند : اني أُقرُّ بذلك... حسناً بلِّغ شقيقك كيف اني قمت بدور المغمى عليه ـــ آه ـــ (تتنهد بألم)

اوليفير : لم يكن هذا من باب التمثيل ـــ ان شحوب وجهك يشهد على صدق الشعور الذي تملك.

روزالند : انه مجرد تمثيل أؤكد لك ذلك.

اوليفير : حسناً ! استعد قواك وكن رجلاً.

روزالند : هذا ما أحاول القيام به... ولكن في الحقيقة، كان ينبغي لي أن أكون امرأة.

سيليا : انك تزداد شحوباً؛ أرجوك، لنعد... تعال معنا أيها السيد.

اوليفير : بكل طيبة خاطر، فإني أريد أن أحمل الى شقيقي كيفية اعتذار روزالند.

روزالند : سأفكر في الأمر ـــ ولكن أرجوك قل له، كيف مثّلت دور المغمى عليه... أتريد أن نذهب ؟

(يخرج الجميع)

الفصل الخامس

المشهد الأول

(يدخل بيار دي توش واودري)

بيار دي توش : مهلاً أودري، لا بد وإننا واجدون الفرصة المناسبة.
اودري : ان ذلك الكاهن كان كافياً، لقد صدق ذلك النبيل العجوز.
بيار دي توش : مسكين، أوليفير هذا... يوجد هنا في الغابة فتىً يطمع فيك.
اودري : نعم، اني أعلم من هو؛ ليس له أي سلطان عليَّ... هوذا الرجل الذي تتكلم عنه.

(يدخل وليم)

بيار دي توش : أقسمُ، بأننا نحن رجال الفكر، علينا دائماً أن نحمل لواء السخرية؛ اننا لا نستطيع إلا أن نفعل ذلك.
وليم : مساء الخير، أودري !
اودري : حيّاك الله، وليم !
وليم (مخاطباً بيار دي توش) : مساء الخير أنت أيضاً يا سيدي !
بيار دي توش : مساء الخير يا عزيزي ! استر رأسك، استر رأسك، أرجوك... كم من العمر لك يا عزيزي ؟

وليم : خمس وعشرون سنة يا سيدي.

بيار دي توش : لقد أصبحت ناضجاً ! اسمك وليم ؟

وليم : نعم.

بيار دي توش : اسم جميل ! هل أنت مقيم هنا في الغابة ؟

وليم : نعم، والحمد لله !

بيار دي توش : الحمد لله ! انه جواب رائع ! هل أنت غني ؟

وليم : ما بين بين.

بيار دي توش : هذا رائع أيضاً. هل أنتَ حكيمٌ ؟

وليم : نعم اني عاقل بما فيه الكفاية.

بيار دي توش : انك تحسن الإجابة ــ الآن تذكرت القول المأثور؛ ان المجنون يحسب نفسه حكيماً والحكيم يحسب نفسه مجنوناً ــ ان الفيلسوف الوثني عندما كان يريد أن يأكل عنقود عنب، كان يفتح شفتيه في اللحظة التي كان يتناول فيها حبات العنب، مشيراً بذلك إلى أن حبات العنب معدّة لأن تؤكل، في حين أن الشفاه معدّة لأن تفتح ــ مشيراً إلى أودري ــ هل تحب هذه الصبية ؟

وليم : نعم يا سيدي.

بيار دي توش : هات يدك ــ هل أنت عالم ؟

وليم : كلا يا سيدي.

بيار دي توش : حسناً، تعلم اذن هذا ــ ان تملك هو أن تملك ــ ان السائل عندما ينقل من وعاء الى وعاء آخر، يملأ أحدهما ويبقى الآخر فارغاً. والآن، أنا هو...

وليم : ماذا يا سيدي ؟

بيار دي توش (مشيراً الى أودري) : أنا هو الذي يجب أن يتزوج من هذه المرأة. لذلك أنذرك أيها الفظ بأن تتركها وشأنها وإلا قضيت عليك بالسم، بالضرب، بالحديد، وقطعتك ارباً ارباً ! فاخش عاقبة ما أنذرتك به وارحل من هنا.

اودري : اذهب من هنا، وليم !

وليم : ليسعدك الله يا سيدي ! (يهرب وليم).

(يدخل كوران)

كوران (مخاطباً بيار دي توش) : ان سيدي وسيدتي يطلبانك؛ هيا لنذهب !

بيار دي توش : اهربي، اهربي اودري... فأنا ذاهب، ذاهب.

(يخرجان)

المشهد الثاني

(قرب مغارة اورلاندو)

(يدخل اورلاندو وذراعه مشدودة بمنديل، يتبعه اوليفيير)

اورلاندو : هل يُعقل بأنك ما ان رأيتها، حتى أعجبت بها، وأحببتها، وترغب الآن في طلب يدها والحصول عليها ؟

اوليفير : لا تجادلني في تسرعي هذا ولا في قبولها المفاجىء لطلبي إياها؛ ولكن قل معي بأني أحبها وإنها تحبني، وأعترف معنا بأننا قادران على الزواج؛ وهذا سيكون لصالحك، لأني سأتنازل لك عن كل ما ورثته من أبي، وأمضي بقية حياتي كراعٍ هنا.

اورلاندو : اني موافق ـــ وليكن غداً يوم العرس ! سأعود اليه الدوق وجميع أفراد حاشيته ـــ هيا عجِّل في طلب آليانا؛ هيا ان روزالند قد أتت.

روزالند (مخاطبة أوليفيير) : ليحمك الله أيها الشقيق.

اوليفير : وأنت أيضاً أيتها الشقيقة العزيزة.

روزالند : حبيبي اورلاندو، كم يحز في قلبي أن أراك تحمل قلبك فوق منديل.

اورلاندو : هذه ذراعي وليس قلبي.
روزالند : كنت. أعتقد بأن قلبك قد جرحته مخالب تلك اللبؤة.
اورلاندو : انه مجروح ولكن بفعل عيون امرأة.
روزالند : هل أخبرك شقيقك كيف مثلت دور المغمى عليه عندما أظهر لي المنديل الملطخ بالدم ؟
اورلاندو : لقد أخبرني عن ذلك وعن أمور أخرى خارقة.
روزالند : اني أعرف إلى أين تريد أن تصل... اني لم أرَ أمراً تم بمثل هذه السرعة سوى ما قاله قيصر إثر انتصاره الشهير؛ لقد قدمت ورأيت وانتصرت ـــ نعم، ان شقيقك وشقيقتي التقيا، وتعارفا وتحابّا وتواعدا على الزواج بسرعة فائقة ـــ وإذا حيل الآن بينهما وبين الزواج فقدا طهارتهما ـــ ان الضرب المبرح لن يفرِّق بينهما.
اورلاندو : سنحتفل بزواجهما غداً، وندعو الدوق لحضور الزفاف ولكن كم هو قاسٍ أن يرى الإنسان السعادة بعيون سواه ! غداً، بمقدار ما سأرى شقيقي سعيداً لحصوله على مبتغاه، بمقدار ذلك ستزداد تعاستي.
روزالند : هيا ! هل بإمكاني أن أحل غداً مكان روزالند بالنسبة اليك ؟
اورلاندو : لم أعد أستطيع العيش في الخيال.
روزالند : لا أريد أن أثقل عليك بعد الآن بتعابير فارغة، ليكن معلوماً لديك بأنك رجل تستحق كل تقدير... لا أقول هذا لأظهر أمامك بأني صاحب علم وفير لمعرفتي مَن أنتَ. إذا كنت أطمع في تقديرك لي فلكي أوحي اليك بمزيد من الثقة بالنفس ومن الشجاعة وذلك دون أن أحط من قدري أنا ـــ ثق اذن بأني أستطيع القيام بأعمال خارقة ـــ لقد صحبت منذ الثالثة من عمري ساحراً على جانب كبير من العلم الذي لا يرقى اليه شك ـــ فإذا كنت تحب روزالند بهذه الحرارة التي تُستشف من تصرفك فإنك ستتزوجها غداً، عندما سيتزوج شقيقك من آليانا ـــ اني أعرف التعاسة التي أوصلك اليها القدر؛ وليس من العسير علي إذا كنت توافق على ذلك، أن أستدعيها غداً، فتمثل أمامك شخصياً وبدون أن يصيبها أي مكروه.
اورلاندو : هل تتكلم بجد ؟

روزالند : اني أقسم بحياتي التي أحب اني أقول الصدق، رغم اني أعترف بأني ساحرٌ ـــ وعليه، أرتدي غداً أجمل ملابسك، وادع أصدقاءك؛ فإنك اذا كنت ترغب في الزواج غداً، فإنك ستحصل عليه ومن روزالند بالذات.

(يدخل سيلفيوس وفيبي)

أنظر هوذا عاشق وعشيقته.

فيبي : أيها الفتى لقد أظهرت بأنك عديم التهذيب؛ عندما كشفت عن الرسالة التي أرسلتها اليك.

روزالند : هذا لا يهمني ـــ اني أتعمّد الظهور بمظهر المحتقر وعديم التهذيب حيالِك ـــ ان راعياً أميناً يتبعك، انظري اليه وأحبيه، انه يحبك حتى العبادة.

اودري (مخاطبة سيلفيوس) ـــ أيها الراعي الأمين قل لهذا الفتى ما معنى الحب ؟

سيلفيوس : هو أن تتنهد وينهمر الدمع من عينيك؛ وهذا ما أفعله نحو فيبي.

فيبي : وأنا بالنسبة الى اله الحب.

اورلاندو : وأنا بالنسبة الى روزالند.

روزالند : وأنا ولكن ليس بالنسبة الى المرأة.

سيلفيوس : هو أن يكون المرء أميناً ومخلصاً؛ وهذا ما أفعله نحو فيبي.

فيبي : وأنا بالنسبة الى اله الحب.

اورلاندو : وأنا بالنسبة الى روزالند.

روزالند : وأنا ولكن ليس بالنسبة الى روزالند.

سيلفيوس : هو أن تهيم بمن تحب، وتضحي بكل رغبة، وتتضرع وتصبر، وتطيع وتكون طاهراً، كلُّ هذا من أجل الحبيب ـــ وهذا ما أفعله نحو فيبي.

فيبي : وأنا بالنسبة الى اله الحب.

اورلاندو : وأنا بالنسبة الى روزالند.

روزالند : وأنا ولكن ليس بالنسبة الى المرأة.

فيبي (مخاطة روزالند) : اذا كان الأمر هكذا فلماذا تلومينني في حبك ؟

سيلفيوس (مخاطباً فيبي) : إذا كان الأمر هكذا، فلماذا تلومينني في حبك ؟

اورلاندو : اذا كان الأمر هكذا فلماذا تلومينني في حبك ؟

روزالند : لمن تقول : لماذا تلومينني في حبك ؟

اورلاندو : إلى التي ليست هنا، ولا تستطيع سماعي.

روزالند : اهدأ، أرجوك ! (مخاطبة سيلفيوس) إذا كان بإمكاني أن أخدمك فأنا مستعدٌ (مخاطبة فيبي) كنتُ أحببتك لو استطعت ذلك ــ غداً، تعالوا جميعاً باحثين عني (مخاطبة فيبي) سأتزوج منك إذا ما فكرت غداً في الزواج (مخاطبة اورلاندو) سأسعى إلى اسعادك إذا كان الأمر بإمكاني أن أسعد رجلاً، ستتزوج غداً (مخاطبة سيلفيوس) سأسعدك، ستتزوج غداً (مخاطبة اورلاندو) اذا كنت تحب روزالند فكن دقيقاً (مخاطبة سيلفيوس) وأنت أيضاً إذا كنت تحب فيبي... وأنا أيضا سأكون كذلك بصفتي لا أحب امرأة ــ وعلى هذا، وداعاً ! لقد بلغتكم أوامري.

سيلفيوس : لن أتأخر عن الموعد إذا بقيت حياً.

فيبي : ولا أنا أيضاً.

اورلاندو : ولا أنا أيضاً.

(يخرج الجميع)

المشهد الثالث

(تحت العريش)

(يدخل بيار دي توش وأودري)

بيار دي توش : غداً هو اليوم السعيد، أودري، غداً سنتزوج.
اودري : اني أتوق الى ذلك بكل جوارحي، وأعتبر ان رغبتي في أن أصبح زوجة مستقرة، هي رغبة نبيلة... ان اثنين من خدم الدوق المنفي يتقدمان الى هنا.

(يدخل خادمان)

الخادم الأول (مخاطباً بيار دي توش) : يا له من لقاءٍ سعيد أيها النبيل !
بيار دي توش : نعم، انه لقاءٌ سعيد ! هيا اجلس وابدأ بالغناء !
الخادم الثاني : اننا رهن اشارتك، اجلس في الوسط.

(يجلس بيار دي توش وسط الخادمين)

الخادم الأول (مخاطباً الخادم الثاني) : لنغنِّي بدون أن نعطس أو نبصق.
الخادم الثاني : لنغنِّي نحن الإثنين على ذات اللحن.

أغنية

كان حبيب وحبيبة
يجتازان حقل قمح أخضر،
في الربيع، فصل الزفاف،
والعصافير تغني !
حبيبان رقيقا الشعور مغرمان بالربيع.
بين صفوف القمح، رقد الرفيقان،

في الربيع، فصل الزفاف...
وراحا يغنيان.
الحياة زهرة،
في الربيع...
استفيدوا إذن من الوقت الحاضر،
فإن الحب يتكلل بباكورة العمر،
في الربيع...

بيار دي توش : في الحقيقة، ان كلام هذه الأغنية لا يعني شيئاً كثيراً، وكذلك لحنها غير متجانس.

الخادم الأول : أنت تخدع نفسك يا سيدي، لقد راعينا الأصول في غنائنا، ولم نضع وقتنا.

بيار دي توش : أقسم بأن سماع أغنية تافهة كهذه هو مضيعة للوقت — رافقكما الله، وشذّب صوتكما ! هيا أودري !

(يخرج الجميع)

المشهد الرابع

(كوخ الأميرات وقد علته زينة كزينة العيد)

(يدخل كل من الدوق المسن، اميان، جاك، اورلاندو، اوليفير، سيليا)

الدوق المسن : أتعتقد، أورلاندو، بأن هذا الفتى هو قادر على تحقيق كل ما وعد به ؟

اورلاندو : تارة أعتقده قادراً على ذلك، وتارة أخرى أشك في قدرته؛ ان حالي معه كحال شخصٍ يخاف ولكنه يأمل رغم خوفه.

(تدخل روزالند، سيلفيوس، وفيبي)

روزالند : قليلاً من الصبر، ريثما نوجز ما يجب أن نتفق عليه ! مشيرة إلى الدوق ــ تقول بأني إذا أحضرت روزالند إلى هنا ستعطيها الى أورلاندو الواقف أمامك ؟

الدوق المسن : نعم ولو كلفني ذلك أن أعطي معها ممالك بكاملها.

روزالند (مخاطبة اورلاندو) : وأنت تقول بأنك ستقبلها بمجرد أن أقدمها اليك ؟

اورلاندو : نعم ولو أصبحت ملكاً على جميع الممالك !

روزالند : مخاطبة فيبي ــ وأنتِ تقولين بأنك ستتزوجين مني إذا أردتُ ذلك ؟

فيبي : نعم ولو كلفني ذلك الموت بعد ساعة من حصوله !

روزالند (مشيرة الى سيلفيوس) : ولكن اذا رفضتِ الزواج مني، فإنك ستتزوجين من هذا الراعي الأمين !

فيبي : هذا ما اتفقنا عليه.

روزالند (مخاطبة سيلفيوس) : أنتَ تقول بأنك ستتزوج فيبي اذا أرادت ذلك.
سيلفيوس : ولو كلفني ذلك أن أتزوج الموت !
روزالند : لقد وعدت بأن أتدبَّر كل هذا ــ مقدِّمة أورلاندو الى الدوق ــ عليك أن تفي بوعدك وتعطه ابنتك ــ وأنتَ أورلاندو عليك أن تفي بوعدك وتقبل بابنته... فيبي، عليك أن تفي بوعدك وتتخذينني زوجاً لك، وإذا رفضتِ أن تتزوجي من هذا الراعي... سيلفيوس، عليك أن تفي بوعدك وتتخذها زوجة لك إذا رفَضتني ! وعليه، سأمضي لأحل جميع هذه الإشكالات.

(تخرج كل من روزالند وسيليا)

الدوق المسن : يبدو لي أن هذا الراعي يحمل العديد من سمات ابنتي.
اورلاندو : سيدي، في المرة الأولى التي التقيت فيها بهذا الفتى، اعتقدت نفسي أمام شقيقٍ لابنتك. ولكن هذا الفتى من مواليد هذه الغاية، لقد لقَّنه عمه أصول بعض العلوم الميؤس منها؛ وهو يزعم بأن عمه هذا ساحر مختبىء في هذه الغابة.

(يدخل بيار دي توش وأودري)

جاك : يجب أن يحدث طوفان آخر، ليستطيع جميع الأزواج من دخول سفينة نوح ! هو ذا زوجان من المجانين.
بيار دي توش : السلام عليكم !
جاك (مخاطباً الدوق) : سيدي أحسن استقباله، انه نبيل ظريف، طالما التقيته في الغابة : لقد كان من رجال البلاط كما يزعم.
بيار دي توش : إذا كان أحدكم يشك في كوني من رجال البلاط، فليخضعني للفحص ! لقد سبق لي ورقصت ولاطفت بعض السيدات، وكنت متملقاً مع أصدقائي ومداعباً أعدائي، وأجهزت على ثلاثة خياطين، ودخلت في أربع مشاجرات.
جاك : وكيف انتهت المشاجرة الأخيرة ؟
بيار دي توش : حسناً، لقد التقينا، واتفقنا على أن المشاجرة قد بلغت أوجها.

جاك : سيدي، لا تغضب من هذا الرفيق.

الدوق المسن : إنه يسعدني.

بيار دي توش : كافأك الله يا سيدي ! إني سعيد أيضاً للقائك... لقد أسرعت إلى هنا بين هؤلاء الأزواج لأعقد زواجي. مشيراً الى أودري إنها صبية مسكينة لم يشأ أحد أن يتزوجها !

الدوق المسن : إن كلامك مشرق وحكمي.

بيار دي توش : انه كذلك بمقدار ما تسمح به صفات مجنون مثلي !

جاك : ولكن لنعد الى المشاجرة الأخيرة.

بيار دي توش : اجلسي بشكل لائق، أودري ! اليك ما حصل يا سيدي. لقد انتقدت أحد أفراد البلاط لأنه أساء تشذيب لحيته؛ فوقع الشجار بيننا. ففي حين كان هو يصر على أنه أحسن تشذيبها، كنت بدوري أصر على أنه أساء تشذيبها.

جاك : وكيف انتهى الأمر بينكما ؟

بيار دي توش : أعاد كل منا سيفه الى غمده وافترقنا.

جاك (مخاطباً الدوق المسن): انه فتى نادر الوجود، انه يحسن كل شيء ومع ذلك فإنه مجرد مجنون.

الدوق المسن : إن جنونه ليس سوى حصان يطلق من عليائه ومضات فكره.

(تدخل روزالند بلباس امرأة تتبعها سيليا ـــ تعزف الموسيقى)

الزفاف

تفرح السماء عندما جميع الناس على الأرض،
يتفقون ويعيشون في وئام.
أيها الدوق الطيب، خذ ابنتك
ان الزفاف أنزلها من السماء،
وآتى بها إلى هنا،
لكي تزوجها من الذي تحمل قلبه في صدرها.

روزالند (مخاطبة الدوق) : اليك أهب نفسي لأني لك. مخاطبة اورلاندو اليك أهب نفسي لأني لك.

الدوق المسن : إذا كانت هذه الرؤيا لا تخدعني فأنتِ ابنتي.
اورلاندو : إذا كانت هذه الرؤيا لا تخدعني، فأنتِ روزالند.
فيبي : إذا كانت هذه الرؤيا لا تخدعني ولا هذا الشكل، فوداعاً يا فيبي...
روزالند (مخاطبة الدوق المسن) : لا أريد أن يكون لي أبٌ سواك (مخاطبة أورلاندو) لا أريد أن يكون لي زوج سواك (مخاطبة فيبي) اذا كان لي أن أتزوج امرأة، فلن أتزوج سواكِ.

الزفاف

سكوت ! إنني لا أرضى بالفوضى !
عليَّ أنا أن أختم هذه الأحداث الغريبة.
هؤلاء الخاطبون الثمانية يجب أن يتزوجوا.
(مخاطباً اورلاندو وروزالند) لن تفترقا بعد الآن.
(مخاطباً اوليفيير وسيليا) كل منكما يحمل في قلبه قلب صاحبه.
(مقدماً سيليفيوس الى فيبي) عليك أن ترضخي لحبه والا تزوجت من امرأة.
(مخاطبا بيار دي توش واودري) لقد وقف كل منكما نفسه على صاحبه.

كما يفعل الشتاء بالنسبة للطقس البارد.
بينما نحن نغني، اطرحوا ما شئتم من الأسئلة،
علَّ العقل يهدأ من تعجبكم، شارحاً لقاءنا وهذه الخاتمة.

أغنية

ان الزفاف يملأ كل المدائن.
ليتمجد الزواج العظيم،
انه الرباط المقدس،
ليتمجد الزفاف إله كل المدائن.

الدوق المسن : ابنة أخي الحبيبة، أهلاً بكِ، انكِ بمثابة ابنتي الثانية.

فيبي (مخاطبة سيلفيوس) : لن أتراجع عن كلامي، من الآن وصاعداً أن لي. إن وفاءك استحق حبي لك.

(يدخل جاك دي بوا)

جاك دي بوا : أيها الحفل الكريم اسمحوا لي بكلمة ! أنا الولد الثاني للسيد رولان المسن؛ إني أحمل اليكم الأخبار التالية ! إن الدوق فريديريك، لما تيقن بأن العديد من الشخصيات المرموقة، تتوافد يومياً إلى هذه الغابة، أعد قوة عظيمة ومشى على رأسها ليفاجىء شقيقه هنا، ويقضي عليه. وما كاد أن يصل إلى حدود هذه الغابة المقفرة، حتى صادف راهباً مسناً؛ وبعد أن كلمه لبرهة وجيزة، عدل عن مشروعه، وزهد في العالم، تاركاً تاجه لشقيقه المنفي، ومعيداً جميع الأراضي المصادرة لأصحابها المنفيين معه.
الدوق المسن : أهلاً بك أيها الفتى — انك تقدم لإخوتك هدية جميلة بمناسبة زواجهم؛ انك تعيد للبعض أراضيه المصادرة، وللبعض الآخر مُلكاً واسعاً وإمارة قوية — ولكن لننهي أولاً ما كنا قد بدأناه — ومن ثم يكون لكل من هؤلاء المختارين الذين عانوا معنا طوال الأيام والليالي المشقات التي فرضت علينا، نصيبه من اليسر الذي أُعيد الينا، وذلك على قدر استحقاقه — وبانتظار ذلك، لنستسلم إلى أفراحنا الريفية ! لتعزف الموسيقى ! وأنتم أيها الأزواج، هيا ارقصوا وافرحوا.
جاك (مخاطباً جاك دي بوا) : عذراً سيدي — ان الدوق اعتنق الحياة الرهبانية وكفر بأمجاد القصر ؟
جاك دي بوا : نعم.
جاك : أريد أن أقيم معه؛ فبالقرب من هؤلاء المهتدين، يستطيع المرء أن يتعلم الكثير (مخاطباً الدوق المسن) اني أتركك لأمجادك القديمة التي استحقها صبرك وفضيلتك (مخاطباً أورلاندو) وأنت أتركك لحبك الذي استحقه لك ثباتك (مخاطباً اوليفير) وأنت أتركك لأملاكك، وحبك، وأنصارك الأقوياء (مخاطباً سيلفيوس) وأنت أتركك لزواج طالما جاهدت للحصول عليه (مخاطباً بيار دي توش) وأنت أتركك للمشاجرات الزوجية، لأن ما تملكه

يداك لن يكفيك خلال رحلة شهر العسل ــ استسلموا إلى ملذاتكم؛ أما أنا فسأغرق في ملذات أخرى.

الدوق : لا تغادرنا يا جاك، لا تغادرنا.

جاك : لم أخلق للقيام بأمور هي مضيعة للوقت... أوامرك، سأتلقاها في مغارتك المهجورة. (يخرج).

الدوق : سندشّن هذه الأعياد آملين أن تصل بنا الى خاتمة سعيدة.

(رقص)

نهاية

روزالند (مخاطبة المشاهدين) : أيتها النسوة أدعوكن إلى أن تصفقن في هذه المسرحية لكل ما يعجبكن؛ افعلن ذلك بحق الحب الذي تضمرنه للرجال ــ وأنتم أيها الرجال، بحق الحب الذي تكنه للنساء، أدعوكم الى أن تساهموا مع النساء في إنجاح هذه المسرحية... لو كنت امرأة لضميتُ من بينكم جميع أصحاب اللحى الجميلة، والطلعات الوسيمة، والأنفاس التي لا تحملني على الاشمئزاز منها، وإني على يقين أن جميع أصحاب اللحى الجميلة، والطلعات الوسيمة، والأنفاس الناعمة، يودّون بالمقابل إذ أحييهم أن يردوا التحية بالمثل مرددين من أعماق قلوبهم وداعاً.

(يخرج الجميع)

﴿ تمّت ﴾


Bibliotheca Alexandrina
0463861